

١٧١

الجزء الرابع

من

الجواهر

فى تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

(تأليف)

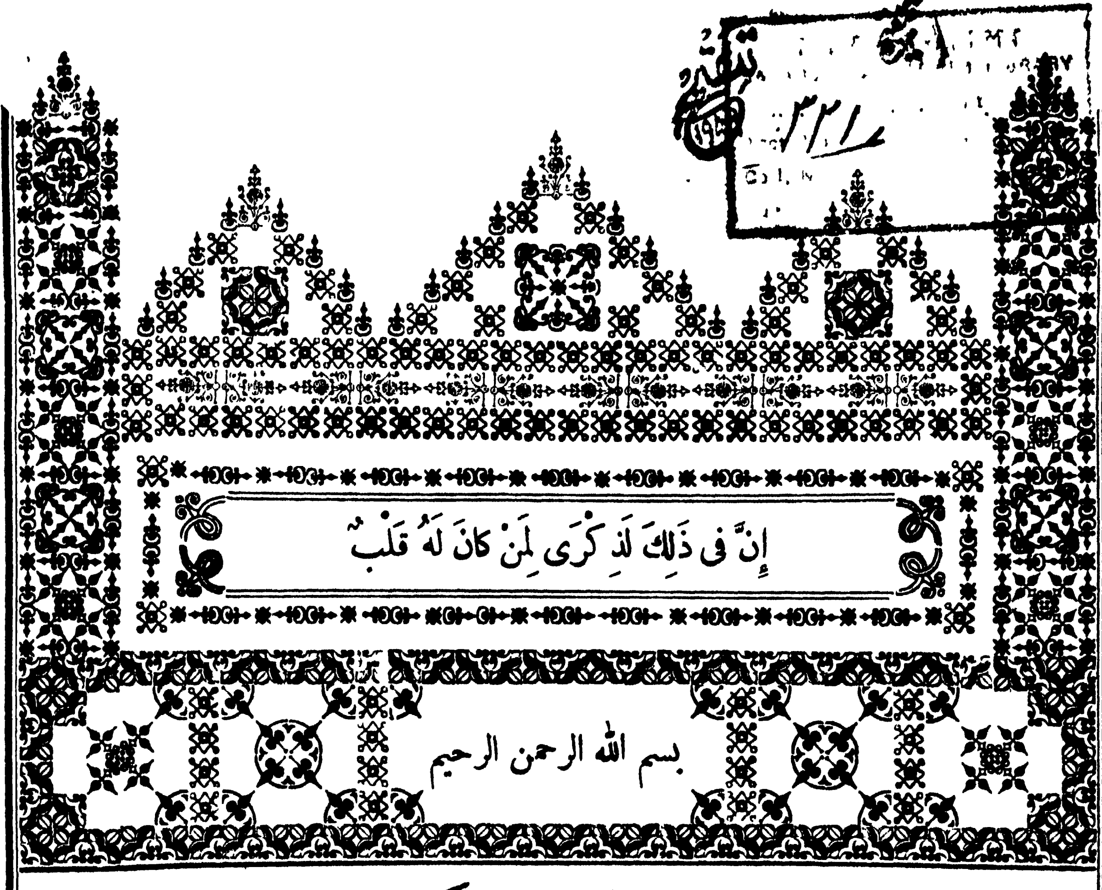
الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا متع الله المسلمين بحياته آمين

طبع بمطبعة

مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

محرم سنة ١٣٤٤ هـ



﴿ سورة الانعام هى مكية ﴾

﴿الاست آيات من قوله تعالى ـ قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم ـ الى آخر ثلاث آيات وقوله تعالى ـ وما قدروا الله حق قدره ـ الآية وقوله تعالى ـ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ـ الى آخر الآيتين ويقال انها نزلت جملة واحدة ليلا وكتبوها من ليلتهم غير الآيات الست المستثنيات ﴾

﴿ وهذه السورة ست مقاصد ﴾

المقصد الأول • فى اثبات الله بالعلوم الطبيعيه واثبات الرسالة ومحاورات شتى مع المعاندين من أول السورة الى قوله وهو الحكيم الخبير

المقصد الثانى • فى نظرات الخليل عليه الصلاة والسلام فى عوالم السموات وفى الأنبياء من ذريته ومايتبع ذلك من قوله ـ واذ قال ابراهيم ـ الى قوله تعالى ـ وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ـ

المقصد الثالث • العجائب الطبيعية العلوية والسفلية من قوله تعالى ـ ان الله فالق الحب والنوى ـ الى قوله ـ ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ـ

المقصد الرابع • بعض صفات الله ومحاجة الجاحدين والرد عليهم من قوله تعالى ـ وجعلوا لله شركاء الجن ـ الى قوله تعالى ـ لايفلح الظالمون ـ

المقصد الخامس • الحلال والحرام فى الأنعام من قوله ـ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ـ الى قوله ـ وهم بربهم يعدلون ـ

المقصد السادس • بعض المحرمات والعدل والهدى والتوبة المقبولة ومضاعفة الحسنات وأنواع من الفضائل وأضدادها من قوله تعالى ـ قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم ـ الى آخر السورة

المقصد الأوّل من هذه السورة قسمان • القسم الأوّل من أوّل السورة الى قوله تعالى ـ ويعلم ماتكسبون ـ • القسم الثانى من قوله تعالى ـ وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ـ الى قوله ـ وهو الحكيم الخبير ـ

(المَقصِدُ الأوَّلُ)

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ *

﴿ التفسير اللفظى لهذا القسم ﴾

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) تقدّم معنى الحمد فى سورة الفاتحة ويقول أهل المعانى لفظه خبر ومعناه الأمر أى احمدوا الله وصيغة الخبر هذه المتضمنة معنى الأمر أبلغ فى البيان من احمدوا ثم بين المحمود عليه فذكر خلقه للسموات والأرض وجعله للظلمات والنور والجعل بمعنى الخلق أى وخلق الظلمات والنور فالظلمات كظلمات الليل والكفر والجهل والنور نور الكواكب والشموس والعلم والايمان (ثم الذين كفروا) بعد هذا البيان وأن الله مستحق للحمد لهذه النعم العظيمة حمده الحامدون أم لم يحمدوه (بربهم يعدلون) أى يعدلون بالله غيره ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع اقرارهم بان الله خلق السموات والأرض والجملة عطف على جملة الحمد لله (هو الذى خلقكم من طين) أى ابتدأ خلق أبيكم آدم منه وهكذا أنتم ترجع أكثر المواد التى تتغذون بها الى عناصر مبثوثة من الطين ولا جرم أن خلق الانسان أشرف من خلق الطير المذكور فى السورة السابقة أنه نفخ فيه عيسى فصار طيرا باذن الله فخالق الانسان من الطين أحق بالعبادة ممن نفخ فى صورة الطير من الطين لنبى باذن ربه وهذا فيه تقريع للعقول الانسانية الصغيرة المقلدة التى تعبد المسيح جهالة وغفلة وقوله (ثم قضى أجلا) أى أجل الموت وقوله (وأجل مسمى عنده) أى أجل القيامة (ثم أنتم تمترون) أى تشكون أو تجادلون من المرية أو المراء (وهو الله فى السموات وفى الأرض) أى وهو المعبود فيهما (يعلم سركم وجهركم) الجملة خبر ثان والأوّل لفظ الجلالة (ويعلم ماتكسبون) من خير أوشر انتهى التفسير اللفظى لهذا القسم

اعلم أن هذا المقام يستدعى أن تتصل هذه السورة بماقبلها ولما أخذت أكتب حضر صاحبى الذى كان يسألنى فى آخر المائدة وقال ان هذه السورة لابد أوّلا من معرفة ربطها بماقبلها * وثانيا قد كنت أنت كتبت تفسيرا لأوّل هذه السورة وهو هذا القسم الذى نحن بصدده من أوّل السورة الى قوله تعالى ـ ويعلم ماتكسبون ـ فى مجلة الملاجئ العباسية وذكرت فيه عجائب النور المشتقة من الظلمات الدخانية والفحم وكيف يكون الدخان المزدرى بين الناس منبعا للكهرباء تشتق منه فأرجو اثباته هنا لانه يفيدنا عجائب من هذه الآية التى جمع الله فيها بين الظلمات والنور كما جمعهما فى أعمالنا المشاهدة * ثالثا لابد من معرفة سبب ترتيب هذه الأربعة وهى السموات والأرض والظلمات والنور . وهل للكشف الحديث أثر فى هذا الترتيب

واذا كنا نرى الائمة رضى الله عنهم فى سورة المائدة قد أطنبوا فى ترتيب أعضاء الوضوء حتى ان الشافعى أوجب الترتيب فيها غسلا لترتيبها فى القرآن ذكرا فمن الجهالة أن لايفكر علماء الاسلام فى هذا الزمان فى هذه المذكورات الأربعة ومعلوم أن العلم مقدّم على العمل واذا كانت عناية القدماء بالأعمال فلتكن عناية علماء المستقبل بالعلوم أى العلوم الطبيعية ويقولون لم ذكرت السموات فالأرض فالظلمة فالنور كما ذكر الوجه فاليدان فالرأس فالرجلان . ما السبب فى ذلك (فقلت) * أما مناسبة هذه السورة لما قبلها فذلك أمور * الأوّل أن المائدة قد كثر فيها ذكر مايحل من الطعام وما يحرم فى أوّل السورة وفى خلالها وفى آخرها وسورة الأنعام فيها ذلك كما سيأتى حتى انها سميت باسم الأنعام وهى داخلة فى باب الحلال والحرام *

الثانى أن السورة المتقدمة مختومة بقوله تعالى ـ لله ملك السموات والأرض ومافيهن ـ والأنعام مستفتحة بقوله ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ـ * الثالث ان سؤال الله لعيسى ابن مريم فى أواخر السورة تضمن توبيخ أهل الكتاب على طلب البراهين التى تكون من قبيل خوارق العادات كالمائدة التى تنزل من السماء وذكر أيضا أن عيسى كان يحيي الموتى وينفخ فى الطين فيكون طيرا باذن الله وكأنه قيل له اذا لم يكن طلب انزال المائدة من السماء من الأمور المحمودة وقد أنذر الله الحواريين لما طلبوها وذكرت هذه لما سأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خوارق للعادات منه وقيل لهم لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم فاذا لم يكن ذلك ممدوحا فما العمل لمعرفة الحقائق قال الله بعد ذلك . اقرؤا هذه الكائنات وأخذ يذكر الحمد على خلق السموات وخلق الأرض وجعل الظلمات والنور . وكأنه يقول اذا كنت أنعمت على المسيح أن يخلق طيرا من الطين وينفخ فيه فيكون طيرا باذنى فأنا خلقتكم أنتم من طين والتفكر فى الطبيعة أهم من التفكر فيما أنعمت به على عبد من عبادى وهو عيسى فكيف تتركون أيها الناس هذه السموات وهذه الأرض وهذه الظلمات وهذا النور ثم تقولون لأنبيائكم أرونا آيات وعجائب مثل طلبكم مائدة من عيسى ومثل أسئلتكم لمحمد ونحوذلك فيقول له الرجل من أبى ويلحف آخر فى السؤال . وكيف تغمضون عيونكم وتصمون آذانكم عن هذه المناظر العجيبة وتطلبون البرهان من المخلوق مع أن الخالق أراكم الآيات فأعرضتم عنها

أيها الناس ان العقول القاصرة والنفوس النائمة والأمم الكاسلة هى التى تذر الآيات الباهرات فى الطبيعة وتتلمس ماهو أقل منها بما لايتناهى من الأنبياء والأنبياء يشيرون الى الطبيعة وهم مرسلون من عند خالقها ليعرفوكم صنعه ويعلموكم قدره من فعله وبديع خلقه وكيف تكتفون بمائدة تنزل على عيسى أوطير من طين أمرته أن ينفخ فيه ومائدتى أوسع مساحة وأبهى نظاما وأجل احكاما وأرقى مأكلا وأنا من الطين خلقت آلافا من الطير والحيوان والانسان فمائدتى السموات والأرض لا أرغفة وسمكة وخل وزيتون بل فى هذه الأرض ماتشتهيه كل النفوس ومايملأ العيون بهجة والقلوب حكمة . ولست أقول لكم آمنوا فحسب بل أقول لكم قولوا ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ـ أى فلتحمدوا الله فضلا عن الاعتراف بقدرته والايمان بوجوده فان الايمان فى هذا المقام ليس يكفى ذكره بل نطلب منكم أن تحمدوا الله على النعم التى شملتكم والأنوار التى غمرتكم والجمال الذى غشاكم والفضل الذى عمكم

ولما كان هذا المقام عظيما ومبدأ سورة الأنعام فى مقام سام لأن هذه المسألة من أهم المسائل وهى مسألة المعجزات وخوارق العادات والعلوم الطبيعيات والانتقال من دور الأطفال الى دور الرجال وخلق أمة تكون أرقى من الأمم البائدة ناسب أن يؤتى هنا بالحمد لله

واعلم أنه لم يذكر فى القرآن من أوله الى هنا الحمد لله الا فى الفاتحة وفى هذا المقام أما الفاتحة فانها أول القرآن وبالحمد ابتدئت لأن الحمد شأنه عظيم وقد وضحت معناه هناك أيضاحا تاما ولم يعد الحمد بعده الاهنا ايقاظا للنفوس وتحريكا للهمم وترقية للنفوس وتنبيها لها أن تخرج من دور التقليد الى دور النظر ومن مقام الجهلاء الى مصاف العلماء ومن دركات الضعفاء الى درجات الأقوياء ومن صف العلماء الى مقام الحكماء فالحمد هنا لهذه الحكمة مذكور . ألاترى الى ماسيأتى فى هذه السورة من ذكر نظرات الخليل فى النجم والقمر والشمس . ألا ترى الى مابعد ذلك من ذكر فلق الحب والنوى واخراج الحيّ من الميت والميت من الحى وفلق الاصباح والاهتداء بالنجوم وانزال الماء من السماء واخراج الثمرات المتشابهات وغير المتشابهات . أفلا ترى أيها الذكى الفطن أن هذا هو بعينه الآيات البينات الطبيعية الالهية التى أشار اليها بقوله ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ـ فاذا كان الحمد فى الفاتحة على تربية العالمين فهو اجمالى ولما استأنس العاقل بذلك

أخذ هنا يفصل العالم فذكر السموات التي هي محل الاشراق ومنها اشتقت الأرضون ثم كانت تلك الأرضون تأخذ في الجمود شيأ فشيأ حتى تصير مظلمة ثم يكون الانسان من الطين و يأخذ في النور والعلم شيأ فشيأ حتى يصل الى مبدإ الجمال والبهاء وعالم النور والصفاء ثم تعرج روحه نيرة الى عالم النور ولاتزال ترقى من نور الى ماهو أنور منه - وأن الى ربك المنتهى - كما سيأتي ايضاحه في الجواب على السؤال الثالث . فالله هنا يقول هذه الآيات والنعم هي التي يجب أن تعقلوها ومتى عقلتموها عرفتم محمدا ثم الله لانه خلق السموات والارض هذا ماأردت ذكره في الجواب الأول

﴿ أما الجواب على السؤال الثاني وهو أن أذكر ما كتبه في مجلة الملاجئ العباسية في هذا المقام ﴾

فأقول قلت هناك بعد ايراد الآيات من قوله - الحمد لله الذي خلق السموات - الى قوله - ويعلم ما تكسبون - . يقول الله ان الله يستحق الحمد على نعمه الجسيمة وآلائه العظيمة ومنحه الكبيرة حمده الحامدون أم لم يحمدوا كفر به الناس أم عبدوه ثم عدد من صنوف نعمه أربع نعم خلق السموات والارض وانشاء الظلمات وانشاء النور فالسماء ذات الكواكب والشمس والقمر والظلمات كثيرة كظلمة الصخر والبحر والكهف والليل كما أن الضلال متنوع الصور متكثر الأشكال بخلاف الهداية فهي الصراط المستقيم والنور كله هاد للناس لاضلال فيه ولا غرور

وكأنه عز وجل يقول الله محمود على هذه العجائب البديعة أي مستحق الحمد لانه خلقها نعمة على العباد - ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . عن الحمد بل يكفرون بنعم الله عز وجل أو يسوون بربهم غيره كالاوثان - وكيف يسوون به غيره مما لا يقدر على شئ وهو الذي خلق هذه العجائب

(س) اذكر لي مثلين اثنين بحيث يكون المثل شاملا - لعجائب السموات والأرض - وبدائع الظلمات والنور

(ج) تصور أعظم قصر منيف لملك عظيم . مرقش السقوف مزين الجوانب والاركان - والحيطان والسقف بما لا يرى الا في خزائن الملوك وفيه سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وترى الطنافس (نحو السجاجيد) طويلة الوبر خالية الشعر خلابة النظر

وفي وسط ذلك القصر حجرة بهية جميلة مزخرفة معلق على بابها ثمان ستائر فاما السبعة الاولى فانها ذوات ألوان مختلفة فنها الاحمر ومنها الاصفر ومنها الازرق ومنها النيلي ومنها البرتقالي ومنها الاخضر ومنها البنفسجي فهذه الستائر السبع المختلفة الالوان فانها تتضام وتتداخل وتتحد وتصير ستارة واحدة ذات لون أبيض تسر الناظرين

واما الستارة الثامنة فهي سوداء . فيرجع عدد الستائر الى اثنتين بيضاء وسوداء

هذان الستاران يتعاقبان على تلك الحجرة التي في وسط القصر وفي داخلها رجال كثير ونساء

فاذا أسدل الستار الاسود ظهر ما في القصر من الحجرات والاركان ونقوش السقف والجواهر المرصعة في اكنافه فاتضح بالظلمات ما في القصر من الفرش المرفوعة والاكواب الموضوعة والجواهر المرصعة والدراري اللامعة واليواقيت البهجة

فاذا أسدل الستار الابيض حجب القصر ومافيه وحجب البياض عن سكان الحجرة كل جمال وبهاء ولم يروا الا النقوش المبدعة واختلاف الالوان في اشعار الطنافس المفروشة تحت الارجل من احمر قان وأخضر ناضر وازرق زاهر واصفر فاقع وابيض ناصع فالستار الابيض يحجب القصر عن سكان الحجرة ويضيء داخلها والستار الاسود يظلم داخلها ويضيء خارجها

(س) هذا التمثيل غير معقول وكيف يكون الظلام معطيا الابصار وكيف يكون الضياء حاجبا عن العيون بدائع القصر وغرائب النقش

(ج) أما القصر فهو العالم من السموات والارض وأما الساتر الاسود فهو الليل وأما الابيض المشكل من سبعة الالوان فهو ضوء النهار وأما منقش السقف ومزوق الجدران والحيطان فهى النجوم وأما الحجرة التى فيها السكان فهى الارض عليها نوع الانسان والليل اذا أرسل سدوله ونشر مطارفه السود فانه يحجب عنا ما اقلت الارض من الاشياء العجيبة والنقوش البديعة . ويرينا النجوم وضياءها من السيارات الصغيرة والثوابت الكبيرة والمنازل العالية والبروج المشيدة ومن ذا يرى النجمة القطبية أو بنات نعش أو الفرقدين الساهرين أو الثريا أو السماك الرامح الا اذا حجب الظلام زينة الارض عن الانام وطمس نقوشها فابرز جمال العالم فى سمائه وزينته وبهائه ولا جرم ان الارض المعبر عنها هنا بالحجرة أصغر من كل نجمة من نجوم السماء والنجوم لانهاية لعددها ولا احصاء لاجرامها فهذه الكواكب السماوية هى العالم كله ولسنا نراها الا فى الظلام فاما الضياء النهارى فانه يحجب عنا العالم كله . ولا يرينا الا ما تحت ارجلنا وهى الارض ونقوشها وزينتها من النبات والحيوان والانسان والبر والبحر والطير فقد وضح ان الظلمة أضوأ من النور وان النور حجاب الابصار . عن رؤية كل ثابت وسيار

(س) لقد فهمت ما وصفت ولكنى لم افهم كيف صارت الالوان السبعة لونا واحدا

(ج) ان ما تراه من الضوء المنبسط على الارض الذى ينبع من الشمس انما هو الالوان السبعة كما وصفنا فالضياء مركب من سبعة ألوان والظلمة واحد بسيط قال كيف تفسر القرآن وتقول بلا برهان قلت ألم تر الى قوس قزح الذى يظهر فى السماء حين المطر وتراه ذا سبعة ألوان يقابل الشمس أينما كانت فان كانت فى الأفق الشرقى قابلها فى الأفق الغربى وان تبدت فى الأفق الغربى بدا ظاهرا فى الأفق الشرقى فان ارتفعت ارتفع وان انحطت فهو بحذائها تابع لها . أليست تلك الألوان لون الشمس تحلل ألوانا وتظهر للناس عيانا

(س) فاضرب لى مثلا أقرب وائت ببرهان أوضح

(ج) ألم تر البلور المضلع الذى تراه فى النجفات المتقدات . ألم تر كيف حلل النور فى زواياه وصار الضياء الأبيض ألوانا وقد تراه فى قطرات الماء المنتثرات فى الرشاش ذلك بيان ما عنه سألت وايضاح ما له طلبت . ألا وان هذه لمحة من لمحات قوله تعالى ــ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ــ

(س) اضرب لى مثلا يمثل حالنا على الأرض وحال الكواكب الجارية

(ج) ان مثلنا على الغبراء كمثل سمك يجرى فى بحر لجى تجرى من فوقه السفن الجاريات فى البحر كالجبال فوق سطح الغبراء وما أجهل السمكات بالسفن الجاريات فهكذا حالنا مع الكواكب انهن ليجرين فى السماء ولا علم لنا بها الا كما يعلم السمك من حال المسافرين فى السفن الجاريات فى البحار

(س) كيف تعرف أن الألوان السبعة ترجع الى لون واحد ومن أى علم تقف على ذلك

(ج) على المسلمين فى أقطار الأرض أن يتعلموا العلوم الطبيعية عليهم أن يفهموا ماذرأ الله فى الأرض والسماء عليهم أن يفهموا الحيوان ويدرسوا النبات ويفقهوا ماذرأ الله لهم فى العالم من الجمال والبهجة والبهاء ألم تر كيف كان معنى الآية التى نحن بصددها . هكذا الله مستحق الحمد على النعم التى أنعمها على العباد من السموات والأرض والظلمات والنور ومع أنه مستحق للحمد والشكر ترى الذين كفروا بربهم الذى رباهم بهذه النعم يعدلون عن الحمد فيكفرون بنعمه ولا يشكرونه عليها وكيف يشكر المسلمون نعم ربهم اذا جهلوها فالشكر لا يكون على المجهول . ألا فلتعلم هذه العلوم فى مدارس الاسلام والا حقت علينا كلمة العذاب

(س) اذن تريد أن تقرأ كل علم مما يقرؤه الغربيون وكأن ديننا يطلبها كلها

(ج) نعم انى أقول بأعلى صوتى مادام المسلمون يجهلون هذه العلوم فانهم عن شكر الله غافلون ولذلك ضرب عليهم الذل خيامه وأوردهم الجهل موارد الهلكة وسلط عليهم جيرانهم فأحاطوا بهم من كل فج عميق

فمن نفر الناس عن هذه العلوم فانه ضال مضل جاهل حقود . هذا كلام الله وهذه شريعة نبيه وهذا حجة الاسلام الغزالى لما شرح باب الشكر فى الجزء الرابع من الاحياء ذكر السماء ونجومها والارض وجبالها والسحب وبرقها والرعد وصوته والبرق وضوءه وقال من عرف الله بهذه المخلوقات وتأمل هذه الكائنات ودرس هذه النظامات فهو الشكور ومثله القطب الشيرازى والفخر الرازى . فهل هؤلاء الاعلام ضالون وأضدادهم ممن يصدون عن هذه العلوم مهتدون . واذا كان القرآن ونصوص العلماء لاتقنع الجاهلين فهل الجاهلون هم المحقون اللهم ألهم أمة الاسلام وعلم طلاب الدين جمالك وجلالك وارحم محاسن صنعك حتى يقولوا ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار

(س) لقد قرر الامام البيضاوى فى هذه الآية تفسيرين فهل توضحهما وتأتى بمثل آخر عليهما

(ج) التفسيران اللذان ذكرهما الامام البيضاوى يرجعان الى تقدير الاعراب فان جعلنا التقديران نعطف الجملة الثانية على جملة الحمد كان المعنى هكذا الله المستحق الحامد على نعمه المذكورة ثم الذين كفروا بالله الذى رباهم بتلك النعم يعدلون عن حمده ولايشكرونه وان عطف على جملة خلق صار المعنى هكذا الحمد لله الذى خلق ماذكر ثم الذين كفروا يسوون بربهم الذى خلق ذلك غيره من الأوثان التى لاتخلق ويكون أوّل التفسيرين كقوله تعالى ـ ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون ـ وعلى التأويل الثانى كقوله ـ أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون ـ

(س) فقرب لى مثل نعمة الله التى نجهلها وكيف يكون الجهل مانعا من الشكر وكيف تكون العلوم التى يدرسها التلاميذ فى أوروبا شكر الله عز وجل فبين هذا بمثال محسوس مشاهد فى المنازل ودع السماء ونجومها والشمس وقمرها والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس فقد تكرر على أسماعنا وتوالى على عقولنا

(ج) هل تعرف الفحم الحجرى والفحم البلدى وهل شاهدت الدخان المتصاعد منهما المدنس للثياب المسوّد للفرش الذى يظلم المكان وتدمع منه العينان . أخير هو أم شر . فقال بل شر قلت ان ذلك الدخان المنبعث عن الفحم الحجرى نعمة من الله كبرى على العلماء ومصيبة على الجهلاء فان هذه الظلمة المغشية للمنازل المدنسة للثياب ذات الرائحة الكريهة والمنظر القبيح تعطى للناس نورا وتصبغ الثياب بأجمل الألوان وتولد الكهرباء وتدير الدولاب وتسوق القطار كما يسوقه البخار . وتسير السفن فى البحار وقطرات الترام فى شوارع الاسكندرية والقاهرة فتعجب كيف أبدع الله النور والظلمة وسوّاهما وأحكمهما بحيث اتخذ النور من الظلمة والحركة من السكون والجمال من القبح ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر المسلمين نائمون

(س) هذا خارج عن المعقول وكيف صار الدخان نورا أوضح لى هذا المثل

(ج) اعلم أن الله عز وجل أدهش العقول بعجائب حكمه وبدائع صنعه وجعل هذا الفحم الذى تراه فى بيوتنا على أربعة أنواع الحجرى والعظمى والنباتى والطبيعى المسمى فحم الجرافت . وهذه الأنواع الفحمية كلها من نوع الظلمات . وهناك فحم آخر يسمى فحم المعوجات وهو الذى يتخذ مما يتراكم من الدخان المستطير من الفحم الحجرى حين احتراقه المتصاعد الى أعلى فيتخذ ويحصر ويضغط عليه ويجعل أشكالا مستطيلات وهذه هى المسماة فحم المعوجات . فاذا أخذت قطعة من تلك وألبست من أعلاها بقطعة نحاس سميت العمود النحاسى فاذا وضع ذلك العمود النحاسى فى إناء من الفخار الذى كثرت مسامه ووضع ذلك فى بطارية ثم أتى بعمود من الزنك الذى يسميه علماء الكيميا بالخارصين ويسميه العامة بالتوتيا وهو الذى يتخذ منه الأدلاء (جمع دلو) التى يستقى بها المسماة (جرادل) فيحصل عندنا الآن العمود النحاسى وعمود التوتيا الموضوعان فى البطارية ثم يؤتى بملح النوشادر الذى يبيض به المبيضون ويذاب فى الماء ثم يوضع ذلك

الماء المذاب فيه ملح النوشادر فى البطارية فتحلل أجزاء من التوتيا ويحلل الماء كذلك الى أوكسجين وأودروجين ويحصل تفاعل مابين الفحم وما أحاط به من المركبات الجديدة فيتولد تيار كهربائى مابين الموجب وهو عمود النحاس أو فحم المعوجات وبين السالب وهو الزنك . فالخلاصة أن دخان الفحم الحجرى المضغوط الذى سمى فحم المعوجات اذا وضع فى بطارية وقرن بقطعة من الزنك وجىء معهما بماء مذاب فيه ملح النوشادر فان الله عز وجل يولد بين تلك الأشياء الآنفة كهرباء . فتعجب كيف كان دخان الفحم المظلم مشرق الأنوار ومولد الأضواء ومجرى العربات ومسير السفن والقطرات وسائق الترام وموقد البيوت وشارح الصدور وضارب أجراس المسرة (التلفون)

(س) مامعنى قولك كهرباء

(ج) انها مثل مايحصل للفلاح حين يعثر على سمك يسمى (أبا الرعاش) فهذا السمك يحدث حالة فى جسم الذى يصطاده فهذه كالكهرباء

(س) كيف يحدث الدخان ضوأ وهو ظلمة

(ج) ان الفحم الحجرى اذا أحرق بالنار فى إناء عظيم تطاير دخانا فيستقبلونه فى ماء كما يمر دخان مدخن الحشيشة فى ذلك الذى يسمونه (الجوزه) فاذا مر من ذلك الماء رسب فيه القطران ومر خالص الدخان الى ماء آخر ثم آخر حتى يصير دخانا صافيا تاما وماتخلف فى تلك المياه فانه يعطى أصباغا من أحمر وأصفر وغيرها حتى أوصلها بعض الألمانيين الى ألفى لون وأما الدخان الصافى فانه يمر فى الأنابيب متجها الى الشوارع والمنازل وتجعل له منافذ فى الأمكنة المراد إيقادها فمتى لمست بالنار اشتعلت وذلك المسمى (غاز الاستصباح) الذى نستضىء به فى شوارع القاهرة والاسكندرية وذلك غير ضوء الكهرباء التى شرحناها فانها تولد النار والضوء والحرارة والحركة

(س) عرفت فحم المعوجات والفحم الحجرى وكيف ولدت الكهرباء منهما وكيف كانا مصدرين للأضواء والألوان فما فائدة الفحم العظمى والنباتى والجرافت

(ج) الفحم العظمى هو المتخذ من العظام المحرقة ومن خواصه سلب ألوان السوائل المارة به حتى ان الخل الأحمر اذا تخلله سلب لونه . والفحم النباتى المتخذ من الأشجار يذهب بالعفونة وله منافع أخرى ليس كلامنا فيها فان الكلام فى تفسير قوله تعالى ـ وجعل الظلمات والنور ـ وهكذا ليس لنا أن نشرح فحم الجرافت الذى خلقه الله عز وجل فى الجبال كهيئة صفائح وجعله نافعا للكتابة وهو الذى يسمى بعد وضعه فى خشب الدردار (أقلام الرصاص) على أن الفحم العظمى والفحم النباتى يصلحان لما يصلح له الفحم الحجرى من إحداث الأضواء ولكنه هو المستعمل النافع . ومن عجب أن الماس من الفحم حتى ان العالم (دافى) ضغط على الكربون الخالص فصار ماسا وحلل الماس فرجع الى كربون . أليس من العجب أن يكون الفحم منبع الكهرباء والنور والحركة وأن يصير ماسا تحلى به الغانيات ويجعل ذخيرة فى الخزانات فما أجل العلم وما أعجب الحكمة . فمن ذا الذى يعلم هذا ولا يأخذه العجب كل مأخذ من الجهل الفاضح الذى حل بنا معشر المسلمين يقول الله عز وجل ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ـ يقول انه أهل للحمد على هذه النعم والذين كفروا يعدلون عن الحمد على أحد التفسيرين ونحن غافلون عن حكمه فى عجائب صنعه فاذا جهلنا نعمة الدخان فكيف نشكره تعالى عليه . اللهم علم أمتنا وألهمنا الحكمة اللهم إنى برىء ممن يصدون عن العلوم اللهم انى أعجب لهذه الأنوار الناجمة من تلك الظلمات . أتعجب كيف جعلت النور من الدخان . كيف أدرت الدولاب بالكهرباء الناجمة من الدخان وهو فحم المعوجات . أتعجب كيف خلقت الماس من الفحم . اللهم انك أعززت قوما بالعلم وأذللت قوما

بالجهل اللهم ألهمنا العلم والحكمة إنك أنت السميع العليم • فهذه جوهرة من جواهر بحور أنوار أسرار قوله تعالى ـ وجعل الظلمات والنور ـ وهبة من نسماتها ونفحة من نفحاتها وسرّ من أسرارها • اللهم ألهمنا العلم والحكمة وأذق أمتنا الاسلامية حلاوة العلم كما أذقتها مرارة الجهل وأنلها درجات العز كما نزلت لسوء طالعها فى دركات الجهل إنك سميع عليم

﴿ الآية الثانية والثالثة ﴾

(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون)

أثبت الله عزّ وجل فيما تقدّم وحدانيته بما أبان من خلق السموات والأرض وما أوقد من النور المنبلج وما أرخى على الكون من ستائر الظلمات فى جنح الظلام فأورد فى هذه الآية دلائل البعث بما صدع من الحق وما أزاح من الشك وأبان من السلطان والحجة والبرهان إذ يقول ـ هو الذى خلقكم من طين ـ فان أصلكم وهو آدم منه وأنتم يابنى آدم من التراب خلقتم • ألاترون الى أجسامكم كيف كانت من العناصر الأرضية مركبة وكيف لاوأنتم تغتذون بما أنبتت الأرض مما حلت على ظهرها من كل نابتة أنفذت عروقها فى بطنها فاخضرت واستوت على ساقها وازينت • النبات إنما ترعرع ونما بما سيق اليه من الهواء وما أوتى من الماء وأتيح من العناصر الأرضية وليس للحيوان الا النبات والمخلوقات العامة من الماء والهواء الخ فليس جسم الانسان غريبا عن هذا العالم فهو من ذلك كله ركب ونظم على أعجب نظام وأبدع اتقان • ومن ذا الذى يذكر عناصر الجسم الانسانى ونظامه وتركيبه ثم لايتعجب كيف ضم عنصرا الى عنصر وهواء الى ماء وفسفورا الى حديد ورملا الى جير فجمعهنّ عز وجل بمقدار وسوّاهنّ بحسبان ووزنهنّ بميزان • الانسان طين يمشى وجماد يتحرّك ومواتٌ يعقل • جسمك مركب مما تدوسه بقدمك وتأكله بفمك وتستنشقه بأنفك من الأرض والغذاء والهواء • أنت تعقل وتفكر وتصوّر العالم فى عقلك تزن الدنيا والآخرة بفطنتك وذكائك • ثم اذا حللت جسمك ألفيته مما تعافه الأنفس ولاتلذ به الأعين ففى العظم فسفور وجير وفى العين رمل مصنوع مع مواد أخرى تكوّن الجسم الزجاجى فيها كما يفعل الزجاجيون ولولا الحديد ماصلح الدم الحيوانى • لاينطق الرمل كلا ولا الجير ولا الحديد ولما اجتمعت وانتظمت هى وغيرها وتآلفت واتحدت أحدث الله فيها سرّه المصون وعلمه المكنون ونفخ الروح وأنزل العلم وقال إنى جاعل فى الأرض خليفة ومن ذا الذى جعل مقرّ الشهوة فى المعدة وماتحتها ثم أحل آثار الغضب فى القلب إذ يهتاج ساكنه ويغلى مرجله ويحمى وطيسه اذا ما أغضب الانسان وكيف جعل العقل مستقرا فى الدماغ • تراب وماء وهواء وعناصر شتى اتحدت معا فكان أعلاها للملك ودولته وأعوانه من سمع وبصر وذوق وشم فالعقل هو الملك الأعلى وله المكان الأعلى (وهى الرأس) فأما القلب فمستوى الغضب ومثار الدم ومصدره ومورده • ولقد تجلى للعلماء والحكماء فضل العقل على القوّة الغضبية وهى أعلى من قوّة الشهوة • فتعجب كيف كان الأعلى لأعلاها والأوسط لأوسطها فأما الأدنى فهو أجدر بالشهوات وتعاطى المادّيات المغذيات من المواد الأرضية فمستقرّها المعدة والأمعاء ثم كيف نظمت الأعضاء وكوّنت العضلات • أليس هذا كله من العجائب وكيف يكون طول كل انسان ثمانية أشبار بشبره واذا مدّ يديه الى أعلى كان طوله عشرة أشبار وتكون سرّته إذ ذاك فى وسطه بحيث انك لوقست من أسفل القدم الى السرّة ومنها الى أصابع يديك الممدودتين لكان كل جزء خمسة أشبار واذا مدّ يديه الى الجانبين على طول الباع كان طوله كعرضه وكل ثمانية أشبار • ذلك كله من الطين المركب • ذلك العجب فى صميم الانسان وجسم الانسان مركب من عناصر الأرض والماء والهواء والمعادن وهى لاتعقل ولا تحس ولاتبصر فلما اجتمعت نظمت بأبدع نظام وقسمت ورتبت وهندست

وجعلت بمقياس بحيث صار طول الوجه كطول القدم شبر وربع بشبر الانسان اذا اعتدلت خلقته واستقامت فى سائر ماتقدم ثم تحركت ونطقت وعقلت ودبرت النفس والمنزل والمدينة وربما أدارت ادارة الكرة الأرضية وهى كانت عناصر مبثوثة وأجزاء ملقاة فمن ذا الذى كوّنها ونظمها وهندسها وأنطقها وسوّاها وعلمها وألهمها فجورها وتقواها نعم هو الله فهذا كله داخل فى قوله تعالى ـ هو الذى خلقكم من طين ـ ومعنى قوله ـ ثم قضى أجلا ـ قدّر لكل امرئ وقتا يموت فيه ويطلق الأجل على مدّة الحياة مابين نفخ الروح والموت قوله وأجل مسمى عنده هو أجل القيامة أوالمدّة مابين الموت والبعث وعلى ذلك يصير المعنى هكذا استدلالا على البعث هو الذى جمع العناصر المفرّقة من الطين ومافى معناه فنظمها وهندسها فصوّركم منها ونفخ فيها الروح وقضى لكم أجلا تنتهون اليه وغاية تصلونها وهو الموت وارتضى لكم مدّة تعيشون فيها وهى مابين نفخ الروح فى الجسم وقبضها بالموت وعنده أجل آخر قضاه لكم وهو القيامة أوالمدّة التى مابين موتكم وقيام الساعة فاذا كان الله عز وجل قادرا على جمعكم من شتات العناصر المفرّقة والاجزاء المبدّدة وعلى ضرب أجل لبقائكم فكيف تمترون وتشكون فى البعث وقد شاهدتم أوّل الخالقين وأوّل الأجلين ومن قدر على ماسمعتم من المدهشات فى خلقكم وترتيب أبدانكم فهو أقدر على اعادتكم فالعطف بثم هنا استبعاد لامترائهم وشكهم من بعد أن علموا أنه خالقهم وخالق أصولهم ومنظمها ومحييهم الى آجالهم فان من قدر على خلق العناصر وترتيبها وتنظيمها وتصويرها ونفخ الروح فيها وابقائها الى مايشاء كان أقدر على جمع تلك المواد واحيائها ثانيا فظهر بهذا أن الآية السابقة توحيد واللاحقة استدلال على البعث . ولما كان الناس كثيرا مايخدعون أنفسهم فيقولون نعم آمنا بالله وباليوم الآخر ولكنا انما نفعل المعاصى بحيل نتنغيها نقلناها عن السابقين كأن نحتال على عدم الزكاة ببيع المال لولد أوقريب أو زوج قبل أن يحول الحول فيتجدد الزمن وتسقط الزكاة ويظن الفقيه أنه بذلك نجا من الاثم وتخلص من العقاب أو يأكل الرجل ويشرب فى رمضان فى كسر بيت يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون الا أنفسهم أو يصلى ساهيا قال الله بعد ذلك ـ وهو الله فى السموات وفى الارض ـ كأنه عز وجل فيهما لكمال علمه واحاطته بالكليات والجزئيات وقوله يعلم سرّكم وجهركم بيان وتقرير . يقول بعد أن قرر التوحيد والبعث ان الله أحاط بالسموات والأرض علما لاتخفى عليه فيهما خافية فكأنه فيهما فهو يعلم سرّكم وجهركم مايخفى ومايظهر من أعمال أنفسكم فانها من العالم ويعلم مكتسبكم من أعمال الجوارح والأعضاء فخافوا عقابه فهذه الآيات الثلاث منظمة هكذا أولاها توحيد والثانية للبعث والثالثة اثبات علم الله بما فى الآفاق والأنفس ليخاف الناس يوم الحساب ويستقيم أمر المعاش ليفوزوا يوم القيامة بالثواب وينجوا من العقاب

* تم الكلام على السؤال الثانى

الجواب على السؤال الثالث . وهو ما كشفه العلم فى ترتيب هذه الأربعة وهى السموات والأرض والظلمات والنور

﴿ عجائب القرآن فى العلوم الحديثة ﴾

وانه حرام على أهل العلم فى أقطار الاسلام أن يختموا على قلوب الشبان فلايلفتوهم لهذا الجمال لنبتدئ الآن فى شرح السؤال الثالث . الكلام على خلق السموات ولماذا قدّم . فقلت لصاحبى . اعلم أن ترتيب هذه الأربعة هو الذى جاء به العلم الطبيعى والفلكى وعلم طبقات الأرض . قال حدثنى كيف كان ذلك . قلت تصوّر انك فى مكان خال ليلا فى فضاء متسع وقد رأيت حولك ظلاما حالكا وهناك نجوم مبعثرات فى أقطار السموات . قال تصورت ذلك . قلت والنسمات تهب عليك وحفيف الاشجار وصرير الماء وأصوات الحشرات فى الحدائق الغناء والأحراش والزروع وليس فى المكان إلا أنت تسمع هذه النغمات المختلفات وقد صفت نفسك وانشرح صدرك ورأيت جمالا يحيط بك . قال تصوّرت ذلك . قلت وأنت تعلم أن النجوم الجميلات التى

أحاطت بك تبلغ مئات الملايين • قال نعم • قلت وكل واحدة منها غالبا أكبر من شمسنا بآلاف الآلاف ولكل كوكب من هذه الكواكب سيارات مثل أرضنا • قال نعم • قلت ان لم تكن قرأته فى المدارس فقدمر فى هذا التفسير قال قرأت هذا وذاك • قلت فهل تدرى أى شئ من هذه خلق أولا قال اعلم أن العالم كان أصله مادة لطيفة جدا لا تؤثر فيها المؤثرات فلا الحر ولا البرد يؤثران فيها وهذه هى المسماة بالاثير ثم هذا الاثير يكوّن منه ضوء وحرارة وحركة وكهرباء ومغناطيس وهذه المذكورات ينقلب بعضها الى بعض فالحرارة تكون حركة و بالعكس • قلت له لأفصل لك هذا المقام بعض التفصيل • فأقول ان الجرم يشاهد على ثلاثة أحوال إما أن يكون جامدا فتكون فيه الصلابة واللدونة والتبلور مثلا والأشكال المختلفة وإما أن يكون سائلا كالماء وهو يفقدها كلها فلا صلابة ولا لدونة ولا تبلور ولا شكلا ثابتا بل هو سائل لا لون له بل هو شفاف ولا كثافة بل هو لطيف وإما أن يكون (غازا) أى جسما دخانيا والماء اذا صار غازا بالبخر مثلا زاد تمددا وانبساطا فيزيد حجمه ١٧٠٠ مرة عن حاله وهو سائل وتصبح الأجسام الغازية كلها شفافة متحدة لا أثر فيها للصلابة ولا للدونة ولا للون ولا للشكل ولا لغيرها وتتبرأ من كل ما تتنوع به السوائل والجوامد ولا تختلف الغازات عن بعضها الا فى عوارض قليلة كالوزن و بعض أعراض أخرى

وقد أثبت العلامة كروكس حالا رابعة بتجارب خاصة تصير فيها المادة ألطف من الغازية فيسرع التهابها وتضىء ويكون بها شعاع كهربائى تقوم به أشعة رتنجن وتسمى الحالة المشعة وهى تبعد فى اللطافة عن الغازية أكثر من ابتعاد الغازية عن الحالة المائية • وهناك حال خامسة وهى الاثيرية أى ان تكون المادة أثيرا وهى لا تقبل الوزن وتكون منتشرة مالئة الكون بأسره و باختلاف اهتزازها تولد الحرارة الكهربائية والاشعة المرئية والتى لا ترى • وهناك حال سادسة لم يقل بها الاعلماء الارواح ان للروح جسما سيالا لا يفعل فيه أقسى الحر ولا أشد البرد وأى فعل فهذه الأحوال الست هى آخر ما وصل له العلم الحديث فى المادة فألطفها الشفاف الذى هو أقرب الى الارواح ثم الاثير ثم المشع ثم الغاز ثم السائل ثم الصلب • فترى الزرع والحيوان والاشكال الكثيرة فى حال الصلابة فيكون هناك الاختلاف أكثر ويكون الاختلاف فى الماء أقل فالاختلاف فى حال الغلظ وكلما صفا الجسم كان أقرب الى الوحدة فالوحدة فى اللطافة والكثرة فى الكثافة • وأصل هذه العوالم من مبتدا أمرها كانت لطيفة بالحالة الاثيرية وما يقرب منها ثم حصل تجاذب وتدافع فتكونت شموس كثيرة لما تقدم وتلك الشموس هى التى تراها • وهذه الشموس دارت مئات الملايين حول نفسها وهى فى حالها النورية الشفافية ثم أخذت تتقلص شيئا فشيئا وأخذ بعضها ينفصل عنها من عند خط الاستواء فيها بسبب سرعة الدوران فتكون السيارات كالأرض والمريخ والمشترى الخ فالارض اذن تكونت بعد الشمس • وعلى هذا تكون السموات وهى الاجرام الأثيريه والشموس التى تجرى فيها مخلوقة قبل الأرضين لأن الأرضين ماهى الا تلك الكرات المنفصلات بعد تكوّن الشموس التى خلقت من الأثير أوفيه فثبت بهذا ثبوتا علميا لايشك فيه أحد من أهل الأرض أن السموات خلقت قبل الأرض فهذا هو السبب فى ذكر الأرض بعد السموات • فقال ولماذا أفرد الأرض قلت له أذكرك بانى قلت لك اجلس فى أرض قفراء والسماء حولك فهل رأيت الا أرضا واحدة وهى التى أنت عليها أما الأرضون الأخرى فلم ترها قال نعم • قلت هو ذاك • قال حدثنى إذن عن الأرض وعن الظلمات وعن النور كما وعدت بالكلام على خلق الأرض • فقلت أما الأرض فانها لما انفصلت عن الشمس كانت حارة حرارة شديدة • قال إذن هى كالشمس • قلت كلا إن الشمس ربما كانت حرارتها تقدر بمئات الآلاف من الدرجات ونحن لا ندريها ولكن الأرض أمكننا معرفتها • قال وكيف ذلك • قلت بعلم طبقات الأرض قال حدثنى عنه وأوجز • قلت له ان وجه الأرض كانت حرارته إذ ذاك نحو ٣٣٠٠ ثلاثة آلاف وثلثمائة درجة من الحرارة • قال أنا أعرف معنى درجة الحرارة ولكن أرجو إيضاحها لمن لم يقرأ علم الطبيعة • قلت أنت تعلم أن

الماء يكون ثلجا قال نعم . قلت فاذا كان مقطرا فانه فى حال سيلانه تسمى درجته صفرا فاذا سلطنا عليه النار وغلا وفار فهذه تسمى مائة فالأحوال التى طرأت على الماء حتى أوصلته للغليان قسموها مائة درجة وجعلوا هذه الدرجات مقياسا . قال فهمت ولكن قل لى من أين جاء لنا أن الأرض كانت حرارتها ٢٣٠٠ درجة عند انفصالها من الشمس ومن أين جاء لنا أن الشمس كانت أكثر منها حرارة . قلت لأن قشرة الأرض تبلغ مائة كيلومتر عند علماء طبقات الأرض وكل ثلاثين مترا تنزلها فى باطن الأرض ترتفع الحرارة درجة ففى عمق ٣٠٠ متر عشر درجات وفى عمق ثلاثة آلاف مترمائة درجة وفيها يغلى الماء فاذا ضعفنا هذا المقدار ٣٣ مرة وثلث بأن تعمقنا الى مائة كيلومتر صار عندنا نحو ٣٣٣٣ درجة أى تكون درجة الحرارة بعد قشرة الأرض مقدار مايغلى الماء نحو ٣٣ مرة وثلث أى حرارتها أعلى ٣٣ مرة وثلث من حرارة غليان الماء وهذه الحرارة أقل من حرارة الشمس لأن الأرض لم تنفصل الا لأنها كانت بالنسبة للشمس قشرة ظاهرة فانفصلت فهى أبرد منها والشموس التى نراها يذوب فيها كل شئ فتكون العناصر فيها إما معدومة وإما قليلة فان النجوم البيضاء التى هى أشد حرارة من الشمس لاتحوى من العناصر الا الاودروجين والفصفور ولم تظهر عناصر أخرى فيها أما الشمس فلما كانت أقدم عهدا كانت عناصرها كثيرة لتولدها وطول عمرها والحديد فيها بحسب ماظهر من أنوار الطيف عنصر مركب من عناصر مجهولة عندنا لكونه هناك أكثر حرارة فاتضح أمره فيها أما فى الأرض فهو معتبر بسيطا . قال ثم ماذا حصل لما انفصلت الأرض . قلت إن الأرض كانت كروية تدور حول الشمس وأخذت حرارتها تتناقص بالنسبة لصغر حجمها . قال حسن ثم ماذا . قلت أخذت الأرض تبرد وتربى لها قشرة فى ملايين السنين فتكونت ٢٦ طبقة كل طبقة مميزة عن الأخرى وهذه الطبقات فى ستة عصور تقدم ذكرها وهى . العصر الأصلى والانتقالى والثانوى والثالث والطوفانى واللاحق للطوفانى وهو الحالى . فالقشرة الأولى حجر صوانى شديد الصلابة . والقشرة الثانية فى العصر الثانى كان فيها طبقات راسبة وبعض الحيوانات والحشائش . وفى الثالثة ظهرت الأشجار . وفى الرابعة ارتفعت الجبال الشوامخ وارتفع مافى جوف الأرض من الاصداف وظهرت الطيور والحيوانات البرية . وفى الخامسة حصل طوفان عام وبرد القطبان فجأة وكانا حارين كخط الاستواء . والسادسة هى التى نحن فيها الآن

فلما كان العصر الأول أيام الطبقة الصوانية كانت جميع المعادن من الذهب والفضة والنحاس والقصدير تكون جوا حول الأرض وتمطر سحبا كما يمطر السحاب الآن . فقال ولماذا قلت له لان البلاتين يصهر على ١٧٧٥ من الحرارة والذهب يحتاج الى ١٠٧٥ والنحاس الى ١٠٥٤ والفضة الى ٩٥٤ والالمنيم الى ٦٢٥ والخارصين الى ٤١٥ والرصاص الى ٣٢٦ والقصدير الى ٢١٠ والكبريت الى ١١٤ر٥ والفسفور الى ٤٤ر٢ وهكذا والماء الى صفر

﴿ السحب التى كانت تمطر ذهبا وفضة وبقية المعادن ﴾

فأنت ترى أن حرارة الأرض فى الأزمان الغابرة لما كانت مرتفعة بحيث تبلغ نحو نصف ماذكرناه بأن كانت ألفا وخمسمائة أو ألفى درجة فى العصور السابقة أو أكثر من ذلك كانت المعادن فى تلك الأيام وقبلها تزجى سحابا ثم تؤلف بينه ثم تجعله ركاما ثم تنزل فى خلجان فى باطن الأرض وهى تجرى على اليابسة فكان هناك أنهار من ذهب ومن فضة ونحاس وقصدير وخارصين وأمثالها . وأول ماجمد من المعادن التى ذكرناها البلاتين فالذهب فالنحاس فالفضة فالالمنيم فالخارصين فالرصاص فالقصدير فالكبريت فالفسفور . وبينما كنت ترى الخارصين أصبح جامدا اذا بالكبريت لايزال بخارا فى الجو والفسفور كذلك فان الخارصين يعوزه حرارة أشد من الكبريت والكبريت يعوزه حرارة أشد من الفسفور وهكذا على هذا الترتيب

فهذه الأمطار التى صارت أنهرا من المعادن لاتزال باقية للآن لأنها جمدت بالبرودة ومرت عليها أجيال فى

تلك الطبقات الصخرية ثم حصلت زلازل وعوامل هامة فارتفع ما كان باطنا ووصل الى أعلى بتلك العوامل ورفع ما كان فيه من المعادن وذلك هو الجبال التى نراها اليوم فان الأرض قسرفعتها كما ترتفع أسنان الطفل فى فمه . فقال صاحبي مامعنى كما ترتفع أسنان الطفل . فقلت لأن الجبال لما كانت صلبة وفيها منافع اقتضت الحكمة أن ترتفع الى أعلى لا أن تبقى فى أسفل الطبقات وأسنان الطفل كانت موادّ فى الجسم فاجتمعت وتجمدت وظهرت فى الفم فنفعت فى هضم الطعام هكذا جبال الأرض فيها ذهب للمنافع وللزينة وحديد ونحاس وقصدير الى آخره وهذه الآن تفعل فعل الأسنان فهى زينة وطاحنة للأحجار كالحديد ومهلكة للحيوان وللانسان فالحيوان يذبح بالحديد وكذا الانسان يموت بالمدافع وهكذا . فالجبال أسنان الأرض والعظام التى فى أفواهنا خلقت لمنافعنا . ألست بهذا تفهم قوله تعالى ـ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ـ وهذا كقوله ـ أنزل من السماء ماء ـ فكلاهما إنزال وكلاهما من السماء وهذا مطر وهذا مطر وهذا نهر وهذا نهر وهذا ثلج وهذا معدن ظهر فى جبالنا . فاذا استخرج الناس المعادن اليوم من الأرض فتلك أمطار أنزلها الله فى قديم الأزمان لتبقى لنا مخزونة الى وقتنا الحاضر . ان المسلمين لغافلون إن المسلمين لنائمون إن المسلمين لايقرؤن ولكنهم سيقرؤن بعد انتشار هذا الكتاب وأمثاله وقد ظهرت بوادره بانتشاره فى الأقطار كما ألهمت من المبدع الحكيم بل كما بشرت بعموم ارتقاء المسلمين فى المستقبل القريب

﴿ قشرة الكرة الأرضية والكرة النارية فيها ﴾

قد قلنا ان قشرة الأرض طبقات ٢٦ ولها عصور ستة وانها مائة كيلومتر ونقول ان قطر الأرض نحو ١٣ ألف كيلومتر فيكون نصف القطر فوق سبعة آلاف كيلو وهذا المقدار أكبر من القشرة المذكورة نحو سبعين مرة والقطر كله أكبر من القشرة ١٤٠ مرة فليس ذلك كقشرة التفاحة والبيضة والبطيخة فقشرة الأرض قشرة تفاحة وقشرة بيضة والأرض الحقيقية هى النار

﴿ الأراضى التى خلقها الله كلها كأرضنا ﴾

ولقد علمت أن هناك شموسا تعدّ بمئات الملايين وكل شمس حولها أرضون و بعبارة أخرى حولها سيارات كسيارات شمسنا ومن السيارات ما أصبح له قشرة كقشرة أرضنا ومنها مالايزال دخانا ونارا منتشرة جدّا . ولقد قال علماء العصر الحاضر ان أقلّ ما يكون حول كل شمس من الشموس المعروفة من الأرضين لايقلّ عن ثلاث فاذا تصوّرنا ذلك وقلنا ان بقية السيارات حولهنّ لايزال متقدا فاننا على الأقل نتصوّر أن هناك ثلثمائة مليون أرض باعتبار أن الشموس مائة مليون والتحقيق انها مئات ملايين كما تقدّم فى هذا التفسير فلنقف فى العد للارضين عند ثلاثمائة مليون ولنقل ان فيها سكانا لانه ليس يعقل أن تكون خالية ويكون لها قشرة كقشرة أرضنا وهذه القشرة قد تكون رقيقة وقد تكون سميكة فاذا كانت رقيقة كأرضنا أيام ان كانت حرارتها مرتفعة فان اضطرابها وغليانها يمنع سعادة سكانها و يقلل راحتهم واذا كانت سميكة كانوا أقرب الى الراحة والطمأنينة والسعادة

هل كشف العلم عالم جهنم ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وللقرآن . أفلا نقول ان الأرض التى تعدّ بالمئات كلها نار وان سكانها اذا كانوا على حال فيه نيران تلظى يكونون أشقياء واذا كانوا فى حال أصلح يكونون سعداء وان الشقاوة والسعادة نسبية وان العوالم التى تكون نورية جميلة غير هذه الأرضين مشرقة حقيقة تكون هى الجنة وتلك التى امتلأت نارا هى جهنم . أوليس هذا عينه ماتقدّم فى سورة آل عمران أن النار فى الأرض كما نقل عن سيدنا على وغيره وقد ذكرنا هناك أننا لا نقول ان هذه نفس النار ولكن تشبهها وعلى المسلمين الجدّ فى البحث فالعلم يعوزه الجد

قد عرفت فيما تقدّم أن حرارة الشمس لايعرف منتهى درجاتها وعرفت درجات حرارة الأرض وان

البرودة هي التي بها الثلج والمعادن كلها. وأقول الآن ان أقصى درجات البرودة ٢٧٣ تحت الصفر فالبرودة هذه درجاتها والحرارة لامنتهى لدرجاتها فالحرارة والبرودة بالمدّ والجزر فيهما نرى شموسا وأرضين ومعادن وأنهارا وجنات وأعنابا وانسانا وحيوانا هذا أوّل العالم وهذا آخره . وقد تبين لك أن العوالم كلما كانت أقرب الى الجمود كانت ممتازة متفرقة متناقضة وكلما كانت أقرب الى البساطة كانت أقرب الى الوحدة وان قشرة الأرض هي المظلمة فطبقاتها مظلمات وأصل هذه الطبقات أيضا نور فأصل كل شئ النور أو النار بل أصل كل شئ هو هذه الوحدة الصرفة التي لاتنعدم . وكلما كان الجسم ألطف وأقل تركيبا كان أدوم بقاء وكلما كان أكثر تركيبا كان أقلّ بقاء . ولقد قال العلامة بلغورستيوار إن جسم الانسان والحيوان والنبات أشبه بالبارود السريع الانفجار الذي يلتهب لأقل احتكاك فالعوامل الحيوية تحلل التركيب الكيماوي دائما فيه والدم يصلح ماتلف من الأجسام بفعله المستمر أما التركيب المعدني فان حياته تطول الى أمد طويل جدّا . ألاترى أن قطعة من الكربون تتركب بسهولة مع الاكسوجين فيصدر عنها حامض الكربونيك واذا أردت أن نفرق هذين العنصرين احتجنا الى ١٢٠٠ ألف ومائتي درجة من الحرارة أي مقدار مايغلي الماء مضاعفا ١٢ مرة فأما العناصر البسيطة فليس هناك حرارة في أرضنا تفرقها والمادّة الأصلية التي منها العناصر لايمكن تحليلها . ولعلك بهذا فهمت قوله ـ وجعل الظلمات ـ فهو أوّلا خلق السموات أي خلق هذا العالم المضيء المشرق ثم جعل الظلمات والجعل فيه معنى التحويل فكأنه يقول حوّل النور الى ظلمات والظلمات هي الطبقات المتقدّمة وهي حقيقة ظلمات بعضها فوق بعض فأما النور فهو في أصله واحد فجمع الظلمات جاء من هذا القبيل فهذا سرّ قوله ـ جعل الظلمات والنور ـ

﴿ ارتقاء الأرواح في عالم النور وسرّ قوله تعالى ـ الله نور السموات والأرض ـ وكيف كان الانسان يسعى ليخرج من الظلمات الى النور وكيف أظهر الكشف الحديث هذا كله ﴾

أفلا ترى أن هذا سرّ قوله تعالى ـ الله نور السموات والأرض ـ فانه ظهر لك أن العالم كله نور في نور ولاظلمة الاقشور الأراضي التي تعدّ بمئات الملايين وان هذه الظلمات طارئة وانها لابدّ راجعة لحالها الأولى ويقال في الكشف الحديث الروحي ان الأرض مغموسة مغمورة في ذلك الأثير العام المالئ لسائر الفضاء وان الأرواح لها غلاف كما تقدّم لطيف ألطف من الأثير وان هذا الغلاف بما اعتراه من أدران المادة التي في الأرضين كأرضنا هذه يجب على الروح أن تسعى لتنقى من تلك الادران لترتقي في العوالم الجميلة وتخرج من ظلماتها وكأن المادة نجستها فهي تتخلص منها لترجع لصفاتها الروحي وحالتها الجميلة . ولقد تقدّم لك فيما ذكرته في جواب سؤالك الثاني أن الدخان تنتج منه نور وكهرباء وذلك بالتفاعل مابين فحم المعوجات والنحاس والزنك والسوائل المحيطات بها فجاء نور عظيم من ظلام دامس هذا ماذكرته هناك وأقول هنا إن قوله تعالى ـ هو الذي خلقكم من طين ـ فتح لهذا الباب وكأنه يقول كما جعلت من الظلمات نارا في الكهرباء المضيئة المشرقة هكذا جعلت في أجسامكم المظلمة عملية وتحليلا وتركيبا يخرج منه نور لاترونه أوترونه كما أن الكهرباء فيها نور ترونه ونور لاترونه فاذا قال الله هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا في الدنيا لهذا الجسم وأجل مسمى عنده بعد الموت فمعناه أنه يصفيه من هذا الظلام ليجعله خالصا كما قال في آية أخرى ـ وأن الى ربك المنتهى ـ فالله نور وهو المنوّر للشموس والعوالم ثم جعل الظلام وخلقنا فيه لنجدّ حتى نرجع الى النور كرّة أخرى بحال أجمل وأبهى

وكما أن السمك لايقدر أن يعيش في البر والحيوان البري لايعيش في البحر وعالم الطير لايعيش في التراب وعالم التراب لايعيش في الهواء ولا في الماء وذلك لطبعه وغريزته . هكذا نحن في الدنيا يألف كل منا ما كان على شاكلته صلاحا وفسادا وهكذا بعد موتنا نكون في عوالم على مقتضى جبلتنا فاذا كان الانسان متعلقا بالعوالم المظلمة لم يجد له قوّة يدخل بها عالم النور واذا دخل عالم نور قليل لم يقدر أن يدخل ماهو أضوأ وأنور

بل

بل لا يقدر أن يصل اليه ولا يستطيع ذلك كما لا يستطيع فى الدنيا أن يطير فى الجو وكما لا يستطيع السمك أن يعيش فى البر إنما هنا يموت السمك فى البر . فأما هناك فلن تموت الروح بل تجد جاذبية تجذبها لمركزها كما يجذب الحجر الى أسفل فاذن عالم الآخرة مبنى على الاستعداد لا غير وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم * انك مع من أحببت واذن يكون الانسان من الآن عالما بموضعه فى العوالم المقبلة * فقال صاحبى هل لك أن تذكر شيأ من العلم الحديث فى هذا ثم تتبعه بما قاله القدماء حتى نعتقد ما تقول

قلت أما فى الحديث فاسمع

﴿ الانسان مضىء وهو فى هذا الجسد ﴾

لقد جاء فى صحيفة الماتان الفرنسية سنة ١٩٢٤ ونقلتها الجرائد المصرية فى شهر مارس من السنة المذكورة أن معهد العلوم الروحية فى باريس منذ شهر يواصل العمل مع التكتم الشديد فى تجارب مع الوسيط الايطالى المشهور (ايرتو) وقد شهد هذه التجارب الدكتور (جيلى) وقد قال الدكتور (ستيفان نشوفيه) وهو من المعاونين المخلصين للدكتور جيلى . إن هذا عجائب خارقة للعادة فان من الوسطاء المنوّمين بفتح الواو من يشع النور منهم شعاعا ظاهرا ولكن الوسيط الايطالى (ايرتو) ظهرت منه أنوار أجلى فقد جرّد السنيور (ايرتو) من ملابسه تجريدا تاما وفحصت جميع تجاويفه الطبيعية فحصا دقيقا وبعد ذلك ألبس غلالة من النسيج صنعت له وهى ضيقة جدّا بحيث تلتصق بجلده فلما نوّم تنويما مغناطيسيا ظهرت منه أنوار ما كان ليصدّقها العقل فكانت تنبعث منه كرات نورية فى كل مكان من الحجرة غير متصلة بشئ بتاتا فى سماء تلك الحجرة فلم يكن هناك قوس ضوئى منير بينها و بين الوسيط وتارة ينبعث شرر كل شرارة أربعة أمتار وطورا يرى برق مختلف الابعاد وأحيانا ضوء عظيم ينتشر بين الوسيط والجدار والضوء غالبا يكون أحمر أو أخضر أو فيه بعض غلس قليل وهذه الأضواء لا يمكن افتعالها بالكهرباء ولا بموادّ مضيئة وهذه بشهادة أشهر علماء الطبيعة فقد بحث السنيور (ايرتو) فحصا دقيقا بأشعة (اكس) فى نهاية جلسة عقدت يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٢٤ فلم يعثر على أىّ أثر غير عادى فى جسمه و بهذا تأيد نهائيا وجود ظاهرات منيرة كفيلة بأن تثير انقلابا تاما فى جميع معلوماتنا الفزيولوجية (وظائف الأعضاء) والبيولوجية (علم الحياة) وفى نظرياتنا فى المادّة والقوّة (وقد حدث انقلاب من هاتين المادّتين الأخيرتين منذ بضع سنوات) ومن الممكن أن تؤدى دراسة هذه الظاهرات فى أيام قليلة الى كشف الضوء البارد اه

فانظر كيف كشف الناس نورا فى الروح الانسانية بالتنويم المغناطيسى كما أن الأجسام تضىء بالكهرباء و بغيرها ولكن هذا سرّ جديد ليس مما عرف قديما الا على سبيل السماع من الأنبياء والقديسين وقد امتلأت به كتب الديانات من أن الصالحين لهم إشراق ونور جسمى وضياء مشرق يظهر على وجوههم أحيانا فكأنهم بجهادهم أخذوا يخرجون من الظلمات الى النور كقوله تعالى ــ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ــ فأنفسنا مضيئة ووضعت فى الأجسام المظلمات لتجاهد وترجع الى النور مرّة أخرى فهى باستمرارها فى الترقى فى الأنوار تصل الى الله قال الله تعالى ــ وأن الى ربك المنتهى ــ وقال ــ نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم بشراكم اليوم ــ فاذن مآل الانسان النور والجمال . ولا تظنّ أنى أعتبر النور الظاهرى المذكور المقدّمة فليس النور الذى شهده أهل باريس فى السنيور (ايرتو) هو المقصود من النور فى القرآن وانما هو مقدّمة له ومعنى هذا ان النفس الانسانية كافرة أو مؤمنة أو مشركة مستعدّة للاشراق بالنور متى جاءت أسبابه بشرط الايمان فأما النور الظاهرى فممكن بالتنويم المغناطيسى وأما الباطنى فلا يمكن الا بإجتهاد الانسان وهذا هو الذى أذكره من القرآن ومن كلام المتقدّمين

﴿ ارتقاء الانسان بعد الموت فى درجات الكمال الى أن يكون مع الملائكة النوريين من نفس القرآن ﴾

قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى ـ والنازعات غرقا ـ . ماملخصه

الوجه الثالث في تفسير هذه الكلمات الخمس (والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا)

يقول الله تعالى أقسم بالأرواح التي تنزع من الجسم نزعا شديدا فمعنى غرقا نزعا شديدا ومعلوم أن نزع الروح من الجسم يحتاج الى شدة حتى تخلص الروح ومتى نزعت نشطت للخروج من الجسم فهي الناشطات نشطا بسهولة ومتى خرجت الروح وكانت قوية لا تتعلق بالعالم المادي وقل اتصالها به واشتاقت الى عالم أعلى من هذا وهي تريد أن تتخلص من عالم الأجساد فانها تذهب الى عالم الملائكة ومنازل القدس أسرع ما يكون فعبر عن ذهابها على هذه الحال بالسباحة فقال والسابحات سبحا . ثم قال بالحرف الواحد إن مراتب الأرواح في النفرة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوي مختلفة فكلما كانت أتم في هذه الأحوال كان سيرها الى هناك أسبق وكلما كانت أضعف كان سيرها الى هناك أثقل ولاشك ان الأرواح السابقة الى هذه الأحوال أشرف فلا جرم وقع القسم بها ثم ان هذه الأرواح الشريفة العالية لايبعد أن يظهر منها آثار في أحوال هذا العالم فهي المدبرات أمرا . ثم قال

أليس ان الانسان قديرى أستاذه في المنام ويسأله عن مشكله فيرشده اليها . أليس ان الابن قديرى أباه في المنام فيهديه الى كنز مدفون . أليس جالينوس قال كنت مريضا فعجزت عن علاج نفسي فرأيت في المنام واحدا أرشدني الى كيفية العلاج . أليس ان الغزالي قال إن الأرواح الشريفة اذا فارقت أبدانها ثم اتفق انسان مشابه للانسان الأول في الروح والبدن فانه لايبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة وهذه المعاني وان لم تكن منقولة عن المفسرين الا ان اللفظ محتمل جدا انتهى كلام الرازي

فصار معنى الآية . ان الله يقول أقسم بالنفوس الشريفة التي تنزع من أجسامها ناشطة الى مقرها سابقة لفرحها بالعالم الجديد الجميل مدبرة للعوالم كما تدبر الملائكة لقربها من جلالنا وعظمتنا وهذا الذي قرره الرازي هو بعينه مانقل في العلم الحديث عند محادثة الأرواح في الجمعيات النفسية

﴿ مراتب الأرواح في العلم الحديث ﴾

قالوا لا تستطيع الأرواح ذات الأميال البهيمية الانتقال الى مركز أعلى الا اذا سعت في تغيير أخلاقها بتجردها من الأميال البهيمية واصلاح مابها من الرذائل والشوائب وتطهرها من الأوزار فبهذه تتدرج شيأ فشيأ الى المراكز العلوية كما يتدرج رويدا رويدا . انظر من عاش كثيرا في الظلام الدامس الى ضوء النهار ثم الى نور الشمس . قالوا أيضا وكلما اكتسب الروح رقيا في عالم انتقلت الى ماهو أعلى منه وليست الأجسام بغليظة الا في العوالم السفلية ثم بعد ذلك تكون ألطف وأقل مادة شيأ فشيأ حتى تشابه الجسم الروحاني في لطافتها وهي في كل عالم من العوالم التي تحل فيها تعطى قوة لترتقي بها الى ماهو أعلى ولايزال كذلك حتى يصبح من عداد الملائكة الذين يديرون حركات العوالم اهـ

هذا ماجاء في علم الأرواح وهو في مجموعة أشبه بما جاء في الرازي وهي ان آخر درجات الأرواح أن تكون من المدبرات أمرا ولا يكون هذا لرقي الا بكمال الفضائل والعلوم والبصر والعزيمة ويؤيد هذا قوله تعالى ـ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ـ فجعل الروح والملك في صف واحد وهذا ظاهر من أن الأرواح تكون مدبرات أمرا

وأما ماقاله الفخر الرازي من العلاج بالرؤى فهذا كثير ومعلوم ان الرؤى فيها الغث والسمين وأكثرها

كاذب ولكن قد يصح بعضها

﴿ رؤيا مؤلف هذا الكتاب ورؤياه للنبي صلى الله عليه وسلم ﴾

أقول أنا نفسي وأنا مجاور بالجامع الأزهر لما توجهت الى بلاد الريف مرضت بعيني أياما كثيرة رأيت كأني واقف بعد الفجر في هواء طلق وقائل يقول لي إني فتحت عيني في الهواء الذي مثل هذا فشفيت فأصبحت وفعلت كذلك يومين أوثلاثا فشفيت وكان الوقوف في ذلك الوقت بحيث لا يكون هناك غبار ورأيت رؤى كثيرة مثل ذلك لا محل لذكرها الآن . وأصل تأليفي لهذا التفسير من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم مرارا فلقد رأيته وأنا لا أزال تلميذا بالأزهر وقد كنت نائما في منزلنا بكفر عوض الله حجازي والمرحوم والدي نائم بجانبي وكأني في المكتب الذي كنت أتعلم فيه ببلدة تسمى الغار بجوارنا وكأن النبي صلى الله عليه وسلم جالس وأنا واقف أمامه وكأنه أخذ يعلمني تفسير القرآن فأسمعني كلاما ثم قلت زدني فزادني وأنا أقول في نفسي إن هذا هو النبي فيلزم الأدب أمامه هذا هو النبي ثم خرجت من عنده وقابلت والدي في المنام أيضا وأنا خارج من المكتب فقال أين كنت قلت كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال وماذا فعلت قلت علمني التفسير وسأكون كالصحابة أقول على القليل من الآيات معاني كثيرة فاستيقظت حالا وأيقظت والدي وأخبرته فسر وقال خيرا ان شاء الله . وأنا أقول هذه أول رؤيا رأيتها لأجل القرآن والعلوم . ولقد تركت ماهو أجل منها وأشرف وأوضح وأنور وأجلى حتى تكون فرصة أخرى أذكرها وسأقص إذ ذاك ما أخبرني به رب العرش جل جلاله في المنام وكيف أخبرني بان العالم الاسلامي سيرقى وكانه يشير الى أن الرقي بنمو هذه العلوم التي تقرؤها في هذا التفسير ونحوها ولولا هذه المنبهات ماسطرت حرفا واحدا ولكن ذكرت هذه الرؤى الآن لمناسبة كلام الرازي ولانه قد تحقق أن تفسير القرآن على النمط الذي فسر به المنام في نفس المنام وأني أقول ولا أخشى لومة لائم

﴿ بشرى المسلمين ﴾

أقول ولا أخشى لومة لائم إنني يامعاشر المسلمين بشرت من الحق سبحانه وتعالى بارتقاء الاسلام وأن ما أكتبه لكم الآن سيكون من المبادئ التي يرتقي بها المسلمون . أقول هذا بعد ماشاهدت بنفسي مصداق تلك الرؤيا الالهية التي ربما أذكرها ولم أقل هذا الا بعد ما أيقنت أن المسلمين في أقطار الأرض قد أقبلوا على هذا التفسير فعلمت أن الله يريد ذلك وأن تلك الرؤيا التي كنت أراها وأنا تلميذ تارة و بعد ذلك أخرى لم تكن أضغاث أحلام بل تحققت فعلا بالاقبال على هذا التفسير الذي أمرني به النبي صلى الله عليه وسلم مرارا وأنا لست ممن يصدقون الأحلام أو يخدعون بالأوهام ولكني ذكرتها لعلاقتها بارتقاء الأمة وارتقاء الأرواح فليبشر المسلمون فقد آن لهم النجاح ولابد لهم من الفلاح والعلوم قد فتحت لهم أبوابها وسيردون على زمن السعادة والهناء ولتعلمن نبأه قريبا و بعد حين

﴿ عجائب القرآن التي ظهرت في هذا المقام ملخص ماتقدم ﴾

(١) جمع الظلمات . لأجل أن طبقات الأرض ٢٦ وعصورها ست

(٢) إفراد النور . لأن أصل العالم مادة واحدة نورية كما اتضح حديثا

(٣) تقديم السموات . لأن عالم السموات أقدم من الأرضين التي أرضنا واحدة منها لأنها مشتقات من الشموس المقدمة عليها

(٤) كون جهنم في الأرض . لأن جميع الأرضين التي تعد بالملايين أومئات الملايين كرات نارية فمنها حديثة العهد فهي مضطربة ومنها قديمة العهد فهي ثابتة

(٥) ورد مايدل على أن نار الدنيا أقل من نار جهنم نحو ٧٠ مرة

وهذا هو الذى جاء فى العلم الحديث لأن النار فى جوف الأرض وقد بردت مرارا فاذا كانت تحت القشرة الأرضية ٣٣٣٣ درجة فهذه الدرجات تعادل مايغلى الماء ٣٣ مرة تقريبا وكل واحدة منها اذا انقسمت الى قسمين صارت ٧٠ تقريبا فتصبح نار جهنم أقوى من نارنا نحو ٧٠ مرة ومعلوم أن الحرارة الجوية اذا كانت مساوية لجسم الانسان لم تؤذه فان ارتفعت الى ٥٠ أحس بالحرارة فيقول هذه نار وهذه بتكرارها وتضاعفها تبلغ حول السبعين تقريبا وليس المقام للتحديد وانما هو للتقريب

(٦) يقول الله ـ نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم ـ فقد ظهر أن جسم الانسان فى الدنيا فيه نور ويسعى للارتقاء فى النور كما فى الرازى وكما فى علم الأرواح

(٧) تقديم الظلمات على النور . لأن الانسان يخلق فى ظلمات الأرض ثم يرتقى

(٨) نزول الحديد وجميع المعادن من السماء أيام أن كانت الأرض تكوّن الطبقة الصلبة

(٩) الجبال التى على الأرض التى برزت فى العصر الرابع المسمى بالثانى لولاها لمالت الأرض بالزلازل لأن هذه الجبال نابتة من الطبقة الصوّانية التى حول النار وهذه الطبقة الصوّانية حافظة للكرة النارية التى نحن عليها ومن هذه الطبقة الصوّانية برزت الجبال الى الطبقة السادسة وسماها رواسى لأنها ترسو على الطبقة الصوّانية وتثبت عليها ومنها نبتت ولم يظهر من الطبقة الصوّانية الا هذه الجبال والطبقة الصوّانية هى التى حفظت الأرض من طغيان النار على ظاهرها فتضطرب . فافهم وتعجب واعلم أنه كما خلقت الجبال من الطبقة الصوّانية خلق الفحم من الطبقة الثانية المسماة انتقالية ثم ارتفع بعد ذلك بالعوامل الطبيعية وفيها المعادن التى كانت تمطرها سحب الذهب والحديد والقصدير الخ وهذا قوله تعالى ـ أن تميد بكم ـ

(١٠) ـ ثم استوى الى السماء وهى دخان ـ وقد علمت أن الحالة الدخانية هى الحالة العامة للمادّة كما تقدم

(١١) ـ قالتا أتينا طائعين ـ فالسموات والأرض جرتا فى الدوائر طائعة أى بالتجاذب العام لا مكرهة كما يجرى الحجر الى أعلى بالحركة القسرية انتهى الكلام على العجائب

﴿ اعتراض على المؤلف وجوابه ﴾

فقال صاحبى لقد أعجبنى ماقلت ولكن هناك مايهدمه من أساسه ويقوضه . فقلت وماهو ذاك . قال قوله تعالى ـ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان ـ وقوله تعالى ـ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ـ . قلت هذا برهان لى ومؤيد لقولى . قال وكيف ذلك . قلت لانه يقول ـ ثم استوى الى السماء ـ فاذن السماء موجودة قبل خلق الأرض وغاية الأمر أنه عمد اليها واستوى وهو دائما عامد لها ومستو ليقول لها وللأرض أطيعا إطاعة تامة أى يجريهما جريا بالجاذبية . وفى الثانية يقول ـ ثم استوى الى السماء فسوّاهن ـ فاذن السماء كانت موجودة ثم عمد لها كما هو عامد لها دائما وذلك ليسوّيها فهو دائما يسوّى أى ينظم السماء وهو دائما يديرها . فأما خلقها فقد تقدّم والا فكيف يقصد اليها فافهم

﴿ تفصيل الكلام على قوله تعالى ـ وجعل الظلمات والنور ـ بذكر سلسلة المخلوقات الأرضية من ابتداء كون كرة الأرض نارية الى أن يصل الخلق الى أعلى علاه ﴾

(١) عصر الطبقة الصوّانية التى تكاملت فوق الكرة النارية الأرضية بعد انفصالها من الشمس وفيها خلقت المعادن ويقدّرون مدّتها بنحو ٣٠٠ مليون سنة كما قال العلامة ليل

(٢) عصر الطبقة الثانية الانتقالية . ظهرت فيها الحشائش والحيوانات البحرية والسمك والغابات

العظيمة

العظيمة المتلاصقة المتكاثرة فكان منها الفحم الحجرى

(٣) العصر الثانوى وفيه كوّنت الطبقة الثالثة . كانت حيواناته أرقى وكانت تماسيحه تتجاوز عشرين وثلاثين ذراعا

(٤) العصر الثالثى فيه تكوّنت الطبقة الرابعة . ارتجت الأرض بعنف وزلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها فظهرت الجبال الشوامخ والطبقات الصدفية وبعض أماكن من الطبقات الصوّانية الأولى . ظهرت كالبرز أسنان الصبى ولذلك نجد المعادن فى جبالنا وهى إنما تكوّنت هناك من أمطار الذهب والحديد الخ وفى هذا العصر ظهرت الوحوش البرية الهائلة كالفيل والكركدن والماموث الخ

(٥) العصر الطوفانى . فى هذا العصر حصلت نكبة فى الأرض قلبت كل شئ حتى ان القطبين كانا بلادا حارة فانقلبا فجأة أرضا مكسوّة بالثلج وترى الفيلة الآن لاتزال مطمورة لمافاجأها الزلزال فدفنت وهى الى الآن باقية قدعثر عليها الكاشفون وكأنها كانت خط استواء فانقلبت حالا قطبين

(٦) العصر الحالى وفيه زاد الهواء نقاوة وقدعثر الناس فى هذا العصر على عظام عديدة من الوحوش والكواسر عاشت قبل حصول تلك الفاجعة فوجدوها مطمورة فى المغاور فى أعالى الجبال فهلكت هناك جوعا أوافترس بعضها بعضا أوخنقا فى وسط المياه المتدفقة عليها ونسبوا ذلك كله الى زمان العصر الطوفانى . وليس هذا هو الطوفان الذى جاء فى الكتب السماوية لأنه قبل مئات الملايين من السنين ولكن طوفان الكتب السماوية فى هذا العصر كان يمتد من البحر الأسود الى الاوقيانوس الشمالى وان بحر الخزر والاوندون والبحيرات العديدة المالحة فى التتر وروسيا إنما هى من بقايا بحر عظيم كان هناك فلما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم عظيم من المياه الى الاوقيانوس الشمالى وقسم آخر الى الاوقيانوس الهندى فغرقت بلاد مابين النهرين وجميع البلاد التى يسكنها أسلاف العبرانيين

﴿جدول الحياة على الأرض﴾

(٧) أوّلها مادّة هلامية تسمى (بروتو بلاسما) فى قعر البحار وهى مادّة رخوة لزجة تتشكل بسائر الأشكال وباجتماع مقادير منها تكوّن مايسمونه فى الاصطلاح (الخلية) وباجتماع الخلايا تكوّن الأعضاء وتفرع هذه الخلايا يكون بالتكاثر وهذا التكاثر يكون منظما بطريق الانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ وهكذا الى مالانهاية له وهذا به يكون النموّ مع النظام فى الأعضاء طولا وعرضا

(٨) باجتماع هذه الخلايا ظهر النبات فى البحر والبر فأوّلا كان النبات

(٩) نباتا حيوانيا كأنواع الذوفيت فهى حيوانات على شكل النبات وكأنواع الاخطبوط وهى هلامية الجسم ولاتمتاز عن النبات الا باحكام التنقل وفيها معدة وبعض ظواهر الأعصاب وليس لها نظر ولاشم ولاسمع

(١٠) الدود هو أكمل أعضاء وأشدّ نشاطا وأكمل من الاخطبوط

(١١) الحلزون وذوات الأصداف التى ليس لها فقرات

(١٢) سرطان البحر

(١٣) عقرب البرّ له سمع وبصر وحركة غذاء ودورة الدم

(١٤) ذوات الفقرات كالسمك له نخاع شوكى

(١٥) الدبابات الأرضية

(١٦) الطيور وهى تبيض

(١٧) حيوان باستراليا الآن له كيس يحمل فيه صغاره ودماغه بسيط جدّا

(١٨) ثم ذوات الأربع الباقية وأعلاها القرد فالانسان

(١٩) جنين الانسان فى بطن أمه يكون أوّلا خلية بسيطة كالتى فى البحر
(٢٠) ثم دودة (٢١) فحلزونه (٢٢) فسمكه (٢٣) فذبابة (٢٤) فقردا
(٢٥) و يتوارى ذنبه بعد ذلك فى بطن أمه
(٢٦) ومنه متوحشون (٢٧) وعقلاء (٢٨) وعلماء (٢٩) وأنبياء
(٣٠) ثم ينتقلون فى العوالم النورية طبقا عن طبق — وان الى ربك المنتهى —

هذه السلسلة ذكرتها لتكون مطلعا فى كلمات قليلة على النظام واشتقاق الحياة من الجماد وانها سلسلة واحدة أى انها منظمة بحيث لاتترك درجة الاخلق فيها نوع • وليس معنى ذلك أن كل نوع خلق مما قبله كلا بل هو النظام السائد • فانظر كيف كانت طبقات الأرض فى عصورها الست وكيف تولد النبات والحيوان وكانت هذه السلاسل منتظمة • ألا ترى سرّ قوله تعالى — وجعلنا من الماء كل شئ حى — • أفلست ترى أن حياة الخلية ابتدئت فى البحر وعلماء العصر الحاضر يقولون ان كل حيوان أصله من البحر • أولست ترى هذا سرّ قوله تعالى — أأنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها — فقوله والأرض بعد ذلك دحاها هو عين ماجاء فى العلم الحديث إن طبقات الأرض بعد السموات وانفصال الأرض من الشمس وقوله أخرج منها ماءها ومرعاها إشارة للعصر الثانى وقوله والجبال أرساها إشارة للعصور التى تلته فان بروز الجبال الى أعلى لم يكن الابعد العصر الثانى كما تقدّم • أليس القرآن اليوم أصبح يفسر فعلا بالعلم الحديث تفسيرا لفظيا • واذا كان قوله تعالى هنا الحمد لله الذى خلق السموات يدل على أن خلق السموات قبل الأرض بطريق الاشارة كما قدمنا ففى هذه الآية صارت الاشارة فيها عبارة والكناية صريحا والقوّة فعلا فجلّ العلم

وأيضا هذه السلسلة التى ظهرت فى الحيوانات وفى الجنين فى بطن الأم هى التى يشير لها قوله تعالى — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت — وقوله تعالى — وكل شئ عنده بمقدار — فهو لايخلق الأعلى الا بعد خلق الأدنى فلم يخلق الحيوان الابعد النبات ولم يخلق الانسان الا بعد الحيوان ولم يخلق الجنين الانسانى فى بطن أمه الابعد مايمرّ على الطبقات الدنيئة لان الطفرة محال فلا بدّ أن يمرّ على حال الأحياء فى أوّل أمرها وهى فى البحر ثم ينتقل الى أعلى وأعلى كما قال تعالى — خلق الانسان من نطفة — وقال — من ماء مهين — ولقد أطلت فى هذا المقام فى أوّل سورة آل عمران وذكرت هذه الطبقات واعلم أن مانكتبه هنا وهناك ليس يمرّ على سائر الطبقات بل فيه الاكتفاء بالبعض تقريبا للأذهان • فأما السلسلة التى هنا فليست كلها واحدة • ألا ترى أن أوّل نبات بحرى وحيوان بحرى لم يكن بعد العصور الستة الأرضية بل ابتدئت الحياة فى العصر الانتقالى الذى كان فيه الفحم الحجرى ولكن ذكرناها مسلسلة لتسهيل النظر على القارئ فتأمل فى عجائب العلم والحكمة

فأنت ترى أن الأرض ظلمات والحيوان خلق فى ظلماتها والانسان كذلك • والعلم والعقل والدين أنارت الأبصار فيرجعون للنور كرّة أخرى فهذا قوله — وجعل الظلمات والنور — • أقول الحمد لله على التوفيق لهذا المقال • انتهى تفسير الآيات من قوله — الحمد لله الذى خلق السموات والأرض — الى قوله — و يعلم ماتكسبون —

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ * وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلّٰهِ ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّٰهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّٰهِ كَذِباً ، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللّٰهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ *

أُنظُرْ كَيفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنهُمْ ما كَانُوا يَفتَرُونَ * وَمِنهُمْ مَنْ يَستَمِعُ إِلَيْكَ
وَجَعَلْنا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفقَهُوهُ وَفِى آذانِهِمْ وَقراً ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِها
حَتى إِذَا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنهَوْنَ عَنهُ
وَيَنأَوْنَ عَنهُ وَإِنْ يُهلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَما يَشعُرُونَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا
يالَيتَنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدا لَهُمْ ما كَانُوا يُخفُونَ
مِنْ قَبلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِمَا نُهُوا عَنهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ * وَقالُوا إِنْ هِىَ إِلاَّ حَياتُنا الدُّنيا وَما
نَحْنُ بِمَبعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هٰذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلَى وَرَبِّنا قالَ
فَذُوقُوا الْعَذابَ بِمَا كُنتُمْ تَكفُرُونَ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللّٰهِ حَتَّى إِذَا جاءَتْهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا ياحَسرَتَنا عَلَى مافَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحمِلُونَ أَوزارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ ساءَ
مايَزِرُونَ * وَما الحَياةُ الدُّنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعقِلُونَ *
قَدْ نَعلَمُ إِنَّهُ لَيَحزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللّٰهِ
يَجحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصرُنا
وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللّٰهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرسَلِينَ * وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعراضُهُمْ
فَإِنِ استَطَعتَ أَنْ تَبتَغِيَ نَفَقاً فِى الْأَرضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللّٰهُ
لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهِلِينَ * إِنَّمَا يَستَجِيبُ الَّذِينَ يَسمَعُونَ وَالْمَوْتَى
يَبعَثُهُمُ اللّٰهُ ثُمَّ إِلَيهِ يُرجَعُونَ * وَقالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّٰهَ قادِرٌ عَلَى أَنْ
يُنَزِّلَ آيَةً وَلٰكِنَّ أَكثَرَهُمْ لاَيَعلَمُونَ * وَما مِنْ دابَّةٍ فِى الْأَرضِ وَلاَ طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيهِ
إِلاَّ أُمَمٌ أَمثالُكُمْ مافَرَّطْنا فِى الْكِتابِ مِنْ شَىْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُماتِ مَنْ يَشَإِ اللّٰهُ يُضلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجعَلْهُ عَلَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ *
قُلْ أَرَأَيتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللّٰهِ أَوْ أَتَتكُمُ السَّاعَةُ أَغَيرَ اللّٰهِ تَدعُونَ إِنْ كُنتُمْ صادِقِينَ
بَلْ إِيَّاهُ تَدعُونَ فَيَكشِفُ ماتَدعُونَ إِلَيهِ إِنْ شاءَ وَتَنسَوْنَ ماتُشرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرسَلْنا إِلَى
أُمَمٍ مِنْ قَبلِكَ فَأَخَذناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا

وَلَـٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ
فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ *
فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ
وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ
الظَّالِمُونَ * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * قُلْ لَا أَقُولُ
لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ
إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ * وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا
إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ
شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ
الْمُجْرِمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ
ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ
بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ
لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ
وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا
رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ
ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *

﴿ التفسير اللفظى لهذا القسم ﴾

(وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) من الأولى زائدة ومن الثانية للبيان والاعراض ترك النظر (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) وهو القرآن (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) أى يظهر لهم ما كانوا به يستهزؤن عند نزول العذاب بهم فى الدنيا كانهزامهم فى الحرب وكظهور الاسلام وفى الآخرة بعذاب جهنم (ألم يروا كم أهلكنامن قبلهم من قرن) القرن الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن وليس له عدد معلوم . فاذا جعل مائة أو أكثر أو أقل فذلك ليس حاصرا له ولا المعنى قاصرا عليه (مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم) جعلنا لهم فيها مكانا وأعطيناهم من القوى وسعة الرزق والتصرف فى الأرض مالم

نعطكم (وأرسلنا السماء) المطر (عليهم مدرارا) مغزارا (وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) فعاشوا فى الخصب والريف بين الأنهار (وأنشأنا) وأحدثنا (من بعدهم قرنا آخرين ولونزلنا عليك كتابا فى قرطاس) مكتوبا فى ورق (فلمسوه بأيديهم) فمسوه بالأيدى (لقال الذين كفروا)منهم(إن هذا الاسحرمبين) تعنتا وعنادا (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) هلا أنزل عليه ملك يكلمنا انه نبى (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) وهذه سنة الله فى الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به (ثم لاينظرون) لايمهلون (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون) أى ولوجعلنا قرينا لك ملكا يعاينونه لمثلناه رجلا فان القوة البشرية لم تتأهل لرؤية الملائكة فى الصور الأصلية ويراهم الأنبياء بقوة أخرى قدسية ولوجعلناه رجلا لخلطنا عليهم مايخلطون على أنفسهم فيقولون ماهذا الابشرمثلكم . وسيأتى إيضاح هذا من العلم الحديث بعد تمام التفسير اللفظى لهذا المقصد . فهو يقول ان المانع من إرسال الملك أمران * الأول ان الملك إنما ينزل بالعذاب لمن يقترحون الآيات * والثانى ان الملك لن يراه الناس بصورته الأصلية فاذن يكون رجلا واذن يختلط الأمر عليكم فتقولون هذا رجل ونحن نريد ملكا . ثم أخذ يسلى النبى ﷺ بذكر الأنبياء السابقين وأممهم فقال (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق) أحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أى وبال استهزائهم . ثم أخذ يذكرهم بالأمم السالفة ويأمرهم بالسير فى الأرض ليروا الأمم الهالكة بالتكذيب فقال (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) سيروا فى الأرض على سبيل السفر تارة وعلى سبيل الفكر والاعتبار تارة أخرى بحيث يكون النظر العقلى تابعا للسير الجسمى . فانظروا كيف أهلك الله الأمم بعذاب الاستئصال لما كذبت (قل لمن مافى السموات والأرض) خلقا وملكا وهو سؤال تبكيت (قل لله) وهو المتعين للجواب (كتب على نفسه الرحمة) التزمها تفضلا واحسانا منه والرحمة فى الدارين (ليجمعنكم الى يوم القيامة) اللام للقسم والجملة بدل من الجملة قبلها بدل بعض لان جمع الناس يوم القيامة بعد موتهم من الرحمة (لاريب فيه) لاشك فيه (الذين خسروا أنفسهم) بتضييع الفطرة الانسانية وهى رأس مالهم والذين مبتدأ خبره (فهم لايؤمنون) وقوله (وله ماسكن) عطف على لله أى لله مافى السموات والأرض وماسكن بالليل والنهار من السكنى أومن السكون أى ماسكن فيها أوتحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر . وعلى الأول يكون بمعنى ما اشتملا عليه (وهو السميع) لكل مسموع (العليم) بكل معلوم وههنا فصول

الفصل الأول فى الرد على دعوى الكفار للنبى ﷺ أن يتخذ وليا أى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا من معبودات العرب قال واذا كان الله له مافى السموات ومافى الأرض المتحرك والساكن فكيف أتخذ وليا غيره وهذا قوله تعالى (قل أغير الله أتخذ وليا) انكار لاتخاذ غير الله (فاطر السموات والأرض) مبدعهما * قال ابن عباس رضى الله عنهما ماعرفت معنى الفاطر حتى أتانى إعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها . ولما كان أمر الطعام به بقاء الأجسام خصه بعد التعميم فقال (وهو يطعم) يرزق الحيوان والانسان (ولايطعم) لانه ليس من جنس المخلوقات. ثم ارتقى الى ماهو أخص وأبدع وهو الاختصاص فى العلم والحكمة والنفع العام فقال (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) أول من انقاد لله وأخلص له من أمتى فكيف إذن أتخذ وليا غيره أأتخذ غير المبدع المطعم وهو لايطعم الذى خصنى بالحكمة والعلم وهداية الناس وفى هذه معنى أقرب الى الأخلاق الالهية كما فى الحديث تخلقوا بأخلاق الله ولذلك قال (ولا تكونن من المشركين) لما لك من ذلك الاختصاص الرفيع والعلم العظيم ولو أنك بعد هذه المعرفة أشركت لعظم عذابك لأن من يعلم ليس كمن لايعلم والعالم عذابه أكثر من الجاهل والغنى القادر والقوى الجسم يعذبان على إهمال النفع برما للناس وهذا مايشير اليه قوله (قل إنى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فكيف تطمعون بعد هذا كله ان أعبد غيره اطاعة لدعوتكم. ثم وصف العذاب بقوله (من يصرف عنه

يومئذ) أى يوم القيامة (فقد رحمه) بأن أنجاه من العذاب (وذلك) أى صرف العذاب وحصول الرحمة (الفوز المبين) ولما كان فى العادة أن المرء يخاف من قوىّ قادر وهذا القوىّ قد يكون له نظراء فهو ان عصاه فر بما صرف العذاب عنه غيره من القادرين بجاههم أوشفاعتهم وان أطاعه وأنعم عليه فر بما منع هذا الانعام غيره من القادرين فقال كلا (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الاهو وان يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير) فهو الجالب للخير الدافع للضرّ فاتخذه وليا لك ونصيرا. ثم ختم تلك الصفات الالهية بأعمها وأشملها فقال (وهو القاهر فوق عباده) القاهر لهم وهم المقهورون وهذه صفة عامة دخل فيها النفع والضرّ وايصال الخير والشرّ ولما كان القاهر قد يكون ظالما باطشا جبارا عنيدا يفعل مالا تقتضيه الحكمة قال (وهو الحكيم) فى تدبيره (الخبير) بشؤون عباده . واذا كان الله هو القاهر فوق عباده فهو الحكم بينى و بينكم (قل أىّ شئ أكبر شهادة) يقال ان أهل مكة قالوا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر (قل الله) أكبر شهادة وهذا جواب الاستفهام فلا علماء اليهود ولا النصارى ثم ابتدأ فقال هو (شهيد بينى و بينكم) وهو الذى يخص من يشاء بما شاء ويكون هذا التخصيص آية بينة وشهادة ناطقة أبلغ من شهادة اللسان الانسانى الذى قد يعتاد الحكم الكاذب والقول المخطئ فاذا أعطى الله الأم قوّة الارضاع والعالم قوّة الافصاح والجاهل المتواضع حبّ الاستماع فتلك الفطر الظاهرة فى هؤلاء شهادات من المبدع الحكيم أنهم يقومون بما خلقوا له واذا خلقت العين للنظر والأذن للسمع والعقل للفكر فهى أيضا شهادات ناطقة أنها أهل لما خلقت له من سمع و بصر وفكر فهكذا شهد الله لى بالرسالة بان أنزل علىّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة ومن بلغه من الأسود والأحمر وهذا قوله تعالى (وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) واذا ثبت لكم أن هذه شهادة من الله لى أن أنذركم أيها الموجودون ومن بلغهم بعدكم فلأ بلغ رسالتى بعد أن رفضت دعوتكم لى بالشرك وتخاصمتم من إثمها وأقمت الحجة على عدم قبولها فأقول لكم هل أنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى فهذا قوله (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) وهو استفهام تقريرى مع الانكار والاستبعاد (قل لا أشهد) بما تشهدون (قل إنما هو إله واحد) أى بل أشهد أنه إله واحد (وإننى برىء مما تشركون) يعنى الأصنام وبهذا تمّ الكلام على شهادة الله له . ثم أخذ يذكر شهادة الخلق له أيضا بعد شهادة الله سبحانه وتعالى إذ ادّعت قريش أن علماء اليهود والنصارى زعموا أنه لم يذكر فى كتابهم كما تقدّم فقال (الذين آتيناهم الكتاب) من علماء اليهود والنصارى (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) كما قال عبد الله بن سلام لعمر بن الخطاب لما أسلم يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشدّ معرفة بمحمد ﷺ منى بابنى قال وكيف ذلك قال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدرى مايصنع النساء . فاذا شهد الله برسالتى وشهد علماء النصارى واليهود كذلك فلم يبق الا الخسران على من لم يؤمن وليس خسران ذهب ولا فضة بل خسران النفس بحرمانها من كمالها الخاص بها وهو قوله (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ثم وصفهم بعد الوصف بالخسران بأنهم ظالمون بل هم أظلم من غيرهم فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) كهؤلاء الذين قالوا ان الملائكة بنات الله افتراء عليه وكذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحرا (انه) ضمير الشأن (لا يفلح الظالمون) ولما فرغ من إثبات ظلمهم أخذ يذكر نتائجه يوم القيامة فقال (ويوم نحشرهم جميعا) يوم منصوب بمحذوف (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم) أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء (الذين كنتم تزعمون) أى تزعمونهم شركاء فيكون جوابهم أن يجيبوا كعادتهم فى الأرض عند القضاة فيحلفون أنهم ما كانوا مشركين وهذا قوله (ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) والفتنة هنا المعذرة التى يتخلصون بها تقول فتنت الذهب اذا خلصته (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) بنفى الشرك (وضلّ عنهم) غاب وذهب عنهم (ما كانوا يفترون) أى ما كانوا يكذبون وهو قولهم ان الأصنام تشفع لهم

وتنصرهم

وتنصرهم فبطل ذلك فى ذلك اليوم • ثم أخذ يصف فريقا منهم فقال (ومنهم من يستمع اليك) حين تتلو القرآن كأبى سفيان ومن معه فقالوا للنضر مايقول فقال والذى جعلها بيته ما أدرى مايقول الا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين فقال أبوسفيان إنى لأرى حقا فقال أبوجهل لا قال تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان وهو مايستر الشئ كراهة (أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) صمما وثقلا يمنع من استعماله (وان يروا كل آية لايؤمنوا بها) لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم (حتى اذا جاؤك يجادلونك) اى الى وحتى هذه هى التى تقع بعد الجمل ولا عمل لها والمعنى بلغ تكذيبهم الى أنهم اذا جاؤك حال كونهم يجادلونك (يقول الذين كفروا إن هذا الا أساطير الأولين) والأساطير الأباطيل جمع أسطورة أو اسطارة أو اسطار جمع سطر والسطر الخط (وهم ينهون) الناس (عنه) أى عن النبى والايمان به وبالقرآن (وينأون) بأنفسهم (عنه) فلا يؤمنون به كأبى طالب (وان يهلكون الا أنفسهم) أى مايهلكون الا أنفسهم (ومايشعرون) أن ضرره لايتعداهم وجاء فى تفسيرها وجه آخر أن أبا طالب كان ينهى قريشا عن اضرار النبى ﷺ وهو كان ينأى عن الدين حتى ان قريشا قالوا له خذ شابا من أصبحنا وجها وادفع الينا محمدا فقال ما أنصفتمونى أربى ابنكم وأدفع ابنى لتقتلوه • ولما دعاه ﷺ للايمان قال لولا أن تعيرنى قريش لأقررت عينك ولكن أذب عنك ماحييت ومن أبيات منسوبة له

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة * ابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وعرفت أنك ناصحى * ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد علمت بأنه * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أوحذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

ثم قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) أى ولو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها فيقولون ياليتنا نرد الى الدنيا الخ وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا عجيبا وموقفا شنيعا ثم أضرب عن تمنيهم الرد وعدم التكذيب والايمان فقال (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) أى ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبائح الأعمال فتمنوا ذلك للضجر لا للعزيمة (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والمعاصى لأنها صارت سجية فيهم (وانهم لكاذبون) فيما وعدوا من أنفسهم (وقالوا) عطف على عادوا (إن هى الاحياتنا الدنيا) وضمير هى للحياة (ومانحن بمبعوثين ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) عرضوا على ربهم (قال أليس هذا بالحق) أى يقول يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) إذ فاتهم النعيم وكمال أنفسهم (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة) غاية لكذبوا و بغتة فجأة (قالوا ياحسرتنا) أى تعالى فهذا أوانك (على مافرطنا) قصرنا (فيها) فى الحياة الدنيا (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) هذا تمثيل لاستحقاقهم الآثام (ألاساء مايزرون) أى بئس شيأ يزرونه وزرهم (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) أى وما أعمالها الا لعب ولهو تلهى الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة وهذا جواب لقولهم إن هى الاحياتنا الدنيا (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) لدوامها ولانه لالغو فيها ولاتأثيم ولا تكليف ولاغم (أفلا تعقلون) أى الأمرين خير (قد نعلم) قد هنا لزيادة الفعل وكثرته كما قال الشاعر * قد يهلك المال نائله * (انه) أى الحال والشأن (ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك) فقد قال الاخنس لأبى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس أحد هنا يسمع كلامك غيرى فقال أبوجهل والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء

والسقاية والحجابة والندوة والنبوّة فاذا يكون لسائر قريش وهذا تعزية للنبي ﷺ فان قومه لا يكذبونه وانما هم يريدون أن لا يعلو عليهم أحد أى فانهم لا يكذبونك فى السر (ولكن الظالمين) أى الكافرين (بآيات الله يجحدون) فى العلانية وقال فى حق غيرهم وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا . ثم أخذ يسليه تسلية أخرى فقال (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) على تكذيبهم وايذائهم (حتى أتاهم نصرنا) وهكذا جميع الصابرين على الحق وأنت منهم (ولا مبدل لكلمات الله) لمواعيده ومنها وعده للصابرين فلا يبدل وعده معك . ومعلوم أن هذه السورة نزلت بمكة ولم يكن هناك نصر بل كانوا فى حال ضعف فنصر بعد ذلك وهذا فى الحقيقة معجزة نبوية (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أى من قصصهم وما كابدوا من قومهم ومن هنا صلة كما قال الأخفش كقولهم أصابنا من مطر أى مطر وهذا تسلية للنبي ﷺ وأن الأنبياء بعد تكذيبهم قد نصروا على أمك يا محمد على كل حال مأمور بالصبر على اعراضهم والوقوف عند حد ما أمرناك به واقتضت حكمتنا أن نفعله معك ولم يكن فى حكمتنا أن ننزل الآيات التى يطلبها قومك لان تلك الآيات ما كنا نرسلها الا تخويفا فانزال الملك يقضى عليهم بالعذاب فلم يبق الا أن تنتظر الفرج انتهى الفصل الأول

﴿ الفصل الثانى فى طلب الكفار الآيات عنادا ﴾

(وان كان كبر عليك اعراضهم) أى اعراض قريش لما طلبوا آية خارقة للعادة كما كان للأنبياء السابقين آيات فطمعت فى ذلك وأحببته ونحن لم نر ذلك حكمة (فان استطعت أن تبتغى) تطلب (نفقا فى الأرض) سربا والنفق سرب فى الأرض تخلص منه الى مكان آخر (أوسلما فى السماء) يعنى أو تتخذ مصعدا الى السماء والسلم مشتق من السلامة (فتأتيهم بآية) أى ان كان كبر وعظم عليك اعراض قومك عن الايمان بك فان قدرت أن تذهب فى الأرض أو تصعد الى السماء فتأتيهم بآية تدل على صدقك فافعل فأنا الذى حكمت بأن قوما يؤمنون وقوما لا يؤمنون (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) فان الناس مختلفون استعدادا كما اختلف كل حى وجماد فكيف أشاء اتحادهم وأنا الذى رتبت الدرجات كدرجات السلم ولا يرى اتحاد الناس فى كل شئ مرضا وصحة . وغنى وفقرا . وعلما وجهلا . وطولا وقصرا . الا الذين تبرؤا من الحكمة وابتعدوا عن العلم وحاشا أن تكون منهم (فلا تكونن من الجاهلين) واذا كان الناس فريقين فهل يؤمن الا المستعدون للايمان كما لا يعقل الا من استعد للعقل فى سن معلوم (انما يستجيب الذين يسمعون) سماع تعقل وتدبر وأما هؤلاء فكالموتى فكيف يسمعون (والموتى) أى الكفار الذين هم كالموتى فى أنهم لا يسمعون (يبعثهم الله) يوم القيامة فيسمعهم فيؤمنون حيث لا ينفعهم الايمان (ثم اليه يرجعون) للجزاء ولما أعلم النبى ﷺ أنه لن ينزل عليه ما يطلبون من الآيات كالأمم السابقة أخذ يعلمه كيف يرد عليهم حين طلبهم فقال (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى مما اقترحوه أو آية أخرى سوى ما رأوه من الآيات الكثيرة (قل) يا محمد (إن الله قادر على أن ينزل آية) مما اقترحوه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) عاقبة انزالها فانه سبب البلاء والهلاك والاستئصال . وكيف ننزل آية من خوارق العادات التى تخرق النواميس الطبيعية المعروفة وأنا رتبت العوالم ونظمت الكائنات وأقمت الأمم والطوائف كلا بنظامه ولو انى خرقت النواميس لاختل نظام مخلوقاتى وبدلت كلماتى ولا مبدل لكلمات الله . فأنا الذى أقمت الطير فى الهواء والدواب على اليابسة والهوام فى التراب والسمك فى الماء وأعطيت كل حيوان خلقه وهديته لمعاشه ونظمت طوائفها وأحكمت ألفتها وجعلت بينها تفاهما بلغاتها الخاصة بها وعلمت ذكرانها واناثها أن تعيش جماعات منظمات ولم أذر مخلوقاتى يتخبطون فى دياجير الحياة . وأنا لو لم أحافظ على تلك القوانين لاسود وجه الحياة ولمات معظم الجماعات ولم تكن لها حياة بل كل ذلك مسطور . انكم يا معشر بنى آدم أمة تسكنون مع

أمم أخرى من هذه الطوائف الحيوانية وأنا الذى رزقتها وعرفت مستقرها ومستودعها وكل قوانينها وأنظمتها وأحوالها فى كتاب مبين أى اللوح المحفوظ • فهل ترون فارقا بين الانسان والحيوان إلا فى قوة الادراك فأما ماعدا ذلك فهم والحيوان سواء فلها جماعات منظمات وذكران واناث وقوانين وآداب على قدر طاقتها ولها سياسات لجماعات الطيور فى الجو والحمر الوحشية والفيلة والبقر الوحشى والسمك وكل مادب ودرج وما أنتم أيها الناس إلا من الحيوانات ذات الفقرات فلئن ارتفعتم عن الطير ذى البيض وكانت صغاركم ترضع اللبن من أمهاتها فجميع الدواب من ذوات الأربع تشارككم فى هذه المزية ولئن كنتم تسوسون مدنكم فان النحل يسوس خليته والنمل يحفظ مدنه وان كنتم تحفظون أولادكم فأكثر الحيوان لأولاده حفيظ ولئن كنتم تذبحون الحيوان وتأكلون لحمه وكذلك تنحرونه وتشربون لبنه فما ذلك فضيلة فيكم فكم من آكل لحم أضره الطعام وشارب لبن أورثه السقام • على أن الآساد شاركتكم فى أكل اللحوم وبالجملة فهذه الحيوانات أمم أمثالكم ولست غافلا عن مخلوقاتى أيما كانوا ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم ــ فأنا أعطى كل طائفة من هذه الطوائف ماهى أهل له ولاأتعدى الحكمة كأنى يامحمد أردت أن قوما ممن تدعوهم للاسلام لايؤمنون وذلك على حسب نظامى العام وهذا قوله تعالى (ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب) فى اللوح المحفوظ (من شئ) وكما انكم تحشرون الى ربكم فهم كذلك يحشرون فهذا العالم نظام واحد وله مقصد واحد متجه الى حال يجهلها الناس والعلماء وأفاضل القوم من أمم الأرض يبحثون وهم مجدون فهذه الأمم سائرة على نظام تام جميل فى الحياة (ثم الى ربهم يحشرون) لافرق بين الانسان والحيوان * روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يؤخذ للجماء من القرناء * وفى رواية مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لتؤدين الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء واعلم أن العلوم الحديثة قد أيدت ذلك وان لم تكن بلغت مبلغ التحقيق أى ان الحيوان باق بعد الموت كالانسان سائر لغرض نجهله ونحن هنا على الأرض التى حبسنا فيها لمعرفة مافى هذا العالم ثم نكون فى عالم آخر فلعلنا نطلع على ماهو أدق وألطف وأجل • ثم أخذ يتم الكلام على موضوع هؤلاء الذين لايسمعون وهم قد جعلوا فى منزلتهم فلم يعقلوا كلام ربهم وكذا نبيه على مقتضى نقص نفوسهم فقال (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) فهم لايزالون فى الظلمة الأرضية التى تقدم ذكرها فى أول السورة ولم ينفذ نور الهداية الالهية الى قلوبهم إذ لم يستعدوا لها لعنادهم ونقصهم بحسب درجتهم ولو أنهم كان لهم استعدادا لأدركوا ما أحاط بهم من عجائب الحيوان وغرائب الطير وبدائع الحيوان البرى والبحرى وما أودع فيها من فطر وفهم وذكاء وتقدير وتدبير فيعرفون خالقها ولكنهم لم يصلوا الى درجة الفهم ــ انها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ــ فهم صم لايسمعون وبكم لاينطقون بالحق ثم بينه فقال (من يشأ الله) اضلاله (يضلله) لأنه وضعه فى موضعه اللائق به كما وضع كل طائفة من الأمم فى مركزها حفظا للنظام (ومن يشأ) هدايته (يجعله على صراط مستقيم) ومستحيل أن يكون ذلك الا عند الاستعداد ــ وان من شئ الا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم ــ مافرطنا فى الكتاب من شئ ــ فنحن لانصنع الا بحكمة • ولما كان الكلام فى خوارق العادات وفى انزال آية كالأمم السابقة قد انتهى القول فيه كان الأجدر أن ينظر فى أمر نافع للايمان ولاشئ أفضل من البحث فى أمر النفس والبحث فى الأحوال العارضة لها فأما الأحوال العارضة للعوالم فى الآفاق بالخوارق فلافائدة منها • وأن النفس اذا نزل بها ملم أوحدث لها حادث عظيم كأن ينزل أمر عظيم من السماء كصاعقة أومن الأرض كزلزلة أوتقوم الساعة فبالله ماذا يحس الانسان فى نفسه لاجرم انه يحس باضطرار والتجاء الى قوة فوقه يلتجئ اليها فيدعوها وماهى هذه القوة هى الحضرة العلية فان الناس عند عظائم البلايا يلتجئون الى ربهم بفطرهم

ولا يحسون بأصنام ولاشيوخ ولاعظماء فهذا هو البرهان على وجود الله تعالى • فأنتم يا أهل مكة ليس ينبغى أن تعرفوا الله بطريق الامور المزعجة فى العوالم العلوية والسفلية أو بأن جبال مكة تصبح قاعا صفصفا ويحل محلها الجنات أوتكون أنهارا أو يأتى لكم بكتاب من السماء فهذا كله لا يفيدكم اليقين وانما اليقين يأتى لكم من طريق أنفسكم فأنفسكم اذا حل بها كرب تلجأ الى الله فهذا هو البرهان على وجوده من هذا القبيل فأنتم نظرتم الى العرض وتركتم الجوهر وهذا هو قوله (قل أرأيتكم) استفهام تعجيب ومعناه أخبرونى تقول أرأيتك زيدا ماشأنه أى أرأيت زيدا ماشأنه فالكاف حرف خطاب لامحل لها من الاعراب وهى لمجرد تأكيد الخطاب وأصله أرأيتم وتقول العرب أرأيتك بمعنى أخبرنا بحالك (إن أتاكم عذاب الله) بالصواعق أوالخسف فى الدنيا كما حصل فى الأمم السابقة (أو أتتكم الساعة) القيامة (أغير الله تدعون) فى كشف العذاب (ان كنتم صادقين) أن الأصنام آلهة (بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه) أى ماتدعونه الى كشفه (ان شاء) أن يتفضل عليكم (وتنسون ماتشركون) وتتركون آلهتكم فى ذلك الوقت لما ركز فى الفطر من توجه النفوس الى من فطرها • فمن هذا فلتؤخذ البراهين والدلائل على وجود الله • ولقد جعل لنا الله الفقر وشدته • والمرض ووقعه • والبلايا وكثرتها • بابا من أبواب هدايتنا ونعمة من نعمه علينا فهى فى الظاهر عذاب وفى الحقيقة نعمة عظيمة فهى - باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب - نسلطه على من نشاء من عبادنا كى يتفطنوا لما نزل بهم ويفكروا فى أمور نفوسهم فاما أن يعرفوا فيتضرعوا واما ألا تلين قلوبهم فحينئذ نهلكهم فالعذاب يكون أشبه بامتحان فمن آمن أبقيناه ومن لم يؤمن أهلكناه لأن النفوس الجامدة التى لاتعرف زمانها ولاتسير فى طريق الصلاح هالكة حقا وهذا قوله (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك) من زائدة فكفروا (فأخذناهم بالبأساء) الشدة والفقر (والضراء) الضر والآفات (لعلهم يتضرعون) يتذللون ويتوبون ويرجعون عن ذنوبهم (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) لولا هنا للتنديم لدخولها على الماضى وهى للحض اذا دخلت على المضارع ويدخل فى معناه انهم لم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) فلامانع لهم إلا قساوة قلوبهم واعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم

والأمم اذا لم توقظها الحوادث ولم تنبهها النوائب وبقيت معجبة بأنفسها مبتهجة بما زينه لهم شياطين الانس والجن من الأعمال يلحقها البطر ويملؤها الأشر وتمتلىء اعجابا فتتمادى فى غيها ولاتسمع نصح الناصحين ولاتذكير المذكرين وتكون أشبه بالذين يمتلؤن من المآكل الدسمة من اللحم واللبن والبيض ولا يصيبهم مرض فى أجسامهم بل تزداد وجوههم نضرة وجسومهم قوة وغيرهم مهزولون مرضى يعتريهم مايستخرج من أجسامهم كثيرا من المواد فهؤلاء كما قال أطباء العصر الحاضر بأوروبا لاسيما فى النمسا وألمانيا يأتيهم الموت فجأة ويموتون ولاهم يذكرون وعللوا ذلك بأن أجسامهم القوية انما نشأت من تلك المآكل التى هى كثيرة التغذية فاذا دخلت فى خلايا الأجسام دخلت بكثرة فلأنها بلاتوان بخلاف الأطعمة الخفيفة فانها تدخل بالتدريج فى الخلايا حتى اذا جاء أجلها خرت صريعة لليدين وللفم فى يوم أو بعض يوم • فأما أولئك المرضى فان أجسامهم قويت أن تطرد عن أجسامها تلك الأمراض أى الخارجة بالبثور والقروح مثلا والأمراض المتنوعة فمن يظنه أكثر الناس صحيحا هو المريض ومن يظنونه مريضا هو الصحيح لأن الجسم الضعيف ظاهرا أصبح قادرا على طرد البقايا المتخللة فيه • فأما ذلك الذى ملأ جوفه من المطاعم الدسمة فقد قتل نفسه وملأ الجسم بارودا وحشاه نارا فتفتك به بعد حين وقالوا ان الامتلاء من الأطعمة الدسمة هذا فعله وأمروا أن يقلل الانسان منه وأن يكثر من الفواكه والأطعمة الخفيفة والحبوب والخضر • هذا ماجاء فى الطب الحديث وهو عينه مايحصل فى الأمم التى أنذرها المنذرون وحذرها المحذرون وهى لاتسمع

مايقولون ولا تعى مايذكرون وسارت على طريقها المرسوم ولم ترجع عن غيها المعلوم وهذا قوله تعالى (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ) من النعم لتكمل الحجة فيكونون قد ذاقوا العسر واليسر والنفع والضرّ والخير والشرّ (حتى اذا فرحوا) أعجبوا (بما أوتوا) من النعم كالصحة فى الأبدان والسعة فى المعيشة والأمن فى الأوطان (أخذناهم بغتة) كما حصل فى أجسام الناس الذين لايتقون المآكل المسممة (فاذاهم مبلسون) آيسون متحسرون (فقطع دابر) آخر يقال دبره دبرا ودبورا اذا اتبعه (القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) على قيام الحجة وظهور الحقيقة وذهاب دولة الجاهلين وانتصار الحق على الباطل

فالحمد حمدان حمد فى أوّل السورة على نعم النور والارض والسموات والارتقاء • وحمد هنا على ابادة الجهل واحلال العلم محله وغلبة الحق على الباطل فهو رب العالمين

ولما كان العذاب اما من خارج واما من داخل وقد قدّم العذاب الخارج بخسف أوزلزلة أخذ يذكر هنا مافى داخل الأجسام فيقول لوأن الله سلبكم موهبة السمع والبصر فلاتسمعون ولا تبصرون وموهبة العقل فلا تعقلون فهل غير الله يأتيكم بأمثال مافقدتم

ولما كان العذاب ربما يتوهم أنه ينصرف لغير الظالمين قال ان العذاب مهما جاء سواء أكان بغتة أوجاء بعد مقدّمات فهل يهلك الا القوم الظالمون وهذا قوله تعالى (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم) فلاتسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون (من إله غير الله يأتيكم به) بما أخذ (انظر كيف نصرف الآيات) كيف نبين لهم العلامات الدالة على توحيد الله بأنواع مختلفة فمرّة بأحوال الأمم ومرّة بالتخويف ومرّة بالنظر فى أنفسهم فانهم لوفكروا فيها لعلموا أن السمع والبصر والقلب ومايشعر به كل واحد من نفسه لايخلقه سوى الله تعالى وكذلك اذا وقع فى غرق أومرض عظيم فانه لايرى فى نفسه مدعوّا سوى الله تعالى فنحن نصرف لهم ذلك (ثم هم يصدفون) يعرضون عنها و يطلبون غيرها كالآيات التى كانت تنزل على الأنبياء السابقين وفيها هلاك أممهم هلا كامعنويا لانها لاتورث اليقين فأما الأمور العقلية فانها أنفع للقضية (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) من غير مقدّمة (أوجهرة) يتقدّمه امارة تؤذن بحلوله وقيل ليلا أونهارا (هل يهلك الا القوم الظالمون) و بعد أن استوفى الكلام على المرسل اليهم أخذ يصف حال المرسلين فقال (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) المؤمنين بالجنة (ومنذرين) الكافرين بالنار ولم نرسلهم ليقترح عليهم ماليس لهم أن يصنعوه فيتلهى بهم أناس (فمن آمن وأصلح) مايجب اصلاحه على حسب الشريعة (فلاخوف عليهم) من العذاب (ولا هم يحزنون) بفوات الثواب (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) أى بسبب ماكانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة • ثم أخذ يصف حاله ﷺ

﴿ الفصل الثالث فى أقواله ﷺ مع المتواضعين ﴾

يقول ﷺ ليس عندى خزائن رزق الله ولاعلم لى بالغيب ولا أنا من جنس الملائكة فأقدر على مايقدرون عليه ولست أتبع إلا مايوحى الىّ • وهذا الوحى انما يعرفه المستعدّون له المبصرون فأما عمى القلوب فهم لايفهمونه وهذا قوله تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) فأوسع عليكم وأمنع فقركم وأجعل ما حول مكة جنات بدل هذه الجبال الجرداء (ولا أعلم الغيب) وهو من جملة المقول فأخبركم بما مضى وماسيقع فى المستقبل كما تقترحون علىّ أن أطلب لكم من الله سعة الرزق فى الأوّل واخباركم بمصالحكم ومضاركم فى المستقبل (ولا أقول لكم انى ملك) حتى لا آكل الطعام ولا أمشى فى الأسواق ولا أتزوّج النساء كما قلتم - مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق - وحينئذ أقدر على ما لايقدر عليه غيرى من الاخبار بالمستقبل فأنا لست كذلك (إن أتبع إلا مايوحى الىّ) وانما الأمر يرجع لاستعداد النفوس فمن تكبر وأعجب بنفسه قتله الاعجاب وباء بالنكال ولم يجب الدعوة وهم الأغنياء والمتكبرون (قل هل يستوى الأعمى والبصير

أفلا تتفكرون) فتهتدوا (وأنذر به) أى القرآن (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) وهم المؤمنون المفرطون فى العمل • وهكذا كل من يجوّز الحشر من المؤمنين والكافرين فالانذار نافع لكل كافر مجوز للحشر ولكل متردّد ولكل مؤمن مذنب فأما أولئك الجاحدون المكذبون فكيف ينجع فيهم الانذار ولا انذار إلا حيث تجوّز النفوس ما أنذرت به وهى نفوس الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم حال كونهم (ليس لهم من دونه ولىّ) قريب ينفعهم (ولا شفيع) يعنى يشفع لهم وليست الشفاعة التى تكون من الأنبياء والعلماء والشهداء وأعمها شفاعة سيدنا محمد ﷺ التى بيناها أيما تبيان فى سورة البقرة وحققنا هذا المقام تحقيقا مستفيضا هناك • ليست هذه الشفاعة للمؤمن الا باذن الله فأصبح الشفعاء شافعين بأمر الله فهى اذن ليست من دون الله فلا اشكال • واعلم أن الشفاعة التى ذكرناها فى البقرة لاتدع شكا لمرتاب • انها غير مايفهمه كثير من الناس بلا تحقيق فهى مركوزة على التعليم وعلى الاقتباس والقدوة فلم يجعل الله الدين الا للهداية ولا الأنبياء والشهداء والعلماء الا لتعليم الناس بالعلم وبالقدوة لا أن يتكل الناس عليهم فاقرأ هذا الموضوع هناك فان المعنى هناك جم جميع الأقوال وأصبحت الشفاعة مناسبة للتربية العالية الاسلامية فى المستقبل والله هو الهادى

﴿ الفصل الرابع فى معاملة رسول الله ﷺ للفقراء من المؤمنين وأمر الله له باكرامهم وهو اتمام للفصل الثالث ﴾

أمر الله النبى ﷺ بانذار غير المتقين فلما فرغ من الكلام عليهم أخذ يذكر حكم المتقين فالأوّلون غالبا كانوا من ذوى الجاه والغنى والثروة الطائلة فهم متكبرون فهم أشبه بذوى الأجسام القوية الممتلئة بالمادّة كل الدسمة كما تقدم فهم فى الظاهر أقوياء وفى الباطن ضعفاء فأما الفقراء فانهم أشبه بالأجسام الضعيفة التى وصفها الأطباء فى العصر الحاضر انها كثيرا ماتكون أقوى كما حصل للضعفاء الآتى ذكرهم فانهم لصفاء نفوسهم وسلامتها من الاعباء الدنيوية والغرور بالمال والولد والصيت والقوّة والجاه قبلت نفوسهم الدين فهم عند الناس ضعفاء وعند الله أقوياء • فياليت شعرى أى فرق بين هؤلاء وبين أمثالهم فى المرضى والأصحاء فالمشابهة بينهما صحيحة تامة

والنبوّة لاتهتم بالمظاهر واذا كان الطب الذى لايهمه الا الأجسام لم يرعه قوّة الأجسام بل قال القوى عندى قد يكون ضعيفا والضعيف قد يكون قويا • هكذا هنا

(١) قال ابن مسعود مرّ ملأ من قريش بالنبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يامحمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعا لهؤلاء اطردهم فلعلك ان طردتهم ان نتبعك فنزلت هذه الآية

(٢) قال عكرمة جاء عقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحرث بن نوفل فى أشراف بنى عبدمناف من أهل الكفر الى أبى طالب عم النبى ﷺ فقالوا ياأباطالب لوأن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانهم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا اياه وتصديقنا له فأتى أبوطالب النبى ﷺ فحدّثه بالذى كلموه به فقال عمر بن الخطاب لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذى يريدون والى ماذا يصيرون فأنزل الله النهى بالآية فاعتذر سيدنا عمر من مقالته

(٣) وروى نحوه عن سلمان وخباب بن الارث فقد قالا ان الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن حقرا أن يجلسا مع صهيب وبلال وعمار وخباب فى نفر من ضعفاء المؤمنين وطلبا أن يجلس النبى ﷺ فى صدر المجلس ويبعد هؤلاء لرائحتهم فقال – ما أنا بطارد الذين آمنوا – فطلبوا أن يكون لهم مجلس ليس معهم فيه هؤلاء الفقراء فلما دعا عليا ليكتب نزلت الآية فألقى ﷺ الصحيفة من يده ثم دعا هؤلاء

الفقراء فأتوه وهو يقول ـ سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ـ فكنا نقعد معه فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله ـ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ الآية ـ فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبتــه فاذا بلغ الساعة التى يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم

(٤) هكذا روى عن سعد بن أبى وقاص قال كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر فطلب المشركون طرد هؤلاء الخ وهذا أخرجه مسلم

(٥) وقال الكلبى قال أشراف قريش اجعل لنا يوما ولهم يوما فأبى قالوا فولّ ظهرك اليهم وأقبل علينا فأبى

(٦) وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعنى ابن مسعود لبايعناك

هذه الروايات التى ذكرتها مختصرة لاحضرلك أيها الذكى ماورد فى هذا المقام ففى كل رواية يقال فنزلت هذه الآية وكل هذا محتمل ولكن النزول لا يكون إلا فى واحدة فاذا كان سلمان الفارسى وهو بالمدينة يقول فينا نزلت وسورة الأنعام مكية فان النزول انما يكون بمكة كما فى رواية عكرمة وابن مسعود والكلبى فعلى هذا لاتنافى بين الروايات إلا فى اثبات الانزال وذلك من تصرّف الرواة الذين فسروا الآية برواياتهم والخطب سهل فى ذلك

والمقصود من الآية مكارم الأخلاق فاياك أيها الذكى أن تضيع وقتك فى جمع الروايات والترجيح بينها فالمقصود من هذا كله الأخلاق والفضيلة لنقتدى بالأنبياء فى أخلاقهم ونعمل لاصلاح المجتمع الذى خلقنا فيه ولنكون أئمة نقتدى بمتبوعنا العظيم فلتقرأ الآية ولتفسرها واياك وضياع الوقت بل سر فى الآية وهى (ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) الصبح والعصر والمراد الدوام حال كونهم (يريدون وجهه) أى مختصين فى الدعاء (ماعليك من حسابهم من شئ ومامن حسابك عليهم من شئ) أى ماعليك حساب رزقهم وايمانهم فالله يرزقهم وايمانهم وبما كان أعظم من ايمان من تطردهم بسؤالهم طمعا فى ايمانهم لوآمنوا وليس عليك اعتبار البواطن فاذا كان باطنهم ليس فيه اخلاص فحسابهم لايتعدّاهم اليك كما ان حسابك لايتعدّاك اليهم (فتطردهم) فتبعدهم وهذا جواب النفى (فتكون من الظالمين)

﴿ الكلام على الفريقين الكافرين والمؤمنين ﴾

هنا يذكر الله عادته فى خلقه وأنه يبتليهم ويختبرهم . فاعلم أن الله عز وجلّ جعل التربية عامة فى خلقه فكل مايمسنا فى حياتنا الدنيا انما يكون نتيجة لتربيتنا شئنا أم أبينا وليس فى الأرض من الكمال الا النادر والناس اذا قلّ علمهم ونقص اختبارهم وساءت نفوسهم كانت النعم العامة مصيبة عليهم فيصبحون وهمومهم محصورة فى الموازنات والمشابهات والمناظرات وكل يقول فى نفسه لم فضل فلان بالعلم أو بالمال أو بالصحة أو بقبول الناس أو بالجمال وما أشبه ذلك . ومامن امرئ فى الأرض الا واجد من هو أحسن منه فى صفة أو صفات فاما أن يصبر ويرجع ويدرس الحياة درسا نافعا حتى بعقل واما أن تتحير نفسه وتذل ويصبح حاسدا لنعم يجب أن يتصف بها الناس ليساعدوه فى حياته ولكن لغباوة أكثر الناس لايبالون بهذه القضايا ويحزنون ولذلك قال الله (وكذلك) أى مثل ذلك الفتن وهو اختلاف الناس فى أحوالهم فى الدنيا سعة وضيقا جعلنا أمثال عيينة بن حصن الفزارى أغنى من مثل سلمان الفارسى مثلا (فتنا بعضهم ببعض) فى أحوالهم العقلية وأمورهم النفسية فجعلنا أمثال سلمان الفارسى أرقى عقلا وأحلم نفسا لايمانه بالله تعالى (ليقولوا) أى الذين ارتقوا فى المال وانحطوا فى العقائد (أهؤلاء) الفقراء والضعفاء (منّ الله عليهم من بيننا) بالعلم والايمان والاهتداء وكيف يكون ذلك ولوكان خيرا ماسبقونا اليــه فنحن أولى بالعلم وأهدى سبيلا فالقوة سائدة عندنا علما

ومالا فأجابهم الله قائلا (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أى الذين هم مستعدون للعلم والايمان وليس فى هذا العالم عطاء الاعلى مقدار الاستعداد وهؤلاء لما هذبت نفوسهم وارتاضت بالفقر تارة والضعف وقلة الصيت أخرى خف حمل الحياة عليهم ولم يؤثر فى نفوسهم الشره والطمع والرياسة والحرص والحسد والكبرياء وأمثالها مما يغطى على العقول قتصدأ فيكون الران عليها فلاتعى مايقال لها كبرياء وحسدا • فهؤلاء لما سلموا من ذلك استعدت نفوسهم لسماع الوحى وأخذت تقترب من الفضائل والسعادة النفسية فكلما خف الدين سهل الوفاء والمال والجاه والكبرياء والبطنة كل ذلك مبعد عن العلم والحكمة والله هو الذى جعل الدرجات متفاوتة كما تتفاوت للعادن كما فى الحديث الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام فمن كان أصدق قولا وأصح رأيا وأقبل للحق فى الجاهلية بما أودع فى فطرته فانه فى الاسلام كذلك يقبل الحق فالأمر يرجع الى الفطرة الانسانية والقابلية النفسية • والشمس تشرق على البر والبحر فينمو بها النبات ولاينمو بها الحجر ولا التراب ولا الطين ولا المعادن وليست الشمس بمحجوبة لأجل أن الأحجار لاتنمو بها بل هى طالعة لتعطى القابلين الحياة باذن الله • هكذا الأنبياء يعلمون الناس ولايهمهم أن يتعلم الا الشاكرون كأن المؤلفين يضعون كتبهم والمدرسين يلقون دروسهم و يقصدون بذلك المستعدين فأما غيرهم اذا لم يعبأ بكتبهم ولم يسمع لدروسهم فليس ذلك بضارهم كما لايضر الشمس أن ضوءها لم يؤثر فى الحجارة وانما يحيا بضوئها النبات كما يحيى القرآن والعلم والتأليف الشاكرين المستعدين لقبول النعمة فالمغرم بالشئ الحريص عليه هو القابل له والقابل باستعداده هو الشاكر لأن الشكر صرف العبد نعم الله عليه فيما خلقت له وهذا صرف نعمة الله وهو الاستعداد فيما خلقت له وهو الفهم وهكذا متى تعلم أفاد الناس فيصرف العلم فى المنفعة العامة كما فعلت الشمس فى ارسال ضوئها • هذا هو الشكر وهؤلاء هم الشاكرون ولذلك وصى الله عليهم فقال (واذاجاءك) يامحمد (الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) ولاتكتف بعدم طردهم من مجلسك و بقائهم مع الأغنياء بل حيهم بالسلام و بشرهم بأنى كتبت على نفسى الرحمة • فأنا أغفر ذنب من أذنب منهم اذا تاب فأنا لست أعبأ الابالقلوب ولا أنظر الا الى النفوس فأما مظاهر الأجسام والنعم الظاهرة من المال والولد فلم أجعلها مقياسا للكمال ولادليلا على الارتقاء والعزة القعساء وانما هى آلات تصلح للخير والشر والنفع والضر فهى اما أن ترفعهم الى العلياء واما أن تنزل بهم الى الدركات و يؤخذ بعض هذا من قوله (أنه من عمل منكم سوأ بجهالة) بفتح أن على البدل من الرحمة أو بكسرها على الاستئناف وقوله بجهالة فى موضع الحال وذلك كما كان من عمر رضى الله عنه لما اعتذر من مقالته التى قالها فيما تقدم فى هذا المقام فلما نزلت الآية اعتذر • فعمر وغيره اذا عمل سوأ بجهالة (ثم تاب من بعده وأصلح) بالتدارك والعزم على أن لايعود (فأنه غفور رحيم) لمن تاب من ذنوبه بفتح أن وهو اما خبر لمبتدا مضمر أى فأمره غفرانه واما مبتدأ خبره محذوف أى فله غفرانه

﴿ الفصل الخامس فى ذكر نتيجة ماتقدم فى الفصول السابقة على سبيل اللف والنشر المرتب ﴾

ولما أكمل الكلام على الجاحدين والمؤمنين أخذ يلقى درسا عاما يرجع لأصل المقال من دعوتهم له الى الشرك وعبادة غير الله ومن اقتراحهم عليه آية من السماء فلما قتل هذا الموضوع درسا وتحقيقا وقال لا أتبع دينكم وأما الآيات المقترحة فان الله لايأذن لى فيها ولست ملكا وليس عندى خزائن الله الخ وأرجع الأمر كله الى الاستعداد وأن النفوس المستعدة للايمان تؤمن فأما القلوب المتكبرة فهى لاتؤمن • رجع الى أصل الموضوع ليجعل له نتيجة فهو هناك كقضية يراد البرهنة عليها فلما أتى بالبراهين على هذه الأمور أخذ يذكر النتيجة فقال (وكذلك) مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) آيات القرآن فى صفة المطيعين والمجرمين وانزال الآيات وكيف كان المقترح منهم ليس ينفع فى الحياة ولا الايمان ليظهر الحق (ولتستبين سبيل المجرمين)

اى

أى ولتبين سبيلهم على قراءة رفع سبيل أو لتستبين أى تستوضح يامحمد سبيلهم على قراءة النصب فتعامل كلا بما يلائمه • واعلم أن مثال هذه الجملة تقال فى المواضع العظيمة من القرآن وهذا الموضع فيه أسرار تقدم بعضها وسيأتى كثير منها فيما سيأتى بعد آخر هذا المقصد والحق أن هـذه السورة منبع حكمة وستراها قريبا • ثم شرع فى نفس النتيجة بعـد التمهيد لها بالاجمال فقال (قل انى نهيت) صرفت بما نصب لى من الأدلة وأنزل علىّ من الآيات فى أمر التوحيد عن (أن أعبد) أى عن عبادة (الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم) وهذه الجملة تأكيد لقطع أطماعهم (قد ضللت اذا) أى ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت (وما أنا من المهتدين) وما أنا فى شئ من الهدى وفى هـذا تعريض انهم هم غير مهتدين واذا كنت لا أتبع أهواءكم فانى أتبع مايوحى الى (قل انى على بينة من ربى) على بيان و بصيرة فى عبادة ربى (وكذبتم به) الضمير لربى فانكم أشركتم به غيره وهذا نتيجة لدحض اتباعهم فى الشرك بالله كما طلبوا فيما تقدم • ثم أعقبه بالنتيجة الثانية وهى أن لاحق لهم فى اقتراح الآيات فقال (ماعندى ماتستعجلون به) من الآيات المقترحات كما تقدم تقريره (إن الحكم إلا لله) كما تقدم فهو الذى جعل العالم درجات وكما رتب الحيوان ورتب الانسان فى الدنيا والأخرى وفتن بعض الناس ببعض ليقول الغنى كيف أصبح الفقير عالما ويقول الفقير كيف صار هذا الكافر غنيا وبهـذا يتم ماأريد منهم كماسبق توضيحه (يقص الحق) أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به على مقتضى ترتيب الدرجات التى رتبها إذ نظم العالم من أعلاه الى أسفله ثم من أسفله الى أعلاه أى من عالم العقل الى عوالم الضياء والنور وهى الأجسام الأثيرية فالشموس فالأرضون فما يحيط بها من الطبقات فالمخلوقات التى فوقها مرتبة درجات بعضها فوق بعض فالله يتبع الحق الواضح فى هـذه الدرجات التى رتبها ونظمها يقال قصّ أثره اذا تبعه هكذا يتبع الله الحكمة فيما يعمل وليس يضرّ الله شيأ أن الناس يجهلونها وانما ينزلها فى القرآن لتتلى حتى اذا جاء جيل رشيد أخذ يقصّ الحق الذى قصه الله فيقف على شئ منه فى الدنيا ثم اذا مات أخذ النور الذى أشرق على النفس فى الدنيا وهو العلم والحكمة يسعى بين أيديهم ليهديهم الى ماهو أنور وأشرق هـذا هو المقصود من قوله يقصّ الحق أى فليس الله يتبع أهواءكم فى انزال الآيات فيخرم النظام المتبع فى الطبيعة ويجعل العالم مضطربا لأن عالم الطبيعة اذا اختلّ نظامه لم يبق له وجود واقتراحكم يضادّ هذا وأنا لا أتبع الا الحكمة فى عملى فعلى الناس أن ينهجوا نهجى و يقرؤا نظامى ويدرسوا حكمتى فى دوابّ الأرض ونظامها وانها أمم أمثالكم فادرسوها لتكونوا حقيقة أرقى من فى الارض فأما اذا عشتم كما تعيش العامة والبهائم فلكم منزلة فى الآخرة على قـدر عقولكم ونفوسكم وأنتم محرومون من العالم الأعلى الذى هو فى جوار الملائكة والأرواح العلية واذا اتبع الله الحكمة فى عمله فهو قاض يفصل بالعدل على مقتضى القوانين التى سنها (وهو خـير الفاصلين) القاضين (قل لو أنّ عندى ماتستعجلون به) من انزال العذاب (لقضى الأمر بينى و بينكم) أى لو ثبت أن فى قدرتى وامكانى ماتستعجلون به من العـذاب لأهلكتكم عاجلا لغضب ربى واقتصاصا منكم لتكذيبكم (والله أعلم بالظالمين) أى انه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذى يستحقونه فيه

﴿ الفصل السادس فى شرح عام لما تقدم كله ﴾

(١) وهو يرجع الى أنه يعلم الغيب كما تقدم من أنه جعل الحيوانات أمما أمثالنا فهنا يقول هو محيط علما بالعوالم كلها فى البرّ والبحر والورق والحبة فى ظلمات الأرض والرطب واليابس كل هذا فى كتاب مبين

(٢) والى أنه يتوفى الناس ليلا و يبعثهم نهارا

(٣) والى أنه قاهر فوق العباد بدليل انامتهم تارة وايقاظهم تارة أخرى فهكذا بعد موتهم الذى هو كالنوم يحييهم بعد الموت كما أيقظهم بعد النوم

(٤) والى أنه كما قهر أجسامهم فألجأها للنوم واليقظة يسلط عليهم شدائد البر والبحر فيستغيثون وهو الذى ينجيهم

(٥) والى أنه كما قهر الأجسام وأرواحها بالنوم واليقظة وبالظلمات فى البر والبحر سلط عليهم صواعق من السماء أو زلازل من الأرض وقذف فى قلوب بعضهم كراهة بعض إما حسدا وإما تدينا

(٦) فكل هذه الأمور الخمسة الملخصة للفصول السابقة تلخيصا أكمل تدعو العقل الانسانى أن يفكر هل هذه الحياة تستحق أن تكون نهاية كلا بل هى مقدمة والا فلماذا هذا الاضطراب والقهر والزلازل والحروب والنوم واليقظة كلا ان هذا أمر له مابعده فلذلك أتى آخرا بما يفيد أن قومك يا محمد كذبوا به وهو الحق فأعرض عنهم اذا خاضوا فى القرآن والوحى مكذبين ولا تجالسهم وكيف تجالس من اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وتركوا العلم والحكمة والجد ولم ينظروا الى مايحيط بهم من العوالم والمحن هؤلاء قوم لا يعقلون فنفوسهم ستسلم الى الهلاك لا شفيع لها ولا تقبل منها فدية وليس لهم الا شراب من ماء مغلى فى بطونهم وعذاب أليم فى أجسامهم وقل لهم أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونكون كالذى أضلته الشياطين فى الأرض متحيرا ومعه رفقة يقولون ائتنا قل لهم لا نفعل ذلك فلاهدى الاهدى الله ونحن مأمورون أن نخلص له وأن نقيم الصلاة لأنا سنحشر اليه وهو الذى خلق السموات والأرض الخ . هذا اجمال هذا الفصل السادس وهو (وعنده مفاتح) جمع مفتح بكسر الميم كالمفاتيح جمع مفتاح وهو مايفتح به المغاليق وان جعل مفاتح جمع مفتح بفتح الميم فهو المخزن وسواء كان الأول أو الثانى فالمعنى أن الله عنده الغيب كله فمن عنده المفاتيح للشئ فعنده ذلك الشئ . ألا ترى أن من عنده مفاتيح الخزائن فانه يتوصل بها الى مافى تلك الخزائن وان جعل بالمعنى الثانى كان المعنى وعنده خزائن الغيب (لا يعلمها الا هو) قال ابن مسعود أوتى نبيكم كل شئ الا مفاتح الغيب ومفاتح الغيب المذكورة أعم مما جاء فى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمها الا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون فى غد الا الله ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام الا الله ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا يدرى متى يجىء المطر أحد الا الله * وفى رواية أخرى لا يعلم أحد ماتغيض الأرحام الا الله ولا يعلم مافى غد الا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد الا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت الا الله ولا يعلم متى الساعة الا الله أخرجه البخارى . وأعم أيضا مما روى عن مقاتل والضحاك أنها خزائن الأرض وعلم نزول العذاب . ومما قاله عطاء وهو ماغاب من الثواب والعقاب ومما قاله غيرهم كانقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من سعادة وشقاء وخواتيم الأعمال وعلم مالم يكن بعد وعلم خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق وغيرهما بل فوق ذلك علم كل ممكن وجد وكل ممكن لم يوجد . فمفاتح الغيب شاملة لذلك كله وكل هذه الأقوال داخلة فيها وانما يقال فى كل مقام بحسبه على حسب قبول المخاطبين . ثم أخذ يشرح عموم علمه بالمشاهدات ليعرف الناس كيف يعلم الغائبات فيقول ان المغيبات فى علمه منظمة على مقتضى ماترون فى هذا العالم المشاهد ولذلك قال (ويعلم مافى البر والبحر) فليدرسها الناس ليظهر لهم كيف كانت خزائن علمه مقفلة على الناس قبل أن تبرز هذه العجائب فى البر والبحر . ان الذى برز فى البر والبحر من عجائب الخلقة وبدائع الصنعة من أنواع الجماد والنبات والحيوان والانسان يدلنا على كيفية ترتيبها فى علمى القديم وهو بعض ما كان معلوما لله ولا يزال معلوما فسائر العجائب التى لا تحصى وهى عنده مخبوءة من العوالم التى قدرها وستكون فى المستقبل لها نظام يشبه ماتشاهدون ومتى درستموه دلكم على حسن الاتقان وأدركتم طرفا من الجمال يسوقكم الى استكناه الحقائق وفهم الدقائق وعلى مقدارها تقتربون من خالقها مع علمكم أنكم لا تصلون الى نهاية علمه ومهما درستم وصفت نفوسكم فانكم لا تدركون منتهاه وهذا مايديم لكم الشوق والجد لتسيروا فى أنوار المعارف مجدين . ان جميع الأرض امابحر أو بر

فكأنه

فكأنه قال جميع مافى الأرض (ومانسقط من ورقة الايعلمها) أى فهوعالم بالجزئيات ماعظم منها ومادق وماهو أدق من ذلك (ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس) معطوفات على ورقة (الافى كتاب مبين) مقدارها ووقتها والكتاب المبين اماعلم الله أواللوح المحفوظ • ومعلوم أن جميع الأشياء امارطبة أويابسة فعمم تارة بالبرّ والبحر وأخرى بالرطب واليابس وذكر الدقائق فى الورقة والحبة فملخصه أنه يعلم الكل وهو البرّ والبحر والرطب واليابس والأعم منه هى مفاتح الغيب والجزئيات الدقيقة كالورق والحبة فى باطن الأرض وهي الحبة قبل أن تنبت فاذا نبتت لم تكن حبة وقوله الا فى كتاب مبين بدل من قوله لايعلمها الاهو بدل الكل على أن الكتاب علم الله وبدل اشتمال على أنه اللوح المحفوظ • الى هنا انتهى مافى المقام الأوّل من هذا الفصل

﴿ المقام الثانى ﴾

(وهو الذى يتوفاكم بالليل) ينيمكم فيه ولاريب أن النوم أخو الموت فكل منهما ازالة للاحساس ولكنّ الموت أشدّ استئصالا له فاستعير له (ويعلم ماجرحتم بالنهار) كسبتم فيه كماهو العادة أن الليل للنوم والكسب للنهار (ثم يبعثكم فيه) يوقظكم وهذا ترشيح للاستعارة المتقدّمة فان البعث من ملائمات المشبه به وهوالموت (ليقضى أجل مسمى) ليبلغ المتيقظ آخر أجله الذى قدّرله فى الدنيا (ثم اليه مرجعكم) بالموت (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) يوم القيامة بالمجازاة • وهذا القول خطاب للكفار ولكل عاقل فهو يقول أيها الناس انكم فى الليل كالجيف الملقاة وفى النهار تكسبون الآثام والليل والنهار بدوران عليكم لايفتران فأما أنتم فانكم لم تستيقظوا من غفلاتكم بل المؤمن منكم والكافر جميعا لايفكرون فى أكثر الأحوال كيف كان نظام الليل والنهار واليقظة والنوم وهما دائبان فأما أنتم فساهون لاهون أوماعلمتم أيها الناس أن هذه الحوادث المتكررة التى لامفرّ منها تشعر بطريق البرهان الاقناعى والقياس الظاهرى أن هذا النوم وهذه اليقظة قدضربامثلا للنوم الأكبر واليقظة الكبرى وان ذلك الامرين على الموت والحياة فان متم فلا تجزعوا من انقطاع الحياة لانها لامقطوعة ولاممنوعة ولكن اجزعوا من غفلاتكم فأنتم لابدّ مبعوثون بدليل استيقاظكم من نومكم وهذا من احدى الأدلة التى ذكرها سقراط لتلاميذه وأفهمهم أنه برهان اقناعى يورث الظنّ لااليقين فقال • ألم تروا أن الفقر يتبعه الغنى والغنى يتبعه الفقر والمرض بعده صحة والصحة بعدها مرض وهذه قاعدة أن الضد يتبعه ضدّه فالاضداد متتاليات والليل يتبعه النهار • هكذا فلتكن الحياة يتبعها الموت والموت يتبعه الحياة • هذا كلام سقراط وقد تقدّم فى سورة البقرة • فانظر كيف ذكر الله النوم واليقظة والليل والنهار ثم أتبعهما بقوله ـ ثم اليه مرجعكم ـ ياليت شعرى أين جزيرة العرب وأين سقراط وأنا موقن أن المسلمين ليس فيهم الاقليل قد اطلعوا على هذا البرهان من كلام سقراط وفيها هذا البرهان • وكيف يذكر النوم واليقظة وبنو آدم جميعا لايفكرون فيهما الا الأطباء لأجل الصحة والمرض والا العشاق للاجتماع بمن يحبون والا المرضى للتألم مما أصابهم وهكذا وأهل الأرض جميعا الاحكماءهم لايفكرون فى اليقظة والنوم من حيث ان الحياة الأخرى تعرف بالقياس لهما • فاذا كان الناس اليوم يقرؤن اللغات هذه القصة فى كلام سقراط مع تلاميذه ولا يطلع عليها بلغة الانجليز والفرنسيين وغيرهم الاقليل من المسلمين وفيا بالك بالعرب فى جزيرتهم أيام النبوّة فلعمرك لم يسمعوا بحديثه هذا ولا كانوا يحسنون الكتابة العربية الاقليلا منهم فكيف باللغات الأخرى وكيف بفلسفتهم أن إيراد مثل هذا البرهان فى هذه السورة من عجائب الحكمة التى تأتى فى الديانات والناس عنها لاهون ساهون • بمثل هذا تكون المعجزات وبمثل هذا تكون البينات على صدق النبوّة وبمثل هذا يجب على المسلمين أن يكونوا أوّل حكماء الأرض وفلاسفتهم • أيها المسلمون هانحن أولاء بينا لكم مايجب عليكم فاقتفوا أثر القرآن وادرسوا هذه الدنيا ونظامها فلا اتباع

للقرآن مالم تدرسوا البرّ والبحر والسموات والأرض

﴿ المقام الثالث من هذا الفصل ﴾

(وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) ملائكة تحفظ أعمالكم (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) ملك الموت وأعوانه وهم لا يفرّطون بالتوانى أوالتأخير (ثم ردّوا الى الله) الى حكمه وجزائه (مولاهم) الذى يتولى أمرهم (الحق) العدل واذا كان كذلك فهو يحكم بالعدل (ألا له الحكم) وحده (وهو أسرع الحاسبين) يحاسب الخلائق فى مقدار حلب شاة لايشغله حساب عن حساب

إن قهر الله لعباده غلبته لهم والقهر نجده فوق كل شئ وبهذا القهر ثبتت هذه الكائنات فقهر الليل بالنهار والنهار بالليل والحرّ بالبرد والبرد بالحرّ ووضع الحارّ والبارد والرطب واليابس فى النبات والشجر وكسر هذا بهذا فحصل التفاعل كما هو ظاهر فى علم الكيمياء فلا مركب من المركبات إلا والقهر هو الذى حفظ تركيبه وأبقى هيئته وشكله وترى الأجزاء الداخلة فى تركيب النبات من الاكسوجين والاودروجين والاوزوت والكربون والأملاح المختلفة وكذلك الحيوان كل هذه العناصر تتفاعل فى الأجسام العضوية فكل لكل قاهر فيتزن الجسم ولولا قهرها وتذليلها ما عاش حيوان ولا نما نبات ولبقيت العناصر ملقاة كهيئتها يوم خلقها الله بل الماء نفسه لولا القهر الطارئ على جزئيه الاكسوجين والاودروجين ما كان سائلا جاريا ولا ثلجا ثابتا بل كان جسما غازيا منتشرا فى الكون هوائيا لايصلح للأحياء . فالقهر لهذين العنصرين أبرز هذا الماء من العدم حول الكرة الأرضية . ومستحيل أن يكون ماء أونبات أوحيوان إلا بحساب متقن على مقتضاه يكون دخول هذه الأجزاء فى التركيب وعلم الكيمياء الآن أشهر من نار على علم يفهم منه هذا الحساب بسهولة . اذا فهمت هذا فتعجب كيف يذكر بعدها قوله ــ ويرسل عليكم حفظة ــ فهو يقول قهرت العناصر فتفاعلت بالحساب . فاذا كان القهر عم كل شئ فالناس مقهورون والعناصر الداخلة فى أجسامهم بحساب لأنها مقهورة أيضا ومن قهرها أن المواد الزجاجية الشفافة لاتكون إلا فى الأعين بحيث تقابل الضوء الداخل اليها ولولا هذا القهر مارأيتم شبحا . هكذا فلتكن أعمالكم فأنا أحفظها فى سجل مكنون عندى فهناك ملائكة يحفظون أعمالكم بل أنتم ترسم فى نفوسكم كل ماعملتموه من خير أوشرّ فاذا عرفه الحفظة فأنتم كذلك كما فى قوله تعالى ــ بل الانسان على نفسه بصيرة ــ فكل أعماله مرسومة فى نفسه وتبرز يوم القيامة واضحة له فيندم ويحزن على القبح الذى يشاهده من نفسه ــ ووجدوا ماعملوا حاضرا ــ فاذا كان المرء يشهد على نفسه ويقال له ــ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ــ فبالأولى تشهد عليه الملائكة فهذا قوله ــ ويرسل عليكم حفظة الخ ــ وأما قوله ــ وهو أسرع الحاسبين ــ فذلك ظاهر فى علم الكيمياء وتراكيبها وعلم الفلك فان النبات والحيوان وكذلك حركات الفلك كلها تعرفك كيف كان سريع الحساب . وقدذكرنا هذا مفصلا فى سورة البقرة وغيرها بأمثلة علمية مفيدة فى السموات والأرض

﴿ المقام الرابع فى هذا الفصل ﴾

ان الناس من عاداتهم جميعا أنهم اذا نزل بهم مكروه من غم أوهم تمنوا زواله واستغاثوا بربهم وفزعوا ونذروا انهم ان خرجوا من ذلك المكروه أقلعوا عن الذنوب وأخلصوا فى أعمالهم ونفعوا الناس . وهذه قاعدة مطردة فى الناس حتى اذا ذهب غمهم وزال بأسهم رجعوا الى عاداتهم ونسوا عهودهم وساروا على طرقهم الأولى اعتبر ذلك فى الذين يديمون الخمر والميسر وشرب الدخان وسائر الذين يعتادون شهوة من الشهوات فانهم حينما يضيقون ذرعا من الشهوات يقلعون عنها ثم لايلبثون أن ينغمسوا فيها انغماسا وهكذا الفقراء فانهم يقولون ان أغنانا الله كنا أرحم بالفقراء فاذا صاروا أغنياء كانوا أشدّ حرصا على المال منهم فى أيام فقرهم . وهكذا المرضى يقولون لوكنا أصحاء لفعلنا كيت وكيت ثم اذا صحوا رجعوا لعاداتهم ونقضوا عهودهم مع ربهم

فعبر

فعبر الله عن هذا كله قائلا (قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر) أى من الأهوال والشدائد المعبر عنها بالظلمات على سبيل الاستعارة يقال لليوم الشديد يوم مظلم فظلمات البرّ والبحر جميع المصائب الواقعة على الانسان (تدعونه تضرعا وخفية) معلنين ومسرين (لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) الذين يعطون الحقوق لأهلها و يجعلون النعم فى مواضعها التى خلقت لها ولا يضنون بجاه ولا مال ولا علم ولا قوّة أى يقولون لئن أنجيتنا الخ (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) غم سواها (ثم أنتم تشركون) تعودون للشرك ولا توفون بالعهد وكان مقتضى النظم أن يقال ثم أنتم لا تشكرون فعبر بالشرك عن رأس الخطيئة لأن انحراف القلب عن الحقائق هو الذى يحرف الجسم عن العمل النافع

﴿ المقام الخامس ﴾

ان الله عزّ وجل كثيرا ما يأمر السماء أن تنزل صواعق و يأمر الأرض بالزلزلة و يضع فى قلوب الناس الطمع والشره والحسد والحرص فيكون الحرب للمال وللدين ولاحتلال الأرض كما هو الحاصل فى كل زمان فالزلازل فى الأرض كثيرة وأهمها زلزلة بلاد اليابان فى هذه السنة وهكذا قد تنزل الصواعق وترى هذه الحرب الكبرى فيها قتل الناس فى الشرق والغرب بعضهم بعضا وزالت عروش وقامت أمم وانقسمت دول ووضع العزيز ورفع الذليل وهذا قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم) يخلطكم (شيعا) فرقا متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم (و يذيق بعضكم بأس بعض) بان يقتل بعضكم بعضا * روى البخارى عن جابر رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية - قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم - قال رسول الله ﷺ أعوذ بوجهك - أو من تحت أرجلكم - قال أعوذ بوجهك - أو يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم بأس بعض - قال هذا أهون أو هذا أيسر * وفى حديث مسلم ما يفيد أنه ﷺ سأل الله ثلاثة أشياء فأجيب الى اثنين وهما ألا يهلك أمته بالغرق و بالجدب ومنع الثالثة وهى ألا يجعل بأس أمته بينهم شديدا * وفى رواية الترمذى بدل الغرق ألا يسلط عليهم عدوّا من غيرهم . واعلم أن الآية عامة لسائر الناس وهى بيان لما عليه هذه الدنيا والحياة فيها وانها مضطربة فعلى الناس أن يفكروا فى أمرها قبل الخروج منها . وما هذه المذكرات الا ليتيقظ الناس و يتفكروا على أن كل امرئ متى ضعف أو كبر أودنا أجله فمات فهذا قد قامت قيامته والدنيا فى حقه قد ذهبت فلا سماء ولا أرض لديه مما عندنا فهذه المحن للتذكير بما نحن عليه من تقلب الأحوال فنحن على كل حال راحلون من الأرض فان لم يكن بصواعق السماء ولا بزلازل الأرض ولا بالحرب فيما بيننا فان أجسامنا فيها من التبدل والتغير والتفاعل ما يجعل أعلاها أسفلها فنذهب من الوجود فعلينا أن نتفكر فى هذه العوالم عسى أن نهتدى للحقائق فان لم يكن موتنا باضطراب الجسم العام وهو العالم كله فليكن ذلك باضطراب أجسامنا لا فرق بين الاضطرابين (انظر كيف نصرف الآيات) بالوعد والوعيد (لعلهم يفقهون)

﴿ المقام السادس ﴾

(وكذب به قومك وهو الحق) الواقع لا محالة (قل لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل الىّ أمركم فكيف أمنعكم من التكذيب أو أجازيكم (لكل نبأ مستقر) أى لكل خبر يخبر به الله فى القرآن وقت ومكان يقع فيه (وسوف تعلمون) عند وقوعه فى الدنيا والآخرة وهذه السورة نزلت بمكة وقد تمّ وعد الله وفتحت مكة وانتشر الاسلام وظهر صدق القرآن فانه لما قرأ هذا بمكة لم يكن هناك غزوات ولا فتوح ولا أمم دخلت فى دين الله أفواجا ولم يكن هناك هلاك لقريش كالتى فى وقعة بدر وأحد ولا غيرهما وانما حصل هذا كله بعد هذه السورة وأمثالها بزمان طويل وهذا هو الاعجاز الحقيقى (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) بالتكذيب والاستهزاء والطعن فيها (فأعرض عنهم) فلا تجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) غير القرآن لأن الآيات

منه (وإما ينسينك الشيطان) بان يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهى (فلا تقعد بعد الذكرى) بعد أن تذكره (مع القوم الظالمين) أى معهم وضع الظاهر موضع المضمر لانهم ظلموا حيث استهزؤا بما يجب أن يؤمنوا به (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ) أى ليس على المتقين المجالسين لهم شئ مما يحاسبون عليه (ولكن ذكرى) ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى يمتنعوا عن الخوض ويظهروا كراهة فعلتهم (لعلهم يتقون) يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم

واعلم أن الكفار فى زمن النبى ﷺ كان دينهم عبارة عن لعب ولهو كاتخاذ الأصنام والاستهزاء بالقرآن لانهم يستهزؤن به معتقدين أنهم يحافظون على دينهم الفاسد بل يلعبون ويلهون عند سماع القرآن ولكل أمة عيد فى دينها شرقا وغربا فتلك الأعياد اتخذتها الأمم لهوا ولعبا بخلاف عيد المسلمين فهو صلاة وتكبير واحسان فلذلك قال (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) يشمل هؤلاء كلهم (وغرتهم الحياة الدنيا) حتى أنكروا البعث (وذكر به) بالقرآن مخافة (أن تبسل نفس) تسلم الى الهلاك وترهن وتحبس وتحرم من الثواب (بما كسبت) من الاثم وأصل البسل فى اللغة التحريم تقول هذا عليك بسل أى حرام ممنوع فالقرآن تذكير للنفوس حتى لاتمنع من الثواب وتحبس فى جهنم (ليس لها من دون الله ولىّ) أى قريب يلى أمرها (ولا شفيع) يشفع فى الآخرة (وان تعدل كل عدل) وان تفد كل فداء والعدل الفدية لأنها تعادل المفدى (لا يؤخذ منها) أى ذلك العدل والفدية (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا) أسلموا الى العذاب بسبب سوء أعمالهم وانحراف عقولهم (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فيشربون ماء مغليا فى بطونهم وتحرق أجسامهم فى جهنم بالنار (قل أندعو) أنعبد (من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا) ونرجع الى الشرك (بعد إذ هدانا الله) الى الاسلام (كالذى استهوته الشياطين) كالذى ذهبت به مردة الجن الى المهامه والاستهواء استفعال من هوى يهوى هويا اذا ذهب (فى الأرض حيران) متحيرا ضالا عن الطريق (له أصحاب) لهذا المستهوى رفقة (يدعونه الى الهدى) أى يهدونه الى الطريق المستقيم يقولون له (ائتنا قل إن هدى الله) الذى هو الاسلام (هو الهدى) وحده وما عداه ضلال (وأمرنا) بذلك (لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة) أى للاسلام ولاقامة الصلاة (وهو الذى اليه تحشرون) يوم القيامة • ثم أفاد أن خلق السموات والأرض إنما يكون لحكمة وهكذا قول الله الحق حين يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ فخلقه الخلق لحكمة وقوله حق يوم يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ وتكون نتيجة ذلك أنه يخلق بالحكمة ومتى قال قولا يقتضى الايجاد تمّ وتحقق وهذا قوله (وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) والحكمة فكيف يترك هؤلاء الضالين وشأنهم فالحكمة تقتضى أن يهذبوا ويؤدّبوا • وكل من فعل بالحكمة من المخلوقين كالمهندسين والنجارين والمصوّرين يصعب عليهم العمل ولا يطاوعهم المصنوع من حديد أو ذهب أو حجارة فيحتالون ويجدّون فأما هو فان قوله الحق كائن حين يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ بلا نصب ولا تعب ولا آلات هندسية ولا حفر ولا تنقيب ولا مدارس ولا معلمين وهذا قوله (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) فيوم واقع خبرا لقوله قوله الحق أى وقوله الحق كائن يوم يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ فهو نافذ فى الكائنات بخلاف الناس (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) جمع صورة والنفخ فيها إحياؤها بنفخ الروح فيها ولقد قالوا يارسول الله كيف نفعل قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وأجمع أهل السنة أن المراد بالصور القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب والقول الأوّل لأبى عبيدة (عالم الغيب والشهادة) يعلم ماغاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن علمه شئ (وهو الحكيم الخبير) هذه الجملة ملخص الآية • فذلكة لها • انتهى المقصد الأوّل من السورة تفسيرا لفظيا

وفى

﴿ وفى هذا المقصد لطائف ﴾

اللطيفة الأولى • فى قوله ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ـ وكيف كان أوّل فكر المؤلف فيهما إذ قرأ أوّل كتاب فى علم الفلك

اللطيفة الثانية • سؤال أحد الفلاحين له فى نهاية العالم من حيث المكان

اللطيفة الثالثة • قوله تعالى ـ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ـ وكيف كان العلم الحديث قد بين هذه بيانا شافيا وبه فهمنا معنى ـ وللبسنا عليهم مايلبسون ـ

اللطيفة الرابعة • قوله تعالى ـ كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة ـ وكيف كانت القيامة رحمة لانقمة لأنها احياء • وبيان المعجزة فى قوله ـ وله ماسكن الخ ـ

اللطيفة الخامسة • قوله تعالى ـ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ـ وكيف كان القهر فى علم الكيمياء وغيره مصحوبا بالحكمة

اللطيفة السادسة • قوله تعالى ـ ومامن دابة فى الأرض ولاطائر الخ ـ وبيان ما كان من اختلاء المؤلف فى المزارع ليلا وتفكره فى أمر الحيوان وذكر الغرائز الحيوانية العجيبة التى تدل على نوع ادراك الحيوان ومحادثة المؤلف مع فلاح فى أمر الضفادع واجابة امرأة مع عجز الرجل وتبيان ان هذه المسألة من أمّهات المسائل التى عجزت عنها أهل الأديان وان المسلمين قد قصروا لتركهم هذه المباحث العالية المرقية للأمم

اللطيفة السابعة • قوله تعالى ـ وعنده مفاتح الغيب ـ وبيان أقوال علماء الهند فى علم الله للغيب وقول علماء الأمم فى ذلك وعلماء العصر الحاضر ثم اظهار أن ذلك كله تقريب

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(أقص عليك أيها الذكى نبأ ماكنت أزاوله فى أوّل حياتى وأنا مجاور بالجامع الأزهر)

كنت فى الجامع الأزهر حوالى أوّل القرن الرابع عشر الهجرى ولم أكن إذ ذاك أعرف شيأ عن المدارس المصرية التى كانت حافلة بالطلاب والتلاميذ فيها يقرؤن علم الفلك والعلوم الرياضية ولكن هو التقليد يعمى ويصم فلم أكن لأعلم أن فى الأرض من يقرأ علم الفلك الا القدماء وهذا يدلك أن الانسان يحجب عما حوله وأمامه وخلفه مادام الأستاذ لايعلمه وكان الناس فى هذه الأرض مسجونون لافى سجن جسمى بل سجن عقلى وبينهم حجب قد أسدلت فكم من علم يعرفه صاحبك وأنت تنكره بما أسدل من الحجب العقلية على الأنفس فتوارت بالحجاب • أقول فكرت ليلة فى هذه السماء ونجومها وصار فكرى هائما واشتعل القلب نارا وصرت أسأل فلا أجاب حتى اذا قابلنى أحد العلماء فقال عندى كتاب فأخذته وكان ذلك وقت العطلة فأخذته وسافرت مع المجاورين فى المراكب الشراعية والكتاب هو (الجغمينى) فقرأته فى يومين وأنا لا أتركه ساعة حتى اطلعت على البروج والمنازل والأفلاك وسير الشمس مع أنى اذ ذاك لم أقرأ علم الهندسة والحساب فعرفت ذلك معرفة عامة وهو يحيل فى البراهين على اقليدس • الكتاب على طريقة القدماء وهو يصوّر الأفلاك التسعة وكواكبها وانها طبقات بعضها فوق بعض الخ • وأنت تعلم أن هذه الطريقة جاء بعدها غيرها كما قدّمناه فى هذا التفسير • والمقصود أنى بعد ما اطلعت على ملخص الكتاب فرحت فرحا كأنى أعطيت ملك سليمان وصرت أشدّ الناس اغتباطا ولما توجه المجاورون الى أهليهم بقيت خارج القرية قبيل الغروب وجلست فى أرض قرية (بردين) بين الحشائش الخضرة والأشجار النضرة والنسمات تهب والأوراق ترف والأرض قد اكتست جلابيب صفراء وهى تسر الناظرين وبجانبى نهر فيه لجين قد وشاه ذهب الأصيل

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ❊ ذهب الأصيل على لجين الماء

فأخذت أصلى العصر وأنظر للشمس وقد دنت من الغروب وأرفع طرفى الى السماء وأحمد الله أن أرانى

ما كنت اليه مشتاقا و بقيت كذلك فرحا مستبشرا حامدا شاكرا حتى اذا أقبل الظلام توجهت الى البلدة قريرالعين . وكانت العطلة لاتزيد على أسبوعين فصرفتها فى نقل هذا الكتاب ولكن بعد مدة دخلت مدرسة دار العلوم فتعلمته بعد علم الحساب والجبر والهندسة - ويأبى الله الا أن يتم نوره -

ولعمرى ما أوردت هذه القصة الا لأبشر المشتاقين للعلم المغرمين بالحكمة أن الله حاضر عندهم سيهديهم رشدهم ويعطيهم طلبتهم . ولقد تعلمت بعد يأسى من العلم ولكم كنت فى ظلمات الليالى أرقب النجوم ويعجبنى جمالها وأسرّ لمرآها وأقول ماذا وراءها . وما كنت أعلم أن فى الأمم من يرقبون و ينظرون فلما دخلت المدارس وقرأت عن أهل الغرب ألفيت الغرام بالعلم عاما ولا يعشق العلم الا الأكابر

ففز بعلم تعش حيا به أبدا * الناس موتى وأهل العلم أحياء

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

كنت مرة فى قريتنا ببلاد الشرقية فقال أحد أقاربى يا ابن أخى أنظر هذه الأرض أليس لها آخر عندكم فى العلم . قلت بلى . قال ووراء الأرض السماء . قلت نعم . قال وهكذا سماء وراء سماء وماذا بعد السموات . هل يعلم أحد شيأ وهل أحد فى الأزهر عندكم يعرف ذلك . وكان هذا السؤال من أسباب البحث فى هذه العلوم

واقد كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر كثير الشغف بجمال النجوم وكم ليلة بتها ساهرا أحس فى القلب بحزن عميق لجهلى بهذه العوالم وكنت أقول فى نفسى ليت شعرى ماذا يقول الناس فى هذه العوالم . ولقد بتّ ليلة ونساء قريتنا يندبن على ميت من سراة القرية وهنّ يرتلن أصواتا منتظمات نادبات هذا السرى والقوم جالسون فى خيمة فى الخلاء والنجوم باهرة فى السماء تتلألأ فكان لأصواتهنّ رنة حزن . ودام ذلك الحزن ليالى ذوات عدد فكانت رنة الأصوات تحدث فى النفس رقة محزنة وكأن الباكيات يندبننى لأنى جاهل بما فى العالم من الجمال

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

يقول الله - ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا - ومعنى هذا أن الملائكة لا يظهرون للناس الا بصورة بشرية . ولقد ظهر فى العلم الحديث وذلك أنهم قد بحثوا فى علم الأرواح . كيف تظهر الروح فوجدوا أن أرواح الأموات التى تتجلى للأحياء تستعير من جسم الوسيط (أى الشخص المنوّم بالفتح) الموادّ التى تتشكل بها وجسم الوسيط إذ ذاك ينقص وزنه على مقدار ما أخذ منه . وهذا الأمر حققه العلامة (أكساكوف) والمسيو (أرمستر ونج) والمعلم (أولكوت) الانكليزى وخلافهم من المجربين الذين أجمعوا على أن جسم الوسيط ينقص وزنه عند انتقال مادّته الى جسم الروح ويقولون ان للارواح جسما لطيفا يدوم لها أمدا طويلا كأنه غلاف للروح وهذا الجسم اللطيف كأنه قالب للجسم المشاهد لنا وفناء الجسد المشاهد لا يغير هيئة الروح مع غلافها واذا كان ذلك فى الأرواح فهو فى الملائكة أولى لأن الملائكة ألطف من الأرواح يقول الله لوجعلت الملك مرسلا اليكم لجعلته رجلا فترونه ويرجع اللبس وإذن لابدّ من مادّة حقيقية لامجرّد وهم أوخيال فبهذا وافق الكشف الحديث القرآن وهو أن عالم الأرواح لا يشاهد الا بشكل مادّى فما دمنا فى الحياة فلا نرى ذلك العالم الاعلى أشكال حسية عنصرية . قالت مدام ماريات الانجليزية فى تأليف لها فى الحادث الروحانى أوقفنى العلامة وليليام كروكسى وقت الجلسة لمراقبة وزن الآنسة فلورنس كوك بعد أن وضعها على آلة للوزن اخترعها بنفسه فوجدت ثقل الوسيطة قبل تجلى كان ١١٢ ليبره ولما تجلت الروح تناقص وزنها الى ٥٦ ليبره أى زهاء النصف انتهى

اللطيفة

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

قوله تعالى ـ كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة ـ هذه الآية تعرف الناس رحمة الله • فهو يقول خلقتكم فى الأرض مفترقين متحاسدين متعادين واني وان كنت شملتكم برحمتى فيها فهناك رحمة أوسع ومجال أبهج وكمال أبدع وهو اجتماعكم فى عالم السموات وأكاف العوالم اللطيفة المزدانة بالجمال المفرغة فى قالب الكمال وأنتم هناك مجتمعون بعد التفرق وأى رحمة أعظم من اطالة الحياة وانها ليست منتهية بالموت بل دائمة البقاء • وقوله ـ وله ماسكن فى الليل والنهار الخ ـ فى هذه الآية عجب عجاب من دلائل النبوة وعجائب الحكمة فكيف جمع الله بالتعبير بسكن بين لطائف العوالم التى نشاهدها • فانظر رعاك الله كيف ترى أن الأرض والكواكب والشموس والأقمار جميعها متحركات لاسكون لها فلا أرض ولا شمس ولا قمر بل لاذرة فى هذا الوجود ساكنة فالتعبير بالسكون مناقض لحال هذا العالم المشاهد ولكن اذا وقفت ليلا تنظر النجوم وتلاحظ الأرض حولك لاتجد حركة فالكواكب والأرض والعوالم حولك تراها ساكنة ثابتة وأنت مطمئن قرير العين بسكون هذه العوالم هذه هى الحكمة بل المعجزة • كون متحرك ولكنه ساكن مطمئن للنفوس • هذا هو سر قوله ـ وله ماسكن ـ كأنه يقول ان الابداع فى العالم جعله ساكنا مع أنه متحرك انتهى

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾

قوله تعالى ـ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ـ القهر فوق العباد مصحوب بالحكمة والعلم واعتبر ذلك فى كل ماهو ضرورى للبقاء ونعمة الحياة • وتأمل كيف ترى أن كل حى من إنسان وحيوان مقهور على الغذاء مفطور على طلبه فهناك فى داخل جسمه داع حثيث يقهره على طلب الغذاء وألم باطنى يسمى بالجوع وداع آخر يسمى بالشبع وهو كراهة الأكل ولولا سائق الجوع وقائد اللذة فى الطعام وسائق العطش وقائد اللذة فى الشراب وسائق الشبق وقائد اللذة فى الوقاع ماأكل الناس ولاشربوا ولا ولدوا فالأولان بهما بقاء الأشخاص والاخير به بقاء الأنواع فى كل حيوان • ومعلوم أن حياة الأشخاص وحياة الأنواع هى المقصود الأعظم من هذه الدنيا ومن عليها فكيف كان قهر الحيوان على الحياة • ومن عجب أنه لم يوكل الينا أمر البقاء ولا التناسل بل قهرنا عليهما قهرا ولم نكن فيهما الامضطرين بخلاف بناء المنازل وزرع الأرض وحرثها والتجارة فاننا نهندس ونحفر الترع وليس هناك الاقائد وسائق عقليان • فأما حياتنا فقد وجدنا أن نفوسنا فيها لكل شئ سائق بسوطه ليقهرنا ويلجئنا أن نأكل ونشرب ونواقع وقائد مشوق لذلك كما يكون للحيوان فى الأمكنة المخيفة رجل يقود وآخر يسوق حتى يسلم من العطب مبالغة فى المحافظة عليه وكما يجعل للدابة سائق بالعصا وآخر معه حشائش تنظرها لتتبعه فيكون ذلك أعون على سرعة سيرها • فهذا هو القهر والغلبة ولكن لامع الظلم ووضع الشئ فى غير موضعه بل هو القاهر وهو الحكيم الذى يضع الشئ فى موضعه وهو الخبير بما يصنع

واعتبر ذلك فى المرأة ترضع ولدها والناقة ترضع فصيلها والدجاجة والحمامة والنعامة تحضن بيضها فانهن جميعا مقهورات على ذلك العطف قهرا لامفر منه بل اعتبر ذلك أيضا فى المخترعين والمؤلفين الذين يجدون فى أعمالهم وهم لايعلمون شيأ فى مستقبل أمرهم ويجدون ليلا ونهارا وربما ضاعت أموالهم فى سبيل أعمالهم ومحنتهم وحياتهم وليس يجنى الثمرة الا أممهم كما لم يجن ثمرة الحياة الافصيل الناقة وولد الظبية وكل لكل مسخرون وهم لايعلمون بل العالم هو الحكيم الذى سخر الآباء والأمهات بالعطف والحنان

ومن عجب أن الناس مسخرون ولايعلمون أنهم مسخرون ومقهورون وهم لايشعرون • والناس يضربون المثل فى الظلم بجامع الرفاعى بمصر قديما وهو قريب من قلعة الجبل بمصر ويقولون ان الوالى كان اذا

أمر رجلا أن يعمل فيه وأبى أن يطاوعه يقول له الوالى لابالله ويقهره على العمل فيه حتى سمى المسجد إذ ذاك (بمسجد لابالله) وقيل فيه

بنى مسجدا لله من غير حله * فكان بحمد الله غير موفق

فهذا القهر ضرب به المثل ولكن نحن مقهورون فى دائم الأوقات قهرا بحكمة وعلم فلم نحس بأننا مقهورون . وترى القهر فى السموات فوقنا فالكواكب تسير بالقهر والشمس والقمر وهذا القهر منظم لانها أطوع منا فلذلك قال ـ فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ـ فلم يسم هذه العوالم ظالمة لانها لامخالفة منها فترى مواعيد الكواكب لاتغير فيها وكذا الحيوان لايقرب أنثاه أيام حملها ولايأكل الامايصلح جسده أما الانسان فكثيرا مايخطئ فى تقدير الأكل والشرب والوقاع فيقع فى الضر فقل مرض الحيوان وكثر مرض الانسان وخطؤه وذنوبه لاسيما فى المدن والقرى بجهله وخطئه فههنا حمل الانسان الأمانة والتكليف ووجب عليه أن يتجافى عن أشياء ضارة به كالادخار وكلف ببذل المال والعبادات وما أشبه ذلك وحتم عليه تربية القضاة لفصل قضاياه والاطباء لمداواة مرضاه فى المدن وقل ذلك فى الاعراب بالبوادى . فأما الحيوان فهو غير محتاج الى الأطباء مادام بعيدا عن الناس لصفاء عيشه وحسن تقديره لطعامه فتكون الحيوانات الوحشيه فى الأحراش والغابات والفلوات وطيور السموات سليمة لأنها سائرة فى القهر مع حكمة الحكيم كما سارت الكواكب والشمس والقمر فلم تكلف بمايصلح خللها كما كلف الانسان

ولماجرت الكواكب والشمس والقمر بحساب أرسلت الحرارة على الأرض فقهرت الثلج فذاب فصار ماء والماء أقرب الى البساطة لأنه مركب تركيبا قليل العناصر فأصبح وهو جامد ثلجى منظما نظاما بديعا فان قطرات الماء اذا ضربها البرد فى درجة أقل من الصفر وقعت ثلجا فى البيوت بالبلاد الشديدة البرد فاذا اجتمع خلق كثير فى قاعة صغيرة هناك وفتحت نافذة من نوافذ القاعة والبرد شديد جمد البخار فى هوائها ووقع ثلجا والثلج مركب من بلورات من الجليد ابرية الشكل يصل بعضها ببعض على أشكال تدهش الناظر وتبهر النواظر وقد رسم بعضها بالأشكال الستة المسدسة فى سورة آل عمران . فانظر كيف كانت مسدسة الشكل وليس فى الأشكال مسدس منها يشابه المسدس الآخر . فتجد وحدة فى التسديس واختلافا فى الأشكال كما ترى نظام بيوت النحل فهو مسدس الشكل ولكن شكله واحد . أماهنا فالتسديس واحد والنظم مختلف لان مسدسات النحل فى بيوتها من صنع حيوان ضعيف أماهنا فانه صنع الحكيم الخبير فهنا العمل واسع وهناك ضيق وهذا هوقوله تعالى ـ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ـ

اعلم أن الاكسوجين لم يوجد حرا فى الطبيعة خالصا من الشوائب وهو داخل فى التراب ومع الكربون أى الفحم فى حامض الكربونيك وهو داخل فى تركيب المواد التى حولت لمثل الصخور والرمل والتراب وكذا المعادن اذا حصل لها الصدأ وكل ماصدئ وزاد وزنه فزيادة الوزن ناجة من الاكسوجين الذى هو داخل فى الهواء وفى الماء وهو المصلح لدمنا بالتنفس . فانظر لقهر الله وحكمته أنظر كيف ترى أن المعدنين المتشابهين كالرصاص والقصدير اذا تركبا كان المركب قريبا منهما . أما العنصران اللذان لاتشابه بينهما كالاكسوجين والاودروجين فانهما غازان والاول ضرورى للاشتعال والثانى قابل للاشتعال ويكون منهما سائل ليس من طبع أحدهما وهو الماء فهو يطفئ النار ويمنع الاشتعال . فتعجب من قهر الله فوق عباده حيث قهر الغازين فصارا سائلا وهذا السائل أطفأ ماأشعلاه ومنع ماقبلاه انتهى

﴿ اللطيفة السادسة ﴾

قوله تعالى ـ ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ـ لقد كنت أيام مجاورتى

بالجامع

بالجامع الازهر أرجع الى بلاد الريف أيام العطلة فاذا غابت الشمس وأخذ الليل يرخى سدوله وأقبل الظلام من المشرق خرجت من البيوت طالبا الحقول والخلوات فأجلس حتى لا يهوّش على عقلى المهوّشون وكنت أنشد قول مجنون ليلى

وأخرج من بين البيوت لعلنى * أحدث عنك النفس بالليل خاليا

وكانت النظرات فى تلك الخلوات للنجوم وجمالها والحقول وسماع النغمات باجتماع الحشرات فيها بتلك الظلمات والنجم مشرق والقلب مستيقظ والنفس توّاقة • وتارة أحضر القرون الخالية والأيام الماضية وتمرّ الجيوش تلو الجيوش والملوك تلو الملوك على الأرض التى أنا عليها من الفراعنة العظام والملوك الفخام وكان يخيل الى أنها دول تتبعها دول قد مرّت فى مكانى الذى أنا جالس فيه والزمان مقبل والمواكب حافلة والجنود مصطفة وكل مطيعون ولساداتهم خاضعون • وتارة أنظر فى ذلك الجوّ البعيد المدى الكثير الجدا الواسع الأكناف البعيد الأطراف وأرى كيف خيم على الحقول والأحراش والغياض والغابات وأتأمل كيف جلس قبلى أناس فسمعوا ماسمعت من نغمات الحشرات فى دياجى الظلمات وهم لا يعون ماتقول ولا يسمعون الا أصواتا • وكم جلس جالس قبلى وهو دهش من حيث يرى ولا يرى ويعجب قائلا كيف تجلىّ الليل بالأنوار والنغمات وقد هبت النسمات وتمايلت الأغصان وأخذ الفكر يجرى مجراه وهو لا يعلم الاقليلا والنظام الليلى فى أصواته وهوائه وحقوله واحد لا يتغير فالهواء يهبّ والريح تلعب بالغصون والحشرات المغنيات الفرحات بالخصب والريف لم تنقص نغمتها ولم تتغير بهجتها فمن سمعها منذ ألف سنة وسمعها الآن يظنّ أنها هى بعينها وذلك لشدّة النظام وحسن الاتقان كما تقوم الدولة اثر الدولة والولد اثر أبيه بعد موته والآخر يتبع الأوّل والمتأخر يتبع المتقدّم

﴿ حكاية الانسان والحيوان ﴾

بينما أنا جالس ذات ليلة إذ مرّ ذئب أو ثعلب سريعا فقلت فى نفسى ياللعجب أهذا عقل وكيف رأينا الذئاب والثعالب وسائر الحيوانات البرية لديها ذكاء كأنه عقل وكيف كان علماؤنا لا يقولون لنا الا أن هذه غريزة فأخذت أشك فيما قرأت وقلت فى نفسى يقولون الانسان حيوان ناطق فالنطق الفكرى خاص بالانسان ومع ذلك نرى هذه الحيوانات عندها من الذكاء مالا ينكر ومن ذلك الوقت أخذت أفكر فى أنواع الحيوان وواليت الدرس والتنقيب ورأيت بعض رجال الدين يقولون ان الحيوان لا يحشر لأنه ليس كالانسان وان حشر لا يدوم وهكذا فكانت هذه الأقوال عندى مربكة للفهم مزعجة للنفس فهل كانت هذه الحيوانات كلها مخلوقة لا لغاية ثم نظرت فوجدت الامم الخالية قد مرق كثير من المتعلمين منها من الديانات بشكوك ومنها هذه المسألة قالوا كيف يكون الانسان والحيوان مخلوقين معا فى درجات الرقى منتظمة من أدنى حيوان الى أعلى انسان ثم لا يحظى بارتقاء بعد الموت الا الانسان ولم هذا الاختصاص وكيف كان أدنى الانسان يحيا بعد الموت وهو قريب من الحيوان والحيوان لا يحيا وهكذا • والقرآن يقول ـ ومامن دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شئ ثم الى ربهم يحشرون ـ فالآية صريحة واضحة والناس لا يبالون بالدين ولا بالعقل وانما هم المتعلمين فى ديار الاسلام محصور فى أمرين العلوم الفقهية للمسائل القضائية والكلمات الفلسفية فى الكتب الوراثية فأما غير ذلك فالعقول فى غطاء والناس نيام وهذا القرآن جاء ليفك العقول من عقلها وينشط الناس الى العمل والفكر فعكس الناس الامر وأرخوا على العقول حجبها وحبسوا النفوس فى أقفاصها ومات قوم شهداء الجهالة قتلى التقليد صرعى الاوهام فلم ينبغ نابغون الا فيما سطره المؤلفون من المعقدات وأورثه المتقدمون من المجادلات مع أن العقول مصنوعة صنعا إبداعيا مفطورة فطرة قوية فكان حقها أن يطلق سراحها وأن لا يكبح جماحها وأن يطلق لها العنان فتنظر فى كل شئ نظرا

يرضيها وتسرح الطرق فيما يرقيها فيا أسفا على أمم درست وعقول غفلت ونفوس هلكت وهم مسجونون اللهم الا قليلا ممن شرفهم الله وأنعم عليهم برضاه فكتموا العلم خوفا من السيف والسنان وجور السلطان وتقول الجهلة الطغام فأولئك هم السادة الأخيار . وكان حق المسلمين أن يكونوا أوّل العالمين مفكرين ناظرين لامقلدين جامدين

القرآن هنا صريح أن الحيوان له حياة تماثل حياتنا فله مستقرّ ومستودع وله علم بحياته وهكذا سيحشر كما نحشر . هذا هو الحق الصراح فأما مستقبله فمجهول كمستقبلنا لأننا لانعرف ماذا يكون الا مما سمعنا أو فكرنا

﴿ الحدأة تخاطبني قائلة قد سخر لى ما فى السموات وما فى الأرض
ورأى المرحوم أستاذى الشيخ حسن الطويل ﴾

بينما أنا يوما واقف بقريتنا أمام منزلنا إذ لمحت حدأة ترفرف بجناحيها كى تبحث بحدّة نظرها عن حيوان حىّ صغير تختطفه أو ميت تلتقطه تخيل لى وهى فى الجوّ ترفرف أنها تقول لى لقد سخرت لى الممالك والملوك والزارع والزروع والحيوان والنبات وعالم الأفلاك . ألم يكن عيشى على فراخ دجاجكم التى ربيت فى أحضانكم وتحت إشرافكم واقتات من حبكم الذى زرعتموه ومن حقلكم الذى رويتموه ومن أنهاركم الجارية ونيلكم العظيم . وهل يتمّ هذا النظام أو يقوم هذا العمل الا بمهندسين ومنظمين، ومدارس ومدرسين وحاكمين ومحكومين وقضاة ومتقاضين وجيوش وعليها مهيمنون . أنتم المربون للدجاج وأنا الخاطفة لها ولايتمّ لكم شئ من هذا الا بنظام تام وحكومة صادقة ولايتمّ شئ على أرضكم الا بحرارة جوّية واشراقات شمسية ودوران الكواكب الدرّية . فالعالم مسخر لى فأين دعواك إذ تقول سخرت لى الأفلاك وأنا شريكتك فى دعواك . فأنتم الزارعون المربون للحيوان وأنا قاطفة الثمرات فاذا ادّعيت أنك سخرت لك الأرضون والسموات فهذه دعوى الكاذبين فلئن سخر لك الحيوان فقد سخرت أنت وهو لى كلّ لكل مسخر فما هذا الضلال والافك والبهتان . ومن عجب أن الحدأة ظلت ترفرف بجناحيها حتى انتهى الفكر الى هذا كأنها كانت تعطينى هذا الدرس ثم طارت الى حيث تريد ورجعت حائرا فى أمرى حتى اذا رجعنا الى المدرسة حدّثت أستاذى الشيخ حسن الطويل وكان طويل الباع رحمه الله فى هذه الآراء . فقال نعم هذا حق ولكنّ الانسان أوسع مجالا وأكثر نوالا وأبعد ارتقالا وأغزر أملا وأعز نفرا لأنه لانهاية لكمالاته ولاغاية لسعاداته . وهذه أقوال إقناعية على الطريقة المعروفة والآراء الموروثة تقنع السامع إقناعا وقتيا وترضيه مليا . ثم يرجع له الفكر كرّتين ويؤتيه طالب اليقين ولايقين الا قوله تعالى — وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم — ياحسرة على الأمة التى داسها الفرنجة وهم نائمون وسخر منها الغرب وهم ساهون لاهون ماتوا وهم أحياء وكانوا أعزاء شقوا وكانوا سعداء . ذلك للبلاء النازل على العقول والكسل المخيم على النفوس والنوم الذى أحاط بالناس . فلا الحوادث بصرتهم ولا الكتاب أيقظهم ولا العقل بصرهم . فلتكن الأجيال المقبلة والعقول الجديدة بعدنا أصفى وأنقى وأرقى وليرجعوا مجدا ضاع وعزا ذهب وليوقدوا نارا خبت وليكونوا خير أمة أخرجت للناس

﴿ نظرى فى الحقول ومحادثة مع فلاح واجابة امرأة عنه ﴾

كنت يوما مارّا فى حقول قريتنا وما كنت فى الحقول الادارسا ولا أمرّ فيها الاقارئا فالقراءة انما تكون فى الحقول وفى نظر النجوم فأما القراءة اللفظية فما أبعدها عن الأمور العقلية وكان الخاطر فى أوّل أمرى هكذا — وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم

يتفكرون

يتفكرون ـ وتارة يكون هذا الخاطر ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير ـ وتارة ـ ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر ـ الخ الآية فى سورة البقرة وكنت أجد ذلك ملازما لفكرى لايفارق عقلى

ولقد حدّث أحد الفلاحين مرّة عن العسل الذى يشتاره الناس من الجبال وأنه يكون هناك بكثرة وقد يجمد فى الجبل وفى حلاوته ميل الى طعم الملح لانها تشرب من الماء المعين • وكان الحديث ليلا والهواء صافيا فكنت أشعر بميل شديد وشوق الى معرفة عجائب النحل وكان المحدّث والسامعون يتذكرون القطع العسلية التى يحملها المسافرون من ذلك العسل • فأما أنا فقد كنت مشغول الفؤاد مهتم القلب بعجائب النحل وفوائده

﴿ محادثة ﴾

ومرّة مررت بجانب نهر فيه ماء قليل من بقايا ماء النيل وفيه حيوانات صغيرة تسمى (أبا ذنيبة) ترى ذاهبة جائية فى المستنقعات وكنت فى تلك السنة قد قرأت فى مدرسة دار العلوم أن هذه الحيوانات أصل الضفادع ولم أكن لأعلم ذلك الا من المدرسة فقلت لرجل من الفلاحين يا ابراهيم أتدرى ماهذا • فقال ومن أين أعرف وكانت امرأة تحمل جرّة على رأسها قد ملأتها ماء قد سمعت هذا القول فقالت أيها الرجل كيف تجهل هذا وأنت شائب • ألم تعلم بأن هذا هو أصل الضفادع قد ولدتهن الضفدعة فعجبت من قولها غاية العجب وقلت ان فى القرى والفلاحين من هم أهل للحكمة والعلم رجالا ونساء ولكن قلة التعليم منعت الناس من السعادة والارتقاء • وهاك عجائب مما جاء فى العلوم فى الحيوان

﴿ عجائب الحيوان ﴾

العجيبة الأولى • قد شاهد العلماء قرودا فى الممالك المتحدة تبنى قنطرة من أغرب ماسمعه البشر وذلك أنها اذا أرادت عبور نهر انتخبت أفرادا منها وأمسك واحد بغصن شجرة على شاطئ النهر وأمسك بيديه ورجليه ثم أمسك آخر فآخر حتى تنتظم سلسلة من القرود ثم يصنع أسفلهن اهتزازا فى السلسلة فلا تزال فى ارتفاع وانخفاض حتى يمسك القرد الذى فى طرف السلسلة شجرة على الشاطئ الآخر وتتكوّن قنطرة محدبة من القرود ثم تمرّ عليها مئات منهن عبورا اعتياديا بلا خوف حتى ان الصغار ليتغامزن فوق تلك القنطرة فاذا انتظم عقد جمعها فى الشاطئ ونجوا جميعا سالمين أنزل الذى أمسك بالشجرة فى الشاطئ الأوّل يديه ومعلوم أن الآخر مثبت يديه فى الشاطئ الثانى فتنتقل السلسلة للشاطئ الآخر و يصبح أوّل القردة امساكا بالشاطئ الأوّل أدناها فى الشاطئ الثانى وقد خرج بالسلامة فيه ثم تتبعه بقية السلسلة مع باقى القرود • وهذا قوله تعالى ـ ومامن دابة فى الأرض الا على الله رزقها و يعلم مستقرّها ومستودعها كل فى كتاب مبين ـ وقوله هنا ـ ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم الخ ـ انتهى من كتابى جمال العالم نقلا عن الكتب الافرنجية

﴿ الكلب وفضائله وذكاؤه ﴾

العجيبة الثانية • حكى أن امرأة كانت فى سفينة بخارية معها ظئر تحمل ولدها فوقفت الظئر فى نافذة مشرفة على البحر وأطلت على الماء والصبى فى يدها فمدّ رأسه فسقط فى البحر فصرخت الظئر واهتاج أهل السفينة وأما أمّه فأغشى عليها وكان فى أخريات الناس شاب فى يده كتاب وبجانبه كلب من بلاد الأرض الجديدة فأسرع الى الظئر وقال لها هل معك شئ من أثر الصبى فقالت لا الا خرقا من ثيابه بقيت فى يدى حين سقط فى البحر فأخذها منها وأشار الى الكلب بها متجها الى الموضع الذى سقط فيه الصبى فما كان الا كلمح البصر حتى وثب الكلب الى تلك النقطة وغاب تحت الماء وكان هناك سفن شراعية تحاول أن تقف للصبى على أثر فلم يمكنها فبينما هم كذلك والناس منتظرون اذا بالكلب قد أقبل يضارب الأمواج وفى فمه شئ قد ثقل عليه فأسرعوا

اليه من كل صوب حتى انتشلوه والصبى فى فمه حياسليما فلما رأت أمّه ذلك خرت مغشيا عليها ثم دنت من الكلب وأخذت تمسحه وتقبله وتمشط رأسه ثم قالت لمالكه انى غنية ذات ثروة واسعة فهل تعطيه لى بكل ماتطلب من ثروتى ولوكانت كلها فتبسم ضاحكا وقال الحمد لله إذ أدّى لك الكلب هذه الخدمة ولكن لا أبيعه ولو بملء الأرض ذهبا فروى الكلب إذ ذاك يتمسح برجلى سيده كأنه فهم مايقولان انتهى من كتابى جمال العالم

﴿ العجيبة الثالثة كلب البحر ﴾

من كتابى جمال العالم أيضا هذا الحيوان فى جهات كندا وفى أمريكا الشمالية وهو يكون جماعات تتحد على الأعمال وتفعل فعل الأمم الراقية فى الصناعات وفنون العمارات ولها مغارات وسراديب تحت الأرض لتسكن فيها زمن الحر ولاتزال فيها حتى اذا أقبل الشتاء وهجم بخيله ورجله عرفت تلك الحيوانات بوادره فاجتمعن زرافات وجماعات مابين المائتين وثلاث المائة فأخذن يردن الأماكن وينظرن أصلحها وأحسنها على شريطة أن يكون على شاطئ نهر جار ليبنين مساكنهن فيه ليكون الماء حصنا حصينا من هجمات الأعداء كماسترى وتحزنا نفيسا يقيها من الثلج القارس القابض وعلى ذلك تأتى هذه الكلاب ليلا الى الأشجار المقطعة على ضفتى النهر وتقطع غصونها وكتلها الكبيرة حتى تسقط على سطح الماء الجارى فيأخذها فى تياره ويسير بها حتى اذا حاذت المكان المنتخب للبناء أوقف أولئك الكلاب سير الأخشاب ثم أخذن يكسرنها قطعا قطعا حسبما يقتضيه بناء السد ثم أخذن يغرسنها فى أسفل النهر بهيئة تكون سدّا منتظما بين الشاطئين معارضا جرى الماء كسدّ العرم لبلقيس وخزان اصوان وملأن مابين تلك الأخشاب بالأحجار والطين ولو رأيت ثم رأيتهن غاديات رائحات والطين والأحجار بين أفواههن وأيديهن وبعد الفراغ من ذلك يجتمعن كل عشرة أواثنى عشر منهن ويبنين بيتا ذا غرفتين عليا للسكنى وسفلى لخزن الأقوات من قشور خشب الأشجار كالحور ويتكوّن من تلك البيوت هيئة قرية • ومن العجيب أن الأبواب لاتفتح الا تحت الماء بنحو ثلاثة أقدام أوأربعة حتى لايصل اليها أحد بسوء وليس لها أبواب سواها فاذا اشتهت الاكل وهى فى الغرف العليا تدلت الى السفلى المملوءة بالماء الداخل من الباب فتناولت تلك القشور الآمنة من الثلج المتراكم على سطح البسيطة والماء إذعادة الماء من أسفل أن يوقى من الثلج ولما علم أهل تلك الجهات ذلك وأن هذا الحيوان حريص على سدّه أخذوا يحتالون على صيده بفتح سده فتخرج تلك الحيوانات سراعا سراعا الى سدّه فى أسرع من لمح البصر فيصطاد منها الصيادون أثناء محاولة اصلاح السدّ فتأمل كيف اتحد هذا الحيوان على المصلحة وكيف عرف مادرسه الانسان فى قضايا ارشميدس التى بها تجرى السفن فى البحار وكيف اتحد على الأعمال وفعل فعل أعظم الأمم المتمدينة وكيف عجز أهل الشرق عن تقليده فى اتحاده وكيف وضعت له أسنان حادّة بها يقطع تلك الأشجار أغنته عن الآلات والأدوات وكيف عرف ذلك كله بلا تعلم ولاتعليم (فسبحان الخلاق العظيم)

﴿ العجيبة الرابعة الكلب الذى هو نوع يسمى الدرواس ﴾

روى المعلم بال فى المجلة العلمية حادثا شهده عيانا قال سار كلب من نوع الدرواس على ماء مجمد واذا بالجليد انقض تحته وتكسر وكاد يغرق فحاول التشبث بطرف غصن مدلى لينجو به من الغرق فلم يتوصل اليه واذا بكلب آخر من نوع (الترنوف) كان مراقبا للحادثة فأسرع الى نجاته وسار على الجليد بما أمكن من التحفظ الى أن دنا من الثقب الذى سقط فيه الدرواس وعضّ على طرف الغصن وأدناه من رفيقه فتشبث هذا به ونجا من الغرق • قال المعلم بال ان التعقل والحزم والشهامة التى بدت من هذا الكلب فى عمل لم يكن له فيه محرك آخر الاوجدانه الداخلى تدل على وجود عقل فيه قريب من العقل البشرى • انتهى

﴿ العجيبة الخامسة القرد وتعقله ﴾

ان أغرب رواية دالت على تعقل الحيوان ذكرها المعلم (جراتيوله) فى تأليفه له قال حدثنى (تورّ بيبيانكا) انه كان جالسا مع اسرته فى غرفة والخادم مشتغل بشىّ كمية من (الكستنا) أى (أبى فروة) وكان هناك قرد داجن ينظر اليها بنهم واذ خرج الخادم لقضاء حاجة نظر القرد الى ماحوله واذ لم يجد شيأ يستعين به على انتشال الكستنا من وسط الرماد وثب على قط راقد هناك وأمسك يده بعنف وجعل يحرث بها النار ويخرج الكستنا واذ سمع أهل البيت ولولة الهرّ أسرعوا الى المطبخ فوجدوا القط يعج ألما والقرد يأكل ماغنم اهـ

﴿ العجيبة السادسة ﴾

ان القردة المعروفة (بالاورنجوتان) و (الشانبانزاه) تكتشف من نفسها بسهولة كيفية فتح الأقفال وقد ذكروا عن القرد المدعو (مافوكا) فى حديقة الحيوانات فى مدينة (دريسد) انه سرق مرة مفتاح قفصه ليتيسر له الخروج منه متى شاء . وكثير من الكلاب والقطط والمواعز تتعلم من نفسها فتح الأبواب وقد روى ذلك أيضا عن البقر والخيل والحمير والبغال . أخبر المعلم (هرمان فول) انه فى احدى زرائب مدينة (لانسى) اضطر صاحب الزريبة بعد بناء الحوض بمدة الى أن يستبدل لولب الماء البسيط بلولب آخر ذى مفتاح لأن البقر كانت تعلمت من نفسها فتحه ومثل ذلك حدث فى مدينة أخرى بناها (ازى بوريت) فى مدينة (تورينو) ولقد نرى القرود تتسنم ظهور الكلاب تسير بها محمولة أسوة بالخيالة . اهـ من الكتاب المذكور

﴿ العجيبة السابعة . القرد والفيل والكلب يخفن من الاستهزاء ﴾

قال فى الكتاب المذكور ان القرد والفيل والكلب يخشين الهزؤ ويحرن على من يتكبر بهن . روى المعلم (رومانس) عن كلب له طفق يوما يقتنص ذبابا من فوق زجاج شباك ولما رآه المسيو (رومانس) يخطئ الفرض أخذ يهزأ به ويضحك بقهقهة لكل اخفاق يصيبه فخنق الكلب غيظا وسوّلت له نفسه أن يتظاهر بقنص ذبابة وسحقها على الأرض فلحظ صاحبه الحيلة وأبانها له فتضاعف عندها خجل الكلب وهرول مستترا تحت الأثاث

﴿ العجيبة الثامنة . القرد والقردة وشفقتهما ﴾

روى العلامة (لوره) عن قرد ماتت أنثاه فأخذ يعتنى بجروها الرضيع أشدّ من اعتناء الأم بواحدها فكان يحمله كل ليلة على ذراعيه ويتمشى به لينيمه وفى النهار لايغفل عنه لحظة واحدة . وذكر أيضا عن قردة نادرة الاشفاق كانت لاتقتصر على تربية صغار القردة التى من غير نوعها بل كانت تسرق أيضا اجراء الكلاب جروا جروا وهكذا صغار القطط لترضعها وتربيها فاتفق مرة أن قطيطا صغيرا خمشها فاعتراها مزيد الاندهاش وشرعت تبحث فى يديه الى أن أحست بأظافره فقرضتها بأسنانها بكل لطف اهـ

﴿ العجيبة التاسعة . حكاية عن الذئب من كتابى (جمال العالم) نقلا عن الكتب الافرنجية ﴾

حكى أن رجلا رأى ذئبين كأنهما يتشاوران فى أمر ثم أسرع أحدهما الى حفرة فى عرض الوادى وأسرع الآخر الى الناحية الأخرى منه فيها قطيع من الظباء يرعين فأزعجهن حتى جرين الى تلك الحفرة التى فيها صاحبه فانقضّ ذلك المختفى على واحدة فأخذها وأتى الثانى معه فقتلاها وأكلاها فتأمل قوله تعالى ــ الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ــ اهـ

﴿ العجيبة العاشرة . الثعلب وتعقله والدّب وتحيله ﴾

روى المعلم (رومانوس) فى أحد أعداد المجلة العلمية سنة ١٨٧٩ أن ثعلبا غنم بطة داخل حقل ولما تعذر عليه بعد أن حاول ثلاثا أن يقفز من فوق الحائط وفريسته فى فمه مكث قليلا يتأمل فى الحاجز القائم أمامه ثم وثب

بعد قليل وأخذ البطة برأسها وارتفع بيديه ما أمكنه على الحائط وأنشب منقار البطة فى شق هناك ثم وثب على رأس الحائط وتدلى الى أن بلغ فريسته فأخذها ورمى بها الى الناحية الأخرى وبعدها انحدر من مكانه وأخذها بفمه ومضى • وأخبر المعلم (فلوران) انه لما تكاثرت الدببة فى حديقة النباتات عزم أولياء الأمر على قتل اثنين منها فألقوا اليهما أقراصا مشربة بحامض البروسيك وهو سم زعاف فما كادا يشمان الأقراص حتى أجفلا وهربا ولكن الشره تغلب عليهما فأخذاها بأيديهما وجعلا ينفضان منها السم فى حوض الماء وأكلاها بعد تطاير السم منها فعجبوا لذكائهما وفطانتهما وكفوا عن قتلهما

﴿ العجيبة الحادية عشرة منه أيضا شفقة الغربان والخيل ﴾

أخبر المسيو بليت عن غربان رآها تطعم ثلاثا من رفقائها فاقدى البصر • وهكذا المسيو بورتون شهد ببغاء له كانت تعتنى بطائر تلفت رجلاه من غير جنسها فتنظف ريشه وتطعمه وتدفع عنه صدمات الجوارح وأغرب رواية من هذا القبيل ذكرها المسيو (بوسانيل) قائد فرقة (البوفيليه) قال فى سنة ١٧٥٧ طعن فى السن جواد أصيل من حصن فرقتنا وتلفت أسنانه الى حد انه لم يعد فى وسعه مضغ علفه فجعل الحصانان اللذان كانا يرافقانه فى الجرى يمنة ويسرة يأخذان كل ليلة علفه وبعد أن يمضغاه جيدا يلقيانه فى المعلف ليأكله واستقامت الحال هكذا الى أن فطس الجواد بعد شهرين وشهد هذا الحادث كثير من القوّاد والجنود

﴿ العجيبة الثانية عشرة طائر هندى يبنى بزخرف قصورا تسرّ الناظرين ﴾

ان الطائر الهندى المعروف (بطير الفردوس) لا يكتفى ببناء عشّ بسيط بل يشيد أيضا أوكارا للنزهة فى غاية الاتقان والجمال والابداع وتكون هذه المساكن أحيانا فسيحة الأرجاء وداخلها أروقة مسقوفة وأكثرها موشاة بالصدف والحجارة اللامعة وريش الببغاء وقطع النسيج وكل ما يصلح للزخرف والتزويق • وأما النوع المعروف (بالامبليبورنيس) فيحوط مسكنه بحديقة صناعية يصوغها من تراب مكسو بالخضر ويزينها بثمار وزهور يجددها كل يوم • وكم للطيور من بنايات هندسية ضربنا عنها صفحا اجتزاء بالقليل وعسى أن ترى فى ثنايا التفسير عجائب من هذا النوع فى غير هذا المقام

﴿ العجيبة الثالثة عشرة هل للحيوان لغات ﴾

قال فى الكتاب المذكور • ان النطق اللفظى خصّ به الانسان وحده ولكن الحيوانات التى من نوع تستطيع أن تظهر مقاصدها كل منها لأخيه • فالكلب الداجن يملك من النطق مالم ينله أسلافه فى وحشيتها فله عواء مخصوص دالّ على الغضب وآخر على الجزع وآخر على اليأس وآخر على الفرح وآخر على الالتماس هكذا الدلالة بالاشارة يبلغ أمده فى الحيوانات التى تعيش بالألفة كالخيل الوحشية والفيلة وكلاب الماء والنمل والنحل الخ وأسراب الخطاطيف تتفاوض وتتشاور قبل الرحيل الى أقطار بعيدة • وبالاجمال ان أفكار البهائم بسيطة محدودة ومقصورة على حاجاتها الطبيعية ولا تحتاج للتعبير عنها إلا الى حركات وأصوات بسيطة اهـ

﴿ العجيبة الرابعة عشرة الزنبور وذكاؤه ﴾

روى العلامة (داروين) أن زنبورا حمل ذبابة وطاربها ولما ارتبك من مصادمات الرياح فى طيرانه لتلاعبها بجناحى الذبابة هبط بها الى الأرض وجز جناحيها وعاد فطار بها

﴿ العجيبة الخامسة عشرة التنويم المغناطيسى واثبات وجود الأرواح الحيوانية بعد موتها ﴾

قال فى الكتاب المذكور • روى داسيه ماتعريبه • كنت مقيما بمدينة (نوردو) فى أواخر سنة ١٨٦٩ اذا بصديق لى فى احدى الليالى دعانى الى حضور جلسة مغناطيسية فلبيت الدعوة ولم أشهد فى هذا الاجتماع شيأ جديدا يختلف عما يجرى فى اجتماعات كهذه انما حصل فى هذه الجلسة أمر ذو بال أذهلنى وهو أن أحد الحضور رأى فى الأرض رتيلاء (عنكبوت) فداسها برجله واذا بالنائمة هتفت قائلة أرى روح رتيلاء يرتفع

من الأرض فسألتها ماشكل هـذا الروح قالت شكل الرتيلاء بعينها . وذكر داسيه فى هـذا الصدد شواهد أخرى عديدة تؤيد وجود الشكل السيال فى الحيوان حتى انه يمكن انطلاقه من الجسد فى مدة الحياة وأخبرت المجلة الروحانيـة الافرنسية فى أحد أعدادها سنة ١٨٩٤ عن وسيطة ناظرة رأت حول الكونت دى ليفوف شبح كلب له مات منذ بضع سنين وكان الشبح على قول الوسيطة يقفز فرحا ويهز ذنبه كالحى عند تذكر صاحبه له اهـ .

يقول مؤلف هـذا الكتاب ان هـذه الحكايات كلها وأمثالها هى تفسير قوله تعالى ـ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ ـ وبهـذا وأمثاله يظهر سرّ القرآن وعجائبه وحكمه البليغة البديعة . اهـ

ثم انه أثناء طبع هـذا الكتاب جاء فى احدى جرائدنا المصرية فى تاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٥ مايأتى فأحببت أن أثبته هنا تفسيرا للآية تحت هذا العنوان

﴿ بحث تاريخى طبيعى فى عجائب ذكاء الجرذان ونظامها ﴾

اطلعنا فى احدى الصحف الانجليزية على نبذة غريبة فى بابها عما أسفرت عنه أبحاث تاريخية طبيعية قام بها بعض علماء التاريخ الطبيعى فيما يختص بشؤون الجرذان . وهاك ملخص هذه النبذة

يرى الكثيرون من الأوروبيين والامريكيين فى هذه الأيام أن الجرذان السمر الألوان هى أشد الحيوانات غير الأليفة خطرا وأكثرها ضررا فمنذ وضعت الحرب الاوروبية أوزارها أبان بعض البحاث أن هـذا النوع من الجرذان يتفوّق فى ذكائه وفى قدرته على تنظيم شؤون معيشـته حتى على النمل والنحل وما كشفه فيهما السيرجون لبوك من عجائب الصفات

وقد قضت الضرورة بعد الحرب على أهل مدينة نيويورك الاميركية أن يدققوا البحث فى حياة الجرذان لكى يكشفوا نظمها الحكومية المختلفـة (كذا) ويعرفوا وهل هـذه النظامات كاملة . ففى أثناء الحرب تكدست مقادير عظيمة من المؤن هناك حتى يأتى الوقت الذى تقضى فيه الضرورة بنقلها الى أوروبا فتجمعت الجرذان فى المكان الذى وجـدت فيه تلك الأكداس تجمعا عظيما حـتى يقدر ماتجمع منها الآن فى جزيرة مانهاتان بثلاثين مليون فأر

ومعلوم أن قسما من مدينة نيويورك قائم على تلك الجزيرة بحيث لم تنجح مجهودات كثيرة بذلت للقضاء على هذا الجيش من الجرذان أولطرده من تلك الناحية فبدلا من أن تعنى تلك الجرذان بالانصراف الى ناحية أخرى تكون فيها المعيشة أسهل . تبينت انهامحصورة فى بقعة تحيط بهاالمياه من كل جهة . فلمت تلك الجرذان شعثها ونظمت شؤنها وصفوفها وازدادت مكرا ودهاء وأظهرت من المهارة والحنكة فى مقاومة تلك المجهودات ما اضطر أولياء الشأن الى استنباط وسائل جديدة لمحاربتها

وقد كشفوا الآن أنها لاتوجد هناك بصفة فرادى أووحدات أوأزواج أوعائلات بل بصفة هيئات اجتماعية منظمة كالهيئات الاجتماعية الانسانيـة التى توجد فى المستعمرات وكل عضو فى هيئة جرذان اجتماعيـة خاضع لنظام أدبى معين . وهاك مثالا للنظام الذى تعمل به تلك الهيئات

توجد ناحية واقعة تحت مراقبة أولياء الشأن ويوجد فيها خمسة وسبعون مخزنا أوأكثر تخزن فيه المؤن والجرذان متفشية فى جميع تلك الأبنية ماعدا بناء واحدا يخزن فيه القمح والدقيق ولم يدخـله جرذ واحـد من هذا النوع الأسمر الكبير . وانما اكتظ بفيران صـغيرة من النوع المسمى (بالسيسى) الذى يفترسه هذا النوع من الجرذان السمر فكان من العجيب أن لايدخل هذا الأخير فى ذلك المخزن

ولقد عنى الرجال بمراقبة ذلك المخزن المنعزل شـديد المراقبة ووجد الحراس أن الجرذان الكبيرة بدلا من

أن تتدخل فى شؤون ذلك المخزن و بعبارة أخرى ذلك المكان الذى اتخذته الفيران الصغيرة كمستعمرة لها عنيت باستحضار أغذية اضافية لجعل تلك الفيران الصغيرة ذات سمن وصحة وعافية إذ كانت الجرذان تجلب الى تلك الفيران خضراوات ولحوما وقشور الفاكهة مع جواهرها وألبابها أى كانت تلك الجرذان تصلح غذاء الفيران بما كانت تضيف اليه من أنواع الادم . فلا عجب اذا سمنت هذه الأخيرة وصحت أجسامها

ثم أتى على الذين كانوا يلاحظون تلك التدابير وقت لاحظوا فيه عددا من الجرذان الكبيرة يتقدم الى بلدة أو مستعمرة الفيران الصغيرة وسرعان ما عمدت تلك الجرذان الى فتحات موجودة فى جدران ذلك البناء وكانت الفيران الصغيرة تتخذها كمداخل ومخارج لها فوسعت الجرذان تلك الفتحات لكى تتمكن أجسامها الكبيرة من الدخول والخروج منها ثم دخل فيها أكبر الجرذان وأكثرها وحشية وماهى إلا لحظات حتى خرج الغزاة يحمل كل منها فأرا سمينا ثم يضعه و يعود الى داخل البناء ويخرج بفأر آخر وهكذا استمرت هذه العملية حتى تجمعت فى خارج البناء أكداس من الفيران وعادت الجرذان فحملتها الى مستعمراتها ليتفكه بها صغارها فظهر من هذا أن الجرذان ما كانت تمد الفيران بالطريف من الأغذية لتسمينها إلا لأن مثل مخزن الفيران لديها لم يكن إلا كمثل الاحراش التى يربى فيها الأثرياء من بنى الانسان مختلف الحيوانات ليصيدوها متى نمت وترعرعت

فلما أتممت هذا المقال قال صاحب لى أمصدق أنت ماتقوله الأرواح . قلت له أمصدق مايقوله القرآن نص القرآن على بقاء الحيوانات وجعلها أمما أمثالنا فاذن قلنا ان العدل يقتضى بقاءها لحكم لا نعلمها والا كان خلقها أشبه بالعبث والله يقول ـ وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ـ وأى باطل أضل من خلق حيوانات لاتتناهى ثم تذروها الرياح فلايكون لها وجود وما المانع أن تكون أمثال أرضنا محل زرع لاوائل الحيوانية ثم ترتقى فى عوالم أخرى على مقدار درجاتها فى النمو الروحانى . واذا كنا فى شك من كلام الروحانيين وجب علينا أن نبحث فى علومهم فالجهل هو العائق عن السعادة ومن جهل شيأ لم ينله كما أن من جهل التجارة والزراعة والصناعة مثلا لم ينل الغنى هكذا الجهال بالعوالم لايحظون بالرقى فيها والدنيا دار التجربة والعلم والعمل

﴿ اللطيفة السابعة ـ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو و يعلم مافى البر والبحر الخ ـ ﴾

لقد يعلم الناس الحوادث المستقبلة ببعض القواعد فانك لاتشك أن الليل والنهار والشهور والسنين والخسوف والكسوف لها أوقات محدودة وساعات معينة ودقائق ثابتة فترى الناس يعرفون الخسوف والكسوف والأيام والشهور بعد آلاف السنين فيحكمون على المستقبل القريب والبعيد من حيث ظهور الكواكب والخسوف والكسوف وغيرهما حتى ان الشيخ محمودا الشهرزورى ذكر فى كتابه الشجرة الالهية كثيرا من آراء الأمم فى الأدوار والأكوار فقال ماملخصه . ان العقول التى هى أرقى من عقل الانسان تقدر أن تعرف المستقبل الذى لانهاية له وذلك بمعرفة الأدوار الفلكية فكل دور من أدوار الفلك يكون مابعده مماثلا له سنة فسنة وقرنا فقرنا فاذا كان ذلك العقل مطلعا لسعته على حوادث ذلك القرن فان كل قرن بعده الى مالانهاية له مثله وتكون الحوادث واحدة فيها و يقال حينئذ انه عرف مالانهاية له . أقول وقد تقدم فى هذا التفسير من المسائل الفلكية الحسابية المطردة التى تقرب أمثال هذا القول

واذا كانت حوادث العوالم الأرضية تتبع السماوية فاذن يتم العلم بالمستقبل . وترى علماء العصر الحاضر يرصدون حوادث المطر يوما فيوما عسى أن يجدوا سبيلا لعلم مايكون فى السنين المقبلة من أدوارها الحاضرة وفى هذا اليوم وأنا أكتب فى هذا التفسير نقلت بعض جرائدنا المصرية يوم الجمعة ٢٨ مارس سنة ١٩٢٤ سير العلم فى شهر مارس من هذه السنة وقد كثرت السيول والعواصف فى ايطاليا وان عالما ايطاليا يسمى الأب

غبريال

غبريال قدّم تقريرا الى أكاديمية العلوم الفرنسية فى ١٧ مارس الحالى عن العواصف والسيول وامكان التنبؤ بها قبل وقوعها بأشهر وسنوات فقد أعلن أن تجاربه التى قام بها فى حياته أثبتت أن العواصف والسيول لها أدوار كأدوار الفلك وقال ان الأربعين سنة التى تبتدئ من سنة ١٨٨٣ وتنتهى سنة ١٩٢٣ تضمنت ثلاثة أدوار بالنظر الى السيول والعواصف وشرحها شرحا وافيا ولكل دور عواصفه . ثم قال ونحن الآن فى الدور الأوّل الخ

وقد أثنى عليه رجال الأكاديمية ثناء عاطرا لأنه سينفع الناس بهذا الكشف وسجل أيضا كشف آخر قدّمه الاستاذ بريتون لأكاديمية العلوم وهو ما توصل اليه العالمان (لومان وكوماندون) اللذان صورا حركات القلب والرئتين والمعدة وسائر أعضاء الجسم الداخلية بالسينماتوغرافيا بمساعدة أشعة رنتجن . وقد أصبح من الممكن رؤية كل مايحدث فى داخل الجسم من الحركات الغريبة على ألواح الصور المتحركة فى دور السينما قالوا وهذا الكشف سيحدث انقلابا كبيرا فى أساليب التعليم ويسهل على الأطباء معرفة كثير من الأمراض الداخلية . وكذلك اخترع الدكتور بازسكى من مدينة (كييف) من أعمال روسيا آلة حجمها كحجم آلة التصوير الشمسى وقال انه عرف بها الأمراض الانسانية من بدنية وأدبية وعقلية وقال انه امتحنها فى مئات من المجرمين المسجونين بسجون مدينتى (كييف ووارسو) فكان فى بضع ثوان يقرر أن المجرم نمرة (١) قاتل عمدا وأن السجين نمرة (٢) متهم بالقتل ظلما وأن فلانا نمرة (٣) لص شكس ونمرة (٤) مهيج سياسى عنيف ونمرة (٥) برىء . ولما وقف على ذلك رجال الشرطة الروسيون اعترفوا بصحة جميع النتائج

ويقول ان للمخ ٧٨ خلية رئيسية هى مدارك كل أعمال الانسان فاذا أريد معرفة مايستعد له الطالب من العلوم فليرسم رأس صناعى من الجبس ولترسم هذه الدوائر عليه وليصنع بواسطة الكهرباء أعمال تبين مقدار استعداد الطالب فى علم الطب أو الأدب وما أشبه ذلك بهيئات مخصوصة بحيث ان الكهرباء المسلطة على خلية من خليات المخ الصناعى المماثل للمخ الانسانى صورة تؤثر فى نفس ذلك الممتحن (بفتح الحاء) متى اتصلت تلك الكهرباء به اذا أمسكها بيده تأثيرا يختلف باختلاف تلك الخلايا المسلطة عليها الكهرباء فى الرأس الصناعى وعلى مقدار التأثير يحكم باستعداده وعدمه . وليس من المطلوب لنا أن نعرف الطريقة بتمامها وانما المراد معرفة ماوصل اليه الناس فى أيامنا . ولقد أوقفتك على جلّ مايجول فى عقول الناس قديما وحديثا من علم الغيب وان القدماء يلجؤن الى الفلك وأدواره حتى أن بعضهم كان يجعل حساب حروف الجمل ذا تأثير فى علم المغيبات وهكذا المحدثون يبحثون فى باطن الأعضاء ويعرفون الخواطر وكذلك الأمطار والعواصف المستقبلة . هذا ماوصل اليه البشر كما يعرفون الانسان بخطوط ابهامه اذا ختم بها على الورق وعملت به الحكومات

﴿ هل هذا علم غيب ﴾

أقول ان هذا كله أشبه بما يفعله الأطباء من الاستدلال بالبول وبالحرارة على نوع المرض فاذا صح بعض ماتقدّم أو أكثره فلم يخرج عن استدلال على أمور عامّة أو خاصة كاستدلال الطبيب بحمرة الخدّ أحيانا على مرض فى الرئة . فهذا وأمثاله لايعدّ علما بالغيب اذا صح ولكن علم الغيب ومفاتيحه فوق طاقة البشر ولو أن البشر علموا الغيب لكانت حياتهم وبالا عليهم لأنهم لايرتقون فالارتقاء يكون بالجدّ والتشمير والعمل والاقدام فاذا عرف المستقبل ساءت الحال ونام الناس . فأما بعض الرؤى التى يراها الناس وقد تصيب نادرا فذلك لمساعدة المرء مساعدة قليلة فى النادر . هذا ما أردت ذكره وفيه الكفاية

﴿ مفاتح العلوم فى هذه السورة ﴾

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر فى هذه السورة أن عنده مفاتح الغيب لايعلمها إلاهو لم يخل هذه السورة من مفاتح للعلوم فذكر مفتاحين منها . مفتاح تفتح به علوم السموات وهو ماقصه من نبأ ابراهيم ونظره فى

الكوكب والقمر والشمس حتى انتهى الى الله هذا هو المفتاح الأوّل من مفاتح العلوم

المفتاح الثانى ماقصه الله من فلقه الحبّ والنوى وهكذا حتى انتهى الى قوله ـ انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ـ ولاجرم أن الثمر لا يكون الابعد الزهر والزهرة سترى رسمها هناك إن شاء الله فى هذه السورة وستعجب من كونها مع بساطة حجمها كانت مفتاحا لعلوم النبات وعبرت بنظامها واختلاف أعدادها عن مئات الالوف من النبات • هذان مفتاحان ستراهما فى هذه السورة مفتاح للسموات فى قصة ابراهيم وسترى الصور السماوية التى هى مفتاح العلوم هناك وكيف اجتهد العلماء اليوم فى هذا ومفتاح للعلوم النباتية الأرضية فى الزهرة المرموز لها بالثمر • فهذان المفتاحان المذكوران بعد قوله ـ وعنده مفاتح الغيب ـ يفتح بهما الله على الناس علم السموات وعلم الأرض ايضاحا لقوله تعالى فى أوّل السورة ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض الخ ـ ولما كانت السموات والأرض لايعلمان الا بتعليم جعل لهما مفتاحين على سبيل اللف والنشر المرتب المنظم فتعجب من القرآن ونظامه وسيسرك ماترى من الصور السماوية والعجائب النباتية وليست كمفتاح العلوم للعلامة السكاكى وفرق بين مفتاح الله ومفتاح السكاكى فمفتاح السكاكى يفتح علوم اللسان العربى أى بعض القواعد التى تعرف بها البلاغة والبلاغة مقدمة لاعتقاد أن القرآن معجز • فأما مفاتح الله هنا فليست لتعليم اللغة التى هى مقدمة للعلوم لانها هى العلوم المقصودة بل هى لتعليم الحقائق التى لأجلها نزل القرآن ولأجلها أرسل الله الرسل وما الرسل إلا مبلغون ولايبلغون إلا بلسان فهذه علوم اللسان وليست مقصودة إلا للمعانى فهذه هى المعانى وهذه هى العلوم التى ارتقت بها أوروبا والمسلمون نائمون ساهون لاهون يفتح الله لهم باب العلوم فيقفلونها على أنفسهم وقد آن أوان رقى الأمم الاسلامية ـ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ

هذا ما أردت ذكره فى علم الغيب ومفاتح العلوم والله علام الغيوب • انتهى تفسير المقصد الأوّل من سورة الأنعام

(المَقْصِدُ الثَّانِى)

وفيه المفتاح السماوى من المفتاحين المذكورين قال الله تعالى

وَإِذْ قالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قالَ هٰذَا رَبِّى هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى ٱللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى ٱللّٰهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ * وَمَا قَدَرُوا ٱللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ ٱللّٰهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ ٱللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى ٱللّٰهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللّٰهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ *

﴿ التفسير اللفظى لهذا المقصد ﴾

(وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر) هو اسم أبي ابراهيم (أتتخذ أصناما آلهة) تعبدها من دون الله (إني أراك وقومك في ضلال مبين) ظاهر الضلال (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض) أي ومثل

هـذا التبصير نبصره عجائب السموات والأرض و بدائعهما والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة ليستدل (وليكون من الموقنين) الذين تزول شبهاتهم بسبب التأمل والتفكر والايقان أعظم من الايمان لأن الايمان بالتسليم والايقان بالاستدلال والتعقل والتأمل وهو الغاية العظمى للانسان فى هذه الحياة (فلما جنّ عليه الليل) ستره بظلامه (رأى كوكبا) هو الزهرة أو المشترى (قال) مجاراة لقومه ليبين لهم فساد عقائدهم (هذا ربى فلما أفل) غاب (قال لا أحب الآفلين) فضلا عن عبادتهم وكيف ينتقل ويحتجب و يتغير وصف من هو إله العالمين (فلما رأى القمر بازغا) مبتدئا فى الطلوع (قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) أظهر العجز ووكل الأمر الى الله لتعاقب الظواهر المحيرة للعقول فى الالوهية (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر) كما يشعر به قومه ليقيم الحجة عليهم (فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون) من الاجرام المحدثة التى تحتاج الى موجد (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وقوله (وحاجه قومه) جادلوه وخاصموه فى التوحيد (قال أتحاجونى فى الله) فى وحدانيته (وقد هدان) الى توحيده ولما خوّفه قومه آلهتهم أن تضره قال (ولا أخاف ماتشركون به) أى لا أخاف معبوداتكم لأنها لا تضرّ ولاتنفع (إلا أن يشاء ربى شيأ) أى لكن أن يشاء ربى شيأ كان مايشاؤه لأنه قادر على النفع والضرر هـذا استثناء منقطع وانما استثنيت مايشاء الله فأقررت بأنه يقع لأنه (وسع ربى كل شئ علما) أى أحاط به علما فلامانع أن يكون فى علمه اصابتى بمكروه (أفلاتتذكرون) أى أفلاتعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لاتضرّ ولا تنفع ثم قلب الموضوع عليهم فقال وكيف أخاف أصنامكم وهى لاقوّة لها وأنتم لاتخافون من الله وقد أشركتم به فأينا أحقّ بالامن من يعصى القادر أم من يطيعه و ينبذ الأباطيل التى أنتم عليها أنا أحقّ بالامن وأنتم أحقّ بالخوف وهذا قوله (وكيف أخاف ما أشركتم) أى معبوداتكم وهى مأمونة الخوف (ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به) باشراكه (عليكم سلطانا) حجة إذ الاشراك ليس يكون عليه حجة أى ومالكم تنكرون علىّ الامن فى موضع الأمن ولاتنكرون على أنفسكم الامن فى موضع الخوف (فأىّ الفريقين) أى فريقى الموحدين والمشركين (أحقّ بالأمن) من العقاب (إن كنتم تعلمون) مايحق أن يخاف منه ان الذين يستحقون الامن يوم القيامة هم (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) معصية (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أى الى سبيل الرشاد فهؤلاء يأمنون العذاب فى أودية جهنم لأن نفوسهم خلصت من هذه الأرض ومن المادّة وظلامها • فأما الذين ارتكبوا الآثام أومالت نفوسهم الى الحياة الدنيا وظنوا أنها هى كل مقصود من الوجود فأولئك يعذبون و ينتهى أمرهم بالنجاة • وعلى هـذا ماروى فى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال لما نزلت ـ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ـ شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لايظلم نفسه فقال رسول الله ﷺ ليس ذلك انما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان عليه السلام لابنه ـ يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ـ * وفى رواية ليس كما تظنون انما هو كما قال لقمان لابنه وذكره • فانظر قوله ﷺ ألم تسمعوا قول لقمان لابنه وذكر ـ ان الشرك لظلم عظيم ـ وهذا من أدق الأجوبة كأنه ﷺ يقول لهم الظلم المؤثر أثرا باقيا انما هو الشرك فأما الظلم الذى يزول أثره بعذاب مؤقت فهو الذنوب وأكثر الناس انما يخافون من العذاب الدائم ولو نظر الى الخلص الذين لايعذبون فانهم قليل • فالأمن العظيم لمن لم يذنب أوتاب توبة نصوحا وردّ الحقوق الى أهلها فأما المذنبون فانهم أقلّ درجة من أولئك فامنهم أقل • هذا هو المفهوم من جوابه ﷺ فالمقصد من ذكر الظلم العظيم أنه لايؤبد العذاب إلا به والمؤمنون لايؤبد لهم العذاب هـذا هو المقصد قوله (وتلك حجتنا) أى ماجرى بين ابراهيم وقومه (آتيناها ابراهيم) أرشدناه اليها وعلمناه حجة (على قومه) حجتنا بدل من تلك وآتيناها ابراهيم حجة على قومه خبر (نرفع درجات من نشاء) فى العلم والحكمة (إن ربك حكيم) فى رفعه وخفضه لأنه يعطى على

حسب

حسب الاستعداد (عليم) بحال كل واستعداده (ووهبنا له اسحق و يعقوب كلا) منهما (هدينا ونوحا هدينا من قبل) من قبل ابراهيم (و) هدينا (من ذريته) ذرية نوح (داود وسليمان وأيوب) وهو من ذرية اسحق بن ابراهيم (ويوسف وموسى وهرون وكذلك) الجزاء (نجزى المحسنين) أى نجزى المحسنين جزاء كجزاء ابراهيم إذ رفعنا درجاته وباركنا فى ذريته كثرة ونبوة (وزكريا ويحيى وعيسى والياس) وهو من نسل هرون النبى بن عمران (كل من الصالحين) الكاملين فى الصلاح وهو الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى (واسماعيل واليسع) هو اليسع بن أخطوب ابن العجوز (ويونس) بن متى (ولوطا) هو ابن أخى ابراهيم وأبوه يسمى هاران وهو أخو ابراهيم (وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) أى فضلنا كلا من هؤلاء بالنبوّة والاسلام على عالمى زمانهم • يقول فضلنا كلا من هؤلاء على العالمين و بعض آبائهم أى آباء الذين سميناهم وذرياتهم واخوانهم ثم عطف على فضلنا قوله (واجتبيناهم) اصطفيناهم (وهديناهم الى صراط مستقيم) أى ثبتناهم على طريق مستقيم فأما آباؤهم فمثل شيث وأما الذرية فمثل أولاد يعقوب وأما الاخوة فمثل اخوة يوسف (ذلك) الصراط المستقيم (هدى الله) دين الله (يهدى به من يشاء من عباده) لأن الله هو المتفضل على الناس لأنه هو أصل الوجود والخلق منه واليه (ولو أشركوا) أى ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع عظيم قدرهم (لحبط عنهم ما كانوا يعملون) فهم كغيرهم فى سقوط الثواب بالشرك (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) أى جنسه (والحكم) أى الحكمة أو الفصل فى الامور على مايقتضيه الحق (والنبوّة) الرسالة (فان يكفر بها) بهذه الثلاثة (هؤلاء) أى قريش (فقد وكلنا بها) بمراعاتها (قوما ليسوا بها بكافرين) من الأمم الأخرى كالفرس والتتار والترك وأهل جزائر الهند الشرقية وأهل الصين وقوم من السودان وأمم أخرى لا يعلمها إلا الله سيلدها الزمان المقبل لأنى لا أنزل علما ولا أخلق نباتا ولا شجرا إلا فيه مصلحة مستقبلة وهذا القرآن أنزلته الى أهل الأرض لا الى قريش وحدهم فاذا كفروا بها فكم من أمم ستأتى كقوم من الانجليز فى هذه الأيام وآخرين من أمريكا وسيظهر من العجائب مالايخطر بالعقول قريبا • أقول أنا وستأتى أمم تفهم الاسلام على الحقيقة التى فسرت القرآن بها فى هذا الكتاب عاجلا أو آجلا • بهذا أنا موقن وتكون أمم أرقى من الأمم الماضية واسلام الأمم التى ذكرتها معجزة لأن النبى ﷺ كان بمكة وليس معه إلا قليل وهؤلاء جاؤا من بعد حتى الأنصار لم يكونوا أسلموا (أولئك) الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فى أمر الدين الذى اجتمعوا عليه من توحيد الله وتنزيهه ووصفه بالصفات التى تليق به وفى جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة كالصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم فلتكن كريما ومجاهدا كابراهيم وصابرا كاسحق و يعقوب وأيوب وشاكرا كداود وسليمان وجامعا بين الصبر والشكر كيوسف وصاحب معجزة باهرة وشريعة ظاهرة كموسى وزاهدا كزكريا ويحيى وعيسى والياس وصاحب صدق كاسماعيل وصاحب تضرع كيونس فعليك يا محمد أن تجتمع فيك هذه الصفات وعلى أمتك أن تقلدك فى ذلك حتى يكونوا ـ خير أمة أخرجت للناس ـ والهاء فى قوله ـ اقتده ـ للوقف وقد أثبتها فى الوصل فأجراه مجرى الوقف ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وجعلوها ساكنة ويحذف الهاء فى الوصل حمزة والكسائى وهناك روايات أخرى لا نطيل بها وقوله (قل) يا محمد (لا أسألكم عليه) أى على التبليغ (أجرا) جعلا من جهتكم كما لم يسأل من قبلى من النبيين وأنا أمرت أن أقتدى بهم (إن هو) أى التبليغ أو القرآن (إلا ذكرى للعالمين) إلا تذكير وموعظة لهم (وما قدروا الله حق قدره) ماعرفوه حق معرفته فى الرحمة والانعام على العباد (إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ) هذه السورة وان نزلت بمكة فان فيها آيات نزلت بالمدينة كما قال ابن عباس انها نزلت جملة واحدة ليلا وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فانها نزلت بالمدينة وهى ـ قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم ـ الى آخر الثلاث آيات

وقوله تعالى ـ وما قدروا الله حق قدره الآية ـ وقوله ـ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوقال أوحى الى ولم يوح اليه شئ ـ الى آخر الآيتين فالذين قالوا ـ ما أنزل الله على بشر من شئ ـ هم اليهود • ذلك أن مالك بن الصيف خاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا فغضب وقال ـ ما أنزل الله على بشر من شئ ـ فغضب عليه قومه بعد ذلك وقالوا أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت ـ ما أنزل الله على بشر من شئ ـ فقال مالك بن الصيف أغضبنى محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت اذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف وفى ذلك ونحوه نزل قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) حال كونه (هدى للناس تجعلونه) تكتبونه (قراطيس) أى فى قراطيس أى فى صحف مقطعة (تبدونها) أى تظهرون كثيرا منها مما لا يخالف أهواءكم (وتخفون كثيرا) مما يخالف أهواءكم كصفات النبي ﷺ (وعلمتم) يا أهل الكتاب ويامسلمين على لسان محمد ﷺ (مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من قبل زيادة على مافى التوراة عندكم أيها اليهود و بيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم كما فى آية أخرى ـ إن هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ـ ثم أجاب على قوله ـ من أنزل الكتاب الخ ـ فقال (قل الله) أى أنزله الله أمر الله رسوله أن يجيب عنهم اشعارا بأن الجواب متيقن (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى فى أباطيلهم فانما عليك البلاغ (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) كثير الفائدة والنفع (مصدق الذى بين يديه) الكتب التى قبله فهذا الكتاب أنزلناه للبركة (ولتنذر أم القرى) أى أهل أم القرى وهى مكة لأنها مجمع القرى وأعظم القرى شأنا (ومن حولها) من أهل المشرق والمغرب (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) فان من خاف الآخرة تدبر ومن تدبر آمن وأهم الايمان الصلاة فانها عماد الدين فيها يخاطب العبد ربه بطلب الهداية ويستحضر الصالحين جميعا واعدا لهم بالسلامة والأمان برحمة الله بعد وصف الله بأنه هو المستحق للمحامد وله كل الطيبات والصلوات • فهؤلاء بتكرر ذلك على ألسنتهم وهم مستحضرون بقلوبهم تتمرن نفوسهم على ذلك العالم الأعلى فيقربون من ذى الجلال والاكرام وكما قال اليهود ـ لم ينزل الله على بشر من شئ ـ سيأتى قوم بعد ذلك يدعون أنه يوحى اليهم كذبا وزورا فالأولون بانكارهم النبوات كالآخرين بادعائهم نبوات كاذبة وكلاهما فى ضلال والذين يدعون النبوات الكاذبة مثل مسيلمة صاحب اليمامة وتبعه قومه من بنى حنيفة وكان صاحب نيرجات فاعتز قومه بذلك وقتله وحشى فى زمن خلافة أبى بكر رضى الله عنه ومثل الاسود العنسى بن عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن فى آخر عهد النبي ﷺ وقتله فيروز الديلمى قبل موته ﷺ بيومين وأخبر أصحابه بقتله كما تقدم فى غير هذا المقام • وفى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع فى يدى سواران من ذهب فكبرا على وأهمانى فأوحى الى أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة وهذا قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) كأولئك الذين ابتدعوا بدعا فى الديانات وكاليهود المحرفين للتوراة وغيرهم (أوقال أوحى الى ولم يوح اليه شئ) كهؤلاء الذين ادعوا النبوة (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) كالذين قالوا ـ لونشاء لقلنا مثل هذا ـ (ولو ترى) الظالمين (إذ الظالمون فى غمرات الموت) شدائده وسكراته من غمره الماء اذا غشيه (والملائكة باسطو أيديهم) أى يبسطون أيديهم يقولون هاتوا أرواحكم مشددين فى الازهاق من غير تنفيس واهمال وهو قوله (أخرجوا أنفسكم اليوم) أى وقت الاماتة (تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) كادعاء الولد والشريك لله ودعوى النبوة والوحى كذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب (فرادى) منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه

من

من الدنيا وعن الشفعاء والأصنام وعن كل ناصر (كما خلقناكم أوّل مرة) * روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا ـ كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ـ وفيهما أيضا عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول تحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الأمر أشدّ من أن يهمهم ذلك * وفى رواية الطبرى ـ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ـ لا ينظر الرجال الى النساء ولا النساء الى الرجال قال تعالى (وتركتم ماخوّلناكم) أعطيناكم (وراء ظهوركم) من الأموال والأولاد والخدم والخول وقوله ـ وراء ظهوركم ـ أى فى الدنيا (ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) يزعم المشركون أنهم عبدوا الأصنام لأنها تشفع لهم يوم القيامة لأنها شركاء الله فيوبخ الله المشركين يوم القيامة ثم قال (لقد تقطع بينكم) أى قد تقطع مابينكم عند من قرأها بفتح بين أو تقطع الأمر بينكم ومن رفع كان المعنى قد تقطع وصلكم والبين من الأضداد يكون وصلا وهجرا (وضلّ) ذهب و بطل (عنكم ماكنتم تزعمون) تكذبون فى الدنيا أنها شفعاؤكم أولا بعث ولا جزاء • انتهى التفسير اللفظى لهذا المقصد

وفى هذا المقصد لطائف • (اللطيفة الأولى) قوله تعالى ـ وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر الخ ـ (اللطيفة الثانية) قوله تعالى ـ فبهداهم اقتده ـ (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى ـ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا (اللطيفة الرابعة) قوله تعالى ـ ولوترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم الخ ـ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أن هذه المباحث فى هذه السورة من أدق المباحث العلمية والآيات الحكمية وكيف كان ابراهيم قد ابتلى بالصابئين الذين هم كانوا مغرمين بالعوالم العلوية الروحانية من الملائكة وانهم كانوا يجعلونها وسائط لهم بينهم و بين الله تعالى فهم آلهتهم بهم يتقرّبون اليه وهؤلاء الآلهة لهم هياكل كهياكلنا الجسمية وهى الكواكب السبعة ولما طال الأمد عليهم اتخذوا فى الأرض أصناما لتمثل الهياكل الكوكبية التى هى أشباح وأشخاص للنفوس القدسية والملائكة العلوية فبالأصنام يتقرّبون الى الكواكب وبالكواكب يتقرّبون الى من يسيرونها ويجرونها فى السماء فى أوقات معينة فانحطت عزائمهم ونامت فطرهم فجاء الخليل الى أصنامهم فكسرها والى عقائدهم فسفهها والى عقولهم فأرشدها والى تقاليدهم فحقرها • وكان أبوه آزر أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الأصناف النجومية حق الرعاية فأخذ يذكر له ضلال ما يفعلون ويبين فساد ما كانوا يفترون • واعلم أنى لا أريد من شرح هذا المقام ذكر القصص التاريخية ولا أحوال الأمم الماضية سردا للتاريخ ولا غراما بالسير ولكنى أريد أن يكون المقام مقام عمل لنا نحن الذين نعيش فوق الكرة الأرضية اليوم • فاذا كان ابراهيم كسر أصنام قومه وقرأ الرسول ﷺ ذلك على قومه ثم فعل كما فعل فكسر أصنام قومه فى مكة حذو القذة بالقذة كما فعل أبوه ابراهيم فمن الجهالة العمياء والنذالة الحمقاء أن يقرأ المسلمون القرآن تغنيا لا تعلما وتعبدا لا تذكيرا بل عليهم أن يقتدوا بمن أرسلوا اليهم اقتداء بكل مافعل فلأشرح لك أوّلا مذاهب الصابئة • وثانيا فعل الخليل معهم • وثالثا الحكاية التى يذكرها بعض المفسرين عن الخليل أيام صغره • ورابعا اقتداء الأمم وان كانوا لا يعلمون كأفلاطون فى جمهوريته • وخامسا خلوة النبى ﷺ فى غار حراء كما ورد فى قصة الخليل نوعا وكذا الاعتكاف فى المساجد وخلوات الصوفية وتوجه الهمم بحصر الفكر وأن قصة الخليل يقصد بها نشأة عالية اسلامية

﴿ الفصل الأوّل من اللطيفة الأولى ـ الصابئة ﴾

اعلم أن النوع البشرى كان يبحث من العصور القديمة فى صانع العالم ولهم طرق فى ذلك مختلفة كثيرة

وأهمها فى تلك العصور جمال الأنوار والبهجة والأضواء والكواكب واشراقها حتى انك لتجد الأمم الجرمانية والعائلة الآرية قد جاء فى لغتها أن الله عندهم هو النور والشمس وتجد اللفظة الأصلية للنور (ديف) ومعناها النور اللامع ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله ففى لغة السنسكريت (ديفاس) أو (ديواس) أو (ديوا) ويعبرون عن السماء بلفظة (ديوس) وعند اليونان (ذيوس) وعند اللاتينيين (دووس) و (دوفس) وتصرّفوا فيها الى أن قالوا (جو يتر) وفى الألمانية القديمة (ذيو) وفى السلاف (ديواس) ولفظة (تير) المشتقة منها معناها إله الحرب عند أمم الشمال والفرنساويون يعبرون عن الخالق (ديو) مرخمه والايطاليون (دبو) والأسبان والبرتغاليون (ديوس) وكلها مشتقة من أصل واحد كما تقدم

فهؤلاء الأمم الذين أغرموا بهذه الأجرام السماوية وأنوارها وصاروا لايذكرون الله إلا باسم النور أو بما هو مشتق من النور كانوا عاشقين لهذا الجمال فى الدنيا فأرجعوه لموجده وسموه باسمه ونرى فى القرآن ـ الله نور السموات والأرض ـ ومن أسمائه النور فالقرآن يسمى الله بالنور كما سمته تلك الأمم القديمة الاوروبية والجماعات الآرية والجرمانية وأمم الهند القديمة فاتفاق الأمم قديما وحديثا على الاتجاه الى النور فى الاسلام وغير الاسلام كان دليلا على أن الأمر عظيم فلنوجه العناية لهذا المقام ولنبحث فى الصابئة فانهم من هذا المقام وجهتهم • الصابئون قوم ينتسبون للروحانيات ويظهر أن مذهبهم فى القرون الخالية والأجيال البائدة كان القدس والطهارة وجمال النفوس والعروج الى المقام الأعلى والتشبه بالملائكة والصعود الى الملأ الأعلى كما هى القاعدة أن كل دين يتبعه الناس فانه فى أوّل أمره هداية للناس مناسب لفطرهم نافع لمتبعيه هاد لمعتنقيه ثم يسقط سقطة عظيمة لايصلح بعدها للانسانية • كانوا يعتقدون أن للعالم صانعا مقدسا عن صفات المخلوقين وأن له ملائكة وهؤلاء الملائكة هم المدبرون للعالم العلوى والسفلى

فالكواكب السبعة لها ملائكة تدبرها كل كوكب يدبره ملك ويصل التأثير من الأعلى الى الأدنى فتكون الهياكل أى الكواكب آباء والعناصر أمهات ومن هذا يكون كل موجود من حيوان ونبات وانسان وهؤلاء الملائكة يشمل نظرهم كل شئ فهم وان كانوا متصرفين فى المادة طاهرون لايعصون وليس لهم طعام الا التسبيح والتقديس لربهم وهم أنفسهم فى لذة وحبور وسعادة ليس لها نظير فى الأرض ومن عليها • وهذه الطائفة تقول نحن نهذب أنفسنا ونزيل الغضب والشهوة والأحقاد ونرقى فينا النفس الانسانية العقلية فنقرب من هؤلاء الملائكة الذين بهم نتقرب الى الله تعالى وقالوا نحن انما أخذنا هذا المذهب من (عاذيمون وهرمس) العظيمين وعلى ذلك أخذوا يتقربون الى الهياكل التى هى السيارات السبع فعرفوا منازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها وقسموا الأيام والساعات والصور والأشخاص والأقاليم وتعلموا العزائم والدعوات وعينوا لكل يوم من أيام الاسبوع كوكبا فجعلوا لزحل يوم السبت وجعلوا ساعته الأولى وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته وصفته ولبسوا اللباس الخاص به وبخروا ببخوره الخاص به ودعوا بدعواته الخاصة وسألوا حاجتهم منه وللمشترى يوم والمريخ وهكذا كما فى زحل وقالوا الله رب الأرباب وهؤلاء هم الأرباب * ومنهم من جعل الشمس هى إله الآلهة فيتقربون الى الهياكل تقربا الى الروحانيات والى الروحانيات تقربا الى الله

ولما طال الأمد وقست القلوب قالت طائفة منهم أن الهياكل أى الكواكب السبعة قد تغيب عنا فاتخذوا هياكل فى الأرض وهى الأصنام وهؤلاء يسمون أصحاب الأشخاص على مثال الهياكل السبعة وهى النجوم فلكل شخص فى مقابلة هيكل فتقربوا وتبخروا ولبسوا وتطهروا وراعوا الوقت والساعة والشكل والدعوات والعزائم مثل ما كانوا يصنعون للهياكل وقالوا هذه الأصنام شفعاء عند الله أى بواسطة الكواكب والكواكب للملائكة والملائكة لله • فيا عجبا لهذا الانسان شأنه فى كل أمر أن يتنزل فيه الى أدنى حتى يذهب من الوجود

الفصل

﴿ الفصل الثانى مجادلات الخليل ابراهيم عليه السلام معهم ﴾

كسر ابراهيم الأصنام وهى الأشخاص النائبة مناب الهياكل وقال - أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون - وكان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية النجوم وكانوا يشترون منه الأصنام لعلمه بمواقع النجوم حتى يعمل الأصنام على طريقتها ولذلك كان الجدال معه . ومما قاله له - أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين - وقال - يا أبت لم تعبد مالايسمع ولا يبصر ولايغنى عنك شيأ * يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا - وقوله - ياأبت انى قد جاءنى من العلم - الى قوله - أهدك صراطا سويا

فهؤلاء هم الصابئون وهذا هو الدين الحنيف أى المائل عن الأديان . فاذن الصابئون لايقرون بأنبياء ويقولون تتقرب الى الله بأنفسنا ثم تنزلوا الى عبادة الأحجار والأصنام . وأما الحنفاء كأتباع ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فانهم يقولون نتبع هؤلاء الأنبياء . هذا ملخص ماذكره الشهرستانى فى غاية الاختصار لمناسبة المقام لتحيط علما بما كان فى الزمان الغابر

﴿ حكمة هذه الديانات ﴾

واعلم أن الله عز وجل جعل هذه الأمم مغرمة بالكواكب السبعة تدريبا لهم وتعليما فى زمن كان الفلك غير معروف منه إلا هذه الكواكب السبعة وقد علم الله أن الفلك سيتغير فى الأزمان الحاضرة فهيأ أنبياء وأمرهم أن يكسروا الأصنام التى على منوال تلك الهياكل لأمرين . الأول ان هذا الدين أصبح أرضيا لاسماويا معكوسا منكوسا فوجب زواله من الوجود ونسخه . الثانى ان هذه الكواكب السبعة والشمس علم الله أن ستصبح فى العلم الجديد لاقيمة لها فما هى شمسنا وأرضنا وكواكبنا السبعة بل كواكبنا صارت أكثر من سبعة والشمس التى كانت إلها أصبحت فى أخريات الكواكب الكبيرة بل أصبحت جزأ صغيرا جدا وقد مهد الله للنوع البشرى لذلك من أيام ابراهيم فلهج الناس بالله وقالوا لاشمس ولاقمر وانما الله قاهر فوق عباده حتى تأهل العقل البشرى للنظر فى الغاء تلك الألوهية واتساع العقل الانسانى فلايحجبه شمس ولاقمر ولاسيار ولاهيكل ولاصنم ولاصورة . هكذا فعل ابراهيم وهكذا فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ولولا هذا ماتجرأ العقل البشرى على تلك الآلهة فى نظره أن يبحث فيها . وهذا من السر فى تكسير الأصنام أيام ابراهيم ومحمد عليهما السلام

ولما جاء الاسلام كانت الأمم لاتزال فى رأيها العام على رأى الصابئة وهو أن الهياكل السبعة هى ذات السلطان على الدنيا فتكون الكواكب سبعا والسموات سبعا والأيام سبعا وهكذا فلعدد السبعة كان السلطان اذذاك فنزل القرآن باللهجة المعروفة بين الأمم فقيل فيه سبعا شدادا وقيل - سبع سموات - ومن الأرض مثلهن - ومعلوم أن الأقاليم عند القدماء سبع فالقرآن جاء فى أواخر أيام العلم القديم فجاء على مقتضاه ولكنه أشار بطرف خفى الى أن السموات والكواكب ليست سبعا فقال فى آية أخرى - ويخلق مالاتعلمون - فبهذه الآية يقول لنا أنا وان كنت أخبرتكم بأنى خلقت سبع سموات فانى أترك ذكر غيرها حتى تعلموه لأنى أخلق مالاتعلمون وماذكرت لكم الا ما يمكن أن تعلموه

﴿ الفصل الثالث . الروايات التى وضعها الناس فى هذا المقام ﴾

اعلم أن كل أمة من الأمم لها أسلوب فى التعليم خاص وأعم الأساليب نفعا الروايات بحيث يجعل العلم على هيئة رواية ولقد كان بنواسرائيل أبرع الناس فى الروايات المنسوبة للانبياء وقصة الخليل هذه كان لها شأن يذكر فى الأمم السالفة بلفظها تارة ومعناها تارة أخرى

واعلم أن كل عالم وحكيم ونبى وفيلسوف قد عثر الناس على أحوال له تخالف الناس فى الانفراد والعزلة أو

التفرغ والعبادة والخلوة والانقطاع لما خلق له ولم يوجد فى النوع الانسانى منهم من ليس كذلك • اعتبر ذلك فى رسول الله ﷺ لما تعبد فى غار حراء وهكذا جميع الأنبياء يعبدون ويتبتلون ومنهم ابراهيم الخليل • ولقد وضعوا قصة يستفاد منها انه كان فى غار لم يتعرف بأهل الأرض سنين ثم لما خرج نظر الكوكب والقمر الخ فبهره ما رآه ودهشه مافاجأه فقال لقومه ما رأيتـه فى الآيات والقرآن ليس يتعرض الا للحقائق فأما الروايات فهى تدل على روح المقصود وخلاصته عند أولى العقول وملخصها

ان النمروذ رأى فى منامه أوقرأ فى كتب الأنبياء مايفيـد أن مولودا يولد فى تلك السـنة فى ناحيته يكون هـلاكه على يديه فأمر بعزل النساء عن الرجال ولكنه ائتمن آزر أنه لايقرب امرأته حين أرسله الى القرية فحملت بما قدّره الله ثم انها لما وضعته أخبرت أباه ثم وضعوه فى مغارة وصارت تختلف اليه وترضـعه وقيل أنه مكث سبع عشرة سنة وصار يسأل أمّه من ربك ومن ربّ أبى ومن ربّ نمروذ فضربته وخافت وعرفت أنه هو الذى تخوّف منه النمروذ فلما أخرجاه من السجن بهره جمال النجوم فقال ماتقدّم • انتهت الرواية

﴿ الفصل الرابع ﴾

جئنا الى المقصود من هـذه القصة • اعلم أن أفلاطون جاء بعد الخليل عليه السلام بقرون لأن أفلاطون كان قبل المسيح بنحو أربع قرون وقد ألف كتابا يسمى (جمهورية أفلاطون) وهـذه الجمهورية عشرة أقسام يسمى كل منها كتابا وقد اطلعت عليها باللغة الانجليزية ولم تترجم الى العربية والناس فى انكلترا والمانيا وفرنسا يدرسون منها فصولا لطلبة العلوم لتربية الأخلاق فى التلاميذ لاسيما طلبة مدارس المعلمين • وقد جاء فى أوائل هذا الكتاب مقال أشبه بقصة الخليل يوضح المقصود منها فقال ماملخصه • لوأن قوما عاشوا تحت الثرى فى سراديب وهم لم يروا وجه الأرض ولاشمسا ولاقمرا ولانجوما ولكنهم فى ظلام حالك ثم ان هناك فيما يقرب من هـذا السرداب كانت نار متأججة والناس غادون رائحون فى الطريق بجانب النار والشمس تشرق عليهم ومعهم صور حيوانات ونبات وملابس وهـذه الصور قد ارتسمت فى جوانب السرداب بنوع مما فأخذ أولئك الجالسون فى السرداب يسمون الصور النباتية والحيوانية بأسماء بحسب مايرون ويحسبون مسافاتها وسيرها وسرعتها ويقولون هذا هو الوجود كله فهذا هو النور وهذه هى المخلوقات ثم تنبه جماعة منهم فقالوا ياقوم لقد أخطأتم ان هذا النور صناعى وهـذه الأشياء ليست حقيقية ان هى الا صور وأسماء فاختلفوا على ثلاثة أقسام فقسم صـدّق هؤلاء المفكرين وقسم كذبهم وقسم متردد فقام من هؤلاء المفكرين جماعة فقالوا لابد أن نخرج من هـذا السرداب لننظر فلما خرجوا منه لم يقدروا أن ينظروا الا صور النجوم فى الماء فى ليالى الظلمات ثم ارتقوا الى منظر القمر ثم ضوء الشمس فقالوا ان النار التى أشرقت بجانب السرداب والصور التى رسمت فى أضوائها ان هى إلا من آثار الشمس فالنار أوقدت فى الحطب والحطب نما شجره بالشمس فالاشراق من الشمس لامن الحطب اصالة وهذه الصور الحيوانية والنباتية ليست حيوانا ولانباتا على الحقيقة وانما هى صورها فلاضوء النار المتقـدة فى الحطب أصـل النور ولا الحيوانات والنباتات هى الطبيعية بل نور الشمس هو أصل نور الحطب والنبات والحيوان الناميان هما الطبيعيان • ثم ان أولئك الذين خرجوا من السرداب وخالفوا جماعتهم نظروا فوجدوا الشمس لها سير منظم وفصول أربعة شتاء وصيف وربيع وخريف ومن هذا الاختلاف كانت الزروع المختلفات والزهر والثمر وعجائب الخلقة فأخـذ منهم العجب كل مأخذ ورأوا حسابا منظما وعجبا عجابا فقالوا ان هذه النظم العجيبة والهندسة والاحكام فى الصنعة لها عوالم وراء هـذه وما مثل هذه الشمس الى المبدع لها وهـذه الحيوانات والنباتات الى العوالم التى كانت سببا لها من العالم النفسى إلا كضوء النار عند السرداب وصور الحيوانات والنباتات المصنوعة المنعكسة على جوانب السرداب المظلم الى الشمس والى الحيوانات والنباتات الحقيقية • هذا ملخص مثل أفلاطون

ومن

ومن هـذا المقام وأمثاله قيل (المثل الأفلاطونية) أى ان هـذا العالم المنظور على منوال عالم غير منظور ولهذا المقام فروع عند الصوفية وجدال عند الفلاسفة فاعرف هذا فهو الأصل واعلم انك الآن تقرأ لب العلوم

ثم ان هؤلاء الذين عرفوا هـذا رجعوا الى السرداب و بثوا الفكرة فيهم واشتد بينهم الجدل والصراع فهذه حال الحكماء مع أممهم فانهم يرون مالايراه الناس و يرجعون الى عالم المعقولات • فأما المحسوسات فانما هى مظاهر والحقائق هى العوالم الروحية واعلم أن مذهب أفلاطون الذى كثر جدال القدماء فيه هو شبه علم الأرواح الحديث فاذا ثبت ظهور الأرواح أووجودها كما هو الأقرب كان هو شبه مذهب أفلاطون لأن هـذا العالم هو الباقى وهو مماثل لعالمنا هذا فالحيوان والانسان كلاهما ثابتان عندهؤلاء العلماء

﴿ الفصل الخامس فى سيدنا محمد ﷺ ﴾

اعلم أن سيدنا محمدا ﷺ فى غار حراء شأنه عظيم ولو أنك قرأت ماقاله هنرى الفرنسى فى كتابه (خواطر وسوانح فى الاسلام) وكيف ذكر أنه ﷺ فى غار حراء وهو ينظر الى النجوم كان قد شغفه الجمال والبهاء والحسن فى تلك القبة الزرقاء والنجوم فى ذلك القفر أكثر وضوحا وأبهر ضوأ وأعجب شكلا لصفاء الجو و بهجته اذ ذاك تجلى له الملك فقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ الخ •

وانما ذكرت لك كلام (هنرى الفرنسى) لأن الرجل عبر بحرية على مقتضى ماتجرى به العادة فى العلم بين الأمم

والقصد أنه ﷺ كان فى الخلوة وكان له نظر فى النجوم • أفلاتعجب من أن فكرة النور عند الصابئين وكانت حقيقة باهرة وهى عند ابراهيم الخليل فهو وان كسر الأصنام لم يترك النجوم التى عبدوها بل جعلها وسيلة للاستدلال على مبدعها وفاطرها وانها تدل على أنه صدرها ومدبرها ومكملها ثم ترى النبى ﷺ فى غار حراء ينظر فى النجوم وكان فى آخر الليل وقت التهجد حين يقوم يقرأ - إن فى خلق السموات والأرض - الآيات وفى القرآن - فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - وجميع العبادات مرتبة على الأوقات التى هى مرتبة على سير النجوم • انتهت اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية قوله تعالى - فبهداهم اقتده - ﴾

يقول الله لنبيه ﷺ فبهدى الأنبياء اقتد • وياليت شعرى لم نقرؤها الآن ولم نتلوها صباحا ومساء أنتلوها لأن نبينا ﷺ الذى هو فى عالم الأرواح اليوم وعند ربه والملائكة مكلف باتباع الأنبياء • كلا بل نتلوها لأجلنا نحن ونحن المكلفون باتباعهم • فبماذا مكلفون باتباعهم • فى الصبر والشكر وجميع أنواع الكمالات

ياعجبا كيف يقول الله فى داود عليه السلام - وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا - ويقول انه سخر لسليمان الريح • فهل كان ذلك مجرد قول نسمعه لنتفكه به • كلا والله ثم كلا لقد كذب الجاهلون • سخر الريح لسليمان والحديد لداود ونظر ابراهيم فى النجوم وعرف تدرجها من كوكب الى قمر الى شمس وانتقل من الأدنى الى الأعلى كما فى أمثال أفلاطون حتى كان الانتقال من النار الى الشمس وهكذا حتى وصل الى العوالم المجردة • وكان داود خليفة فى الأرض يحكم بين الناس بالحق ولايتبع الهوى • ان ذلك ليقتدى النبى ﷺ بهم أى لنقتدى نحن بهم ولامعنى لاقتداء أحد من قبلنا ولامن بعدنا لأنهم ليسوا معنا الآن ولسنا نقرأ القرآن لأجلهم انما نقرأ القرآن لنا والاجتزاء بأن قراءته للرحمة ليست مطمح نظر الدين والنبوة انما هو العلم والحكمة • فماذا أعد المسلمون للريح حتى يسخروها • لقد سبقهم الفرنجة فسخروا الريح لاتقليدا لسليمان ولكن اتباعا لعقولهم • الله يقول لنا اقتدوا بهؤلاء ومنهم داود وسليمان وهما اللذان كانا شاكرين نعم الله ومن نعم الله تسخير الريح وان كان ذلك معجزة ولكن نحن ننظر لها من جهة الشكر فكيف نشكر نعمة لانملكها • ولقد أخضع الألمان الهواء اخضاعا عجيبا حتى انهم قد جعلوا فى أيام الحرب

نحو ثمان معامل كل معمل فيه نحو ٣٦٠ تليفونا للمخاطبة كلها يستخرج فيها نترات الفضة من نفس الهواء وكانت نافعة فى أعمال الحرب ثم الآن استعملت فى سماد الزرع . كل هذا من نفس الهواء مع أعمال أخرى

أفليس من العجب أن الهواء يسمد الأرض ويساعد الجند بمادته . فماذا فعل المسلمون لشكر نعمة الهواء ولاشكر الا بحصول النعمة وان صدهم عن هذا انه هناك معجزة ولين الحديد لداود معجزة . قلنا ليس الشكر على الحديد والهواء قاصرا على المعجزة فالعمل الانسانى له فيهما مآرب ظهر كثير منها حديثا وكان على المسلمين أن يتنبهوا قبل الأمم ولكنهم إذ تأخروا عنهم فى التشبه فلماذا لايسعون فى الانتفاع بالهواء والحديد بل بكل شئ مما علم ومالم يعلم . المسلمون يا الله اليوم عالة على النوع الانسانى والله لايرضى ذلك وكيف يكونون عالة وهم — خير أمة أخرجت للناس — والعالة لايكونون خير أمة وقد آن أن ترجع الأمة كما كانت فى أول عهدها . اه

﴿ اللطيفة الثالثة قوله تعالى — تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا — ﴾

لقد وبخ الله اليهود على أنهم قد أخفوا كثيرا من قراطيس التوراة وأظهروا كثيرا . ولقد خطر بنفسى لماذا ذكرت فى هذا المقام لعمرى ان هناك سرا مخفيا وعلما يجب نشره وحكمة يجب اظهارها . كيف يقول الله هنا هذا ولم خصصه بهذا المقام . ومعلوم أن هذه الآيات لم يقصد بها أحد سوانا نحن الذين نعيش الآن من المسلمين لأن المسلمين الذين ماتوا والذين سيأتون بعدنا ليس الخطاب موجها لهم الآن فعلى المسلمين الذين يقرؤن القرآن فى أى زمن أى فى زماننا هذا أو بعد ذهابنا من هذا العالم أن يقولوا ان هذا القول يقصد به تنبيهنا الى خطر فلنتلاف ذلك الخطر . أما انا اليوم فى هذا الجيل فى القرن العشرين فى السنة الرابعة والعشرين الميلادية وهى السنة الثانية والأربعون الهجرية أرفع صوتى للعالم الاسلامى وأقول لهم بكل صراحة ووضوح وجلاء لاشك فيه ولاغموض ان هذه الآية منطبقة علينا فى مصر وفى الشام و بلاد العرب و بلاد الغرب و بلاد الترك و بلاد جاوه و بلاد الهند و بلاد الصين و بلاد الروسيا و بلاد السودان و بلاد الحبشة و بلاد البربر . أقول أيها المسلمون جميعا خذوا حذركم . أحذركم اننا فعلنا فى القرآن مافعله اليهود فى التوراة ولو أرسل لنا نبى الآن لقال لنا أيها المسلمون ان القرآن قد جعلتموه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ونحن قد اتبعنا الأمم التى قبلنا حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل كما فى الحديث لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لودخلوا جحر ضب لدخلتموه . ونحن قد دخلنا جحر الضب الذى دخلوه . قد دخلناه وأنا أرى الجحر بعينى ولكن أكثر الناس لايعلمون انهم فى جحر ضب

﴿ فصل فى محاورات بينى و بين أحد الفضلاء ﴾

ولما وصلت الى هذا المقام حضر أحد الاخوان من أهل الفضل فاطلع على هذا وأنا سائر فى الكتابة فقال يافلان أربع على نفسك ماذا تكتب هذا والله الكفر بعينه وأى عاقل يقول هذا القول فضلا عن مؤمن وماكان ينبغى لك أن تكتب هذا بل أقول لاتكتبه فى التفسير لئلا يأخذ الناس بظاهر قولك و يحكمون عليك بحكم لاترضاه فتضيع الثمرة من الكتابة

قلت لم ذلك . قال لأنك تزعم أن القرآن مغير و بعضه مخفى وكأنك تزعم أن النبى ﷺ لم يبلغ بعضه أو بلغ الكل والقرآن بعضه محذوف أوان المصحف ناقص وهذا هو الكفر بعينه . قلت هون عليك ياصاح ولوانى خطر لى هذا القول لم أجد دليلا فى العقل ولا فى النقل عليه . قال إذن مامعنى كون المسلمين أخفوا بعض الدين . قلت ألست تعلم أن الفحم الحجرى والحديد والنحاس كانت تستخرج من باطن الأرض من قديم الزمان . قال بلى . قلت والبخار كان يراه الناس فى غدوهم ورواحهم وفى منازلهم . قال بلى . قلت فكأن الفحم الذى علمه الناس والذهب و بقية المعادن منتفعا بها أما مارأوه بأعينهم فى مراجلهم وعلى شرابهم

وطبخ

وطبخ طعامهم وهم لم يعلموا علمه ولم يعرفوا ثمرته فقد حرموا منه • قال نعم • قلت هكذا القرآن فانك ترى آية الوضوء وآيات الحج والصلاة قد قتلها الأئمة رضوان الله عليهم بحثا وتنقيبا حتى لم يدعوا زيادة لمستزيد فنجد فى غسل الوجه من الأقوال مالا يدع قولا لقائل وترى ابن عباس يقول تغسل العين من الداخل وترى غيره يوجب غسل الفم والأنف أى المضمضة والاستنشاق وغيرهم يوجب غسل مقدم الأذنين بالماء وذلك لاختلاف الاعتبارات والنظر فى العبارات والهمة فى المعلومات واستيفاء العلم والحكمة فى الآيات وهكذا الفرائض والدعاوى والبينات والزكاة والصلاة والحج ومسح الخف وماأشبه ذلك وقامت متون هذه العلوم ١٣ قرنا حتى ألف الناس ذلك وصرفت أذهانهم وعقولهم ورغباتهم عما سواها حتى أصبح القرآن انما يقرأ للتبرك وضاعت الثمرة المقصودة منه وترى من جهة أخرى آية ابراهيم مثلا فى هذه السورة وانه رأى القمر والشمس والكواكب طالعات ففكر فيها وذكر الأنبياء بعده ثم ذكر الأمر الختم يقول الله ـ فبهداهم اقتده ـ أى يقول لنا نحن الآن اقتدوا بهؤلاء ونحن نسمع هذا القول فنقول جميعا بلا استثناء فى مشارق الأرض ومغاربها الشمس والقمر والنجوم والأنبياء واقتداء النبى ﷺ بهم كل هذا مفهوم عندنا كتب الفقه فيها جميع الأحكام ولم يبق زيادة لمستزيد وأما النجوم فانها لالزوم للنظر فيها فقد عرفنا الله وأما الأنبياء فقد اختلف العلماء فيهم هل شرع من قبلنا شرع لنا وهكذا ويقف الذكى عند أمثال هذا المقام وقد أسدل على جميع العقول الاسلامية الحجاب إلا الراشدين وهم الذين ميزهم الله بنور العلم وانزووا فى زوايا الأرض لايعلمون ولايرشدون

فياليت شعرى أى فرق بين قوله ـ اغسلوا وجوهكم ـ وقوله ـ فبهداهم اقتده ـ وأى فرق بين قوله ـ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ـ وبين قوله فى هذه السورة ـ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى الخ ـ ولم يفصل الكلام فى الميراث ولايفصل فى الاقتداء بالأنبياء وفى النظر فى الكواكب والشمس والقمر والمعدن والنبات والحيوان والتشريح • أليس هذا كله فى القرآن وكيف يقول ـ وألنا له الحديد ـ ويقول ـ نسخرنا له الريح ـ ويقول ـ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ـ وهذا يشمل الريح والحديد والنحاس وغيرها • فاذا كان الأنبياء قد أعطوا بعضا فقد سخر الكل لعباده • يقول الله لنبيه ﷺ اقتد بالأنبياء والأنبياء كان منهم من شكر الله على نعمة الهواء ومنهم من شكره على نعمة المعادن ومنهم من بحث فى النجم والشموس وهكذا أفلا نتقبل نعمة الله ونبحث فى كل ماعلى الأرض ومافى السماء اقتداء بالأنبياء واجلالا لقوله تعالى ـ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ـ وقبولا لعطيته • ومن أعرض عن عطية الكريم الحكيم عاقبه بالحرمان ولامعنى لشكر النعمة إلا صرفها فيما خلقت له وقد أمرنا أن نشكر نعمه فقد قال ـ اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ـ وقال تعالى ـ واشكروا لى ولاتكفرون ـ وقد عرفنا معنى الشكر • أفليس من نكران النعمة ومن العصيان أن ندع ما يمكن الانتفاع به من المخلوقات فلانستعمله وبذلك نصبح غير شاكرين وهل يليق بالمسلمين أن يكونوا غير شاكرين • فأين العقول وأين الحكمة وأين الاستنباط وأين العقول الكبيرة التى خلقها الله

ان تلك العقول قد وضعت فى أغلال وحكم عليها بالارهاق فان العقول الكبيرة التى خلقت فى البلاد الاسلامية قد حكم عليها أن تضيع الذكاء المفرط فى علم الكلام من الرد على المشاغبين الذين ماتوا فكتب التوحيد أول مصيبة حلت بالأمم الاسلامية وقد استعيض بها عن النظر فى السموات والأرض كنظرات ابراهيم الخليل فهذه الكتب لاهى بمعطية اليقين ولاهى بمرقية للعلوم • فأما نظرات الخليل عليه السلام فى الفلك وبقية آى القرآن فى الطبيعة والعلوم الأخرى فانها ترقى العقول الانسانية وتعطى المعلومات اليقينية وترقى الجامعة الانسانية • فياليت شعرى أى فرق إذن بين قوله تعالى ـ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ـ وبين ظهور البخار قبل معرفة منافعه • لعمرك انه لافرق بين خفاء الشئ وبين ظهوره

نحو ثمان معامل كل معمل فيه نحو ٣٦٠ تليفونا للمخاطبة كلها يستخرج فيها نترات الفضة من نفس الهواء وكانت نافعة فى أعمال الحرب ثم الآن استعملت فى سماد الزرع . كل هذا من نفس الهواء مع أعمال أخرى أفليس من العجب أن الهواء يسمد الأرض ويساعد الجند بمادته . فماذا فعل المسلمون لشكر نعمة الهواء ولاشكر الا بحصول النعمة وان صدهم عن هذا انه هناك معجزة ولين الحديد لداود معجزة . قلنا ليس الشكر على الحديد والهواء قاصرا على المعجزة فالعمل الانسانى له فيهما مآرب ظهر كثير منها حديثا وكان على المسلمين أن يتنبهوا قبل الأمم ولكنهم إذ تأخروا عنهم فى التشبه فلماذا لايسعون فى الانتفاع بالهواء والحديد بل بكل شئ مما علم ومالم يعلم . المسلمون يا الله اليوم عالة على النوع الانسانى والله لايرضى ذلك وكيف يكونون عالة وهم ـ خير أمة أخرجت للناس ـ والعالة لايكونون خير أمة وقد آن أن ترجع الأمة كما كانت فى أول عهدها . اه

﴿ اللطيفة الثالثة قوله تعالى ـ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ـ ﴾

لقد وبخ الله اليهود على أنهم قد أخفوا كثيرا من قراطيس التوراة وأظهروا كثيرا . ولقد خطر بنفسى لماذا ذكرت فى هذا المقام لعمرى ان هناك سرا مخفيا وعلما يجب نشره وحكمة يجب اظهارها . كيف يقول الله هنا هذا ولم خصصه بهذا المقام . ومعلوم أن هذه الآيات لم يقصد بها أحد سوانا نحن الذين نعيش الآن من المسلمين لأن المسلمين الذين ماتوا والذين سيأتون بعدنا ليس الخطاب موجها لهم الآن فعلى المسلمين الذين يقرؤن القرآن فى أى زمن أى فى زماننا هذا أو بعد ذهابنا من هذا العالم أن يقولوا ان هذا القول يقصد به تنبيهنا الى خطر فلنتلاف ذلك الخطر . أما انا اليوم فى هذا الجيل فى القرن العشرين فى السنة الرابعة والعشرين الميلادية وهى السنة الثانية والأربعون الهجرية أرفع صوتى للعالم الاسلامى وأقول لهم بكل صراحة ووضوح وجلاء لاشك فيه ولاغموض ان هذه الآية منطبقة علينا فى مصر وفى الشام و بلاد العرب و بلاد الغرب و بلاد الترك و بلاد جاوه و بلاد الهند و بلاد الصين و بلاد الروسيا و بلاد السودان و بلاد الحبشة و بلاد البربر . أقول أيها المسلمون جميعا خذوا حذركم . أحذركم اننا فعلنا فى القرآن مافعله اليهود فى التوراة ولو أرسل لنا نبى الآن لقال لنا أيها المسلمون ان القرآن قد جعلتموه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ونحن قد اتبعنا الأمم التى قبلنا حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل كما فى الحديث لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لودخلوا جحر ضب لدخلتموه . ونحن قد دخلنا جحر الضب الذى دخلوه . قد دخلناه وأنا أرى الجحر بعينى ولكن أكثر الناس لايعلمون انهم فى جحر ضب

﴿ فصل فى محاورات بينى و بين أحد الفضلاء ﴾

ولما وصلت الى هذا المقام حضر أحد الاخوان من أهل الفضل فاطلع على هذا وأنا سائر فى الكتابة فقال يافلان أربع على نفسك ماذا تكتب هذا والله الكفر بعينه وأى عاقل يقول هذا القول فضلا عن مؤمن وما كان ينبغى لك أن تكتب هذا بل أقول لاتكتبه فى التفسير لئلا يأخذ الناس بظاهر قولك ويحكمون عليك بحكم لاترضاه فتضيع الثمرة من الكتابة

قلت لم ذلك . قال لأنك تزعم أن القرآن مغير و بعضه مخفى وكأنك تزعم أن النبى ﷺ لم يبلغ بعضه أو بلغ الكل والقرآن بعضه محذوف أوان المصحف ناقص وهذا هو الكفر بعينه . قلت هون عليك ياصاح ولوانى خطر لى هذا القول لم أجد دليلا فى العقل ولافى النقل عليه . قال إذن مامعنى كون المسلمين أخفوا بعض الدين . قلت ألست تعلم أن الفحم الحجرى والحديد والنحاس كانت تستخرج من باطن الأرض من قديم الزمان . قال بلى . قلت والبخار كان يراه الناس فى غدوهم ورواحهم وفى منازلهم . قال بلى . قلت فكأن الفحم الذى علمه الناس والذهب و بقية المعادن منتفعا بها أما ماراوه بأعينهم فى مراجلهم وعلى شرابهم

وطبخ طعامهم وهم لم يعلموا علمه ولم يعرفوا ثمرته فقد حرموا منه • قال نعم • قلت هكذا القرآن فانك ترى آية الوضوء وآيات الحج والصلاة قد قتلها الأئمة رضوان الله عليهم بحثا وتنقيبا حتى لم يدعوا زيادة لمستزيد فنجد فى غسل الوجه من الأقوال مالا يدع قولا لقائل وترى ابن عباس يقول تغسل العين من الداخل وترى غيره يوجب غسل الفم والأنف أى المضمضة والاستنشاق وغيرهم يوجب غسل مقدم الأذنين بالماء وذلك لاختلاف الاعتبارات والنظر فى العبارات والهمة فى المعلومات واستيفاء العلم والحكمة فى الآيات وهكذا الفرائض والدعاوى والبينات والزكاة والصلاة والحج ومسح الخف وماأشبه ذلك وقامت متون هذه العلوم ١٣ قرنا حتى ألف الناس ذلك وصرفت أذهانهم وعقولهم ورغباتهم عما سواها حتى أصبح القرآن انما يقرأ للتبرك وضاعت الثمرة المقصودة منه وترى من جهة أخرى آية ابراهيم مثلا فى هذه السورة وانه رأى القمر والشمس والكواكب طالعات ففكر فيها وذكر الأنبياء بعده ثم ذكر الأمر الحتم يقول الله ـ فبهداهم اقتده ـ أى يقول لنا نحن الآن اقتدوا بهؤلاء ونحن نسمع هذا القول فنقول جميعا بلا استثناء فى مشارق الأرض ومغاربها الشمس والقمر والنجوم والأنبياء واقتداء النبى ﷺ بهم كل هذا مفهوم عندنا كتب الفقه فيها جميع الأحكام ولم يبق زيادة لمستزيد وأما النجوم فانها لالزوم للنظر فيها فقد عرفنا الله وأما الأنبياء فقد اختلف العلماء فيهم هل شرع من قبلنا شرع لنا وهكذا ويقف الذكى عند أمثال هذا المقام وقد أسدل على جميع العقول الاسلامية الحجاب إلا الراشدين وهم الذين ميزهم الله بنور العلم وانزووا فى زوايا الأرض لايعلمون ولايرشدون

فياليت شعرى أىّ فرق بين قوله ـ اغسلوا وجوهكم ـ وقوله ـ فبهداهم اقتده ـ وأىّ فرق بين قوله ـ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ـ وبين قوله فى هذه السورة ـ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى الخ ـ ولم يفصل الكلام فى الميراث ولا يفصل فى الاقتداء بالأنبياء وفى النظر فى الكواكب والشمس والقمر والمعدن والنبات والحيوان والتشريح • أليس هذا كله فى القرآن وكيف يقول ـ وألنا له الحديد ـ ويقول ـ نسخرناله الريح ـ ويقول ـ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ـ وهذا يشمل الريح والحديد والنحاس وغيرها • فاذا كان الأنبياء قد أعطوا بعضا فقد سخر الكل لعباده • يقول الله لنبيه ﷺ اقتد بالأنبياء والأنبياء كان منهم من شكر الله على نعمة الهواء ومنهم من شكره على نعمة المعادن ومنهم من بحث فى النجم والشموس وهكذا أفلا نتقبل نعمة الله ونبحث فى كل ماعلى الأرض ومافى السماء اقتداء بالأنبياء واجلالا لقوله تعالى ـ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ـ وقبولا لعطيته • ومن أعرض عن عطية الكريم الحكيم عاقبه بالحرمان ولامعنى لشكر النعمة إلا صرفها فيما خلقت له وقد أمرنا أن نشكر نعمه فقد قال ـ اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ـ وقال تعالى ـ واشكروا لى ولاتكفرون ـ وقد عرفنا معنى الشكر • أفليس من نكران النعمة ومن العصيان أن ندع ما يمكن الانتفاع به من المخلوقات فلانستعمله وبذلك نصبح غير شاكرين وهل يليق بالمسلمين أن يكونوا غير شاكرين • فأين العقول وأين الحكمة وأين الاستنباط وأين العقول الكبيرة التى خلقها الله

ان تلك العقول قد وضعت فى أغلال وحكم عليها بالارهاق فان العقول الكبيرة التى خلقت فى البلاد الاسلامية قد حكم عليها أن تضيع الذكاء المفرط فى علم الكلام من الردّ على المشاغبين الذين ماتوا فكتب التوحيد أوّل مصيبة حلت بالأمم الاسلامية وقد استعيض بها عن النظر فى السموات والأرض كنظرات ابراهيم الخليل فهذه الكتب لاهى بمعطية اليقين ولاهى بمرقية للعلوم • فأما نظرات الخليل عليه السلام فى الفلك وبقية آى القرآن فى الطبيعة والعلوم الأخرى فانها ترقى العقول الانسانية وتعطى المعلومات اليقينية وترقى الجامعة الانسانية • فياليت شعرى أىّ فرق إذن بين قوله تعالى ـ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ـ وبين ظهور البخار قبل معرفة منافعه • لعمرك انه لافرق بين خفاء الشئ وبين ظهوره

نحو ثمان معامل كل معمل فيه نحو ٣٦٠ تليفونا للمخاطبة كلها يستخرج فيها نترات الفضة من نفس الهواء وكانت نافعة فى أعمال الحرب ثم الآن استعملت فى سماد الزرع • كل هذا من نفس الهواء مع أعمال أخرى أفليس من العجب أن الهواء يسمد الأرض ويساعد الجند بمادته • فماذا فعل المسلمون لشكر نعمة الهواء ولاشكر الا بحصول النعمة وان صدهم عن هذا انه هناك معجزة ولين الحديد لداود معجزة • قلنا ليس الشكر على الحديد والهواء قاصرا على المعجزة فالعمل الانسانى له فيهما مآرب ظهر كثير منها حديثا وكان على المسلمين أن يتنبهوا قبل الأمم ولكنهم إذ تأخروا عنهم فى التشبه فلماذا لايسعون فى الانتفاع بالهواء والحديد بل بكل شئ مما علم ومالم يعلم • المسلمون يا الله اليوم عالة على النوع الانسانى والله لايرضى ذلك وكيف يكونون عالة وهم ـ خير أمة أخرجت للناس ـ والعالة لايكونون خير أمة وقد آن أن ترجع الأمة كما كانت فى أول عهدها • اه

﴿ اللطيفة الثالثة قوله تعالى ـ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ـ ﴾

لقد وبخ الله اليهود على أنهم قد أخفوا كثيرا من قراطيس التوراة وأظهروا كثيرا • ولقد خطر بنفسى لماذا ذكرت فى هذا المقام لعمرى ان هناك سرا مخفيا وعلما يجب نشره وحكمة يجب اظهارها • كيف يقول الله هنا هذا ولم خصصه بهذا المقام • ومعلوم أن هذه الآيات لم يقصد بها أحد سوانا نحن الذين نعيش الآن من المسلمين لأن المسلمين الذين ماتوا والذين سيأتون بعدنا ليس الخطاب موجها لهم الآن فعلى المسلمين الذين يقرؤن القرآن فى أى زمن أى فى زماننا هذا أو بعد ذهابنا من هذا العالم أن يقولوا ان هذا القول يقصد به تنبيهنا الى خطر فلنتلاف ذلك الخطر • أما انا اليوم فى هذا الجيل فى القرن العشرين فى السنة الرابعة والعشرين الميلادية وهى السنة الثانية والأربعون الهجرية أرفع صوتى للعالم الاسلامى وأقول لهم بكل صراحة ووضوح وجلاء لاشك فيه ولاغموض ان هذه الآية منطبقة علينا فى مصر وفى الشام و بلاد العرب و بلاد الغرب و بلاد الترك و بلاد جاوه و بلاد الهند و بلاد الصين و بلاد الروسيا و بلاد السودان و بلاد الحبشة و بلاد البربر • أقول أيها المسلمون جميعا خذوا حذركم • أحذركم اننا فعلنا فى القرآن مافعله اليهود فى التوراة ولو أرسل لنا نبى الآن لقال لنا أيها المسلمون ان القرآن قد جعلتموه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ونحن قد اتبعنا الأمم التى قبلنا حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل كما فى الحديث لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه • ونحن قد دخلنا جحر الضب الذى دخلوه • قد دخلناه وأنا أرى الجحر بعينى ولكن أكثر الناس لايعلمون انهم فى جحر ضب

﴿ فصل فى محاورات بينى و بين أحد الفضلاء ﴾

ولما وصلت الى هذا المقام حضر أحد الاخوان من أهل الفضل فاطلع على هذا وأنا سائر فى الكتابة فقال يافلان أربع على نفسك ماذا تكتب هذا والله الكفر بعينه وأى عاقل يقول هذا القول فضلا عن مؤمن وما كان ينبغى لك أن تكتب هذا بل أقول لاتكتبه فى التفسير لئلا يأخذ الناس بظاهر قولك و يحكمون عليك بحكم لاترضاه فتضيع الثمرة من الكتابة

قلت لم ذلك • قال لأنك تزعم أن القرآن مغير و بعضه مخفى وكأنك تزعم أن النبى ﷺ لم يبلغ بعضه أو بلغ الكل والقرآن بعضه محذوف أوان المصحف ناقص وهذا هو الكفر بعينه • قلت هون عليك ياصاح ولو انى خطر لى هذا القول لم أجد دليلا فى العقل ولا فى النقل عليه • قال إذن مامعنى كون المسلمين أخفوا بعض الدين • قلت ألست تعلم أن الفحم الحجرى والحديد والنحاس كانت تستخرج من باطن الأرض من قديم الزمان • قال بلى • قلت والبخار كان يراه الناس فى غدوهم ورواحهم وفى منازلهم • قال بلى • قلت فكأن الفحم الذى علمه الناس والذهب و بقية المعادن منتفعا بها أما مارأوه بأعينهم فى مراجلهم وعلى شرابهم

وطبخ

وطبخ طعامهم وهم لم يعلموا علمه ولم يعرفوا ثمرته فقد حرموا منه . قال نعم . قلت هكذا القرآن فانك ترى آية الوضوء وآيات الحج والصلاة قد قتلها الأئمة رضوان الله عليهم بحثا وتنقيبا حتى لم يدعوا زيادة لمستزيد فنجد فى غسل الوجه من الأقوال مالا يدع قولا لقائل وترى ابن عباس يقول تغسل العين من الداخل وترى غيره يوجب غسل الفم والأنف أى المضمضة والاستنشاق وغيرهم يوجب غسل مقدم الأذنين بالماء وذلك لاختلاف الاعتبارات والنظر فى العبارات والهمة فى المعلومات واستيفاء العلم والحكمة فى الآيات وهكذا الفرائض والدعاوى والبينات والزكاة والصلاة والحج ومسح الخف وماأشبه ذلك وقامت متون هذه العلوم ١٣ قرنا حتى ألف الناس ذلك وصرفت أذهانهم وعقولهم ورغباتهم عما سواها حتى أصبح القرآن انما يقرأ للتبرك وضاعت الثمرة المقصودة منه وترى من جهة أخرى آية ابراهيم مثلا فى هذه السورة وانه رأى القمر والشمس والكواكب طالعات ففكر فيها وذكر الأنبياء بعده ثم ذكر الأمر الحتم يقول الله - فبهداهم اقتده - أى يقول لنا نحن الآن اقتدوا بهؤلاء ونحن نسمع هذا القول فنقول جميعا بلا استثناء فى مشارق الأرض ومغاربها الشمس والقمر والنجوم والأنبياء واقتداء النبى ﷺ بهم كل هذا مفهوم عندنا كتب الفقه فيها جميع الأحكام ولم يبق زيادة لمستزيد وأما النجوم فانها لالزوم للنظر فيها فقد عرفنا الله وأما الأنبياء فقد اختلف العلماء فيهم هل شرع من قبلنا شرع لنا وهكذا ويقف الذكى عند أمثال هذا المقام وقد أسدل على جميع العقول الاسلامية الحجاب إلا الراشدين وهم الذين ميزهم الله بنور العلم وانزووا فى زوايا الأرض لايعلمون ولايرشدون

فياليت شعرى أى فرق بين قوله - اغسلوا وجوهكم - وقوله - فبهداهم اقتده - وأى فرق بين قوله - ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد - وبين قوله فى هذه السورة - فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى الخ - ولم يفصل الكلام فى الميراث ولايفصل فى الاقتداء بالأنبياء وفى النظر فى الكواكب والشمس والقمر والمعدن والنبات والحيوان والتشريح . أليس هذا كله فى القرآن وكيف يقول - وألنا له الحديد - ويقول - نسخرناله الريح - ويقول - وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه - وهذا يشمل الريح والحديد والنحاس وغيرها . فاذا كان الأنبياء قد أعطوا بعضا فقد سخر الكل لعباده . يقول الله لنبيه ﷺ اقتد بالأنبياء والأنبياء كان منهم من شكر الله على نعمة الهواء ومنهم من شكره على نعمة المعادن ومنهم من بحث فى النجم والشموس وهكذا أفلا نتقبل نعمة الله ونبحث فى كل ماعلى الأرض ومافى السماء اقتداء بالأنبياء واجلالا لقوله تعالى - وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه - وقبولا لعطيته . ومن أعرض عن عطية الكريم الحكيم عاقبه بالحرمان ولامعنى لشكر النعمة إلا صرفها فيما خلقت له وقد أمرنا أن نشكر نعمه فقد قال - اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم - وقال تعالى - واشكروا لى ولا تكفرون - وقد عرفنا معنى الشكر . أفليس من نكران النعمة ومن العصيان أن ندع ما يمكن الانتفاع به من المخلوقات فلانستعمله وبذلك نصبح غير شاكرين وهل يليق بالمسلمين أن يكونوا غير شاكرين . فأين العقول وأين الحكمة وأين الاستنباط وأين العقول الكبيرة التى خلقها الله

ان تلك العقول قد وضعت فى أغلال وحكم عليها بالإرهاق فان العقول الكبيرة التى خلقت فى البلاد الاسلامية قد حكم عليها أن تضيع الذكاء المفرط فى علم الكلام من الرد على المشاغبين الذين ماتوا فكتب التوحيد أول مصيبة حلت بالأمم الاسلامية وقد استعيض بها عن النظر فى السموات والأرض كنظرات ابراهيم الخليل فهذه الكتب لاهى بمعطية اليقين ولاهى بمرقية للعلوم . فأما نظرات الخليل عليه السلام فى الفلك وبقية آى القرآن فى الطبيعة والعلوم الأخرى فانها ترقى العقول الانسانية وتعطى المعلومات اليقينية وترقى الجامعة الانسانية . فياليت شعرى أى فرق إذن بين قوله تعالى - فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر - وبين ظهور البخار قبل معرفة منافعه . لعمرك انه لافرق بين خفاء الشئ وبين ظهوره

مع الغفلة عنه واذا وضعنا أمام الأعمى أجل صورة فى الوجود فاننا لاندعى أنه عرف جمالها أوأدرك محاسنها

قال صاحبى وهل يقال ان المسلمين أخفوا مصحفا من القرآن • قلت النتيجة واحدة بل المخفى يمكن الاطلاع عليه بعد البحث أما الظاهر المكشوف الذى يراه كل انسان وقد صرفت عنه الأذهان فانه لاينتفع به اعتبر ذلك فى الديانات وفى المخلوقات فان دين المسيح لايعرفه إلا المسيحى مع انه يكون فى بلاد الاسلام ودين الاسلام لا يعرفه إلا المسلم وهو فى ديار النصارى مثلا وذلك لانصراف النفوس عن كل مالاتشوق اليه فالمسألة مسألة تشويق ورغبات • وترى الصناعات والسياسات والتجارات فى أوروبا قائمة السوق رائجة والشرق نائم وهو يرى بعينيه صليل السيوف ودوى المدافع وحصد النفوس فى الشرق واستنزاف الثروة بالتجارة وهوساكت غافل ولماذا هذا • لأن العقلاء لم يحركوا النفوس المصروفة ولم يشوّقوها للأمور النافعة المفيدة فتكون لها معشوقة • قال صاحبى فماذا تريد إذن • قلت اذا قالوا فى الكتب الدينية كتاب الصلاة والزكاة والحج والبيوع والفرائض والدعاوى والعتق فلم لايقال كتاب فى نظام الطبيعة وكتاب فى نظام الفلك وكتاب فى عجائب الحيوان وفى النبات وفى الحشرات فيطلع أكثر أهل العلم على مجمل هذه العلوم وكما يختص قوم بالقضاء يختص قوم بالفلك وآخرون بالطبيعة التى هى علم التوحيد حقا وصدقا وآخرون بعلم الحشرات وآخرون بعجائب غيرها • فقال ذلك الفاضل أو يكون هذا دين الاسلام • قلت نعم ولا اسلام غيره فهذا هو الاسلام الحقيقى • قال عجبا لك أفلست ترى أن المسلمين السابقين قد ألفوا فى هذه العلوم كلها • قلت نعم ألفوا باعتبار انها علوم اما كفرية واما مستحسنة وكان ذلك عملا فرديا أودنيويا ولكنى أقول بأعلى صوتى هذه العلوم دينية كالوضوء والصلاة والحج ولماذا يعتنى المسلمون بشروط البيع ولا يعتنون بعلوم المعادن ولماذا خصصوا للقضاء طائفة ولم يخصصوا نظيرها لعلم الحشرات أولعلم النبات أولنظام الحدائق الغناء مع المشاركة فى سائر علوم الدين • أقول هذا وأنا موقن أن هذا هو الدين حقا فعلى المسلمين أن يحيوه والا فأنت تعلم أن الله قاهر فوق عباده فقد نقل الاسلام من قوم الى قوم ولما ناموا جميعا أنزل عقابه على الجميع وأذلهم للفرنجة فسادوا عليهم أجمعين هذا هو الحق الصراح • ان هذه الآية

﴿ برزخ بين بحرين ﴾

وهى - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا - الى قوله - وهذا كتاب أنزلناه مبارك الخ -

يعجب المتأمل لهذه الآيات ويدهش من نظامها كيف لا وانها لم تذكر إلا فى برزخ بين البحرين من العلم

* البحر الأوّل علم السموات المفهوم من نبأ ابراهيم ونظره فى السموات * البحر الثانى العلوم الأرضية فى النبات والحيوان الخ

أيها الذكى أنظر وتأمل وتعجب هذان بحران من العلم • أوّلهما فى الفلك ولا يتم إلا بجميع العلوم الرياضية من الهندسة والجبر الخ • ثانيهما علم النبات والحيوان ولاجرم أن العلوم الحكمية لاتخرج عن هذين فهى علوم للعالم العلوى وعلوم للعالم السفلى والأخيرة هى العلوم الطبيعية والنظر العام فيهما معا هى العلوم الالهية • إذن هذه السورة جمعت علوم الحكمة كلها وقدّمت الرياضيات كما هو منهج التعاليم فى العالم كله وأخرت الطبيعيات هذا واضح ظاهر ولكنى أريد أن أحدثك حديثا عجبا وهو المقصود • أحدثك عن وضع هذه الآية فى البرزخ بين البحرين وما حكمتها ولم لم توضع قبل البحر الأوّل أو بعد البحر الثانى • انما جعلها الله هنا لحكمة شريفة ظهرت فى هذا الزمان وأبرزها العلم والتاريخ

ذلك أن اليهود المذكورين فى الآية قد خبؤا كثيرا من علوم التوراة وأظهروا بعضا على حسب أهوائهم والمسلمون اليوم وان لم يخفوا القرآن وأظهروه ولكن العلوم التى يحث عليها قاموا ببعضها وتركوا أكثرها أما البعض فهى العلوم الفقهية وأما الأكثر المتروك فهى العلوم المذكورة فى هذه السورة وهما البحران المحيطان بهذه الآية فكأن وضعها هنا اشارة الى أن هذه العلوم ستختفى زمنا ما فى الأمة الاسلامية والقرآن يطلبها ومتى

عرف ذلك رجعت الأمّة الى قراءة تلك العلوم وأنت أيها الذكى لا تتصوّر ماقلته لك الآن مما تضمنه هذا الوضع إلا اذا قصصت عليك قصص الأمم الاسلامية فأقول

لقد دوّنت الأمم الاسلامية العلوم عن الأمم السابقة الذين لم يعلم الناس عنها شيأ الا أن المصريين هم الذين نبغوا فى العلوم وقفى على آثارهم السريانيون والكلدانيون ثم الفرس واليونان وأجلّ هؤلاء (سقراط وأفلاطون وارسطو) ثم انتقلت الحكمة والملك الى الرومان وكان منهم (شيشرون وسنيكا)

ثم لما كان آخر القرن الثانى حدثت شيعة الاسكندرين الذين كانوا يوفقون بين العلم والدين . ولما تنصر الفرنجة هجروا أكثر تلك العلوم . ثم ظهرت الأمّة العربية ودانت لها الأمم فأرسل أبو جعفر المنصور الى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب (اقليدس) و بعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واشتاقوا الى العلم لاسيما انهم خالطوا الروم والفرس والصابئين فأثار ذلك شوقهم الى العلوم . ولما جاء المأمون سعى جدّ السعى فى استخراج تلك العلوم وهناك ظهر المترجمون من اليونانية الى العربية وكان ابتداء ذلك من سنة ١٣٦ وانتهى فى نصف القرن الرابع الهجرى ومن التراجمة فى تلك العصور (يحيى بن البطريق وجورجيس بن جبرئيل ويحيى بن البطريق و يوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش و يوحنا بن البطريق وحنين بن اسحق واسحق بن حنين ويحيى بن عدى) وغيرهم وهذه الترجمة كان فيها اختلاف كبير فلخصها الفارابى ومحصها ابن سينا

﴿ انحطاط التعاليم فيما بعد ذلك ﴾

ثم أخذت ريح العلوم تركد والأمّة ترجع القهقرى فأخذ صغار العلماء يحرّمون هذه العلوم وأصيب العلماء بهذه العلوم بمصائب الحسد والعداوة والضنك والحبس كما حصل لعبد السلام الجيلى المعروف بالركن الذى اشتهر بهذه العلوم فى القرن السادس من الدولة الامامية الناصرية وحصل له تقدم عند رجال الدولة فأخذ أطفال العلماء يذمّونه و يوقعون به حتى برزت الأوامر الناصرية باخراج كتبه الى موضع ببغداد يسمى (بالرحبة) وخطب الرجل المسمى (بابن المارستانية) فوق منبر وصار يلعن علم الفلك وعلم الحيوان وغيرهما و يلقى كتبها فى النار وحبس ذلك العالم فى السجن ولم يخرج إلا بعد مدة فى سنة ٥٨٩ هجرية

هذا ما كان فى بلاد الشرق . ثم انظر الى ماحصل فى بلاد الغرب فان القوم أحرقوا كتب الغزالى فى الأندلس والمغرب الأقصى ولقد وصل الأمر الى ماحكاه أبو حيان فى تفسيره البحر أن أهل المنطق بجزيرة الأندلس كانوا يعبرون عن المنطق بالمفعل تحرّزا عن صولة الفقهاء حتى ان بعض الوزراء أراد أن يشترى لابنه كتابا فى المنطق فاشتراه خفية خوفا منهم مع انه أصل كل علم وتقويم كل فن

ثم ان القوم اضطهدوا ابن رشد فتحوّل العلم بهذه الأسباب من الشرق والاسلام الى أوروبا من طريق تلاميذ ابن رشد النصارى واليهود فدار الزمان دورته

هذا ماكان من أخلاق الأمم الاسلامية بعد القرون الأولى فانظر ماذا فعل الله حالا سلط عليهم المغول والتتار المعبر عنهما فى علم الجغرافيا قديما كما سيأتى فى سورة الكهف بلفظ - يأجوج ومأجوج - جمعهم جنكيزخان وتوجه بهم الى بلاد الاسلام لما وجد من قطب أرسلان ظلما لتجاره ونكثا بعهوده كما سيأتى ايضاحه فى تفسير سورة الكهف فخرب البلاد وقتل الشيوخ والصبيان والنساء وقد يقتل البهائم ويدمر كل شئ تدميرا

وأحرقوا كتب الخزائن العلمية فى بخارى وسمرقند وحلب فقد مزقوا مافيها من الكتب لما دخلوها وهكذا ضاعت ومزقت كتب المكاتب الاسلامية ومما زاد فى الطين بلة الحروب الصليبية . اذن الأمم الاسلامية أولا غيروا ما بأنفسهم من العلوم وحبها فغير الله حالهم فأغارت عليهم الأمم - ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم - ثم جاءت دولة الترك وفتحوا القسطنطينية وكان فيها فحول في العلوم الحكمية والدينية كالعلامة شمس الدين الفنارى والفاضل قاضى زاده الرومى والعلامة خواجه زاده والعلامة على قوشجى والفاضل ابن المؤيد وميرجلبى والعلامة ابن الكمال . قال العلامة التركى منلا كاتب جلبى مؤلف كتاب (كشف الظنون) المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى

ولما حل أوان الانحطاط وكسدت ريح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه الى درس الهداية والأكمل فاندرست العلوم بأمرها الا قليلا من رسومها فكان المولى المذكور سببا لانقراض العلوم من الروم كما قال مولانا الأديب شهاب الدين الخفاجى فى خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة اهـ منلا كاتب جلبى

فانظر كيف ذهبت دولة الاسلام فى الشرق بجنكيزخان وخلفائه الذين أماتوا ألف ألف انسان فى بغداد وجعلوا الكتب جسرا تمر عليه جيوشهم بدجلة . وانظر كيف جاء الملك (فرديناند) وزوجته (ايزابلا) وقتلوا المسلمين بالأندلس ومن بقى تنصر ولم يفر منهم الى بلاد شمال أفريقيا الا القليل وأبناؤهم اليوم فى مراكش وتونس والجزائر . وانظر كيف انحطت دولة الترك البائدة الجاهلة فى زماننا وحلت محلها الأمة الحالية التى يقودها الغازى (مصطفى كمال باشا) وهى تجد فى تعلم العلوم بأسرها ولله عاقبة الامور

هذا تاريخ الأمة الاسلامية . أليس هذا الذى بسطته أمامك الآن معناه أن المسلمين لما أحبوا جميع العلوم كانوا فى منعة ولما غيروا ما بنفوسهم غير الله حالهم - ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلامرد له - ألست ترى أن هذه الآية منطبقة على تلك الأمم فانهم لما غيروا ما بأنفسهم أراد الله بهم السوء ولم يكن لذلك السوء مرد وقد حصل فعلا فذل المسلمون فى أقطار الأرض . أولست ترى معى أن قوله تعالى فى هذه الآية مخاطبا اليهود - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا - يقرب مما ذكرناه فالقرآن وان كان مقروأ ولم يغير فالذى غير وبدل هو طرق التعليم . فالمسلمون فى أول أمرهم كانوا يدرسون كل العلوم أو يجيزون دراستها ولما منعوها صاروا كأنهم أخفوا بعض الكتاب وأظهروا بعضا . ألاترى انك تدخل المعهد الدينى فلاتسمع الا ان المطلوب هو علم الفقه وعلم التوحيد ولايقرؤن للطالب جمال الطبيعة والفلك ولايذكرونه بأن العلوم جميعها فروض كفايات ويوزعونها على الأفراد . أليس مثل اخفاء القرآن تماما بل هذا هو المقصود من الاخفاء . لهذا جىء بهذه الآية بين العلوم الفلكية والعلوم الطبيعية تنبيها للمسلمين

اننا ورثنا عن أسلافنا الأقربين علما ناقصا وتركنا أهم العلوم فكأننا نبدى بعض الكتاب وهو الفقه ونخفى كثيرا وهى العلوم الحكمية التى لها (٧٥٠) آية بخلاف الفقه الذى له مالايزيد عن (١٥٠) آية فتعجب من عجائب القرآن . هذا ولما ترك المسلمون هذه العلوم رأينا وعلمنا أن كل طالب علم ارتقى عن الوسط الاسلامى فى الشرق والغرب نزل الاسلام فى عينه عن مكانته كما سمعت ذلك من جميع طبقات المسلمين

قال لى أحد علماء الصين ان أبناء الأغنياء المسلمين بعد رجوعهم من أوروبا ينظرون الى دين الاسلام نظرهم لمستصغر الأشياء وأدناها درجة لعلمهم أنه لايخرج عن الوضوء والطلاق وعقد العقود . هذا كلامه وقال ان هناك سبعين مليونا من المسلمين * قد رأينا آثار قصة الخليل فى الأمم السابقة فأين آثارها فى الاسلام

قد قلت لك قد عثرنا على طريقة لتعليم القدماء قبل المسيح بأربعة قرون وكيفية البحث فى العالم العلوى والعروج الى الكمال فى كتاب (جمهورية أفلاطون) وقد رأينا فيها انه انتقل من العالم العنصرى الى العالم الفلكى وجعل أصل المجد هناك ثم جعل العلم الرياضى كالحساب والهندسة والجبر هى محور العالم الانسانى وأن الأعداد وأعمالها أقرب الى عالم المجردات فالفكر يصعد بها الى العدل والجمال والخلوص من شقاء المادة

وجعلها

وجهلها وكذلك أوجب الرياضة الجسمية ايجابا عظيما وحتم على كل رجال الجيش ورجال الحكومة أن يكونوا فى علم الرياضة بارعين وفى الحساب مدققين وأكد ذلك تأكيدا أكثر فى أمراء الأمة من الملوك والوزراء وأمثالهم فأوجب عليهم تعلم الرياضيات العقلية أكثر من قوّاد الجيوش وهكذا

هذه المباحث كانت تقال قبل المسيح و بعضها يكاد يكون كتعليم الخليل كما تقدّم . فاذا استنبط المسلمون من قصص الخليل ونظره فى النجوم ومن قصص سائر الأنبياء . نعم قد اكتفوا بأن نبينا ﷺ فعل بالأصنام مافعله الخليل وكسرها وقال آمنوا بالله فآمنا وانتهى الأمر وأصبح القرآن يتلى للعبادة . أما التفكر فأصبح فى كتب الفقه وكتب أصول الفقه وكتب علوم التوحيد وغاب عن الناس اشراق شمس الذات المحمدية والعلوم الكونية والأنوار القدسية والنجوم السماوية والأنوار الخليلية فعظمت البلية وقتلتنا الأمم الغربية . كل ذلك حاصل ولكن الناس لايتذكرون يحسون به ولكنهم لايشعرون يعذبون ولكنهم لايتوبون ياليت شعرى أرضى المسلمون بذلك فناموا أم السكرة أحاطت بالفكرة فأصبحوا خامدين . لقد جاء وقتكم وأقبل سعدكم وأمرد بكم أنكم الى طريق السعادة سائرون والى مقام الرشد مهتدون

قال صاحبى فاذكر نبذة من جمال الفلك تكون تبصرة للقارئين وذكرى للذاكرين لمناسبة قصة الخليل واقتداء النبى ﷺ به فى نظره الجميل امتثالا للأمر بالاقتداء على شريطة أن لا يكون مما ذكرته فى هذا الكتاب

سأذكر لك نبذة فى الفلك قريبا وعند قوله تعالى ـ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ـ وشيأ من ابعاد الكواكب وعددها وأكتفى هنا الآن بذكر مسألة تختص بهذا النظام الشمسى فأقول . اعلم أن الأرض تدور حول الشمس وكذلك السيارات ثم القمر يدور حول الأرض كل ذلك فى مدارات متشابهة و يسمى كل منها (الشكل الاهليجى) فاذا رأينا الربيع والخريف والصيف والشتاء فان ذلك حاصل من سير الأرض حول الشمس وهذا المدار تعرفه بأن تذهب الى الحدائق وفيها أشكال ذات أزهار منتظمة الوضع بطرق هندسية يعقلها البستانيون . وطريق ذلك أن يضعوا فى الحديقة وتدين فى الأرض و بينهما بعد يعينونه على حسب المصلحة والنظام المطلوب ثم يأتون بحبل أطول من ضعف المسافة بين الوتدين ثم ير بطون طرفيه فيصير مقفلا و يأتون بخشبة و يضعونها على ذلك الحبل من الداخل و يجذبونها الى الخارج و يدورون حول الوتدين فيرسمون بذلك شكلا تاما وهذا هو (الشكل الاهليلجى) فتراه كدائرة مستطيلة وتراه فى البساتين المحيطة بالقاهرة بديارنا المصرية وقد ألهم الله رجال البساتين أن يصنعوا هذا الشكل حتى اذا جاء من لم يمارس علم الفلك واطلع عليها وقد قرأ هذا الكلام أدرك أن هذا هو مدار السيارات حول الشمس ومدار القمر حول الأرض وموضع الوتدين فى ذلك الشكل يسميان (البؤرتين) أو (نقطتى الاحتراق) أو (المحترقين) وترى الشمس دائما بالنسبة للارض وللسيارات فى احدى البؤرتين والأرض والسيارات جاريات على هذا الشكل وكذلك الأرض بالنسبة للقمر الدائر حولها أى انها فى احدى البؤرتين دائما

﴿ كيف قصر المسلمون ونبغ الغربيون فى القرون الأخيرة وفلاسفتهم الأقدمون
تلاميذ علماء الاسلام بالأندلس كما هم به معترفون ﴾

لقد ذكر العلامة (سديو) الفرنسى الذى ألف كتاب (تاريخ الأمة العربية) أن علماء أوروبا فى القرن الرابع عشر والخامس عشر المسيحى قد ادّعوا انهم كشفوا مسائل فى الفلك والطبيعة وغيرهما وهم فى ذلك كاذبون سارقون وأثبت تلك السرقة بعشرة أدلة مثل ان أوروبا لم يكن بها مراصد فى ذلك الزمان وانما كانت فى ديار الاسلام . ومثل أن بعض المسائل المكشوفة وجدت فى كتب عربية بعد الكشف تاريخ تأليفها قبله بقرون وهكذا الخ

أقول فهؤلاء الأورو بيون الذين هم تلاميذ آبائنا كما ذكره العلامة (سديو) القائل انهم كانوا تلاميذ المسلمين بالأندلس الخ قد أصبحوا اليوم أرقى من المسلمين فى جميع العلوم والمسلمون نائمون خامدون جاهلون ولأذكرلك آخر مايصنعون بالفلك وهو

﴿ عجيبتان ﴾

(الأولى) منظار للبحث فى القمر ٠ (الثانية) خريطة السموات

أما الأولى وهى منظار القمر فذلك أنه فى هذه السنة أى سنة ١٩٢٦ يصنع فى باريس منظار (تيلسكوب) يزيد حجمه عن ضعف أى منظار فلكى فى العالم حتى اليوم ويؤمل أن يرى بواسطته الكواكب التى لاتشاهد الآن على مسافة خمسة عشر ألف مرة منها وهذا المنظار يقيمه الآن العالم الفلكى الأمريكى (جورج رتشى) وسيرى القمر بواسطته على بعد عشرة أميال فقط وهكذا يتضاعف أمام النظر الكون المرئى مليونا وخمسمائة ألف مرة فى الحجم ويقولون انه مستعد للعمل فى صيف هذه السنة

أما العجيبة الثانية وهى خريطة السموات ٠ فاعلم انه قد اشترك ١٨ مرصدا فى عمل هذه الخريطة وابتداء العمل كان فى سنة ١٨٨٧ وسيستغرق ٧٥ عاما وقد أتم ثلاث مراصد العمل الآن وهى مراصد الكاب فى جنوب أفريقيا وجرينوتش واكسفورد فى انكلترا ٠ وقد بلغت تكاليف الخريطة حتى الآن مليونا من الجنيهات وستحتوى على قسمين مختلفين عند تمامها أحدهما صورة تخطيطية عامة والآخر الأسماء والأوصاف والمقاسات لما يقرب من نصف مليون كوكب وعلى كل مرصد أن يأخذ ألفا ومائتى لوحة تصويرية مرتين وعلى كل لوحة مايتراوح بين أربعمائة وخمسمائة كوكب يقاس كل منها ويقيد بأصوله ويبلغ مايخص كل مرصد عندئذ نصف مليون من الكواكب اهـ من الجرائد الانجليزية فى هذه الأيام

هذا عمل أوروبا ٠ وهذا هو الذى يرمى اليه الخليل عليه السلام ومقصد القرآن ٠ هذا هو الذى يطلبه الاسلام ٠ كان هذا واجبا على المسلمين وجوبا كفائيا

إن هذه الصور السماوية التى يأخذها الأورو بيون نافعة من الوجهة العلمية والتوحيد ومن جهة ارتقاء النفوس ومن جهة التجارة فان كثرة المعارف السماوية الكوكبية تسهل طرق الملاحة والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ قطرة من بحر ملكوت السموات والأرض الذى أراه الله لابراهيم عليه السلام والكلام على الكوكب والقمر والشمس المذكورات فى هذه القصة ﴾

(١) الكواكب على قسمين ٠ ثوابت وسيارات ٠ أما الثوابت فهى أكثر التى نراها فى السماء كل ليلة وهى تبلغ مئات الملايين بالمناظير المعظمة وقد ذكرنا هذا فى مواضع من هذا التفسير

ونريد الآن أن نبين أن القدماء قد قسموها الى عدة صور ٠ والمنقول عن بطليموس أن تلك الصور (٤٨) صورة منها ٢١ فى الشمال و١٥ فى الجنوب و١٢ فى الجزء المتوسط بالقرب من دائرة المعدل ويشمل مجموع هذه الثمان والأربعين صورة على ١٠٢٩ نجمة عند القدماء منها ٣٦١ للصور الشمالية و٣١٨ للصور الجنوبية و (٣٥٠) للصور المنطقية والاثنتا عشرة صورة المنطقية هى المنازل المعروفة وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت والاحدى والعشرون الشمالية منها الدب الأصغر أو بنات نعش الصغرى والدب الأكبر والثعبان والملتهب والعوّاء والجاثى على ركبتيه والمرأة المسلسلة والخمس عشرة صورة الجنوبية منها ٠ قيطس ٠ الجبار ٠ نهر الأردن ٠ الأرنب ٠ الكلب الأصغر ٠ الكلب الأكبر ٠ السفينة ٠ الشجاع ٠ الكاس ٠ الغراب ٠ المجمره ٠ سنطورس الخ

وقد جعلوا هذه النجوم أقدارا فأضوؤها القدر الأول و يليه الثانى وهكذا ٠ والمتأخرون حافظوا على

هذا التقسيم ولكنهم رأوا أن النجوم أكثر حتى جعلوها ستة آلاف نجمة لذوى الأبصار الحادّة ومئات الملايين بالآلات الراسمة كما تقدّم ايضاحه فى سورة البقرة • ومن هذه الثوابت الآتى

(١) النجوم المتغيرة فلا يحفظ ضوءها شدة واحدة وهذا التغير فيها اما لمدة معلومة واما ليس يعلم له دور

(٢) ومنها النجوم الوقتية الجديدة فقد تظهر نجوم فى محال من السماء لم ير فيها نجوم من قبل ثم تختفى مثل النجمة المشهورة التى رصدوها سنة ١٥٧٢ فى وسط ذات الكرسى فكانت أضوأ كوكب فى السماء ثم أخذت تنقص تدريجا ثم اختفت بعد ١٧ شهرا

(٣) ومنها النجوم التى ظهرت ثم بقيت مثل نجمة ظهرت فى صورة الاكليل الشمالى سنة ١٨٦٦ ظهرت كلؤلؤة ثم ضعفت ولا تزال الى الآن ولكن ترى بالمناظير

(٤) ومنها النجوم التى اختفت ولم ترجع

(٥) ومنها النجوم المزدوجة إذ بعض النجوم التى نراها واحدة بالعين تكون فى الواقع نجمتين وقد عدّوا منها (٧٠٠) مجموعة الى الآن

(٦) ومنها النجوم المضاعفة بأن تكون النجمة واحدة بنظر العين ولكنها تكون ثلاثا أو أربع شموس بالمنظار ومنها نجمة من الجبار مركبة من ست شموس

(٧) ومنها القنوان والسدام • فالقنوان جمع قنو مثل صورة الثريا الموضوعة فى صورة الثور وهى مركبة من (٨٠) نجمة و (٦) منها ترى بالعين والسدام جمع سديم وهو الضباب الرقيق وعند الفلكيين نجوم صغيرة القدر جدّا متقاربة حتى ترى كأنها سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابية لا تحلّ الى نجوم مفردة بالنظارات القوية • وملخص هذا النوع ثلاثة أقسام فان أمكن حله بالنظارات سمى مجموعة كوكبية مثل (قنو توكان) وهذا فى قسم السماء الجنوبى ويرى دائما بالعين (العادية) وان أمكن حلّ البعض منها فانها ترى على هيئة شكل منتظم كثيرا أو قليلا وان لم يمكن حلها أصلا فشكلها الذى يرى يكون غير منتظم

(٨) ومنها طريق التبانة أو المجرة وهى منطقة ضيقة بيضاء يراها الناس جميعا فى الليالى الصافية تقسم الكرة السماوية الى قسمين متساويين تقريبا ولا تقلّ النجوم التى فيها عن ١٨ مليون نجمة ولبعد هذه النجوم ترى كأنها لبن أو تبن • هذه هى النجوم الثابتة

أما السيارات فانها قليلة جدّا والفرق بينها وبين الثوابت أن الأولى ضوؤها هادئ ساكن وأن الثانية متلألئة الضوء وتظهر كأنها نقط مضيئة قطرها الظاهرى صغير جدا بحيث لا يمكن قياسه ولبعض السيارات أشكال كأشكال القمر • وقد لاحظ الناس قديما أن بعض النجوم لها حال خاصة مثلا يرون فى ليلة ما أن كوكبا من هذه الكواكب ظهر بجوار نجم ثابت وفى الليلة الثانية يرون انه قد تأخر قليلا الى المشرق وهكذا كل ليلة ولازالوا يراقبون كوكبا فكوكبا حتى عرفوا هذه الكواكب على هذا الوصف وهى عطارد والزهراء والمريخ والمشترى وزحل وأضافوا الى هذه الخمسة القمر والشمس

ولما رأى علماء العصر الحاضر أن الشمس مركز العالم وأن القمر يدور حول الأرض وأن الأرض تدور حول الشمس بعكس ما كان يظنه الأقدمون أن الأرض مركز العالم والشمس والقمر وغيرهما يدرن حولها

أقول لما عرفوا ذلك لم يعتبروا الشمس ولا القمر من السيارات بل جعلوا الأرض سيارا كأخواتها الخمس المذكورات وزادوا عليها ما كشف سنة ١٧٨١ وهو (أورانوس) وما كشف سنة ١٨٤٦ وهو (نبتون) فتكون السيارات إذن ثمانيا والأرض منها وكل هذه السيارات تتم دورتها حول الشمس فى أزمان غير متساوية وغير متغيرة • وقد وجدوا أنه كما أن للأرض قمرا فللمريخ قمران وللمشترى ولأورانوس لكل منهما أربعة أقمار ولزحل ثمانية ولنبتون واحد كالأرض وترى للزهراء ابتعادا عن الشمس بعد غروبها

ولاتزال تبتعد ليلة فليلة بحركة تسمى طردية الى أن تبلغ (٤٨) درجة تقريبا يراها جميع الناس مساء وكان يسميها الأقدمون (نجمة الليل) ثم تكر راجعة بحسب مرأى العين حتى تختفي ثانيا تحت أشعة الشمس و بعد أيام قليلة تظهر قبل شروق الشمس وتسمى (نجمة الصبح) وهذه تسمى حركة تقهقرية لأنها من الشرق الى الغرب حتى تبلغ (٤٨) درجة ثم تصير حركتها طردية ثانيا أعني من المغرب الى المشرق وتدخل تحت أشعة الشمس وهذا كله بحسب الظاهر والا فان الحقيقة أن لا رجوع ولا وقوف وانما ذلك بسبب النظر الظاهري الذي يحصل بسبب دوران الكوكب في مداره كما هو معروف في محله بالبرهان . و بهذا تفهم قول الشاعر

وللنجم من بعد الرجوع استقامة * وللشمس من بعد الغروب طلوع

وهذه الظواهر التي تراها بعينك للزهراء تراها أيضا لعطارد الذي هو وهي سياران سفليان وانما يتباعد هو (٢٣) درجة فقط ومدة الدورة الاقترانية للزهراء (٥٨٤) يوما ولعطارد (١١٦) يوما وأما المريخ فانه يبتعد الى (١٨٠) درجة فله ولسائر الكواكب العليا اجتماع واستقبال كالقمر أما الزهراء وعطارد فليس لهما الا الاجتماع أما الاستقبال فهو مستحيل إذ الاستقبال لا يكون إلا بالمقابلة على بعد (١٨٠) درجة وهذان لا يبتعدان إلا الى (٢٣) درجة لأحدهما و (٤٨) درجة للثاني فكيف يكون استقبال كاستقبال القمر وللمريخ حركة طردية وتقهقرية بحساب أوسع مما تقدم

﴿ هذا بيان وصف السيارات ﴾

(عطارد) أقرب السيارات الى الشمس يتم دورته في ٨٨ يوما تقريبا وترى الشمس فيه أكبر سبع مرات مما ترى من الأرض وشدة ضوئها وحرارتها تكون أكبر سبع مرات أيضا منهما على الارض وله أشكال كأشكال القمر

(الزهراء) الشمس ترى فيها أكبر مما ترى من الأرض مرتين تقريبا وكذا الحرارة والضوء وحجم عطارد صغير جدا . أما حجم الزهراء فانه يقرب من حجم الأرض وأيام دورتها ٢٢٥ يوما تقريبا

﴿ الأرض ﴾

محيط الأرض يبلغ (٤٠) مليون متر . ونصف قطر خط الاستواء ٦٣٧٨٫٤٠٠ متر

أعلى الجبال المعروفة لا يزيد ارتفاعه عن سطح البحر عن (٩٠٠٠) مترا وهو جزء من سبعمائة جزء من نصف قطر الأرض واذا رسم على كرة قطرها متر لا يزيد ارتفاع أعلى الجبال كجبال هملايا عن السطح العمومي بأكثر من مليمتر ونصف (١٫٤) مليمتر . العمق المتوسط للبحار (٦٠٠) متر

نهاية عمق البحار (١٠٫٠٠٠) متر

السطح الكلي للأرض يبلغ (٥٠٩) مليون كيلومترا مربعا

مياه البحار تشغل منه (٣٨٣٫٠٠٠٫٠٠٠) كيلو مترا مربعا . اليابسة (١٢٦) مليون مترا مربعا

حجم الأرض يزيد عن ألف مليار كيلومتر مكعب (١٫٠٧٩٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) أي أكثر من ألف ألف ألف ألف كيلو متر مكعب . سمك الجو قدره (٤٨٫٠٠٠) مترا

مدة دورة الأرض حول الشمس ٣٦٥ يوما و ٢٥٦ جزأ من ألف جزء من اليوم

بعد الأرض عن الشمس يساوي (٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠) فرسخا تقريبا أو (٩٢) مليون ميل تقريبا ويقطع الضوء المسافة المذكورة في ثمان دقائق و١٨ ثانية والقطار السريع في (٣٥٠) سنة تقريبا وقلة المدفع في (١٢) سنة تقريبا

﴿ المريخ ﴾

السيار الذي يلي الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض وقد تقدم الكلام عليها والذي يليها هو المريخ

وبعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف مرة ومقداره (٢٢٥) مليون كيلومترا ويرى قرص المريخ من الأرض ذا أشكال ولا يظهر وقت البدر كامل الاستدارة بل يشبه قرص القمر قبل أو بعد البدر بيومين أو ثلاثة

حجم المريخ يبلغ نحو سدس حجم الأرض ١٤٧ر٠ ويظن أن فيه بخارا وقارات وسحبا وقطبين يخيم عليهما الثلج ويتراكم ويمتد شتاء هناك ويقل امتداده فى صيف المريخ فهو فى هذا كالأرض

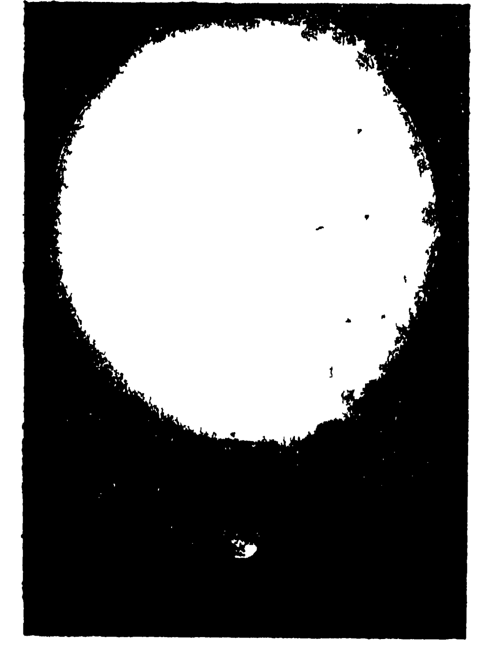
وقد كشف قمراه سنة ١٨٧٧ وهما (فوبوس) و(ديموس) وأولهما أقرب اليه من ثانيهما وسنة المريخ ٦٨٦ يوما و٩٨٠ جزأ من ألف جزء من اليوم

﴿ المشترى ـ ابعاده ﴾

هو أكبر جميع السيارات وحجمه قدر حجم الأرض (١٣٠٠) مرة وقطره يساوى ١٤٠٠٠٠ كيلو مترا فهو قدر خط الاستواء الأرضى (١١) مرة وبعده عن الشمس فى المتوسط (٧٧٠) مليون كيلومترا • انظر صورة المشترى والأرض فى شكل (١)

سنة المشترى تعادل (١٢) سنة من السنين الأرضية له جوّ يظنّ انه سميك جدّا وفيه كتل سحابية تحملها رياح كما فى الأرض وهى منتظمة انتظامها

وللمشترى أربعة أقمار ولها كسوف كما فى قمرنا • وقد عين العلماء مدد دورات تلك الأقمار وابعادها بالفراسخ وانصاف أقطارها كما فعلوا فى أرضنا وقمرنا وسموا تلك الأقمار بأسماء منها (يو) و(جاليستو) الخ • هذا ما كنا تعلمناه عن أستاذنا المرحوم حسن أفندى حسنى منذ (٣٦) سنة ونقلته من كتابه الذى تلقيناه بدار العلوم ولكن الآن بلغت أقماره التى كشفها الناس (٩) أقمار وآخرها كشف قبيل سنة ١٩٢٠



شكل (١) المشترى والأرض

﴿ زحل ﴾

امتاز زحل بأن له حلقات منفصلة عن الكرة وتدور حوله فى خط استوائه • والبعد المتوسط لزحل عن الشمس قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف أعنى (١٤٠٠) مليون كيلومترا تقريبا ويقطع مداره فى (١٠٫٧٥٩) يوما أعنى (٢٩) سنة ونصفا تقريبا وحجم زحل قدر حجم الأرض الذى عرفته (٧١٨) مرة وقطره (٩٫٢٩٩) بأخذ نصف قطر الأرض وحده • وفصول زحل مشابهة لفصول أرضنا وكل فصل من فصوله تزيد مدته عن سبع سنين من السنين الأرضية

﴿ مجموعة حلقات زحل ﴾

هى ثلاث حلقات سمكها رقيق جدا وعروضها غير متساوية والحلقة الخارجة مفصولة عن المتوسطة بفراغ وأما الحلقة الداخلة التى هى أقرب الى السيار فيظهر انها ملاصقة للثانية والوسطى ألمع الثلاثة وأكثر استضاءة من كرة زحل والحلقة الخارجة لونها سنجابى مثل الأحزمة المعتمة من القرص تقريبا وكلا هاتين الحلقتين مظلمتان وتحدفان على زحل ظلا ظاهرا جدّا • ومجموع عروض هذه الحلقات (٦٠٠٠٠)

كيلومترا تقريبا

{ أقمار زحل }

هي ثمانية وقد سماها العلماء بأسماء مثل (سماس) و (ديونى) و (ريا) الخ وعينوا مدة دوراتها وأبعادها بالكيلو متر وانصاف أقطارها وقالوا ان أكبرها هو المسمى (تيتان) فحجمه قدر حجم قمرنا ثلاث مرات وهو أضوؤها . هـذا ماتلقيناه من أستاذنا المرحوم حسن أفندي حسني ثم كشف بعد ذلك قمران أحدهما سنة ١٨٩٨ والثانى سنة ١٩٠٤ كشفهما عالم امريكى وأغرب هذه الأقمار العشرة القمر التاسع فان الأقمار كلها تدور حول الكوكب من الغرب الى الشرق ولكن هذا يدور من الشرق الى الغرب . أنظر شكل زحل والأرض



(شكل ٢) زحل والأرض

أورانوس قد كشف سنة ١٧٨١ كشفه (هرشل) والمسلمون نائمون مختلفون . حجم أورانوس قدر حجم الأرض (٦٩) مرة . بعده المتوسط عن الشمس (٦٧٥) مليون فرسخ ودورته (٨٤) سنة تقريبا أو (٣٠٦٨٧) يوما بالضبط . وله أربعة أقمار وقدسماها العلماء وبينوها بالمساحات ومعرفة الابعاد ومدة الدورات مثل قولهم (أوبرون) و (اريل) وهكذا

{ السيار نبتون }

هو لا يتم دورته حول الشمس فى أقل من (١٢٥) سنة تقريبا ولا يمكن أن يرى بالعين المجردة وقطره يساوى (٣٫٨٠) اذا أخذ قطر الأرض وحده وحجمه قدر حجم الأرض (٥٥) مرة تقريبا . وله تابع واحد يتم دورته حوله فى خمسة أيام واحدى وعشرين ساعة وهو قمره

{ سيارات صغيرة }

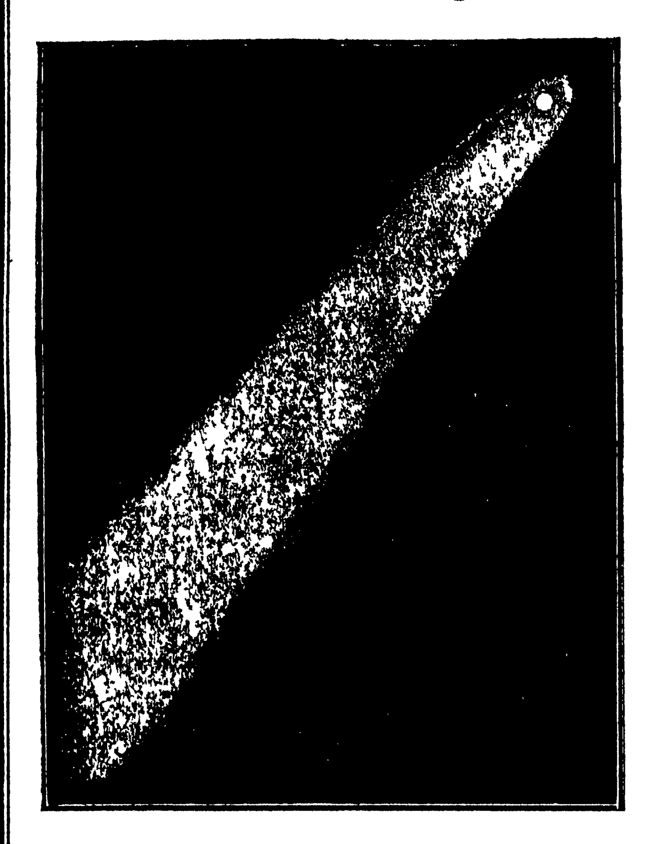
هناك منطقة بين المريخ والمشترى رأوا فيها كواكب صغيرة جدا كأنها كانت كوكبا مثل المشترى أو نحوه ثم تحطم وهذه شظايا وقطعه فهى تدور فى مداره بين الكوكبين وهناك ذوات الأذناب المسماة عند القدماء بذوات الشعور وهى عدد عظيم من الكواكب التى تتحرك حول الشمس ولها أذناب كأنها سحابات مستضيئات وقد شوهدت نجوم ذات ذنبين بل أكثر وذوات الأذناب تزيد عن (٨٠٠) وبزيادة الكشف الحديث يحتمل أن تعد بالملايين فى المستقبل وقال (كبلر) ان عدد ذوات الأذناب كعدد سمك البحار

ومن ذوات الأذناب ماعلم أن مدة دورتها حول الشمس تعد بالوف السنين أو بمئات الالوف منها . ومنها مايؤمل رجوعها عن قريب . ومن المعروفة جدا المذنب المسمى (هالى) ومدة دورتها (٧٦) سنة تقريبا حول الشمس ومنها ذات الذنب (انك) ومدتها (٣) سنين و (٣١٠) أيام

وهناك ذوات أذناب قال الفلكيون برجوعها ولم ترجع وقد ظهرت فى الجيل التاسع عشر ذوات أذناب لامعة لمعانا شديدا . وأشهرها التى ظهرت سنة ١٨١١ وقد أثرت تأثيرا غريبا عجيبا وهى لاترجع إلا بعد

ثلاثة آلاف سنة . انظر شكل مذنب سنة ١٨١١ الذى سيرجع بعد (٣٠) قرنا

وذات الذنب التى ظهرت سنة ١٨٤٥



هى ألمع جميع ماروِى من ذوات الأذناب حتى ان قلبها وجزأ من ذنبها كان يرى فى النهار وهى قريبة من الناظر اليها . وضوء ذوات الأذناب من انعكاس ضوء الشمس

﴿ الشهب الحجارة الجوّية ﴾

يرى الناس فى أكثر الليالى مايشبه شعلا نارية تمرّ بسرعة فى الجوّ ترسم منحنيا مستضيئا وتختفى بسرعة بعد بضع ثوان وتسمى (نجوما ساقطة وشهبا) وماهى إلا اجسام صغيرة جدّا تجرى حول الشمس كما تجرى ذوات الأذناب والسيارات الكبيرة والصغيرة فتى قابلت الجوّ الأرضى سخنت بمقابلة الهواء لها حتى تصير لامعة من الاحتراق ويرى وراءها ذيل مضىء ناشئ من احتراقها ويرى ثوانى أودقائق ثم يختفى وقد تكثر تلك الأجسام فى بعض الليالى مثل العاشر من شهر

(شكل ٣) ذات الذنب فى سنة ١٨٤٥

أغسطس ونحوه والكرات النارية كالشهب غير أن حركتها بطيئة وتحدث فرقعة بالقرب من الأرض وماوقع منها على الأرض يسمى (الحجارة الجوّية) والكرات النارية قليلة . الى هنا انتهى الكلام على السيارات وذوات الأذناب والشهب والحجارة الجوّية والكرات النارية وانى أحمد الله عزّوجل الذى ألهم وعلم وسهل حتى اختصرت المقام اختصارا وأحضرت بعونه تعالى بين يديك بعض ملكوت السموات والأرض لتكون من الموقنين فوالله لهذا أنزل القرآن دالا على هذا

فياليت شعرى ماهذا الكون الشاسع وماهذه السيارات الجميلة والأقمار الباهرة والابعاد الكبيرة والأنوار الساحرة وذوات الأذناب التى لاترجع والتى ترجع بعد آلاف السنين وكيف كانت شمسنا لها هذه الحاشية العظيمة المختلفة الأقدار والابعاد والأشكال والأزياء والملابس والأعمال فمن زحل والمشترى العظيمى الجحم الى شهب لاتعدو الواحدة منها قدر البلاطه . كل هذه تجرى حول شمسنا كما تجرى أرضنا وبهذا انتهى الكلام على لفظ (كوكب) المذكور فى الآية

﴿ الكلام على القمر المذكور فى الآية ﴾

تقدّم فى هذا التفسير حساب السنين القمرية وذلك فى آخر (آل عمران) ومعرفة السنين الكبيسة والبسيطة فلانعيده وذلك من أجل سير القمر . سطح القمر يساوى واحدا من ١٤ من سطح الأرض تقريبا وحجمه يساوى واحدا من خمسين من حجمها تقريبا . والبعد المتوسط لمركز القمر عن مركز الأرض يساوى نصف قطر خط الاستواء الأرضى (٢٧٣ر٦٠) مرة

للقمر (٢٢) جبلا ارتفاعها يزيد عن (٤٨٠٠) مترا وهو ارتفاع الجبل الأبيض وقد سماها العلماء بأسماء وقاسوها بالأمتار مثل ارتفاع جبل (دورفيل) وهو (٧٦٠٣) أمتار . وتلك الجبال صفاتها بركانيه

بالكلية ولها من أعلاها فوهات مستديرة قطرها يبلغ (١٥) فرسخا وعمق التجاويف يزيد عن الارتفاع الخارجي وقد يصل الفرق الى (٧٠٠٠) أو (٨٠٠٠) مترا وليس للقمر جوّ وماء على سطحه

وعرفوا هذا بكسوف النجوم التى تمرّ خلف الحافة المظلمة بقرص القمر فانها تنطفئ بغتة فلا يحصل فيها تقص تدريجى بسبب غاز يحيط به واذا انتفى هـذا فلا يكون هناك بخار ولانوع من السوائل وكيف يكون هناك ماء والماء لايحفظه من الانطلاق فى الجوّ على هيئة بخار مرة واحدة إلا ضغط الجوّ الهوائى فاذا لم يكن جوّ ذهب الماء حالا • فاذن لا يمكن أن يكون هناك نبات ولا حيوان فالغالب على الظنّ أن القمر غير مسكون • انتهى الكلام على القمر

﴿ الكلام على الشمس وهى الثالثة فى الآية ﴾

نصف قطر الشمس (٦٩٢٠٠٠) كيلومترا وسطحها قدرسطح الأرض فيما تقدّم (١١٨٠٠) وحجمها قدرحجم الأرض (١٫٢٨٠٫٠٠٠) مرة • وبعدها عن الأرض قد تقدّم هناك

ضوء الشمس كما قال (اراجوا) أشدّ من ضوء (١٥٫٠٠٠) شمعة وهوقدر ضوء البدر (٣٠٠٫٠٠٠) مرة ورأى (والستون) انه بقدره (٨٠٠٫٠٠٠) أى انه يلزم ثلثمائة ألف بدر أوثمانمائة ألف بدرفى السماء لاحداث نهار مضيء كنهار الشمس فى وقت صحو

﴿ لطيفة ﴾

وههنا عجب عجاب فنقول • ان مسألة الأنواردات حكمة عالية ترينا اختلافا باهرا فبينما نرى الكواكب فى السماء وهى تبلغ نحو ستة آلاف أوأقل أوأ كثر ترى بالعين المجرّدة وكل منها له نور ومع ذلك لاتضيء لنا الطرق والمسالك لضعف ضوئها الواصل الى أرضنا فالنجمة الواحدة ضوؤها جزء من ستة آلاف جزء من المجموع وهذا كله ليس شيأمذكورا بالنسبة للبدر الذى نوره جزء من ثمانمائة ألف جزء من نورالشمس ونور الشمس جزء من ثمانية آلاف جزء من نورالسماك الرامح كما نص عليه اللورد (اوفبرى) والسماك الرامح وراءه كواكب أضوأ منه • وهذا غاية العجب أن يكون ضوء الكواكب الواصل الينا جزأ من مئات الآلاف من ضوء البدر وهو جزء من مئات الآلاف من ضوء الشمس وهو جزء من آلاف من ضوء كوكب آخر يبعد عنا مائتى سنة بسير النور وهو السماك الرامح كما تقدم فاذن اختلاف الأنوار المشاهدة يفوق التصوّر فان نسبة البدر الى السماك الرامح

$$\frac{١}{٨٠٠٠ \text{ فى } ٨٠٠٫٠٠٠}$$

٦٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ أى جزء من ستة آلاف وأربعمائة مليون من ضوء السماك الرامح

﴿ فصل فى نسبة ضوء الشمس الى أضواء الكواكب على حسب منظرها من الأرض ﴾

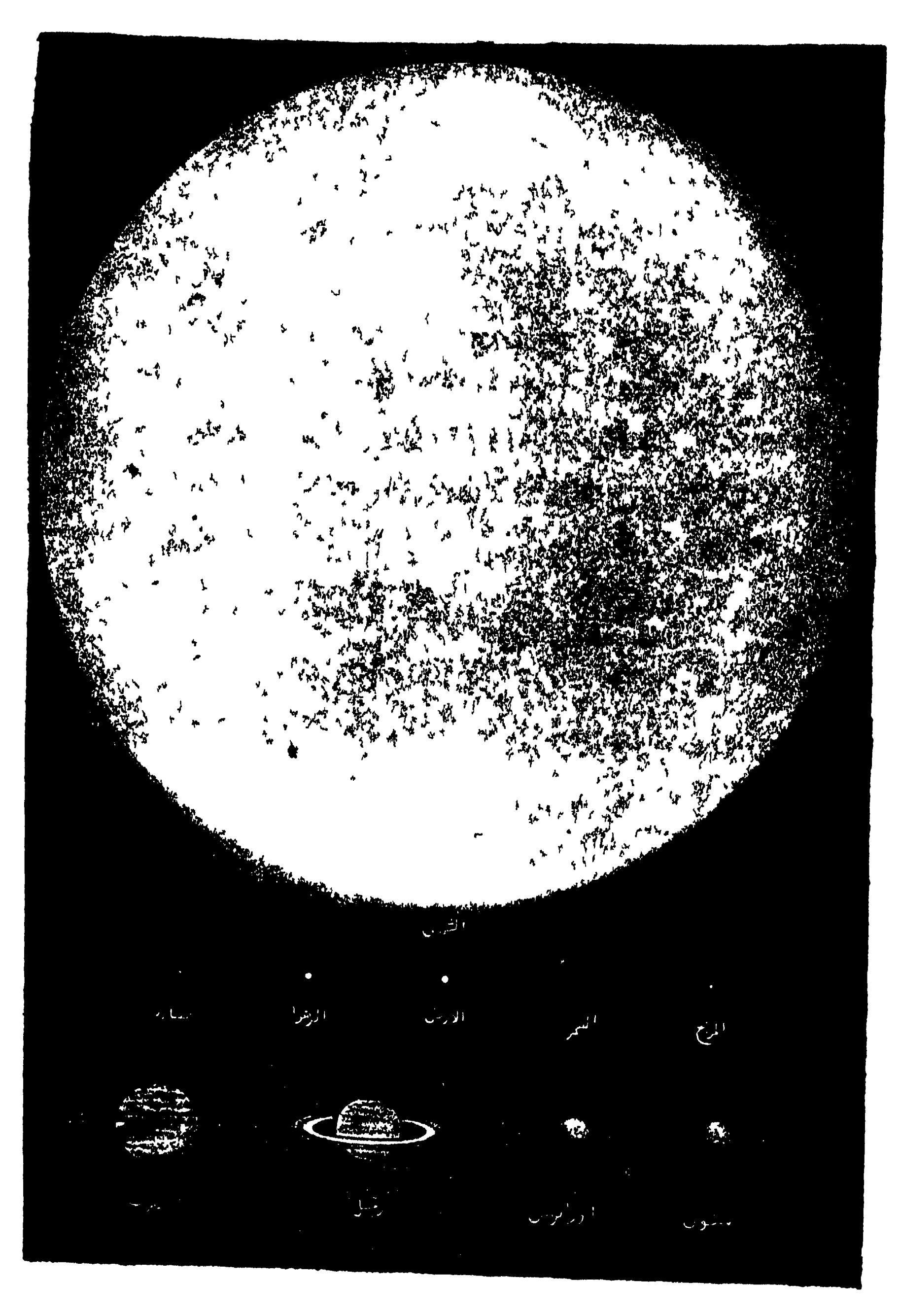
لقد علمت نسبة البدر الى الشمس وأن أعظم مقدار له قدره العلماء أنه جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس أى انه لوكان هناك ثمانمائة ألف بدر لكان ضوؤها مجتمعة يساوى ضوء الشمس • أما النجوم فان أضوأها وألمعها كالشعرى اليمانية يحتاج ضوؤها الواصل الينا الى مقدار عشرة آلاف مليون مرة حتى يصل ذلك كله الى أن يكون كضوء الشمس

وأوسط الكواكب كالعيوق يحتاج ضوؤه الى مضاعفته ستاوخمسين ألف مليون مرة فلوأن هناك (٥٦) ألف مليون نجمة فى ليلة واحدة لصار الليل نهارا

وأضعف الكواكب قد قيس نوره فوجد انه لوجمع نور (٥٠٠) ألف مليون من أمثاله يساوى نور شمسنا • هـذه هى المباحث التى برزت على يد العلماء فى أمريكا وأوروبا التى بذلت للناس قاطبة ونحن منهم والتى بها عرفنا جمال الله وبدائع صنعه وغرائب حكمه

﴿ مقايسة ﴾

ان اختلاف الأضواء الواصلة الينا من شمس وقمر وكواكب دلتنا على درجات تعدّ بالملايين وألوف الملايين والعقل والعلم شبيهان بالنور فلا عجب اذا اختلفت العقول اختلاف الكواكب فمن الناس من عقله كالعيوق الذى هو أضوأ من نجوم ضعيفة • ومنهم من عقله كالشعرى • ومهم من عقله كالقمر • ومنهم من هو كالشمس واذ عرفت ذلك تفهم كيف يشبه النبى ﷺ بالشمس وذلك لعموم تعليمه ولافضل لعالم إلا على مقدار ما أثر فى الناس فنفعهم بعلمه ــ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ــ انظر شكل المجموعة الشمسية



(شكل ٤) المجموعة الشمسية

هنا بعض ملكوت السموات والأرض الذى يورث اليقين

﴿ آراء صغار العلماء وجميع العامة فى أمة الاسلام ﴾

يظن صغار العقول من المتعلمين والجهلاء أن نظر الخليل عليه السلام الى الكواكب والى القمر والى الشمس بالنظر الظاهرى وعلى هذا لا يكون هناك فرق بين نظر الخليل ونظر العامة والجهلاء فاذن اليقين أمر سهل وهذا من الغرور الذى طمس على البصائر فى أمتنا فتركوا العلوم فأرسلها الله الى أوروبا لما اغفلها وجهلها المسلمون ألا وان ماذكرناه ونحوه ظواهر الملكوت وأحوال الناس تختلف فنهم من ارتقوا وأدركوا بواطن لايدركها إلا هم ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ اه

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى ـ ولوترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ـ ﴾

يسمع المسلمون اليوم كيف أصبح القرآن يظهر تفسيره على لسان الأرواح فى أوروبا • أصبح القرآن ظاهرا على ألسنة الأرواح الناطقة من عالم الغيب فى أوروبا وأمريكا • فى انكلترا وألمانيا والنمسا وايطاليا والمسلمون نائمون هائمون لايعلمون شيأ والقرآن يقول ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ـ ويقول فى هذه السورة ـ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق ـ والذى أراه أن هذا هو الزمان الذى ظهر فيه القرآن بالعلم الحديث فعلم طبقات الأرض من جهة وعلم الفلك وعلم الطبيعة كل واحد من جهة كما رأيته فى هذا التفسير ولكن من ذا كان يظن أن عالم الأرواح يخاطب البشر وبماذا يخاطبه يخاطبه بنفس مافى القرآن ومن حكمة الله انه جعل المسلمين اليوم فى مجموعهم غافلين وأنطق الأرواح وأظهر العلوم على أيدى الغربيين وهم نصارى حتى اذا جاء مؤلف هذا الكتاب ونقل عن الأوروبيين مايفيد معجزات القرآن لم يتطرق شك للعلماء فى صدق المباحث لأنها لوقالها المسلمون لقال الناس انهم يريدون تأييد دينهم • أما الغربى فليس يهتم إلا بالحقائق ولا يبالى بدين من أديان الأرض فى جانب العلم فضلا عن الاسلام الذى لايدين له • فانظروا أيها المسلمون ظهور هذه الآية على لسان الأرواح

﴿ ملخص مانقل عن الأرواح فى حال الموت فى الجمعيات النفسية ﴾

إن الناس قسمان • صالحون وفاسقون والموت إما فجائى واما أن يتقدمه مرض أوكبر فى السن وضعف فالموت الفجائى مزعج للنفس • وقالوا ان للروح الانسانية جسمين جسما لطيفا شفافا وجسما أرضيا وهو المعروف ومعنى نزع الروح أن يأخذ جسمنا الكثيف الأرضى يتخلص من الجسم اللطيف الروحى المحيط بالروح وكلما كان الانسان صالحا أومريضا أوكبيرا فى السن كان الانفصال أسهل وكلما كان الانسان أكثر ظلما وفسوقا وحبا للمال والولد والجاه وأمور الدنيا كان الانفصال أقسى وأقوى وأصعب

والشهوات والذنوب أكبر الدواعى للمصائب التى تحل بالنفس عند النزع لاسيما الذين لايقرون بحياة أخرى فأولئك يضطربون ويقاسون عذابا لايطاق • فاذا انفصلت الروح من الجسم وكانت مادية متكبرة جاهلة بخيلة ظالمة الى آخره أحست بآلام لاتطاق فرأت من هم أدنى منها منزلة صاروا أعظم منزلة وأعلى مقاما فيحصل هناك عذاب لايطاق وتبقى تلك الروح محوطة بغلاف ظلمانى يحجبها حتى لايخلص اليها أحد من الأرواح العالية ليعرفها حقيقة الحياة التى وردت اليها • وأما الروح التقية الصالحة فانها لخفتها واستعدادها للعلا تكون عند الموت مشتاقة غير مفكرة فى الدنيا بل هى فرحة مغتبطة لخلاصها من هذه الأجساد الثقيلة فهذه تشاهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر إذ تعاين هذه الكواكب والشموس وترى سكانها ونظامها وتطلع على جمال وبهاء وأنوار مدهشة حتى تسكر من تلك المناظر سكرا يغمرها سنين ثم اذا جاء أجلها نقلت الى عالم لطيف شريف تزيد فيها معارف النفس وتعرف من العلوم مالا يتصوره أهل الأرض ثم ترتقى درجات فدرجات ألطف فألطف فألطف حتى ترى الله جل وعلا • وهذه المرتبة تقول الأرواح

عزيزة جدا • وتكون تلك الأرواح العالية مدبرة للعوالم باذن الله تعالى فتدبر الملك لما لها من الخبرة الواسعة والحكمة والعلم وليس يتولى التدبير العام إلا أرواح لاخطأ عندها ولاغلط وليس هناك اختصاص بل الأمر بالعدل فاعجب كيف كان كلام الأرواح على يد غير المسلمين أصبح ناطقا بالقرآن وكيف يكون المغرم بالدنيا والمذنب فى ذهول وقت الموت لايدرى ماالعمل وربما بقى كذلك سنين وهو فى عذاب لايطاق وكيف تخرج روحه على كره منه لتعلقه بهذه الدنيا وكيف تأتى الأرواح العالية فتلاطف الصالحين لأنه ليس حولهم حجاب يحجبهم • وكيف تكون الأرواح الصالحة متمتعة بمحادثة الأرواح العالية لتعلمها كيف ترتقى وكيف يكون ذلك كله مطابقا لنص القرآن فقوله هنا ـ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ـ نطقت به الأرواح ويقول فى سورة أخرى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ـ أى عند الموت ـ أن لاتخافوا ولاتحزنوا الخ ـ وهذا نفسه ماتقوله الأرواح كما تقدم • وكيف يقول ـ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ـ وقد نطقت به الأرواح أيضا • وكيف يقول ـ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ـ هو عين ماقالته الأرواح أيضا وقال ـ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ـ * وفى الحديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه • * وفى الحديث أيضا سترون ربكم وفى الآية ـ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـ وبه قالت الأرواح وقال ـ كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ـ بل تقول الأرواح يكون الفجار محجوبين أيضا عن الأرواح الصالحة • والحاصل أن مانطق به القرآن فى الآخرة نطقت به الأرواح بعد الموت باعتبار أن الموت أول منازل الآخرة وأن الحساب من يوم ساعة الموت وهذا من أعجب العجائب ـ والله هو الولى الحميد ـ • انتهى المقصد الثانى

(المَقْصدُ الثَّالثُ)

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

يقول الله إن الله يفلق الذرة والقمح والشعير والأرز وهذا هو الحب ويفلق النوى جمع نواة وهى ضد الحب كنوى الرطب والمشمش والخوخ وهكذا النطفة والبيضة ومتى فلق هذه الأنواع خرج منها نبات القمح

والشعير والأرز وأشجار النخيل والمشمش والخوخ والانسان والطائر وخروج النبات والشجر من الحبّ والنوى والانسان والطائر عبارة عن حياة فالنبات والشجر أحياء خرجت من الأموات لأن النامى حىّ وغير النامى ظاهرا كالميت لا حسّ به ولا حركة فيما يظهر للعيون كما يخرج المؤمن من الكافر والذكى من البليد والصالح من الطالح وهكذا يخرج الحبّ والنوى والكافر والفاسق والبليد من النبات والنخل والمؤمن والصالح هذا هو قوله تعالى (إن الله فالق الحبّ والنوى) المفسر بقوله (يخرج الحىّ من الميت) ثم عطف على فالق قوله (ومخرج الميت من الحىّ ذلكم) المحيى المميت (الله) الذى يستحق العبادة (فأنى تؤفكون) تصرفون عنه . واعلم أن الناس لا يرون منه إلا قليلا فان ملايين من الحيوانات تعيش فى نقطة صغيرة من الماء تعلق برأس الابرة مثلا وتنمو وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البرّ فى القفار وحيوانات الماء فى البحار وهى تتقاتل وتتحارب ويفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح لا يخلو منها مستنقع وتصعد فى البخار الذى يتصاعد من الماء بحرارة الشمس وتطير فى الجوّ مع الهباء ثم تعيش وتتكاثر أينما نزلت ووافقتها الرطوبة والحرارة وهذه الحيوانات مع صغرها تتحجر وتصير منها طبقات متسعة من (الطباشير) فى الأرض وتربة طرابلس التى يصقل بها مؤلفة منها وكل حيوان منها فى التربة يساوى $\frac{1}{187000000}$ من القمحة والطباشير مؤلف من أصداف غاية فى الدقة كذلك ومعلوم أن لكل حيوان منها معدة والطعام يدور من أقنية متعدّدة فى جسمه وطعامها مؤلف من دقائق سائلة وجامدة مثل الانسان والحيوان . ولا جرم أن هذه الدقائق أصغر من الحيوان المذكور فدقة الحيوان ودقة ما يأكله تحير العقول . ولقد جاء نبأ عن هذه الحيوانات فى ١٧ ابريل سنة ١٩٢٤ بالجرائد المصرية . ذلك أن حيوانات دقيقة كهذه ظهر منها نوعان فى أمريكا نوع منهما يأكل الأسلاك المعدنية ونوع هو دود يهدم قناة (بناما) ويسمى (الدودة الهادمة) وبالنوع الأوّل عطل خمس عدد (التلفون) فى أمريكا والنوع الثانى يحفر أنفاقا حقيقية تحت الأرض وقد أحدث بقناة (بناما) ضررا يقدّر بالملايين والدودة الواحدة تلد مليون دودة فى العام اهـ

ولما كان النبات والشجر من نتائج الأنوار السماوية والحرارة الجوّية أتبع الكلام فيهما بذكر سببهما وأبان انه شق عمود الصبح عن سواد الليل فتميز بنوره عن ظلمته معترضا فى الأفق الشرقى والاصباح فى الأصل مصدر أصبح اذا دخل فى الصباح سمى به الصبح ويصح أن يقال (فالق الاصباح) أى خالقه يقول كما شقّ النواة والحبة والبيضة والنطفة فانفلقت وخرج منها تلك الأحياء شقّ الظلمة فأخرج منها عمود الصباح فتشابه العالم العلوى والسفلى كلاهما فيه العجب نور اشتقّ من الظلام واحياء من الاموات ـ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ فتشابه وتشاكل الأمر ترى النور يبهر فى السماء والحىّ ظهر فى الأرض هذا من الجماد وذاك من الظلام . ثم أكمل الكلام على العلويات فقال (وجاعل الليل سكنا) يسكن الناس والحيوان فيه من التعب الذى لاقوه فى النهار فلا يتحركون ومن قرأها جعل عطفها على فالق بمعنى فلق والليل مفعول لجعل أو لجاعل على القراءتين وجاعل للاستمرار فى الأزمنة المختلفة وعطف عليه قوله (والشمس والقمر حسبانا) مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان مصدر حسب بالكسر فيهما أى على أدوار مختلفة تحسب بهما الأوقات كما أوضحناه فى البقرة وآل عمران وغيرهما وبهذا تمّ الكلام على الأحياء والأموات فى الأرض والنور والظلمة فى السماء (ذلك) أى التسيير بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) القاهر فوق عباده بحيث سيرهما على وجه مخصوص (العليم) بتدبيره وكيف رأى أن المصلحة فى هذه الدورات طولا وقصرا وظلمة واضاءة نعم هو قاهر ومع هذا القهر لا يعمل إلا الحكمة كما تقدّم فى قوله ـ وهو القاهر فوق عباده ـ وهو الحكيم فى هذا للقهر العليم انه هو الأنفع لخلقه يا عجبا لهذه الموافقات البديعة

ثم أخذ يشرح بقية الشموس المشرقة التى تسمى عندنا نجوما فقال (وهو الذى جعل) أى خلق (لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر) أى فى المسالك والطرق المشتبهات فى البرّ والبحر الى حيث تريدون فترصدون تلك النجوم كالنجمة القطبية التى هى كأنها ثابتة لا تتزحزح من مكانها وهكذا النجوم الأخرى والبوصلة التى اشتملت على الابرة المغناطيسية التى كسبت المغناطيس بالطرق المعروفة عندكم تقوم مقام النجمة القطبية اذا أظلم الجوّ بسحاب أوغيره فانها تتجه الى الجنوب والشمال مع بعض انحراف يتغير بقوانين مخصوصة منها تعرفون الطرق والمسالك فالهداية فى البرّ والهداية فى البحر انما تكون بالنجوم أو بما يقوم مقامها

وذلك كله بحساب ولقد جعلت الدول الغربية كانكلترا وفرانسا وألمانيا وايطاليا معاهد خاصة لتعليم حساب هذه الكواكب حتى يعرف الربان فى وسط اللجج البحرية وظلمات الليالى وفى الطرق المشتبهات النجوم الظاهرة وبروجها ومنازلها فيرصدها ويهتدى الى سواء السبيل

ولما كان الأمر يعوزه علم وحكمة قال (قد فصلنا الآيات) أى بيناها وأظهرناها (لقوم يعلمون) فهؤلاء هم الذين ينتفعون بما فصلناه لأنهم به ينتفعون ويا ليت شعرى كيف يفوز الفرنجة بهذه العلوم ويقتسمون البحار والطرق البحرية ويختصون بعلم النجوم ويحرم المسلمون من ذلك . كل هذا لأنهم جهلوا دينهم جهلا تاما إلا ظواهر العبادات . اللهم انى أبرأ اليك من الكتمان وأنت أحكم الحاكمين فقد نصحت لهم جهدى وانى ذاهب اليك وقد فعلت مافى طاقتى بنشر الكتب وتأليف هذا التفسير . أقول هذا وأنا موقن أن الله سينزل غضبه على من يكتم العلم بل على من يقرأ بعض هذا التفسير ولا ينصح المسلمين بالبحث فى العلوم كلها ولا ينبههم الى الخطر الداهم . ولما أتمّ الكلام على العلويات التى ذكرها كالسبب للسفليات أى لاحياء النبات والشجر والطير والانسان أخذ يتمّ الكلام على علم الحياة بعد الفراغ من فهم مصدرها وسببها فشرح خلق الانسان وخلق النبات شرحا لقوله ـ يخرج الحىّ من الميت ـ ولم يشرح اخراج الميت من الحى لأن المقام مقام ظهور وحياة لا مقام موت وخفاء واظهار جلال القدرة وجمال الحكمة وعجائب الحياة وقدّم الانسان لأنه أكمل والحيوان بعده فقال (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) وهذه تقدّمت فى أوّل النساء فلكم استقرار فى الأصلاب واستيداع فى الأرحام . ولما كان خلق الجنين فى بطن أمّه من أعجب العجائب كما تقدّم فى أوّل سورة آل عمران يحتاج الى فكر دقيق يعبر عنه بالفقه قال (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بالماء (نبات كل شئ) أى نبت كل صنف من النبات وهى مع اختلافها تسقى بماء واحد وتعيش فى هواء واحد وبعضها أفضل من بعض فى الأكل (فأخرجنا منه) من النبات (خضرا) شيأ أخضر يقال أخضر وخضر كما يقال اعور وعور (نخرج منه) من الخضر (حبا متراكبا) هو السنبل (كالمطر) بضم فسكون المسمى بالكوز فى الذرة وكسنبل القمح (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) فقنوان مبتدأ خبره من النخل ومن طلعها بدل منه يقول وقنوان دانية أى قريبة من المتناول كائنة من طلع النخل وقوله (وجنات من أعناب) عطف على نبات كل وعطف على ـ نبات كل شئ ـ قوله (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) حال من الزيتون والرمان أى بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه فى الطعم واللون والقدر والهيئة وترى ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرها مختلف (أنظروا الى ثمره) جمع ثمرة (اذا أثمر) أى اذا أخرج ثمره كيف يختلف زهره ولونه وأوقات طواف الحشرات على الزهرات وكيف يختلف نوع النبات باختلاف الأزهار وكيف جاء العلم الحديث فجعل مدار علم النبات على أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث وكانت هذه أهم ماقام به العلم الحديث فى النبات بحيث كان المدار فى تفصيل أنواع النبات وأجناسه وفصائله على هذه المسألة . وتعجب كيف غفل المسلمون عن هذا العلم . وكيف يقول الله ـ أنظروا الى ثمره اذا أثمر ـ (وينعه) أى نضجه وادراكه والينع فى الاصل مصدر ثم نعتت به الثمرة اذا أدركت وقيل ينع جمع يانع كتاجر وتجر . وفى قراءة

- ينعه - بضم الياء وهي لغة فيه (إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) والآيات أي العلامات للمؤمنين في هذا المقام لاحصر لها فهي علم النبات وما كشفه الكاشفون ومادرسه الدارسون والمسلمون هم النائمون

اللهم اني موقن أن الاسلام سيكون في مستقبل الزمان . فأما اليوم فانما هي ظواهر وقشور فأما الجهل فهو ضارب أطنابه الآن في بلاد الاسلام وعسى أن أمثال هذه الآراء في الأمم الاسلامية تكون من الأسباب التي وضعها الله في بلاد الشرق ليخرج بها اصباح الاسلام ويفلق بنوره ظلمة الجهالة الحالكة المدلهمة فنقول فالق اصباح الهدى والنور عن ظلمة الجهل والغفلة كما فلق عمود الصبح وخلصه من ظلمة الليل وكما أخرج الحيّ من الميت . اللهم انك تخرج العالم من الجاهل والحيّ من الميت فاخرج من هذا الجيل الاسلامي النائم جيلا مستيقظا بل ان في الآية دلالة على ما أقول فان الظلام بعده النور والموت بعده الحياة فهكذا الاسلام اليوم في نوم عميق وقد آن أوان ارتقائه وأقبل يوم اسعاده هذه الآية مما يشير الى هذه المعاني ويرشدنا الى تحقيق هذه الأماني بل هذا المقام من الدلائل التي استدل بها (سقراط) على البعث والحشر فقال ﴿ كل فقر بعده غنى وكل جهل بعده علم وهكذا الأضداد يتبع بعضها بعضا ﴾ وهكذا يقول ربّ سقراط فليبشر المسلمون باقبال الزمان وسعادة الأمم الاسلامية . أقول هذا وأنا موقن بما أقول - ولتعلمنّ نبأه بعد حين - انتهى التفسير اللفظي

﴿ لطائف ﴾

(اللطيفة الأولى) البدائع والعجائب في قوله تعالى - إن الله فالق الحبّ والنوى -

(اللطيفة الثانية) في قوله تعالى - فالق الاصباح -

(اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى - وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها -

(اللطيفة الرابعة) في قوله تعالى - وهو الذي أنزل من السماء ماء -

(اللطيفة الخامسة) - أنظروا الى ثمره اذا أثمر - وهناك تنظر رسم الزهرة الذي جعلت مفتاح علم النبات

﴿ اللطيفة الأولى البدائع والعجائب في قوله تعالى - إن الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ ذلكم الله فأنى تؤفكون * فالق الاصباح - ﴾

يقول الله عزّ وجل هنا - يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحي - ثم يقول - فالق الاصباح - ويقول في سورة آل عمران - تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميت وتخرج الميت من الحي - فليفكر المسلمون في هذا الاقتران كيف يقرن اخراج الحيّ من الميت والميت من الحي في المقامين بالأضواء والأنوار فهناك في آل عمران يقدّم الأضواء والأنوار على الاخراج وفي الأنعام هنا يقدّم الاخراج على الضياء . ويا ليت شعري أيّ علاقة بين الضوء وبين النبات والحيوان

﴿ عجائب النور وغرائبه ﴾

لا يأبه الناس بالنور ولا بالهواء ولا يعرفون أن هذا النور الذي لا طعم له ولا وزن ولا يباع ولا يشرى ولا يخزن وانما يرسل من الشمس والكواكب الينا ونحن ساهون ويذهب عنا ونحن لاهون لا يدري الناس أن هذا النور هو الذي به يكون تدبير حركات النبات وحياته وحياة الحيوان

أوّلا ماهو النور . اعلم أن الأصوات التي نسمعها والنور الذي نراه لم يكونا إلا حركات فعدد الحركات هو الذي يجعل هذا صوتا وهذا ضوأ . أفلا تعجب من هذه الدنيا كيف تكون الأصوات ليست شيأ سوى الحركات والأضواء ليست شيأ سوى الحركات فاذا تكلم انسان أمامنا أوحدثت حركات في الهواء أو الماء أو الجماد فان الهواء المحيط بنا يتموّج تموّجات كثيرة بحيث لا تزيد عن (٣٢) ألفا في الثانية الواحدة واذن نسمعه فحركات الهواء الحاصلة بتموّجه بما أصابه من الحركات كما يتحرّك ماء البحر بالقاء حجر فيه ويصنع دوائر تتسع كلما بعدت

عن المركز وتكون أضيق كلما قربت منه هى التى تحدث الصوت وتكون عدد الحركات فى الثانية الواحدة لاتزيد عن (٣٢) ألفاتقريبا لأن الصوت إذ ذاك يكون مرتفعا جداً فاذا زادت عن ذلك لم تقدر على استماعه وتكون حركات الهواء بعد ذلك لاعلم لنا بها

وجعل العلامة (هلملهتز) صوت الموسيقى (٣٨٠٠٠) اهتزازة فى الثانية وجعل أنقصها (١٦) اهتزازة فتى نقصت عن ذلك لم تسمع صوت الموسيقى ومتى زادت الحركات عن ذلك لم تسمع شيأ البتة ومافوق هذه الحركات فى الهواء لايدركه الناس ولايعرفونه

فأما حركات الأثير فلا يعرف الناس منها إلا ماوصل الى (٤٥٨) ألف ألف ألف ألف أى ٤٥٨ ترليونا من الاهتزازات فى الثانية الواحدة ولاتزال الاهتزازات تزيد الى غاية (٧٢٧) ترليونا فيكون اللون البنفسجى وهو آخر الألوان التى تشاهد فى قوس قزح وماعداها فهو أفل مسه • فتبين لك بهذا أن الصوت حركات وأن الضوء حركات وكذلك الحرارة حركات ومقدار الاعداد فى الثانية هو الذى يعين الحرارة ويعين الضوء ويعين الصوت وأن فى العالم الذى نسكنه من الحركات التى لها نتائج مالانصل اليها ولاعلم لنا بها لأن الحرارة والصوت والضوء ماهى إلا أعداد مخصوصة معلومة ومازاد أونقص نجهله جهلا باتا وغاية الأمر أن الناس كشفوا أشعة رنتجن وأشعة الراديوم التى تخترق الحواجز الكثيفة فترينا ماوراءها وهذه الأشعة تهتزاهتزازات أسرع من الأضواء المعروفة ويجهلون ماعدا ذلك

فنحن الآن فى جوّ من الجهالة العمياء فان حواسنا لم تعرف من العوالم المحيطة بنا إلا أعدادامحدودة من الحركات وماعداها لانعرفه وهومالايتناهى • ومن عجب انهم أيام طبع هذا التفسير صنعوا حجرة من (السنليوم) سلطوا عليها نور بعض الكواكب المسمى (كابيلا) وهو يبعد عنا ملايين الملايين من الكيلومترات ثم ضاعفوا التيار الكهربائى الناشئ عن وقوع النور على ذلك المعدن فتحوّل النورالى صوت سمعوه بآذانهم فياله من حادث مزعج لقد أصبحت النجوم تسمع كما كانت ترى وأصبحت تناجى البشر كما يناجونها وقد أعلن فى أكاديمية العلوم الفرنسية فى أوائل هذا الشهر (ابريل سنة ١٩٢٤) أن العلماء يواصلون تجاربهم فى هذا الشأن فى معمل (الانفاليد الكيماوى) وان هذا الكشف سيحدث انقلابا مدهشا فى العلم

هذا تمام الكلام على تعريف الصوت وحركاته وأصواته التى لم تعلم الا فى هذا الشهر فلتنظر ولتتعجب من هذا العالم الذى نعيش فيه • ضوء نراه بأبصارنا يظهر لنا العلم انه حركات وتلك الحركات مقدّرة فى الثانية وهذا الضوء متى لامس معدنا خاصا وجعل فيه نوع من الكهرباء ظهر له صوت فكأن النجم الذى ننظره بأبصارنا يصلح أن نسمعه بآذاننا هذه عجائب لنفس الضوء ألافلتعجب لأعماله

﴿ أعمال الضوء ادارة النظام الأرضى (عالم النبات) ﴾

اعلم أن هذا الضوء الذى عرفته انه حركات وانه ينقلب صوتا هو المدبر والمهندس الذى يقوم بشؤن العوالم النباتية وهذا المهندس تحته عاملان يعملان تحت اشرافه فأحد العاملين هو الورق والثانى هو الجذور

اعلم أن النبات ليس له جوف لهضم غذائه ولا له قلب لادارة سائلاته فى كل أقسامه كما للحيوان بل يمص غذاءه من التراب بواسطة جذوره ومن الهواء بواسطة أوراقه وبالأوراق أيضا يدفع الى الخارج مالاينفعه • فههنا جذور تمصّ وورق وههنا ورق لافراز مالاينفع • ان غذاء النبات منه المائعات ومنه الموجودات الهوائية (الغازية) فأما الجامدات فلاحظ للنبات فيها

وفى الماء مواد غازية ومعدنية مذوبة فيه فتى حملت الجذور الماء الذى امتصته صعد بما معه من المواد المعدنية والغازية فى أنسجة النبات الى الأجزاء التى فوق سطح الأرض المعرّضة للهواء فيدخل الأوراق

﴿ ايضاح هذا المقام ﴾

اننا نشاهد أن الجوّ الذى نعيش فيه يحتوى على أدخنة من الآلات البخارية وتلك الأدخنة أجزاء فحمية (الـكربون) وهكذا كل أنفاس الانسان والحيوان مشتملة على نوع من هذا الفحم أو (الـكربون) كالذى تتنفسه الآلات البخارية بدليل اننا اذا تنفسنا فى المرآة حصـل على وجهها المصقول الزجاجى طبقة تحجب عنا صورنا فيها وتلك الطبقة هى الفحم الخارج مع نفسنا من الرئة حينما صلح الدم فخرج مافيـه من المواد المحترقة الـكربونية الخارجـة من أجزاء أجسامنا كما خرجت المواد المحـترقة فى الآلات البخارية من المداخن سواء بسواء • فهذا الدخان يسير فى الجوّ فيصل الى أوراق النبات • وهذا هو الغذاء الذى يدخل فى ورق النبات فهذا هو المسمى (الحامض الـكربونيك) فتى تناوله الورق واجتمع بالماء الذى امتصته الجذور يقابلهما النور فيـكون منهما معا النشاء المعلوم والنشاء هو الذى يذوب اذا مضغت حبة قمح فى فك فما ذاب منها فى ريقنا سميناه نشاء ومابقى لزجا سميناه (المواد الشبيهة بالزلال) ثم ان الجذور اذا امتصت أكثر مما يلزم من المواد المائية تحوّلت بخارا فى الأوراق وتطير فى الجوّ فتنخفض درجـة الحرارة كما تنخفض درجة حرارة الماء اذا كان فى الفخار وقت الحر

ثم ان هذا النشاء المركب من الـكربون والأكسوجين والاوردوجين لايتم له ذلك التركيب إلا بفعل المدّة الملونة الخضراء وهـذه المادّة الملونة لاتتم إلا بفـعل النور فيها بدليل ان الجـذور لاتلون به لاحتجابها عن الشمس بجوهر الأرض ولابد من مادّة حديدية يمتصها النبات للمادّة الملونة والمادة الملونة حينما يأخذ الورق الحامض الـكربونيك من الهواء تحلل الحامض المذكور بفعل النور فتبعث أحد جزئيـه وهو الاكسوجين الى الهواء وترسل الجزء الآخر وهو الـكربون فى جسم النبات فيتحد مع أكسوجين الماء وايدروجينه وهو النشاء فما النشاء المعروف الأبيض الا ماء وفحم تركبا ثم هذا الغذاء ينبث فى أجزاء النبات فيصير قوّة له

ثم ان هذا النشاء مع الموادّ التى منها غاز النتروجين التى تمتصها الجذور من التراب مذوبة فى الماء الجارية فى أنسجة النبات تتـكوّن مواد شبيهة بالزلال يتغـذى بها النبات فينمو سواء أكان عشبا أونجما أوشـجرا ويكون هـذا الشبيه بالزلال مركبا مما تقدّم (الـكربون والاكسوجين والايدروجـين والنتروجين) ومن الـكبريت ومنها المادّة الغروية (أى المادة اللزجة) التى كلما زادت فى الحب كان أشدّ تغذية

وفى النبات مواد شبيهة بالقلى وهى (المورفين والـكينا) ونحو المادّة الفعالة فى الشاى وفى القهوة ومادة السليكا أيضا وهو الصوّان وأما القصفور فيدخل فى المواد الزلالية

﴿ العجب العجاب ﴾

فانظر كيف حول النور مع ماتتج منه من المادة الملونة الـكربون والماء الى نشاء وهـذا النشاء يسير فى فى الخلايا ويخزن منـه فى البزور ليـكون غـذاء فى المستقبل ومنه مايخزن فى الجذور فى زمن الشتاء لينتفع به النبات فيما بعد وقد يتحوّل الى سكر بفعل المادة الملونة أوالى مادة زيتية أودهنية كما ترى فى بزر القطن والموز والخروع والزيتون وبزر الـكتان • وفائدة هذه المواد للنبات كفائدة النشاء • واعلم أن السكر هو نفس النشاء فاذا أضفت اليه ماء ووضعتهما فى موضع دافئ يتحوّل النشاء الى سكر فيصير السيال حلو المذاق وترى ذلك فى قصب السكر وعصير العنب وجذور الشمندور وفى جميع الأثمار الحلوة

ثم انظر كيف كان هذا النشاء نفسه يقابل فى النبات أملاحا فيها النتروجين وكذلك الـكبريت فتـكون المواد الشبيهة بالزلال • وذلك كله بفعل النور فلابد من الحرارة ولابد من النور ذلك النور المـكوّن للنشاء وللمواد الزلالية

﴿ الحيوان والنبات ﴾

أفلا تعجب من هذا النظام وكيف نسير فى الضوء والهواء ونحن غافلون ياعجبا لغفلة الانسان . نرى الكربون فى الهواء ولستنشق الاكسوجين ولاندرى مافيهما من العجائب . فهذا الكربون يخرج من الانسان ومن الأفران ومن الآلات البخارية كما تقدم ويذهب فى أوراق الأشجار ويحلل الاكسوجين المصاحب له ويرسل فى الهواء ليصلحه وكأن الورق هو الرئة التى خلقها الله للهواء

فرئتنا تأخذ الاكسوجين وتدخله فى أجسامنا وترسل الكربون الى الهواء هكذا الأوراق ترسل الاكسوجين الى الهواء والكربون الى النبات بعكس ماتفعل رئتنا

﴿ كيف يتكون الحيوان ﴾

إن عظام الحيوان تتكون من المواد المعدنية وعضلاته من النيتروجين وهو الاوزوت ودهنه من الكربون ولما ضعف الحيوان عن تناول هذه المركبات خلق النبات له حاويا تلك المواد لتكون فى بنية الحيوان فياعجبا كل العجب نشاء ومواد زلالية مركبات من الكربون والماء والكبريت مع مواد أخرى من الحديد والمادة الصوانية والفصفور والبوتاسا فى النباتات البرية والصودا فى النباتات البحرية والكاسيوم أى الجص والمورفين والكينا والاستركنين والفحسين والاتروبين وخلاصة الشاى وخلاصة البن . هذه المواد تكون فى النبات ثم تكون بنية الحيوان . اشتراك عظيم ونظام جميل يارب ما أعجب هذه الدنيا وأجمل نظامها

يا الله أنر بصائرنا حتى نقف على الجمال الذى أبدعته والنور الذى أنزلته . يا الله نور فى الجو نزل من السماء نورك الجميل الذى تحول على بعض المعادن الى صوت يسمعه الناس فى هذا الشهر وهذا النور هو الذى حول الفحم الى نشاء مع الماء ثم حول هذا النشاء مع الاوزوت والكبريت الى مواد زلالية وهذه المواد بها حياة النبات ثم هى مع مواد أخرى فى النبات يكون بها حياة الحيوان . وكيف يارب كان الفحم لنا دهنا والأملاح لنا عظاما والاوزوت لنا لحما . وكيف يصير الفحم فى أجسامنا دهنا والأملاح عظما والأوزوت لحما

وكيف نرى مانخرجه أنفاسنا راجعا الى أجسامنا بهيئة دهن ـ إن ربك هو الخلاق العليم ـ . حقا لقد حارت الأفكار فى هذه الحكم والعجائب

أوليس مما يدهشنا أن الورق له فعلان فعل ادخال الكربون وفعل اخراج الاكسوجين وبخار الماء كما ترشح القربة الماء ويخرج أيضا من الفتحات الصغيرة على قفا الورقة وقد حسب العلماء فتحات ورقة من شجرة التيليوم فوجدت (١٫٠٠٠٫٠٠٠) فتحة . ومن فوائد هذا البخر تبريد النبات فى شدة الحر

ألاترى أن عباد الشمس يبخر كل (٢٤) ساعة نحو رطل ماء فكيف يكون مقدار مايبخره شجر السنديان والبطم والخروب وأضرابها . هذه أفعال الأوراق

﴿ الجذور وعجائبها ﴾

أما أفعال الجذور فانها أعجب فانها تغلظ وتصير خشوشبة وتدفع التراب عن جوانبها كما تدفعه عن أطرافها وهذه القوة النامية من غرائب الدهر وعجائب البر والبحر . ألم ترانها تدفع الحجارة الكبار أمامها وتهدم جدران الأبنية التى تمد تحتها أو بين حجارتها وفى الأقاليم الحارة الكثيرة الرطوبة يظهر فعل النبات فى خراب الأبنية أقوى من فعل الزلازل والعواصف والنيران والأمطار لأن هذه القوى معا لاتقدر على ازاحة حجارة مثل حجارة قلعة (بعلبك) واهرام مصر واذا وقعت خلالها بزرة تينية مثلا تمو وتدخل خيوط جذورها فى أدق الثقوب والخلال فتزيح الحجارة من مواضعها . بهذا نفهم قوله تعالى ـ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ـ فهذا هو اخراج النبات من ماء وكربون وأوزوت بفعل نور الاصباح

فيها المذكور بعدها فهو يقول - يخرج الحيّ - كالنبات والحيوان - من الميت - وهو الكربون والاوزوت والماء والأملاح - ومخرج الميت - وهي هذه العناصر - من الحيّ - وهو النبات والحيوان - ذلكم الله فأنى تؤفكون - واذا كانت هذه المواد الميتة تصرف فيها فجعلها نباتا وحيوانا ثم حللها فتصرف فيها بالتحليل والتركيب وأنتم منها فكيف تصرفون عن تصرفه فيكم • ثم أبان ما به التصرف في ذلك فقال - فالق الاصباح - وهذا هو مبدأ النور الذي به يكون تكوين النشاء وتكوين الزلازل من تلك المواد الميتة فيكون النبات ثم الحيوان • فانظر كيف أخرج الحيّ من الميت والميت من الحيّ • فبمثل هذا فليفسر القرآن للحكماء وليفهم للعلماء اه

﴿ اللطيفة الثانية في قوله تعالى - فالق الاصباح - ﴾

هنا أمران يحدثان في الأرض والشمس غائبة عنا • أحدهما يكون قبل طلوعها • والآخر بعد غروبها فأول الأمرين هو الصبح وهو الضوء المنتشر قبل طلوع الشمس • والآخر هو الباقي بعد غروبها وهذان الحادثان معدومان في خط الاستواء ويبتدئ ظهورهما في أول المناطق المعتدلة وكلما ازددنا قربا من القطبين ازداد ظهورهما ولذلك ترى أهل (لابونيا وسمويد وسبير) يمكثون أربعة أشهر تقريبا وهم لا يرون الشمس وانما الشفق والفجر في هذا الليل الطويل يضيئان عليهم اضاءة كافلة بتصرفهم في معايشهم واجتيازهم السهول والهضاب والجبال والمفاوز والأراضي الواسعة الثلجية ويرى أهل تلك البلاد من الجمال والبهجة في الجوّ من اشراق النور الفجري والشفقي مالا يعلمه ولا يحلم به سكان المدارين أي مدار (السرطان) ومدار (الجدي) فالحكمة الالهية لم تكمل اشراق تلك الأنوار المتلألئة الوهاجة البديعة ووصولها الى غاية الجمال والبهاء إلا لسكان الأقطار (الجليدية) جهة القطبين فانها تنبعث مزدانة بحلل سندسية ذهبية تدهش العقول وتحير الألباب وتفتن أولي الألباب • فانظر كيف رأينا العدل جاريا مجراه فكلما كانت الشمس أكثر اشراقا حين طلوعها • ترى فجرها وصبحها وشفقها أقل جمالا وكلما كانت الشمس أقل ظهورا كان الشفق والصبح مشرقين باهرين جميلين يحيران الأبصار فهذه قسمة عادلة وحكمة باهرة • فأهل السودان المصري لم يمنحوا جمال الفجر والشفق ولكن أهل الأقطار (الجليدية) يرون من الجمال ما يحير الأبصار • اه

﴿ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى - وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها - ﴾

معلوم أن بعد الأرض عن الشمس (٩٣) مليون ميل وهذه المسافة يطيرها طائر بسرعة مائة ميل في الساعة الواحدة وهذه أعظم سرعة للطير وهي سرعة الطيارات الحربية أيضا فهذا الطائر بهذه السرعة يصل من الأرض الى الشمس بحيث لا يقف ولا ينام ليلا ولا نهارا صيفا وشتاء في مدة مائة سنة وست سنوات ونحو ٧ أشهر وهذا الطائر بهذه السرعة يقطع عرض النظام الشمسي من طرف الى طرف في مدة (٦٣٧٢) سنة وهذه المدة يقطع فيها هذا النظام المشتمل على الشمس وسياراتها مثل (نبتون وأورانوس وزحل) الخ

فالشمس وسياراتها التي عرفت حديثا وتقدمت في هذا التفسير وعرضها ماذكرناه لم تخرج عن كونها كوكبا صغيرا من مئات الملايين من الكواكب وابعادها عظيمة جدا • وهذا الطائر يقطع مليون ميل في ٤١٦ يوما ويقطع مليون مليون ميلا في أكثر من مليون سنة ومليون المليون من الأميال المذكورة ليس شيأ مذكورا في ابعاد النجوم فان أقرب نجم الينا من السيارات نجم يسمى الفا في صورة قنطورس وبعده عنا ٢٥ مليون مليون ميل فهذا الطائر لا يصل اليه إلا بعد ٢٥ مليون سنة فهذا الطائر لا يصلح أن نجعله مقدرا بطيرانه بعد الكواكب ولذلك جعلوا المقياس سير النور وهو يقطع (١٨٦٠٠٠) ميلا في الثانية الواحدة ويصل من الشمس الينا في نحو ثمان دقائق وثمان ثوان لأن بعدها عنا (٥٫٨٦٥٫٤٩٦٫٠٠٠٫٠٠٠) أي نحو ستة ملايين مليون ميل فنجم الفا قنطورس المذكور يبعد عنا نحو أربع سنوات نورية وربع سنة وهو يبعد عنا

٢٥ مليون ميل فلايصل نوره الخارج منه فى هـذه الدقيقة إلا بعد أربع سنين وثلاثة أشهر وقد سافر فى كل دقيقة (١١) مليون ميل فأكثر واذا أطفئ هذا الكوكب جهلنا انطفاءه مدة أربع سنين وثلاثة أشهر

ومع هذا فذلك ليس شيأ مذكورا فى جانب الكواكب المدهشة فى البعد جدا فلننس الشمس ولننس نجمة قنطورس وأمثالها ولنسر فى الفلوات والمساحات الواسعة السماوية ولننظر هذا الملك المعدّ لنا لتسيح فيه أرواحنا وتطلع على العوالم الجميلة فلندرسها الآن ولنتشوق اليها كما قال تعالى هنا ـ وهو الذى جعل لكم النجوم ـ فهناك مابعده من (١٢٠) سنة نورية الى (١٤٠) سنة نورية أيضا وهى نجوم الثريا وكذلك القلاص وهناك نحو (٧٠) مجموعة مثل مجموعة الثريا ومجموعة القلاص تبعد (١٣٠٠) سنة نورية والمسافة التى فيها هذه المجموعات السبعون تبلغ (١٠٠،٠٠٠) مائة ألف سنة نورية ووجد بعد سديم ممسك الاعنه (٥٠٠٠) خمسة آلاف سنة نورية وسديم الدجاجة كذلك خمسة آلاف سنة نورية وسديم العقاب بعده (١٧٠٠٠) سبعة عشر ألف سنة نورية (وقطر المجرة مائة ألف سنة نورية) وبعد السديم الذى فى المرأة المسلسلة نحو (٦٠٠،٠٠٠) ستمائة ألف سنة نورية وسديم مجلان بعده (٦٠،٠٠٠) ستون ألف سنة نورية وهناك سديم سعته مثل سعة سديم المرأة المسلسلة يبلغ نحو عشرين مليون سنة نورية

هذه مخلوقات نورية فى السماء لايصل ضوؤها لنا إلا فى عشرين مليون سنة نورية وقد علمنا أن المسافة بيننا وبين الشمس لاتبلغ فى السير إلا مدة ثمان دقائق وثمان ثوان فكيف يكون ذلك البعد الشاسع وقد سار النور فيه عشرين مليون سنة وكيف تكون مقادير الكواكب البعيدة عنا لعمرى ان شمسنا بالنسبة لتلك الكواكب ذرّة صغيرة

﴿ أقدار الكواكب ﴾

قد قسموا أقدار الكواكب الى عشرين قسما على حسب التقسيم الحديث والعين ترى ستة أقدار فقط ويبلغ ماتراه بها (٦٠٠٠) نجم وترى العين بالمنظار المعظم الذى بلورته من بوصتين الى ثلاث (١٠٠،٠٠٠) مائة ألف نجمة أى الى القدر السابع عشر

ونجوم القدر الأوّل (١٤) والثانى (٢٧) والثالث (٧٣) والرابع (١٨٩) ثم (٦٥٠) ثم (٢٢٠٠) ثم (٦٦٦٠) ثم (٢٢٥٥٠) ثم (٦٥،٠٠٠) وهكذا الى القدر العشرين فانه (٧٦،٠٠٠،٠٠٠)

ومجموع هذه الكواكب ٢٢٤ مليون كوكب وهناك كواكب أخرى لايحصرها العدّ لم يمكن تمييزها وستظهر بعد حين

هذا ولأذكر لك آخر ماوصل اليه الناس عند طبع هذا الكتاب إذ جاء فى احدى جرائدنا المصرية يوم الأحد ٨ أغسطس سنة ١٩٢٦ مايأتى بالحرف الواحد

قد قام أخيرا العلامة (كنوت لندمرك) باحصاء مدهش سلم بصحته أشهر علماء الفلك وبين فيه عظم المسافات التى تفصل بيننا وبين السدم الحلزونية فالسديم (اندردميد) يبعد عنا مسافة يقطعها النور فى مليون ونصف مليون سنة (وسرعة النور ثلاثمائة ألف كيلومترا فى الثانية كما هو معلوم) وهو عظيم جدا بحيث لا يقطعه النور من أحد طرفيه الى الطرف الآخر بأقل من ستين ألف سنة مما يدل على أن حجم هذا السديم لاينقص كثيرا عن حجم المجرة

وهناك سديم آخر يعرفه علم الفلك باسم (ن ٠ ج ٠ ت ٤٤٨٦) يبعد عنا مسافة ثمانية ملايين سنة نورية أى ان النور يحتاج الى هذه المدة لكى يصل الينا منه • وبعبارة أخرى اذا انقرض هذا السديم اليوم فاننا لانعرف انقراضه ولاينقطع نوره عنا إلا بعد ثمانية ملايين سنة

وقد أثبت العلامة (لندمرك) أن السديم المعروف باسم (ن ٠ ج ٠ ت ٤٥٩٤) يبعد عن أرضنا مسافة

(٥٦) مليون سنة نورية أى اننا اذا نظرنا اليه اليوم بالنظارات الكبيرة نراه كما كان قبل (٥٦) مليون سنة وهذه السدم العظيمة لاتعدّ شيأ مذكورا بالنسبة الى الكون اللامتناهى حتى ان علماءنا لم يتنزلوا الى تسميتها والدلالة عليها بغير الأرقام . اهـ

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى ـ هو الذى أنزل من السماء ماء ـ ﴾

ولما كان الماء معروفا وجب أن نذكر شيأ من عجائبه ليكون سرورا للنفس وبهجة وأنسا لقارئ التفسير تنشرح به الصدور وتقرّ به العيون فأقول

﴿ (١) الثلج القطبى ﴾

من عجائب الماء مايشاهد فى القطبين من الجبال المكوّنة من الثلج العائمة فوق البحر هناك نحو مترين وتحت الماء سبعة أمتار وقد يكون عرض تلك الجبال (٢٥) فرسخا وطولها خمسين فرسخا

والتيارات البحرية تجذب تلك الجبال فتعوم مع مائها السريع الجريان ثم تتكسر تلك الجبال هضبات كبيرة جارية مع الماء ثم تتلاقى ويفتك الأقوى منها بالأضعف ويكسره ويفتح فيه طريقا لنفسه وقد تتراكم بعض القطع الثلجية فوق بعض حتى تبلغ عشرة أمتار وبهذه الأعمال تنشأ أشكال عجيبة بديعة المنظر جميلة الأشكال محيرة للناظرين تسرّ أولى الألباب . وهذه المناظر الجميلة أشبه بهذه الحياة الدنيا . جميلة فى الظاهر خطرة فى الباطن . فان السفن متى صادمتها تكسرت حالا . واذا احتمى الركاب بها بأن صعدوا على تلك الهضبات والاكام الثلجية ماتوا من مكابدة الجوع والبرد الشديد المهلك

وهناك جبال تكون فى الجزائر وفى البرّ على شاطئ البحر المحيط داخله فى الأراضى الى مسافات بعيدة جدّا ومتى انكسرت تلك الجبال وانحدرت الى البحر كان منها جبال ثلجية تعوم فوق ماء البحر علوها من خمسين مترا الى ستين مترا وذلك حول (امبز برغ) وتكون فى جون (بافين) نحو مائتى متر

والملاحون يلجأون الى هذه الجبال ليتخذوها حمى لهم من التيارات المهلكة لسفنهم ولكنها كما قال الشاعر

والمستجير بعمرو عند كربته * كالمستجير من الرمضاء بالنار

فانها بأدنى عارض تدور عليهم فتبتلع سفنهم حالا . وهذا الثلج القطبى منه ماهو مكوّن من الماء الملح ومنه ماهو مكوّن من الماء العذب

﴿ الثلج المسهل للسير ﴾

اعلم أن أهل بلاد (لابونيا وسيبريا والموسكوف والاسوجيين) يكون الثلج المصقول السميك الصلب سببا فى سهولة السفر ويكون فصل الثلوج عندهم فصل الأعمال والربح واللذات ويستحيل السير فى غير زمن الثلج بهذه السهولة . والثلج يمكن أن يكون مسحوقا ناعما اذا وصل الى درجة (٥٠) تحت الصفر وهو دائما فى حجمه يزيد عن الماء جزأ من (١٤) جزأ ثم الأحوال التى تقتضى تكوين الثلج توجد دائما فى أعالى الجوّ فوق رؤسنا وفوق الجبال الشامخات وكذلك فى جهة القطبين فهو يكون على ارتفاع (١٢٩٢٠) مترا تقريبا فى درجة (١) شمالا وفى درجة (١٨ و ١٩) شمالا يكون على ارتفاع (٤٧٠٠) مترا تقريبا وفى عرض ٣٠ الى ٣١ شمالا ترى مهابط جبال هماليا الشمالية يكون الثلج فيها على ارتفاع (٥٢١٠) مترا ويكون فى مهابطها الجنوبية على ارتفاع (٣٩٠٠) وفى درجة (٦١) شمالا فى بلاد (النرويج) يكون على ارتفاع (١٧٠٠) متر فأما فى القطبين فانه يكون الثلج جبالا فوق الأرض . وملخص ماتقدّم أن الثلج يكون دائما لاينقطع صيفا وشتاء فى القطبين فوق الأرض ولايزال يرتفع مكانه منهما الى خط الاستواء الى أن يصل الى ارتفاع نحو (١٣) ألف متر عند قرب خط الاستواء فما فوق ذلك القوس المختلف الارتفاع من خط الاستواء الى القطبين تكون الثلوج دائمة فوق الجبال وفوق رؤسنا ويشير لهذا قوله تعالى ـ وينزّل من السماء من

جبال

جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ـ فذكر الجبال هنا لم يكن معروفا عند الأمم الغربية إذ ذاك واتساع العلم أرانا أن جبال الجليد والثلج دائمة فى تلك المحال العالية والعلم اليوم هو معجزة القرآن وهذا هو قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ وقوله ـ والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ـ ولعل الكتاب أعم من كتب اليهود والنصارى بل يشمل العلوم الحقيقية الكونية . ومتى انتشر هذا التفسير وأمثاله سيسارع الفلاسفة وعلماء الطبيعة للاسلام بسبب علمهم بكتب الحقائق الطبيعية والكونية الموافقة كلها لدين الاسلام

وفى بعض البلاد الثلجية يختفى النبات مادام الثلج فاذا استهل فصل الربيع ذابت الثلوج واستيقظت تلك النباتات بعد موتها حتى تصل الى غايتها فى أسرع وقت فهو كالمسلمين الذين ناموا قرونا تحت ثلج الجهالة واحتلال أوروبا لهم حتى اذا قرؤا أمثال هذا التفسير وعرفوا من النابغين فى مصر والشام والهند والمغرب من فحول العلماء أن ديننا هو دين العلوم استيقظوا فى أقرب وقت سريعا كما استيقظ النبات الذى كان تحت الثلج وازدانت به الأرض وأخذت زخرفها وازينت للناظرين

(٢) ﴿ ألوان ماء البحر ﴾

اعلم أن الله كما خص البلاد القطبية باشراق الفجر والشفق وجمال المناظر الثلجية ومناظر الفجر والشفق والجمال البديع وحرم من ذلك الجمال سكان مابين المدارين أراد الله سبحانه أن يعطيهم جمالا بدل مافقدوه . ذلك أن السفن وهى تمر فى البحر ترسم نهرا من نار على مستوى السائل يحصل من جانبيه أمواج ينقدح منها سيول ضوئية فترى المياه على أبعد من مد البصر تضاهى السماء المزينة بالنجوم الكثيرة المضيئة ذات الشرر اللامع ويرى هناك مايحاكى النجوم الثوابت فى السماء ومايشبه ذوات الأذناب الضالة فى الفراغ ثم تنقطع هذه الحركة زمنا ما فتكون ظلمة ثم تلمع تلك الكتل الضوئية وتتشتت من جميع الجهات فيكون منها سهل واسع من نار مهول لعظم سعته

واذا هبت الرياح أحدثت فى الأمواج اضطرابا وتكون هناك أفانين الصور وأعاجيب الجمال الباهرات فتعلو الأمواج الضوئية ثم تتكسر وتصير على هيئة زبد مضىء متشكل بأشكال كثيرة من أقواس قزح وهذا الحادث ناتج من الفصفور المتحلل من الحيوانات الرخوة والحيوانات النباتية التى تسميها الفرنجة (زءوفيت) وهى تكون فى البحور الاستوائية أكثر منها فى الأقطار المعتدلة والباردة والفصفور فى تلك الحيوانات طبيعى كما انه كذلك فى كثير من الحشرات

(٣) ﴿ المياه المعدنية ﴾

المياه المعدنية هى التى تحتوى على مواد غريبة بحيث تكون ذات طعم ويكون لها فعل مؤثر فى الجسم الحيوانى وقد وجدوا فى تلك المياه الأصناف الآتية

الكبريت والصودا والنوشادر والجير والمغنيسيا والالومين والبوتاسا والصوان والكلور والكربون والنحاس والحديد . وهذه المعادن متحدة مثل الحمض الكربونى والحمض الكبريتى وما أشبه ذلك . ومن هذه المياه ماله تأثير عظيم وقد قسموا هذا الى أربعة أقسام رئيسية وهى

(١) مياه كبريتيه (٢) مياه غازية أوحمضة (٣) مياه حديدية (٤) مياه ملحية

وهناك مياه معدنية سمية ذاب فيها الزرنيخ أوالزئبق وهذه متى عرفت يبادر الناس بردمها حالا

وهناك أيضا مياه صوانية قد حلت مواد الصوان فاذا لامستها الأجسام الحيوانية والنباتية نفذت الى باطنها وتفرقت فى هيا كلها واتحدت بأجزائها اتحادا تاما فيصبح الجسم كالحجر وتسمى هذه بالمياه المحجرة وهى نادرة الوجود فى العالم

فانظر كيف كان الماء جبالا وأنوارا وجمالا فى القطبين ثم هو سماء زينت للناظرين وجمال يبهر العاقلين وكواكب أشرقت على المسافرين وفيه قوس قزح والنجوم ذوات الأذناب وسهول مشرقات وغياض ناضرات و بهجات أعدّت للمسافرين ونور وجمال وأنس للصادرين والواردين ثم يكون سما للشاربين وشفاء للمستشفين ولذة للشاربين وأنهارا وخلجانا للزارعين وسحبا وبردا وثلجا للناس أجمعين

﴿ اللطيفة الخامسة ـ أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ـ ﴾

هذه الآية أصل عظيم فى علم النبات فان النظر الى الثمر وزهره هوالذى أنتج علم النبات كله وذلك لم يتم إلا فى القرون المتأخرة على يد الأوروبيين . ذلك أن آباءنا وأسلافهم اليونان كان علمهم بالنبات أقل مما جاء فى العصر الحاضر بالكشف وكانوا يقسمون النبات الى أشكال مختلفة باعتبارات شتى ولكن لم يقسموه باعتبار الثمر والذى اعتبر أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث محلا للتقسيم هم أهل أوروبا وذلك من معنى قوله تعالى ـ أنظروا الى ثمره اذا أثمر ـ فالنظر الى الثمر وزهره أنتج التقسيم

واعلم أن الزهرة كزهرة القطن مثلا يكون لها غلاف على لون الخضرة كلون الورق ويسمى هذا عند علماء النبات (كأسا) وغلاف فى داخله ملون باللون الأصفر أوالأبيض أوالأحمر ويسمى (تويجا) تصغير تاج فكأنه لجماله تاج الملوك وفى داخل هذين الغلافين يكون التزاوج بين الذكران والاناث كما يكون بين الزوجين فى أنواع الحيوان والانسان سواء بسواء . وترى فى هذه الزهرة وفى غيرها كرات صغيرة ناعمة مستعدّة لتصير بزرا متى لقحت كما جعل الله للاناث من أنواع الحيوان مواد فيها تنقلب حيوانا متى حصل اقتراب الذكران من الاناث وهذه الكرات دائما تكون فى مركز الزهرة وهذا هو عضو التأنيث ويسمى عندهم (البستيل) وهذا البستيل عبارة عن ثلاثة أقسام

(١) المبيض وهو فى القاعدة وفيه الاصول الخلقية القابلة للنمو وهو كالرحم والمبيض فى الحيوان وقد يكون ذا مسكن أوعدّة مساكن

(٢) وأنبوبة شعرية فيها بعض طول

(٣) والجزء العلوى وهوكفم لتلك الأنبوبة وذلك الفم هوالذى يقبل اللقح من عضو التذكير ويوصله الى المبيض بواسطة الأنبوبة المذكورة

وترى فى هذه الزهرة القطنية وغيرها أيضا عضوا أوأعضاء أخرى محيطة بذلك (البستيل) أى عضو التأنيث وتكون غالبا بينه وبين التويج فاذا نظرت زهرة القطن مثلا فأوّل مايلقاك كأسها ثم تويجها ثم عضو التذكير . وفى الوسط تماما عضو التأنيث الذى استعدّ لاستقبال اللقح من عضو التذكير الذى أحاط به التويج فتلك الورقات الجميلة الزهرية الملوّنة باللون البهيج فى مختلف النبات كأنها هيئة العرس والأفراح التى يقيمها الناس وملابس الزوج والزوجة أيام الزفاف مع الروائح العطرية التى تبهج القلوب وتشرح الصدور

فهذه التى يصنعها الناس عادة ويزينون العروس بالبهجة والنضارة قد خلقها الله للذكر والأنثى من النبات وجعلهما فى حلتين جميلتين احداهما ملونة بأجمل الألوان وأبهاها وأحسنها وأجلاها وهناك الروائح العطرية البهجة . وترى الحشرات طائفات يغنين كأنهنّ الموسيقى تصدح والمغنيات يزففن العروس الى بعلها والنسمات مطربات يرفرفن بالورق وتسمع حفيف الأشجار وتغريد الأطيار وترى بهجة النجوم ونور الشمس المشرق والجمال والبهاء وكأن الدنيا فى عرس وليس فى مأتم إلا الانسان فى أوروبا وآسيا وأمريكا فهؤلاء هم المقتتلون المتشاكسون المحجوب أكثرهم عن هذا الجمال بالجهالة الشنعاء والحياة البلهاء

وعضو التذكير المذكور عبارة عن رأس مرتفع على حامل له وعلى الرأس المذكور غبار وهو مايحصل به الالقاح . وأعضاء التذكير غالبا تكون بحسب عدد أقسام التويج وهذه الأعضاء ان ساوت عدد أقسام

التويج كما هو الغالب فانها تكون موضوعة بين أجزاء التويج بازاء أقسام الكأس وان كانت أعضاء التذكير ضعف أقسام التويج الملونة المذكورة كان نصف أعضاء التذكير موضوعا بازاء أقسام التويج والنصف الثانى بازاء أقسام الكأس

وعضو التذكير إما واحد أو أكثر فيكون ذا ستة كالأرز أو عشرة كالترمس واللوبيا والفول وهكذا وعلى ذلك يقال زهر أحادى أعضاء التذكير وثنائيها وثلاثيها الى العشرين و بعد العشرين يقال كثيرها

والنبات ان اشتمل على أعضاء التذكير فقط سمى ذكرا وان اشتمل على أعضاء التأنيث فقط سمى أنثى وان اشتمل عليهما معا سمى خنثى كالداتوره والبنج وغيرهما

و يقال أيضا اذا كانت أعضاء التذكير والتأنيث فى نبات واحد كما فى الخروع وفصيلة القرع سمى ذا المسكن • وان كانت أعضاء التذكير فى نبات وأعضاء التأنيث فى آخر سمى ذا المسكنين كالنخل • وان كانت أعضاء التأنيث والتذكير والخناثى معا فى نبات واحد كما فى الخرنوب والسنط والتين سمى (مزاوجا) اه

﴿ عجائب البزر ﴾

قد يكون للثمر بزرة واحدة فيقال أحادى البزر أو بزرتان فيقال ثنائى البزر وهكذا الى عشارى البزر ثم مازاد عن العشرة الى نحو (٥٠) يقال له قليل البزر وما زاد على ذلك الى نحو المئات والالوف يسمى كثير البزر • ويخرج من ساق الذرة المسماة (بالعويجه) نحو ألفى حبة ومن عباد الشمس نحو (٤) آلاف حبة ومن رأس الخشخاش نحو (٣٢) ألف بزرة ومن ساق نبات الدخان (٣٣٠) ألف بزرة وشاهد المعلم (دوهامين) حبة شعير نبت منها (١٥٠) سنبلة تحصل من مجموعها (٣٢٠٠) حبة وشاهد المعلم (فليفيو) حبة (زمير) نبت منها (٣٤٠) ساقا لكل ساق سنبلة

والعلماء يقسمون النبات باعتبار أعضاء التذكير أو أعضاء التأنيث أو البزور وهكذا • فانظر كيف دار علم العلماء فى عصرنا الحاضر حول ثمر النبات من زهره و بزوه لمعرفة علمه ومنافعه

كل هذا والمسلمون نائمون لايدرون ماذا خلق الله فى النبات ولا بماذا تعرف أقسامه ولا أى الطرق تسلك فى معرفة أنواعه وأصنافه • فلا عجب اذا ملك الفرنجة أكثر بلاد الاسلام لأن الله لايسلم أرضه إلا للعاملين فيها ولايخرج نباته إلا للذين يفقهون و يعقلون و ينظرون — الى ثمره اذا أثمر و ينعه — و يعرفون آيات ربهم و يؤمنون بها • بمثل هذا يكون الايمان و بمثل هذا يكون الاسلام

أيها المسلمون • ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله ومانزل من الحق وأن تدرسوا النبات الذى خلقه الله لكم • وكيف يقول لكم — أنظروا الى ثمره اذا أثمر — وأنتم مغمضون • وكيف تنظر أوروبا وأنتم لاتنظرون أف لكم أيها المسلمون عار عليكم • ولعلكم تقولون ان الصحابة لم يدرسوا هذه العلوم • أقول لكم مالكم وماللصحابة رضى الله عنهم ولو كانت هذه العلوم فى زمانهم لكانوا أسبق الأمم لها كما سبقوها بالفتوحات ولكن القرآن جاء للناس جيلا بعد جيل وهاهو ذا الوقت الذى استأهل لتلك العلوم فلنبين للناس مقاصد القرآن فيها ولنحث المسلمين عليها • ولنبين لهم أيضا أن الله يغضب على الأمم التى تجهلها • يغضب عليها لأنها لم تنظر و بعبارة أخرى انها كفرت النعمة ولم تشكرها • أعطانا بلادا زراعية خصبة ونعما عظيمة فأغمضنا الأعين عنها • ياعجبا أيها المسلمون كان علينا أن نعرف هذه النباتات وننظر لثمرها ولولم يكن عندنا دين بل كان العقل يدل عليها • فكيف بنا وقد جاء الدين فطلبها • دين وعقل معا يطلبان هذه العلوم • فكيف أغمنا عقولنا وديننا • أفلا يغضب ربنا على الكافرين بنعمه • المغمضين الأعين عن موائده التى نصبها • ونعمه التى نشرها • وهو الذى يقول — لئن شكرتم لأزيدنكم — وهذا هو الشكر الفعلى لا الشكر اللفظى الذى يتلهى به الجهلاء وصغار العلماء — والله هو الولى الحميد —

هنالك قال لى صاحبى كيف تقول ان المسلمين يجهلون هذه العلوم و بين يدى كتاب مصرى ألف أيام المغفور له محمد على باشا بمصر وفيه أن المعلم (لينيو) جعل أعضاء التذكير أساسا لتقسيم النبات والمعلم (تورنيفو) جعل التقسيم على صفات التويج والثمر ومدة حياة الجذع وفيه أن (لينيو) لم يفرق بين الأشجار والحشائش وأن الزهر يكون خنثى وأنثى وذكرا وان الزهر سواء أكان ذكرا أو أنثى اما أن يكون ذا مسكن أومسكنين أوكثير المساكن فقسم النبات الى (٢٤) رتبة وكل رتبة تحتها أجناس عالية والأجناس العالية التى يسمى الواحد منها جنس الأجناس أيضا تحت كل جنس منها أجناس وتحت الأجناس أنواع وتحت الأنواع أفراد

أما المعلم (جوسيو) فقد قسم النبات الى قسمين عظيمين (الأول) يشتمل على النباتات التى لا بزر لها (الثانى) يشتمل على النباتات البزرية أو الفلقية • والقسم الثانى يشتمل على النباتات البزرية ذات الفلقة الواحدة وعلى النباتات البزرية ذات الفلقتين

فأما القسم الأول من القسمين العظيمين فهى كالحشيش البحرى ونحوه فانه له حبوب صغيرة جدا

وأما القسم الثانى من القسمين العظيمين فان ما كان منه ذا فلقة واحدة فهو كالنرجس والبصل والقلقاس والزنبق وقد تكون أزهار هذا القسم مجتمعة فى طرف الجذع وأعضاء التذكير قد تكون (٣) أو (٦) ويندر أن يكون واحدا وأوراق هذا القسم يكون طولها أكبر من عرضها كالنخل و بزرته منحصرة فى جسم واحد فاتى

فأما النوع الثانى منه وهو ذو الفلقتين فبزرته تكون منحصرة فى جسمين فلقيين لحيين • وهذا القسم يكون له كأس وتويج وأعضاء التذكير تكون خمسة فأكثر الى مائة

وهذه نبذة مختصرة من الأوصاف التى فى الكتاب المشار اليه فبأدنى التفاتة يعرف الانسان النبات ذا الفلقة الواحدة والنبات ذا الفلقتين • فكيف تقول ان المسلمين مقصرون فى هذه العلوم • قلت له هذا أكبر دليل على التقصير فانه نقل عن الفرنجة أيضا نعم هذا العلم كان يدرس فى مصر ولكن ليس ذلك باعتبار أن الدين يطلبه وكان على علماء الدين أن يفهموا الأمة أن هذا العلم مطلوب كالصلاة والزكاة والصيام والحج وأن قوله تعالى ـ أنظروا الى ثمره اذا أثمر و ينعه ـ يوجب هذا العلم فى الاسلام الذى يبلغ (٣٥٠) مليون نفس أو أكثر وهذا هو الذى يجب على علماء الاسلام فى مستقبل الزمان ـ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ



(رسم الزهرة ـ شكل ٥)

فى هذا الشكل ترى الزهرة فترى لها الكأس الذى تقدم ذكره المسمى باللسان النباتى (سبلا) وهو الذى تراه أخضر فوق الأوراق الملونة • وترى أوراق التويج وهى الملونة المسماة (بستيلا) أو (بتلا) وترى الوسط مؤلفا من خيوط قائمة منتهية بانتفاخات عليها غبار أصفر فالخيوط اسمها (أسدية) جمع سداة والانتفاخ اسمه (الانثير) والغبار اسمه (البلن) أو (الطلع) وفى مركز الزهرة نتوء بارز اسمه (المدقة) ينشأ من قاعدة الزهرة أو تحتها والمدقة ثلاثة أقسام سفلى وهى قاعدتها ويقال لها المبيض وعلوى وهو رأسها ويسمونه (السمه) ومابينهما يسمونه (القلم) والاسدية أعضاء التذكير والمدقات أعضاء التأنيث وواسطة التلقيح البلن وهو اللقاح يقع من الانثير على السمة فى أعلى المدقة فيلقح بذورها فى المبيض بأسفل المدقة • ثم ان اختلاف

المدقات

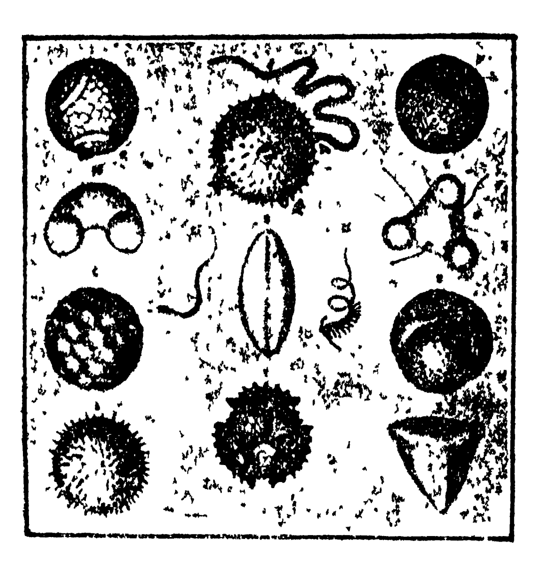
المدقات والاسديات والسبلات والبتلات أى أعضاء التأنيث وأعضاء التذكير وأوراق الكاس وأوراق التويج أفرادا وأزواجا وقلة وكثرة ووضعا واختلافا واتفاقا

أقول ان هذا الاختلاف به يمتاز النبات وبه تمايز جميع النباتات التى تعدّ بالمئات . إذن الزهرة مفتاح علم النبات . مفتاح ذوسن واحدة وسنين وثلاث ومافوقها . هذا هومفتاح علم النبات الذى يشير له قوله تعالى - أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه - وقد ذكرها مرتين فى هذه السورة وهذا سرّ من أسرار القرآن أمر الله المسلمين بالنظر الى الثمر والنظر الى الثمر يطلب النظر الى الزهر الذى هو أصله - فهذا مفتاح آخر للعلوم لامفتاح علوم العربية . فهذا مفتاح أيضا من مفاتيح العلوم . أما الله فعنده مفاتح الغيب وهذه مفاتح العلوم ألقاها الينا امتحانا واختبارا

﴿ أشكال هندسية فى الطلع المخلوق فى الأزهار ﴾

ذكرنا فيما تقدّم أن الغبار الذى يسمونه (البلن) هو الذى به يكون لقح الاناث فى الزهرة وهى السمة التى فى أعلى المدقة ثم ينزل ذلك الغبار الى المبيض بأسفل المدقة وهناك يكون الثمر الذى أمرنا بالنظر اليه إن من ينظر هذا الغبار يظنه لاشكل له بل هو كالدقيق . ولكن العلماء وجدوا بالبحث بالآلة المعظمة (المكرسكوب) أنه على أشكال هندسية جيلة مختلفة باختلاف النبات بل أشكاله جعلت قاعدة لتقسيم النبات أيضا

﴿ أنواع البلن وأشكاله ﴾



(رسم البلن - شكل ٦)

(المَقْصِدُ الرَّابِعُ)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ *
وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * اِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا
بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا
يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ *
وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ
الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ * أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ
الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ
رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا
تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ
وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ
وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ * أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ

مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللّٰهِ اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ * فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَرَبُّكَ الْغَنِىُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

يقول الله ها أنتم أولاء قد رأيتم النبات واختلافه بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث وأن منه الذكور ومنه الاناث ومنه الخناثى ومن هذا كان تقسيم النبات الى رتب وأجناس عالية وأجناس ثم أنواع ثم أفراد فأنا المنوّع والخالق للذكران والاناث فكيف تقولون ان لى بنات والذى يلد انما هو المخلوقات لا الخالق فالمخلوقات متنوّعات والخالق لا يتنوّع ولا يتغير • فكيف يقول العرب ان الملائكة بنات الله فيعبدونها • ويقول اليهود عزيز ابن الله • والنصارى المسيح ابن الله • وكيف تجعلون لمن ينظم هذه المخلوقات من الأضواء والظلمات والنجوم والنبات والحيوان كما فى الآيات السابقة شركاء فيقول الصابئون منكم أيها الناس نعبد الملائكة • ويعبد جهلة العرب وغيرهم من الصابئين المتأخرين الأصنام بوسوسة الشيطان لهم واذا أنتم

اتبعتموه فى وسوسته فقد أشركتم الشيطان مع الله • وكيف يقول الثانوية منكم إن الله يخلق الخير والشيطان يخلق الشرّ وأنتم اذا فكرتم فيما ذكرنا فى الآيات السابقة علمتم أن الخير والشرّ منى لا من خالق وهذا هو قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجنّ) لله شركاء هما مفعولا جعلوا والجنّ بدل من شركاء والجنّ يشمل الملائكة لاجتنانهم أى استتارهم وهذا يشمل آراء الصابئين فى عبادة الملائكة والعرب فى قولهم انهم بنات الله • والثانوية فى أن الشيطان يخلق الشرّ الخ ماتقدّم (و) قد (خلقهم) وهل من يخلق كمن لا يخلق (وخرقوا) افتعلوا وافتروا (له بنين وبنات) فالبنون عند اليهود والنصارى والبنات عند العرب (بغير علم) من غير أن يعلموا • وهنا أخذ يؤكد الحجة ثانيا فقال (سبحانه وتعالى) تنزيها له وتعالى (عما يصفون) أى مما يصفونه به من الكذب والافتراء وكيف يصفونه بذلك وهو (بديع السموات والأرض) مكونهما على غير مثال سبق (أنى يكون له ولد) أى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) يكون منها الولد (وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم) واذا خلق كل شئ فهو الذى نوّعه وشكله الى ذكر وأنثى ويتفرّع منهما فروع كثيرة والاله يستحيل عليه التكثر ومن ذا الذى يحكم عليه بهذا التنوّع والولادة ثم ان الولد يقوم مقام الأب عند فقده ويكون قائما مقامه فالحاجة هى التى أوجبت الولد والله دائم فكيف يحتاج الى الولد وأيضا انه يعلم كل شئ فهو ينوّعه ذكرا وأنثى ويحكم عليه بذلك ولا حكم لأحد على الله ولا يحيطون به علما (ذلكم) الموصوف بما سبق (الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ) هذه أخبار بعضها بعد بعض واذا كان متصفا بهذه الصفات (فاعبدوه) ولا تعبدوا الشيطان والأصنام والملائكة (وهو على كل شئ وكيل) أى متولى أموركم فكلوها اليه وتوسلوا بعبادته الى نجاح مآربكم (لا تدركه الأبصار) المركبة من مواد أرضية لأن الله ليس مادّة ولا جسما وأبصاركم وأبصار الحيوان قاصرة على رؤية الأجسام وانما ترونه بعيون غير جسمية اذا صفت نفوسكم ولطفت عقولكم وتأهلتم لرؤيته بتلك العيون التى لم تخلق واذا كان الجنّ والشياطين لا ترونهم والملك اذا نزل اليكم كما فى أوّل السورة ينزل فى صورة رجل قال تعالى ـ ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ـ فالله أجلّ من الملائكة فهو أولى وأحقّ ألا يرى بأبصاركم واذا كانت الجنّ جاء فيها ـ انهم يرونكم من حيث لا ترونهم ـ فبالأولى يكون الله عزّ وجل خالق الجنّ وخالق الملائكة وقد جاء فى الكشف الحديث كما ذكرناه أوّل السورة ما يناسب هذا وأن الأرواح الملكية والشيطانية لا ترى إلا اذا استعارت من جسم الوسيط موادّه فظهرت بهيئة الروح التى كانت عليها فى الدنيا (وهو يدرك الأبصار) ويحيط بها علما كما يحيط بكل شئ (وهو اللطيف) فلا تدركه الأبصار (الخبير) فيدرك الأبصار • ولما كان هذا المقام أدلته علمية طبيعية وقد استوفى البحث فيه أعقبه بقوله (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر جمع بصيرة وهى للنفس كالبصر للبدن (فمن أبصر) الحقّ فآمن به (فلنفسه) أبصر (ومن عمى) جهل (فعليها) على نفسه عمى (وما أنا عليكم بحفيظ) برقيب أحصى أعمالكم وأفعالكم وما أنا إلا رسول • ولما كان من عادة القرآن أن المقام اذا كان مستوفى البيان أعقبه بما يدل عليه قال (وكذلك نصرّف الآيات) أى ونفصل الآيات فى كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل لتلزمهم الحجة (وليقولوا درست) اللام هنا لام العاقبة أى ليقولوا قرأت على غيرك يقال درس الكتاب اذا أكثر قراءته * وكان أهل مكة يقولون تعلمت من يسار وجبر (وكانا عبدين من بنى الروم) ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله أو تعلمت من اليهود ولما كان القرآن نزل ليضلّ به كثير ويهتدى كثير وقد ضلّ من قالوا درست أعقبه بالمهتدين به فعطف على قوله ـ وليقولوا درست ـ قوله (ولنبينه لقوم يعلمون) أى لنبين الآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وان لم يذكر لكونه معلوما وملخصه انه يضلّ به قوم ويهتدى به آخرون ثم قال (اتبع ما أوحى اليك من ربك) بالتدين به (لا إله إلا هو) جملة اعتراضية (وأعرض عن المشركين) ولا تلتفت الى آرائهم الى أن يأتى لك الأمر بالقتال • ولما كان دين الاسلام من

قواعده الايمان بالقضاء خيره وشره من الله مع وجوب استعمال العقل فى جميع الأحوال الممكنة تمرينا للنفس لتعرج الى عالم القدس وكان من فضائل هـذه العقيدة أنه اذا تعسر أمر ولم نجد حيلة لتحصيله فوضـنا الأمر الى الله لتسير النفس وتجد فيما تقدر عليه ولا تتقطع أسفا وحسرة على تفريطها وهى غير قادرة على شئ أردفه بما يسهل الأمر على رسوله تسلية له فقال (ولوشاء الله ما أشركوا) فلا تحزن عليهم (وماجعلناك عليهم حفيظا) رقيبا (وما أنت عليهم بوكيل) تقوم بأمرهم • ولما كان من الاعراض عنهم أن لا يسبوا آلهتهم قال تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) أى لا تذكروا آلهتهم التى يعبـدونها بما فيها من القبائح (فيسبوا الله عدوا) تجاوزا عن الحق الى الباطل (بغير علم) على جهلة وقد كان المسلمون فى صدر الاسلام يسبون الأصنام وكان الكفار يردون عليهم فنهاهم الله عن ذلك وهم ضـعفاء وفيه دليل على أن الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان مايؤدى الى الشر شر وكما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر على حسب استعدادهم لأننا وضـعنا كل أناس فى مراتبهـم التى يستحقونها فاذا كفر قوم ونحن أردنا ذلك فما كان كفرهم الذى أردناه ظلما لأننا نظمنا الملك وجعلنا فيـه درجات كالحيوانات والنبات وهى درجات بعضها فوق بعض • هكذا هؤلاء كفروا لأنهم لم يصلوا للاستعداد لتلقى الايمان كما لم تصـل البهائم لدرجات الانسانية ولم تصـل الأطفال لدرجات الرجال فلو كان كفرهـم ظلما منا لكان أغلب أعمالنا ظلما فلا يكون فى الأرض حيوان ولا نبات ولا صبيان ولا عصاة بحجة أن غيرها أفضل منها وهـذا هو قوله (كذلك زينا لكل أمة عملهم) وعلى ذلك يجعلهم بعد الحياة فى المراكز التى استمدوا لها (ثم الى ربهـم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) ولما كانت منزلة هؤلاء لا تسمح لهم بالتعـقل والكبرياء حجاب مانع لهم من الفهم اقترحوا عليك الآيات وخوارق العادات وقالوا لك اجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ماتقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك عيانا نزلت الآية الآتية قائلة إن الآيات التى كانت تنزل على الأنبياء السابقين كعيسى وموسى من ضرب الحجر بالعصا فينبع ماء واحياء الموتى وما أشبه ذلك لا يرقى العقول الانسانية ولا يرفع الانسانية إلا التعقل والتفكر كما أنزلنا فى هذا القرآن وهذه الأمم كانوا بعد الايمان يرتدون اذا شاهدوا ماهو حسن فى نظر أعينهم • فأما العقل فهو المرشـد الحكيم كما حصل فى سحرة فرعون إذ آمنوا بموسى لما عرفوا أن عامه فوق طاقتهم • فأما الجهلة وهم بنو اسرائيل فانهـم لما رأوا قوما يعكفون على أصـنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون • فهكذا هنا اذا أنزلنا آيات فهذه لا تنفعهم وانما نريد أن نجعلهم علماء لا يرتدون عن دينهم متى شـهدت عقولهم كسحرة فرعون وهذا هو قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى جاهدين فى الاتيان بأوكد الايمان (لئن جاءتهم آية) مما اقترحوه (ليؤمنن بها قل انما الآيات عنـد الله) هو قادر عليها يظهر منها مايشاء وليس شئ منها بقدرتى والله منعها عنكم حتى يكون ايمان من يؤمن مبنيا على العـقل لا على حاسة البصر (ومايشعركم) أى ومايدريكم استفهام انكار (انها) أى الآيات المقترحة (اذا جاءت لا يؤمنون) بها كما حصل فى الأمم السابقة كما فى سورة أخرى ـ ومانرسـل بالآيات إلا تخويفا ـ (ونقلب أفئدتهم) عطف على لا يؤمنون أى ومايشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهـم عن الحق فلا يفقهونه (وأبصارهم) فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها (كما لم يؤمنوا به) أى بما أنزل من الآيات (أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وندعهم متحيرين لا نهديهم هـداية المؤمنين لأننا وضعناهم فى مرتبتهم فلا يتجاوزونها (ولو أننا نزلنا اليهـم الملائكة وكلمهـم الموتى) كما اقترحوا فقالوا ـ لولا أنزل علينا الملائكة ـ وقالوا ـ فائتوا بآبائنا ـ (وحشرنا عليهم كل شئ قبلا) أى وجمعنا عليهم كل شئ من الطيور والدواب مقابلة ومواجهـة أو قبيلة قبيلة * وقرئ ـ قبيلا ـ أى كفيلا بما بشروا به وما أنذروا به (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) ايمـانهم لأن المدار على الاستعداد وأيضا الامور المحسوسة لا ثبات لها بخلاف العقلية (ولكن

أكثرهم يجهلون) مثل هـذه الحكم فلايعلمون انهم لوأوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على مالايشعرون وهذا على حسب الاستعداد

ثم أخذ يعزى رسول الله ﷺ بما أصاب الرسل فقال (وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّا من المجرمين) أى كما جعلنا لك هؤلاء أعداء جعلنا لكل نبيّ سبقك عدوّا لأن هـذه الدار دار جهاد وعلى مقدار الصبر يكون الارتقاء فلاداعى إلا ناله من الأذى على مقدار مقامه فى العمل والدعوة ثم أبدل من قوله عدوّا (شياطين الانس والجنّ) أى مردة الفريقين (يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول) يوسوس بعض الانس الى بعض و بعض الجنّ الى الجنّ والى الانس الأباطيل المموهة من زخرفه اذا زينه (غرورا) أى لأجل الغرور (ولوشاء ربك) ايمانهم (مافعلوه) أى مافعلوا معاداة الأنبياء وإيحاء الزخارف وانما كان الشياطين من الجنّ ومن الانس مدفوعين الى ذلك بعوامل الفطر المغروسة فيهم • ولاريب أن الأرواح الشريرة تسمع مايقول الناس فى هذه الدنيا وقد جاء فى علم الأرواح حديثا أن الأرواح البشرية الناقصة التى هى أشبه بالجنّ تستمع للكلام الذى يقوله الناس بل هى محجوبة عن العالم الأعلى فتكون عقولها أقرب الى أهل الأرض الأحياء فتهتدى وتؤمن وتكفر كالناس الأحياء فصارت الأرواح الجاهلة كالأحياء الجاهلين والنبى ﷺ أرسل للطائفتين ومثل هذا القول علمه سماعى ليس للعقل فيه دخل ولكن العلم الحديث الروحى جاء بتصديقه كما سيأتى فى آخر هذه المباحث والحقّ أن مثل هذا لايعرف إلا بالعلوم الحديثة فأما بغير ذلك فانها سماعية وليس عليها دليل إلا السمع فقراءة العلوم الحديثة الروحية وغير الروحية أمر حتم على المسلمين النائمين على ظهر هذه الأرض وقد أنذرت وحذرت ـ إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقى إلا بالله ـ قال (فذرهم ومايفترون) أى وكفرهم وعطف على غرورا فيما تقدّم قوله (ولتصغى اليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) أى ليغر بعضهم بعضا ولتصغى الخ (وليرضوه) لأنفسهم (وليقترفوا ماهم مقترفون) أى وليكتسبوا ماهم مكتسبون من الآثام

ولما انهى الكلام على دحض مااقترحوه و بيان ضلالهم وغرورهم شرع يذكر أن الله هو الحكم بينى و بينكم وأن القرآن كاف لتعقلوا مافيه من العلم والارشاد فقال (قل) يامحمد لهم (أفغير الله أبتغى حكما) أى أطلب من يحكم بينى و بينكم (وهوالذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا) أى القرآن مبينا فيه الحق والباطل بحيث ينفى التخليط والالتباس فأما الآيات التى اقترحتموها وهى حسية ففيها التخليط والالتباس ولاتفيد يقينا فلذلك منعناها لأننا نريد أمما تكون أرقى من الأمم السابقة لاسيما اننا بعثنا محمدا ﷺ آخر رسول فى الأرض ومن أراد أن يعرف الاسلام فليطلع على الكتب الدينية أوالكتب العلمية التى تظهر دقائق الكون فهؤلاء متى عرفوا حقائق تلك الكتب آمنوا بالقرآن وهذا قوله (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحقّ) وأهل الكتاب هنا أعم من اليهود والنصارى بل أعم من أهل الكتب السماوية لأن اللفظ عام وانما عممنا لأن شهادة العلوم العصرية كثيرة جدا والكشف الذى ذكرناه فى هذا التفسير يعدّ بالعشرات ولم يكن كثير منه معروفا عند الأمم السابقة فقراءة العلوم اليوم فى الشرق والغرب تورث الايمان بالقرآن كقراءة المتدينين الكتب الدينية التى فيها ذكر النبى ﷺ كانجيل برنابا الذى يطارده الفرنجة وقد أمروا باحراقه فى ديارنا المصرية وذلك لأنهم كانوا قابضين على زمام الامور فى هـذه الديار (فلا تكونن) أيها الانسان السامع لهذا القرآن (من الممترين) الشاكين فى أنه منزل من عند الله تعالى (وتمت كلمة ربك) القرآن بالأمر والنهى (صدقا) فى قوله (وعدلا) منه (لامبدّل) لامغير (لكلماته) القرآن ويقال تمت ووجبت كلمة ربك بالنصر لأوليائه صدقا فى قوله وعدلا فيما يكون لامبدّل لامغير لكلماته بالنصر لأوليائه (وهوالسميع) لمقالتهم (العليم) بهم و بأعمالهم

ثم أتى بقاعدة عامّة تشمل جميع أهل الأرض فقال ان الكوكب الذى تعيشون فوقه من العوالم التى

فى درجة منحطة وأهلها ليسوا كاملين وانما أرسلناك اليهم لتصلح من شأنهم فقال (وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ) وليسوا على بصيرة ومنهم هؤلاء الكفار الذين يقلدون آباءهم (وان هم الايخرصون) يكذبون لبعدهم عن الحقائق • ولقد خلقناهم وعلمنا مقدار استعدادهم فنجعل كلا فى مرتبته التى استعدّ لها (إن ربك هو أعلم) بـ(من يضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فقوله من يضلّ مجرور بباء وهما متعلقان باعلم ودلّ عليها الباء فى قوله ـ بالمهتدين ـ وهى نظيرتها و يصح أن يجعل من منصوبا بفعل محذوف أى يعلم الخ لأن افعل لاينصب الظاهر

ثم أخذ يذكر نتائج انكار اتباع هؤلاء كأكثر أهل الأرض لجهالتهم فأمر بأكل مايذبح مقرونا بذكر اسم الله على ذبحه ولم يبح مخالفة ذلك إلا لضرورة كما تقدّم مرارا ثم عمم الأحكام فأمر بترك كل إثم ظاهر وباطن لتخلص النفوس من ظلمة هذه الدنيا وخصّ الكلام على تحريم مالم يذكر اسم الله عليه ليقتلع العادات الوثنية ووصفه انه فسق وأفاد أن قوما من الكفار يوسوس بعضهم الى بعض ليتعاونوا على مجادلتكم فاياكم ومطاوعتهم • وهل يستوى الفريقان فريق كان ميتا فأحييناه وفريق لايزال فى الظلمات يتخبط فى ديجورها • وهذان الفريقان سائران على مازيناه لهم فريق المؤمنين الذى أحييناه وفريق الكافرين الذى أبقيناه فى الظلام فكل يعمل على شاكلته وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا

ثم أبان داء الأمم العضال وهم الرؤساء وعظماء الأمم فأفاد أن هناك قاعدة عامّة وهى أن كل قرية وأمة قد صيرنا مجرميها أكابر فيحدثون فيها المكر وسوء الخلق والخلاعة والفسوق والمثل السوء والناس تبع لهم وكل ذلك وباله واقع عليهم فان من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها والناس يحاسبون على مقدار ماعندهم من قوّة وقدرة ومن اجرام هؤلاء الذين هم أعداؤك أن يقول بعضهم كأبى سفيان لن نؤمن لك حتى يوحى الينا كما أوحى الى محمد وسائر الرسل • وكيف يكون ذلك والرسالة انما تكون لمن هم لذلك مستعدون ولاجرم أن مثل هذا استكبار وتعاظم والعقاب عليه بضدّه وسيصيب هؤلاء المجرمين صغار وذلة وعذاب شديد

وختم هذا المقام بأن مسألة الايمان ترجع الى شرح الصدر ومسألة الاضلال ترجع الى ضيق الصدر فالرسالة استعداد والايمان استعداد والضلال استعداد والله هو المحدث لذلك وعلى الناس الجدّ والبحث والتنقيب والجزاء يكون على مقدار الأعمال وهذا هو قوله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين * ومالكم ألاتأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ماحرم عليكم الا ما اضطررتم اليه وان كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم إن ربك هوأعلم بالمعتدين * وذروا ظاهر الاثم وباطنه إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يفترون * ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون * أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * واذاجاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغارعند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون * وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) تفسير هذه الآيات ظاهر ولكن لابد من بيان بعض الكلمات فقوله ـ ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ـ أى وأىّ غرض لكم فى أن تتحرجوا عن أكله ومايمنعكم عنه وقوله ـ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ـ بالمجاوزين الحقّ الى الباطل أى فيجازيهم وقوله ـ ظاهر الاثم

وباطنه ـ مايعلن ومايسر وما بالجوارح ١٠٠ بالقلب وقوله ـ يكسبون الاثم ـ أى يكسبون الذنب وقوله ـ ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ـ مذهب داود أن متروك التسمية حرام . وقال الشافعى لايحرم مطلقا . وأبو حنيفة قال ان ترك التسمية عمدا لاتحل وان تركها ناسيا تحل . وأحمد ورد عنه روايتان فيمن ترك التسمية عمدا ومن تركها ناسيا حلت له وقوله ـ وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ـ قالوا يامحمد أخبرنا عن الشاة اذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا فتزعم أن ماقتلت أنت وأصحابك حلال وماقتله الكلب والصقر حلال وماقتله الله حرام وقوله ـ وان أطعتموهم ـ أى فى أكل الميتة وقوله ـ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلناله نورا يمشى به فى الناس ـ ميتا أى كافرا فأحييناه أى هديناه وأرشدناه للعمل الصالح وقوله ـ مثله ـ أى صفته وهو مبتدأ خبره قوله ـ فى الظلمات ـ وقوله ـ ليس بخارج منها ـ حال من الضمير المستكن فى الظرف وقوله ـ وكذلك جعلنا فى كل قرية الخ ـ أى كما جعلنا فى مكة ـ مجرميها أكابر ليمكروا فيها ـ صيرنا فى كل قرية مجرميها أكابر وقوله ـ واذا جاءتهم آية الخ ـ * روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبى ﷺ لو كانت النبوّة حقا لكنت أنا أولى بها منك لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا * وروى أن أبا جهل قال زاحمنا بنوعبدمناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبىّ يوحى اليه والله لانؤمن به ولا نتبعه أبدا الا أن يأتينا وحى كما يأتيه وقوله ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته ـ حيث مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلم موضع رسالته ولاموضع الا نفوس مشرقة بالفضائل ولادخل للنسب ولاللمال

ومعنى ـ يشرح صدره ـ يفسحه فيتسع لقبول الهدى وقوله ـ ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ـ أى ينبو عن قبول الحق ومن ضيق صدره كأنه يزاول مالايقدر عليه من صعود السماء فيكون الايمان ممتنعا عليه امتناع صعود السماء وقوله ـ كذلك يجعل الله الخ ـ أى كما يضيق صدره يجعل العذاب أوالخذلان عليهم وقوله ـ وهذا ـ اشارة الى البيان المتقدم من الخذلان والتوفيق ـ صراط ربك ـ الطريق الذى ارتضاه أوعادته وطريقه لذى اقتضته حكمته ـ مستقيما ـ لاعوج فيه أوعادلا مطردا وهوحال مؤكده وقوله ـ قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ـ فيعلمون أنه هو القادر وأن مايحدث من خير وشر فهو بقضائه وقدره وأنه عالم بأحوال العباد وقدوضع كلا فى مركزه لحكمته التامة . ثم بين أن هؤلاء الذين يذكرون (لهم دارالسلام) أى لهم دار السلامة من المكاره ومن كل آفة (عندربهم) فى ضمانه أوذخيرة لهم عنده لايعلم كنهها غيره وهى الجنة وأعلاها أن يكونوا ـ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ ويكونون وجوههم ناضرة الى ربها ناظرة ويرون مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطرعلى قلب بشر من الجمال الفائق والحسن الناضر والبهجة والاطلاع على العوالم العلوية واشراق شموسها وبهجتها فيسكرون بخمرة العلم وهم فرحون مغبوطون ثم قال (وهو وليهم) مواليهم وناصرهم (بما كانوا يعملون) أى بسبب أعمالهم ثم أخذ يشرح حال الشياطين من الانس والجن . ولقد أظهر علم الأرواح فى الكشف الحديث أن الأرواح الشريرة توسوس لأمثالها من الأحياء بما يناسب طبائعها ويوالونهم ويودّون أن يكونوا على طرائقهم وأهل العلم والفضلاء يعطون الأحياء ارشادا وتعليما نافعا كما كانوا فى الدنيا وعلى ذلك يكون الفاسقون الميتون من البشر ملحقين بالجن فى الوسوسة والصالحون الميتون ملحقين بالملائكة فى الالهام . وهذا الكشف الحديث الذى ملأ أمريكا وانكلترا وفرنسا وايطاليا وجميع بلاد العالم ماعدا المسلمين هو الذى به يكون تفسير القرآن

فياعجبا كيف يصبح ماكان سماعيا فى الاسلام محسوسا ملموسا . ياعجبا كيف يقول الله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ وقد سمعت أيها الذكى فى هذا التفسير من علوم الآفاق كعلم طبقات الأرض وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلك العجب العجيب فهاك أسمعك من علم الأنفس الذى عرفه جميع العالم إلا المسلمين حتى اذا جاءت الآيات السابقة وجدتها منطبقة عليه تمام الانطباق

لقد جاء فى كتاب الأرواح الذى نقلت فيه (قبل هـذا التفسير) عن علماء أوروبا كثيرا مما جاء فى الجميات النفسية أن علماء تلك الجميات سألوا روحا أحضروها بالوسيط وألقوا عليها أسئلة منها . ماذا يقصد الروح الشرير بظهوره لانسان ما فكان الجواب يقصد ازعاجه أوالانتقام منه . وسئل ماذا يقصد الروح الصالح بتجليه فأجاب يقصد تعزية من يبكى على فقده واثبات وجوده وبذل النصيحة لمن يحبه أوطلب الاسعاف لنفسه وهناك قال الروح الذى وجهت اليه أسئلة كثيرة مايفيد أن الأرواح تحيط بالناس من كل جانب وأن رؤيتها تعرقل مساعى الناس فى أعمالهم فلذلك لم تجعل رؤيتهم عامة الخ وهناك ذكر مايناسب هذا من الاحياء (فى الجزء الثالث صفحة ٢٦) وهو أن خواطر الخير بالهام الملائكة للمستعدين لذلك الالهام وأن خواطر الشر من الشياطين والقلب بينهما وهناك ذكر الحديث الآتى (فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى وليحمد الله تعالى ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى ـ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ـ

ولقد جاء فى هذا الكتاب وفى كتب أخرى كثيرة كالتى ألفها صديقنا (محمد فريد وجدى) أن الناس فى أوروبا وأمريكا يجلسون ويحادثون الأرواح بطرق معلومة عندهم كما تقدم فى (سورة البقرة) ويلقون اليهم أكاذيب وحكايات خيالية مادام المحدثون من الانس من الأنفس الناقصة وان الذين يكلمونهم من الأرواح يكونون على مقتضى مذاهبهم وأخلاقهم وأن الأرواح العلية لاتخاطب النفوس الناقصة وأن الناقصة تألف الناقصة ويفرح بعضها ببعض وأن بعض الأرواح الشريرة تألف الناس وتسمع نصائحهم وتفهم أقوالهم لتعلقها بالأرض ومن فيها وعلى ذلك يكون العلم الحديث تفسيرا فعليا للقرآن وتكون سورة ـ قد أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا الخ ـ قد أصبحت مكشوفة واضحة ظاهرة وأن ايمان الجن أصبح من اليقينيات لامن المسموعات وأنا أقول سيقرأ هـذا القول من الناس متكبر مراء فيقول كيف نصدق الخرافات نقول له القرآن جاءنا فسمعناه والعلم فى أوروبا جاء بهـذا حتى أصبح مشتهرا على أيدى ملايين بل مئات الملايين من الناس وفيهم فلاسفة وعلماء وهو مطابق مطابقة تامة لكتابنا المقدس . فاما أن نقول ان هذا وعد الله بأن يرينا آياته فى أنفسنا كما سمعناها بالقرآن واذن يصبح هـذا القرآن يقينا أى على مقتضى العلم لا بمجرد التسليم . واما أن نقول نشك فى كلامهم واذن يجب البحث كما بحثوا وقد تقدم هذا مشروحا فى البقرة فارجع اليه ان شئت . وانى أعتقد أن هـذا التفسير سيفتح بابا للأمم الاسلامية يدخلون منه الى علوم أمم الأرض قاطبة ويخرجون من ظلمات الجهالة الى حظيرة نور العلم والعرفان والله هو الموفق الهادى الى طريق الصواب

اذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى (و) اذكر (يوم يحشرهم جميعا) الضمير لمن يحشر من الجن والانس فنقول (يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس) أى من اغوائهم لأنكم لقربكم من أخلاقهم وألفكم عوائد أهل الأرض وبعدكم عن العالم العلوى توسوسون لهم وتجذبونهم الى أخلاقكم . ومن عجب أن علم الأرواح قد جاء فيه أن الأرواح العلوية لما سئلت . هل يمكن التخلص من الوسوسة فأجابت نعم ذلك لا يكون إلا للنفوس الراقية فى الأرض عندكم وقليل منكم من هو راق . والنفوس العالية عندكم لاتجسر الارواح الشريرة على الاقتراب منها وهذا قوله تعالى ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ـ فاستكثار الجن من اغواء الانس انما يكون فى الطبقات الجاهلة الفاسقة فيحشرون معهم لأن أرواح الأحياء اذا ماتت لاتجد مكانا إلا مكان أمثالها من الأرواح المنحطة وهى التى كانت توسوس لهم من أرواح الجن (وقال أولياؤهم من الانس) الذين أطاعوهم (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى انتفع الانس بالجن والأرواح الشريرة المناسبة للاحياء بأن دلوهم

على الشهوات التى كانت تلك الأرواح تقترفها فى الدنيا لأن الانسان اذا عجز عن شهوة أنس بمن يتعاطاها كما ترى ذوى الشهوات يحبون النظر لمن يتعاطونها اذا عجزوا عن اتيانها استروحوا لفعل الموافقين فى الأخلاق والعادات والأحوال والنفس لاتألف الا أمثالها ولاتحب الا من على شاكلتها وتهوى أن ترى من يوافقها ويشاكلها • فهؤلاء يقولون - استمتع بعضنا ببعض - (و بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) بالبعث (قال النار مثواكم) منزلكم أوذات مثواكم (خالدين فيها) حال (إلا ماشاء الله) أى يخلدون فى عذاب النار أبدا الا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب السعير الى عذاب الزمهرير (ان ربك حكيم) فيما يفعل بأوليائه وأعدائه (عليم) بأعمالهم فيجزى كلا على وفق عمله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) أى نكل بعضهم الى بعض أونجعل بعضهم يتولى بعضا فيغويهم ويكونون قرناء فى العذاب كما كانوا فى الدنيا (بما كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصى • ثم خاطبهم خطابا عاما فقال (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) وقد اختلف المفسرون أمن الانس الرسل أم منهم ومن الجن خلاف أطال فيه المفسرون والعلم الحديث طابق الآية مطابقة تامة وهوأن كثيرا من الأرواح الموسوسة للناس ملحقة بالجن لأنهم على شاكلتهم فى الشر فيوسوسون للناس كما توسوس الجن • ومعلوم أن هذا الفريق من الأرواح كانوا فى الأرض ومذاهبهم التى كانوا عليها قد ثبتت فى أذهانهم فهى لاتفارقهم فيوسوسون بها - ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى - فتبقى عقائدهم راسخة فيوسوسون بها و بعضهم قد يسمع نصح أهل الأرض وهو فى حال الموت فيقلل الشرور والفساد فى أعماله و بهذا يفهم قوله تعالى - ألم يأتكم رسل منكم - فاذن جميع الأنبياء يسمعهم الجن والانس وفى الجن قوم ربما ينتفعون بما يسمعونه كما فى آية - قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن الخ - فأنذروا قومهم وهذا القول قبل العلم الحديث ماكان العقل يصدقه و يقربه بل يراه من الامور البعيدة عن العادة فتعجب من القرآن كيف أخبر بما لم يكن معروفا فأصبح اليوم معروفا مشتهرا الا عند المسلمين فهم وحدهم الذين لا يعلمون الا قليلا منهم وهؤلاء يعرفون أن قوله تعالى - ألم يأتكم رسل منكم - قد طابق العلم الحديث (يقصون عليكم آياتى و ينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى يوم القيامة (قالوا) جوابا (شهدنا على أنفسنا) كما يقول الناس اليوم حينما تحتل دولة أجنبية بلادهم نحن مفرطون مذنبون جاهلون وكما يقول الفساق لقد أضعنا حياتنا فى فسوقنا • و يقول الذين ابتلوا بشرب الخمر والتدخين لقد قتلتنا عاداتنا السيئة القبيحة هكذا عذاب الآخرة ماهو الا نتائج للعادات والأخلاق والأحوال المكتسبة و يقال فيها مايقال فى الدنيا فيشهد الناس على أنفسهم (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) ولما كان من عادة الله فى خلقه ألا يجعل الامور طفرة بل يأتى لها بمقدمات كالمرض مثلا يتقدم الموت والرياح تتقدم المطر وكذلك البرق ليستعد الناس هكذا لم يشأ أن يترك القرى وشأنها فلابد من ظهور نابغين فيهم اما بالحكمة والعلم واما بالنبوة ولذلك قال (ذلك) اشارة الى ما تقدم من بعث الرسل اليهم وانذارهم سوء العاقبة (أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) هذا تعليل للحكم المتقدم أى لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه وهم غافلون لم ينبهوا برسول أولم يكن ربك مهلك القرى بظلم منه وهم غافلون واذا كان الله أرسل الرسل فقد انتفى الظلم (ولكل) من المكلفين (درجات) مراتب (مما عملوا) من أعمالهم (ومار بك بغافل عما يعملون) فيخفى عليه عمل (وربك الغنى) عن العباد والعبادة ولكنه جعل ذلك ترقية للناس ليخلصهم من المادة وهو (ذوالرحمة) يترحم عليهم بالتكليف (ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء) ممن يصلحون لسكنى أرضه وقد حصل ذلك فقد زالت أمم ودول كأهل أمريكا الأصليين وغيرهم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى قرنا بعد قرن (ان ماتوعدون) من البعث وأحواله (لآت) لكائن لا محالة (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين طالبكم - أينما تكونوا يدرككم الموت - (قل) يامحمد (ياقوم اعملوا على

مكانتكم) على غاية تمكنكم واستطاعتكم (انى عامل) على مكانتى التى أنا عليها وما أمرنى به ربى أى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فانى ثابت على الاسلام (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى الذى له عاقبة الدار (انه لا يفلح الظالمون) أى الكافرون وضع موضعه الظالمون لأنه أعم فائدة. انتهى التفسير اللفظى لهذا المقصد

﴿ لطائف هذا المقصد ﴾

(اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى ـ وكلمهم الموتى ـ

(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى ـ وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّا شياطين الانس والجنّ يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ـ

(اللطيفة الثالثة) ـ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ـ

(اللطيفة الرابعة) ـ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ـ

(اللطيفة الخامسة) ـ يامعشر الجنّ قد استكثرتم من الانس الخ ـ

(اللطيفة السادسة) ـ ان يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم مايشاء ـ

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ وكلمهم الموتى ـ ﴾ ﴿ واللطيفة الخامسة ـ يامعشر الجنّ الخ ـ ﴾

ان الكلام مع الموتى الآن أكبر آية أنزلها الله للناس لما فسدت العقائد وقد امتلأ بها السهل والجبل نعم فى هذا الكلام شك والعلم لايزال فيه نقص ولكن الشك فى العلم لايوجب تركه فان العلماء الذين يعدّون بمئات الالوف يشتغلون فيه الآن فارجع الى ما كتبته فى سورة (البقرة) والى كتاب الأرواح الذى ألفته والى ما كتبه حضرة (محمد أفندى فريد وجدى) وكذلك الكتب الأفرنجية المنتشرة فى العالم الانسانى وسترى فى هذه الكتب مايدهش العقول وان الناس فى العالم الانسانى اليوم يتحادثون مع الأرواح بطريق (الطاولة) أو بطريق (الكتابة) أو بطريق (التنويم المغناطيسى) وهناك من الشك والريب تارة والتصديق تارة أخرى مالا يحصى وترى هناك أن النفوس الانسانية الناقصة لا يأتى لها ولا يحادثها الا الأرواح التى على شاكلتها وتعطى لها معلومات مما يناسب أمور معاشها وأحوالها الدنيوية وهذه تكون ـ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه ـ وتصبح تلك الأرواح هازئة بالأحياء ضاحكة عليهم استهزاء وتارة تخبرهم بأخبار يظهر كذبها فيما بعد لقصور نظر الأرواح وان لم تقصد هزوا ولا سخرية وأما الأرواح العالية فهى لا تتنزل الى صغائر الامور ولا تهتمّ الا بالامور العلمية ولا تطيع من يدعوها الى الاستفهام عن الامور الشهوية وتقول اننا لا نحب أن ندخل معكم فيما يجعلكم معلقين بالدنيا بل نخليكم عنها وفقركم و بؤسكم يقربكم من العالم الأخروى • وهذه الأقوال قد شرحتها فى كتاب الأرواح وعجبت كل العجب من انها موافقة للحكمة الاسلامية ولما شرحه الامام الغزالى فى الاحياء وأى معجزة للقرآن أكبر من هذه وكيف يظهر ملخص الدين على ألسنة الأرواح

﴿ عجائب القرآن ومعجزاته فى القرن العشرين فى آية ـ ولو أننا أنزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون ✻ وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّا الخ ﴾

أفادت هذه الآية أن الايمان بالله واليوم الآخر تابع لمشيئة الله واستعداد الانسان فليست البراهين بمغنية مادام المرء لا يستعدّ والقضاء لم يسعد وهذا بعينه الحاصل الآن • ألم تر الى أننا اليوم فى القرن العشرين نسمع أن العلماء فى (أمريكا وأوروبا) يكلمون الموتى ومع ذلك نرى بعض المتعلمين فى بلادنا الشرقية يكفرون بالله واليوم الآخر ولا يقلدون فى الايمان ساداتهم من الفرنجة الذين كفروا تقليدا لهم فلما آمنوا لم يقلدوهم وهذا هو مافى نفس الآية • فالله تعالى أذن للناس أن يكلموا الموتى فى عصرنا الحاضر كما فى الآية ولا يزال الناس

فريقين • كافرا بالله واليوم الآخر • ومؤمنا وهذا معجزة باهرة • ومن غرائب ماحدث فى هـذا الدهر وان شئت بينة على ذلك فهاك ماجاء فى جريدة (الاهرام) بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢١ فان ماستقرؤه فى المقالة التالية ناطق بمعنى الآية معجزة للقرآن كما فى قوله تعالى - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - وهذه هى المقالة

﴿ مناجاة الأرواح ﴾

فى الجهة الغربية من ولاية (نيو يورك) وعلى بعد ٦٠ ميلا من مدينة (بفلو) مصيف باسم للى دال اشتهر بجمال موقعه وعذوبة مائه وعليل هوائه وامتاز بكثرة أحراجه وضخامة أشجارها وسمو ارتفاعها وأحاطت به بحيرة واسعة الأطراف وتقوم بادارة هذا المكان جماعة من الروحيين الذين يعتقدون بمذهب (مناجاة الأرواح) ويبدون من أعمالهم وأقوالهم فيه ما لا يدرك له العقل حلا ولا يدرى الى أى ناموس يرده

ومن العجيب أنه مع تقادم العهد على ظهور هذا المذهب وسعة انتشاره لم تزل آراء العلماء فيه على اختلاف مبين فمنهم من ينكره انكارا باتا ويعد أعمال القائمين به من باب التدجيل والأوهام • ومنهم من يعتقده اعتقاد الحقائق المسلمة ذهابا الى أن فى الطبيعة أسرارا لا يسع الوجدان انكارها وان لم تقع فى حيز العقل

وقد زار هذا المكان أحد أدباء (السوريين) وكتب الى الهدى (النيويوركية) يصف ما رأى فقال كان يجتمع فى الملهى خلق كثير لسماع الخطيب الروحى (جان سلاتر) أحد زعماء هذا المذهب ووسطائه المشهورين وقبل ميعاد الاجتماع كان معظم الحضور يتسابقون الى القاء أوراق صغيرة على (طاولة) الخطيب يكتبون عليها بعض الأرقام أو الحروف المتقطعة التى كان الوسيط يكتفى بها دون كتابة الأسماء ثم يفتتح الخطيب الحفلة بالقاء كلمة بهذا الموضوع من الوجهة العلمية ويسترسل فى الكلام الى مسألة خلود النفس وامكان مخاطبة أرواح الموتى السابحة فى الفضاء بواسطة وسطاء حقيقيين والوساطة موهبة عظيمة انما فى بعض الأحيان يخلو الوسيط من القوة اللازمة لتأدية الوظيفة حقها ولكن متى توافرت القوة كالواجب تظهر البينة وتتجلى الحقيقة للعيان

ثم يتناول الخطيب الأوراق الملقاة على (الطاولة) أمامه فيقرأها الواحدة بعد الأخرى مرسلا عن كل منها جوابا يتناوله من التجليات والمخاطبات الروحية فيدهش الحضور بما يأتيه من المعجزات

جاء الوسيط الى عدد (٦) فنادى بصوته الجهورى قائلا مستر (جيمس هاملتون) وأشار بيده اليه فأجاب نعم فقال له ألا تسكن (كلنفلند أوهايو) وتقيم فى الشارع الفلانى رقم (كذا) • فأجابه نعم وهذا عنوانى الحقيقى • فقال انى أرى الآن والدتك واقفة بازائك تقرئك الشوق والتحيات وقد أوعزت الى أن أبلغك نصيحة وهى أن الرجل الذى قابلته فى (ديترويت ميشكن) مساء الاثنين الماضى وتحادثت واياه بشأن افتتاح تجارة فى تلك المدينة ووعدته بأنك ستعود اليه فى الغد للمباحثة فى العمل فهى تنصحك بالاقلاع عن هذا العزم لأن الرجل لا يضمر الخير ولا الاخلاص لك فاياك أن تتعامل معه

فوقف الرجل مبهوتا ورفس الأرض برجله وقال نعم هـذا هو الحادث بعينه فقد أقلعت الآن عن عزمى وسأعمل بهذه النصيحة

ثم تناول الخطيب ورقة أخرى كان عليها حرف (ج) على ما أذكر فالتفت الى الجمهور وقال (مسز مارى رولاند) وبأقل لحظة وقعت عينه على هذه السيدة فقال لها لا يمكن أن يكون هـذا اسمك الحقيقى أجابت نعم • قال ألا تقيمين فى (شيكاغو) فى شارع كذا ونمرة كذا • قالت نعم وكل ذلك صحيح • قال لها انى أرى الآن نجلك (البرت) الذى تجند فى الحرب الكبرى وسافر مع الفرقة الأخيرة وانقطعت أخباره عنك حتى أصبحت وأنت لا تعلمين عنه شيأ جاء الى بروح مملوءة من الشجاعة والحماسة وهو يقول لك انه وقد كان مقتله قبل انتهاء الحرب بمدة قصيرة قال ان جثته بقيت مطروحة مدة ثلاثة أيام قبل الاهتداء اليها

وهنا

• وهنا وصف الوسيط ملامح نجلها ومظهره وأخبرها عن اسم المكان واليوم الذى قتل فيه

و بعد ذلك قرأ الوسيط عدد (١٨) مسز (ألن مكلان) وأشار بيده اليها فذكر لها اسم المدينة التى تقطنها واسم الشارع الذى تقيم فيه حسب عادته • ثم قال لك شقيقة تدعى (أنا) جميلة الطلعة شيقة القوام كانت تسكن فى (دنفر) من ولاية (كولارادو) مرضت مرة مرضا شديدا كاد يودى بحياتها فكتبت اليك تطلب حضورك اليها وقد حالت الظروف دون ذهابك فساءها ذلك وقطعت أخبارها عنك وهذا ما حملك على الاعتقاد بأنها توفيت والحقيقة هى أنها لم تزل حية ترزق وتقيم اليوم فى مدينة (بلتيمور) وكنت أودّ أن لا أخدش مسمعك بايراد شئ مما عرفته عنها ولكن الحقيقة يجب أن تقال فان سوء أحوالها وسوء العشرة دفعاها لارتياد منازل الفساد وهى تسكن فى الشارع (الفلانى) تحت نمرة كذا واذا شئت مراسلتها فعليك الاعتماد على هذا العنوان واذا لم يكن ذلك صحيحا فانى أضرب على نفسى غرامة مالية كبيرة وأتخذ هذا الجمع الغفير شاهدا علىّ على ذلك

ثم جاء الخطيب الى عدد آخر فقال مستر (توماس فيليس) فأجابه نعم • قال انى أراك شديد الاهتمام بمسألة مبيع (البناية) التى تملكها فى (جامستون نيويورك) لجورج مارش وتودّ أن تعرف اذا كان المبيع ينتهى حسب طلبك أم لا وكثيرا ماتباحثت مع امرأتك فى هذا الشأن مع انك قبضت من ثمن البناية حوالة بألف ريال وذلك مساء الجمعة الماضى وأزيدك الآن اطمئنانا بأن المبيع سيتمّ بالقيمة التى اتفقتما عليها وهى مبلغ عشرون ألفا (بيعة لم يحضرها ابليس) والشارى غير مغبون

فاستغرق الجمهور فى الضحك واغرق صاحبنا فى التعجب • ولما وصل الوسيط الى هنا فى الكلام صمت هنيهة ثم قال فى هذه الساعة حدثت حادثة محزنة فى ضواحى (فلادلفيا) وذلك أن سيارة تقلّ خمسة ركاب انقلبت براكبيها من شاهق فقتل اثنان وأصيب الباقون بجروح خطرة و بينهم امرأة لها بنت موجودة بيننا تدعى (لوزاو تنكس) ولم يكد يدور نظره على الجمهور حتى رآها فقال نعم ان والدتك من جملة الركاب الذين هوت بهم السيارة وهى الآن فى المستشفى (الفلانى) القريب من محل الحادثة فاسرعى لاغاثتها فصرخت الفتاة و بكت والتفتت الى الساعة وكانت قد قاربت التاسعة والنصف ليلا وهو الموعد الذى يترك فيه القطار الأخير المحطة فقالت وما الحيلة والقطار قد سافر قال لها الوسيط انتظرى قليلا ثم التفت الى العلا وسأل أهل القطار ترك المحطة وتمتم بلغة غير مفهومة ثم قال أسرعى وأعدّى حوائجك فان القطار متأخر عن ميعاده نصف ساعة فهبت الفتاة مسرعة وأعدّت لوازمها وجاءت الى المحطة فوجدت القطار على جناح السفر فركبته • وفى اليوم الثالث ورد من الفتاة رسالة على صديق لها هناك تخبره بأن الحادثة وقعت كما رواها الوسيط وتؤمل بأن والدتها تتقدّم الى الشفاء • اه

﴿ اللطيفة الثانية ـ وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّا شياطين الانس والجنّ ـ ﴾

وهذه أيضا مفهومة مما سبق فى مواضع كثيرة من التفسير فالأنبياء وجميع المصلحين بعدهم يكون نصيبهم على مقدار مقامهم من السمر التبايغ وأما شياطين الجنّ فانها تلك الأرواح التى كانت قلوبها فى غطاء فأصبحت فى العالم الروحى كما كانت فى الدنيا فأصبحت ملحقة بالشياطين الذين يوسوسون الى أمثالهم لانغلاق أبواب السماء ومفاتيح العلم فى يد الله لايصلون اليها فترتد نفوسهم الى أهل الأرض وتتسلى بما ترى من نفوس ناقصة فتغريها بما كانت تودّه فى الدنيا وعةوها مقفلة قد حكم عليها بذلك قصاصا لها فأصبحت نقمة على نفسها وعلى أمثالها من البشر ولذلك سئلت بعض الأرواح فقيل لها هل الأرواح تقدر على أذى الناس فكان الجواب كلا وانما الناس هم الذين يؤذى بعضهم بعضا وانما الأرواح اذا تصدت الأذى وسوست الى الأحياء بما تريد فهذا هو الأذى • ـ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا ـ فهؤلاء هم الذين قال الله

فيهم لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة لأن نفوسهم لم تستعد لتلك الأنوار وهى أشبه بالأجسام (الغازية) البخارية التى ترتفع فى الجو وكل جسم له حد محدود لايتجاوزه والله لايمنع أحدا عن النعيم ولكن العوائق من النفوس ففى النفوس جنتها وفى النفوس نارها فأى نفس غلظت وفسقت وأحبت الحياة الدنيا فان طبعها لايقبل الجنة ولاعالم الملائكة فلايصل لذلك بحسب استعداده وأى نفس أحبت ذلك العالم واستعدت له وخفت مؤنتها فانها ليس بينها و بينه إلا الموت وهناك تصعد اليه وترتقى ـ وان الى ربك المنتهى ـ

واعلم أن ما يكشف اليوم من الكواكب والسيارات انما هو ذخيرة قد أعدها الله للأرواح الأرضية المشرقة النبيلة لتتفرج عليها اذا ماتت ويكون موتها أكبر سعادة وأشرف أيامها • فما أسعد أيام الخروج من هذه الدار التى حبسنا فيها حبسا عاقنا عن العروج والخروج الى باحات الهناء وساحات السعادة والصفاء حتى نرى تلك الكواكب البهجة بأقدارها وهيئاتها وأنوارها واشراقها والحياة عليها ونرى تلك العجائب وإذ ذاك نفك من هذا الاعتقال الأرضى ونطالع تلك الشموس فى المجرة التى تبلغ مئات الملايين ونرى شمسنا بقعة صغيرة منها وأرضنا أصغر من كل شئ حينئذ ننسى هذه الدنيا وننسى بؤسها وشقاءها ونخرج من جهنمها الى السعادة التى نشاهد كل ليلة بصيصا من نورها وقبسا من نارها وحورا فى طرفها ولوامع مشرقات فى دياجى الظلمات تطل علينا تدعونا حثيثا الى الخروج من هذه الظلمات الى تلك الأنوار

أيها القارئ الذكى اجعل حياتك معراجا لذلك المقام الشريف ولاتدخر وسعا فى النفع العام لأمتك وللعالم أجمع اذا قدرت حتى تكون خليفة مبدع هذه الموجودات وناظم عقدها وموحد نظامها وهو اللطيف البديع النور الهادى الى سواء الصراط اهـ

﴿ اللطيفة الثالثة ـ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ـ ﴾

اعلم أن أهل الأرض قاطبة مقلدون لرؤسائهم تابعون لساداتهم مسوقون بخواصهم فترى العلم ربما كان خطأ فيبقى مئات السنين والناس يظنونه حقا لما أن قوما من المشهورين قرؤه وأقرّوه ودرسوه فيتبع الآخرون الأولين واللاحقون السابقين • وترى المذاهب الاسلامية والنصرانية واليهودية يتبع الأخير الأول و يتعصب له و يقول هو الحق وماسواه ضلال وهكذا فى سائر العلوم كالفلك والطب والطبيعة وليس ينقذهم من ذلك بعد مئات السنين إلا أفراد يخلقهم الله فيجاهدون و يهذبون الشعوب و يعلمونهم فأكثر أهل الأرض مقلدون والمجتهدون هم الأقلون • ألاترى أن ابن النصرانى نصرانى وابن اليهودى يهودى وابن المسلم مسلم كل ذلك لأن الناس فى أكثر أحوالهم مقلدون وعلومهم انما تكون محفوظة والنبوغ فيها يكون على مقدار استظهار مادرسوه وفهم ماعقله غيرهم • فأما الرجوع الى أصل تلك المذاهب والتأمل فى أساسها فان البشر غالبا لايتعبون أنفسهم فيه والأعمار قصيرة وعلى ذلك يجب أن يكون فى الأمة الاسلامية مفكرون يفكرون فى أصول المذاهب الاسلامية ويهيمنون على الأمم الاسلامية ويهيئون عقولها للرقى والاصلاح لأن السنى والشيعى وسواهم أصبحوا لايرون إلا ماقرؤه فى كتبهم وهى أمور متشابهة • ثم ان الأمة لم ترفع عن أعينها الأغطية التى غطيت بها العيون وليس عندى إلا نشر العلوم الكونية كما نفعل فى هذا التفسير فبهذا يخرج الناس من ظنهم الى اليقين

إن علم الفقه علم عملى والظن يكفيه أما معرفة هذه العوالم فانها علمية عملية معا فهى علم بالعالم من سموات وأرضين ومتى عرفت الصفة عرفت الصانع وفوق ذلك يرقى الشعب الاسلامى باستخراج منافع الهواء والماء والأرض والسماء • هذا مافهمته من قوله تعالى ـ وان تطع أكثر من فى الأرض الخ ـ • أما رسولنا ﷺ فهو عند ربه الآن وفائدة هذا الكلام ترجع لنا الآن أيضا فأما تكلؤنا بأن نفسر بغير ذلك فليس يكون فيه فائدة مرجوة لنا اهـ

﴿ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى ـ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ـ ﴾

اعلم أن هذه الآية هي التي تطبق على الأمم كلها لاسيما المسلمين الآن فانك حيثما أدرت عينك لاترى البغى ولا الفساد ولا الضلال في الأمة إلا من رؤسائها لاسيما بعض مشايخ الطرق أولئك الذين هم وعلماء الدين والملوك وعظماء الأمم الاسلامية قاطبة • هؤلاء هم آفات الاسلام ومصائبه • هم الذين يساعدون الفرنجة على احتلال أرض الاسلام • هم الذين يوالونهم ويحبونهم لأنهم يغدقون النعم عليهم ويولونهم المناصب العالية ويهبونهم الألقاب الضخمة • وترى ذلك في شمال أفريقيا في بلاد مراكش وتونس والجزائر وطرابلس ومصر وبلاد العراق وغيرها • فهذه الأمم لم يدخل الفرنجة فيها إلا مجرموها الأكابر • فهم الذين فسقوا فيها وعلموا الشعوب كيف يفسقون ويميلون الى الشهوات فخضع القوم للفرنجة واستناموا لهم وربما استنار القوم بعد حين انتهت اللطيفة الرابعة

﴿ اللطيفة السادسة في قوله تعالى ـ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ـ ﴾

هذه اللطيفة تناسب اللطيفة التي قبلها فان الأمم اذا فسدت بفساد أكابرها ولم يظهر فيها نابغون أجدر أن تلغى من الوجود وأن تهلك لأن الله لم يجعل في الأرض ولافي غيرها عملا لغير فائدة بل هو الذي جعل الأزهار التي لا لون لها ولا رائحة انما يلقحها الريح كما تقدم • أما الأزهار ذات الرائحة الجميلة والمحاسن البديعة والألوان البهجة فان الحشرات هي التي تلقحها وجعل ذلك الجمال وتلك الألوان والروائح والعسل مغرية لتلك الحشرات أن تمر عليها فتلقحها فلم يخلق الجمال عبثا بل خلقه لمنفعة راجعة لنفس النبات لأنه ليس في الوجود معطل فاذا كان هذا في نبات ندوسه بأرجلنا ونقطعه لنشم رائحته ولانبالي به وتارة نغرقه بالماء وتارة ترعاه دوابنا وتارة نجعله لأغراضنا في معايشنا فكيف يخلق أمما في الأرض لاثمرة في بقائها فاذا منع الجمال والرائحة عن هذا النبات اذا لم تكن لذلك فائدة واكتفى بمرور الرياح عليها لالقاحها فما أحراه أن يهلك الأمم التي لاتناسب زمانها فيهلكها ويستبدل غيرها بها • ولقد حصلت مبادئ هذه في الأمم الاسلامية فأخذت الفرنجة تسومنا الخسف وتدخل في عقائدنا مايضر أخلاقنا وعاداتنا فان لم يفكر عقلاء المسلمين فليعلموا أن وعدالله حق وانه لايخلف وعده وانه لايريد إلا الاصلاح ولايبقى من الأمم إلا مايصلح للوجود • ولذلك أرسل التتار من الشرق في القرن السابع فأبادوا الدول الاسلامية (السلجوقية والعباسية) وكذلك أرسل الأمم الأوروبية في نحو تلك العصور لمحاربة المسلمين • وكذلك أرسل الأسبان فأبادوا أكثر الأمة العربية وبقاياهم هزموا وهربوا ـ وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ـ • اهـ المقصد الرابع

(المَقْصِدُ الخَامِسُ)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَافَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَايَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَايَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً

عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا
وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ
ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ
وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ
نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ
بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ * قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ * سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

لما فرغ في المقصد الرابع من الكلام على كفرهم واشراكهم وجهلهم أخذ يذكر في هذا المقصد تفصيل

ضلالاتهم العملية وأحكامهم الفاسدة • فمنها انهم كانوا يقصدون الزروع والثمار وهي المعبر عنها بالحرث والابل والبقر والغنم وهي المعبر عنها بالأنعام فيجعلون منها نصيبا لله ونصيبا للأصنام • فأما ماكان لله فانهم يجعلونه للضيفان والمساكين • وأما ماكان للأصنام فانهم يجعلونه للخدام وللسدنة فان سقط شئ مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غنيّ عن هذا وان سقط شئ من نصيب الأصنام فيما جعلوه للاوثان ردّوه الى الأوثان وقالوا انها محتاجة اليه وكانوا اذا هلك شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا انتقص شئ مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله • هذه أول مسألة ﴿المسألة الثانية﴾ ان السدنة كانوا يزينون لهم هم والشياطين أن يقتلوا أولادهم فكان الرجل يقول في الجاهلية لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرنّ آخرهم كما حلف عبدالمطلب على ابنه عبد الله ﴿المسألة الثالثة﴾ أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي المذكورات المفسرات في سورة (المائدة) كانوا يحرّمونها ولايأكلها إلا الرجال وهي على النساء محرّمات كما تقدم هناك ويحرّمون ظهورها فلايركبون البحائر والسوائب والحوامي ﴿المسألة الرابعة﴾ انهم لايذكرون اسم الله على الذبائح عند الذبح بل يذكرون أسماء الأصنام ﴿المسألة الخامسة﴾ انهم كانوا يجعلون الأجنة في بطون البحائر والسوائب لذكورهم وليس للاناث فيها من نصيب كما تقدم في (المائدة) هذا اذا نزلت حية فاذا نزلت ميتة أكلها الرجال والنساء

هذه المسائل الخمس ذكرها الله في هذه الآيات بعدما انتقد معتقداتهم فلذلك قال في المسألة الأولى (وجعلوا) أي مشركو العرب (لله مما ذرأ) خلق (من الحرث والأنعام نصيبا) أي وللأصنام نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) بزعمهم وكذا مابعده أي زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك (فما كان لشركائهم فلايصل الى الله) أي لايصل الى الوجوه التي كانوا يصرفونها اليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين كما علمت (وماكان لله فهو يصل الى شركائهم) من انفاقهم عليها والاجراء على سدنتها وقوله - مما ذرأ - بيان انهم لو عقلوا لم يجعلوا للأوثان شيأ لأن الله هو الخالق فلذلك قال (ساء مايحكمون) والمخصوص بالذم محذوف أي حكمهم هذا • وقال في الثانية (وكذلك) أي مثل ذلك التزيين في قسم القربان (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) هو فاعل زين * وفي قراءة زين بالبناء للمجهول وقتل نائب فاعل وأولادهم مفعول وشركائهم مضاف اليه وقد فصل بين المضاف والمضاف اليه أي وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم والشركاء هم الجنّ أو السدنة (ليردوهم) ليهلكوهم بالاغواء (وليلبسوا عليهم دينهم) وليخلطوا عليهم ماكانوا عليه من دين اسماعيل عليه السلام • ومعلوم أن كل مايقع في هذه العوالم انما يكون بنواميس واستعداد وقابلية (ولوشاء الله مافعلوه) أي مافعل المشركون مازين لهم ولا الشياطين مازينوا (فذرهم ومايفترون) أي افتراءهم أو مايفترونه من الافك • وقال في المسألة الثالثة (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) أي حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير (لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء كما تقدم (وأنعام حرمت ظهورها) • وقال في المسألة الرابعة (وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه) مفعول لأجله (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أي بسببه • وقال في المسألة الخامسة (وقالوا مافي بطون هذه الأنعام) أي أجنة البحائر والسوائب (خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم) أي جزاء وصفهم (إنه حكيم عليم)

ثم أتى بما يفيد خسرانهم بما تقدم فقال (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) فكانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر والسبي وأبناءهم اذا نذروا ذلك كما تقدم (سفها بغير علم) لخفة أحلامهم وجهلهم ان الله تعالى رازق أولادهم لاهم (وحرموا مارزقهم الله) من البحائر وغيرها (افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا مهتدين) وهذا ملخص ما تقدم من أعمالهم الفاسدة • ولما أكمل الكلام على تعديد أعمالهم الفاسدة وقد ذكر انهم تصرّفوا فيما ذرأ الله لهم من الحرث وهو الثمر والزرع • والأنعام وهي الابل والبقر والغنم شرع يفصل الكلام على

هذين القسمين أى الحرث والأنعام على اللف والنشر المرتب فقال فى الحرث

﴿ الكلام على الزرع والشجر ﴾

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) يعنى والله الذى خلق وابتدع بساتين مبسوطات على الأرض كالقرع والبطيخ وكالعنب الذى يبقى على وجه الأرض منبسطا والعنب الذى كهيئة سقف ويقال عرشت الكرم أعرشه عرشا وعرّشته تعريشا اذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش اذا علاه فالعنب بنوعيه أى مافوق العريش وماينبسط على الأرض والبطيخ والقثاء والخيار والقرع . كل ذلك يقال له جنات معروشات أى مبسوطات إما على الأرض فى أكثرها واما على العريش فى أحد نوعى العنب وقوله ـ وغير معروشات ـ هى ماقام على ساق كالنخل والزرع وسائر أنواع الشجر

﴿ عجائب فى النبات ﴾

اعلم أن هذا هو القسم الأصغر وهو مايراه الناس من الجنات المعروشات وغير المعروشات . أما القسم الأعظم منه فهو أنواع الحدائق والبساتين التى ترى فى الطحلب الذى يكسو وجه الماء فى البرك والمستنقعات فهذه بساتين ترى بالمنظار المعظم مزهرة باهرة وكذلك مايعلو الجدران والسطوح وجذوع الأشجار والأرض الرطبة والصخور المرطبة فى المحال الظلية والعفونة النابتة على الحيطان الرطبة وعلى الجلود المدبوغة كجلود الأحذية وجلود الكتب وعلى الخبز فهى بساتين كالبساتين التى نراها بأعيننا . وهكذا ماعلى سطح ماء البحر بحيث يتلوّن بها الماء وعلى الصخور اليابسة على هيئة قشور يابسة أوغبار وهكذا مايفسد العنب والبطاطا ومايخلق فى داخل الحيوان الحى فهذه وغيرها أنواع من الجنات المعروشات وغير المعروشات متى نظرت بالمناظير المعظمة علم أنها هى القسم الأكبر عددا والأوسع نطاقا فهى أوسع مما يراه الناس بأعينهم العادية . وكما رأى الناس الكواكب بأعينهم فكانت (٦) آلاف وهى بالمنظار المعظم مئات الملايين هكذا هنا فى النبات سواء بسواء ـ ويخلق مالا تعلمون ـ

﴿ لطيفة ﴾

جاء فى جرائدنا المصرية بتاريخ (١٩) اكتوبر سنة ١٩٢٦ أن احراج غيانا البريطانية (فى جنوبى أمريكا بالقرب من خط الاستواء) تحتوى على أنواع من الديدان والحشرات تفوق الحصر فقد وجدوا مايزيد على ألف نوع منها فيما لايتجاوز مساحته (ياردة) مربعة من الأرض

﴿ أعمار النبات ﴾

اعلم أن دود الحرير يعيش ثلاثة أشهر من أيام أن يكون بزرا صغيرا الى أن يكون دودا ففيلجة أى كرة صغيرة داخلها دودة يحيط بها حرير ففراشة خارجة من الدودة فتبيض ثم تموت والخيل تعيش (٣٠) سنة والفيل يعيش عمرا طويلا هكذا يكون النبات فمنه مالايعيش إلا فصلا واحدا كالحنطة والشعير والذرة ومنها مايعيش مئات السنين مثل البلوط والصنوبر . ولذلك يقولون ان النبات اما سنوى تكون حياته كلها فى سنة فأقل كما تقدم واما نبات محول مثل اللفت والشمندور فانهما يورقان فى السنة الأولى ثم فى السنة الثانية يزهران ويبلغان ويبزران . واما معمر وهو مايعيش سنين عديدة كالأشجار والأجم وبعض الأعشاب التى تزهر وتبلغ وتبزر ويموت مافوق الأرض منها كل سنة ويبقى ماتحت الأرض حيا ويجدّد النبات فى السنة التالية كالبطاطا والسوسن والزنابق . هذه هى الجنات المعروشات وغير المعروشات . ثم أخذ يفصل بعض الجنات غير المعروشات فقال (والنخل والزرع مختلفا أكله) أى ثمره الذى يؤكل وهذه حال مقدرة لأن النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفا وهو كقوله ـ فادخلوها خالدين ـ وذلك الاختلاف فى اللون والطعم والرائحة (والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه) فى الطعم (كلوا من ثمره) أى من ثمر كل واحد (اذا

أثمر) ولا أحرم عليكم أكل مالم يدرك بحجة أن للفقراء والمساكين حقا فيه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير فلكم أكل مالم يتم نضجه (وآتوا حقه يوم حصاده) أى جذاذه وقطعه وهو أن يطعم من حضر ويترك ماسقط من الزرع والثمر ولقاط السنبل وقد كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر وكان أهل المدينة اذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيلقونه فى جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله وهذا الأمر للندب والآية ليست منسوخة بآية الزكاة فهى محكمة . أما الزكاة فقد تقدمت فى سورة (البقرة) فارجع اليها هناك إن شئت ثم قال (ولا تسرفوا) فى التصدق كقوله تعالى فى آية أخرى ـ ولا تبسطها كل البسط ـ لأن فى المال حق الزكاة أيضا فتى انضم الاسراف فى الصدقة الى الزكاة كان ذلك مضيعا للعيال والسرف مجاوزة الحد ولذلك قال السدى معناه لاتعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء . وقال الزجاج لوأعطى الانسان كل ماله ولم يوصل الى عياله شيأ فقد أسرف * وفى الحديث إبدأ بمن تعول ثم قال (إن الله لايحب المسرفين) فيه وعيد وزجر عن الاسراف فى كل شئ وقال سبحانه فى الأنعام

﴿ الكلام على الابل والبقر والغنم ﴾

وقد عطف على جنات قوله (ومن الأنعام حمولة وفرشا) أى كما خلق من النبات مايبسط على الأرض وهو المعروشات ومايقوم على ساق وهى غير المعروشات خلق من الأنعام ماهو كالمعروشات وهى الصغار الدانية من الأرض كالفرش الذى يفرش وذلك كالمعز والضأن وصغار الابل وماهو كغير المعروشات من الشجر وهى مايحمل عليه من كبار الابل والبقر وهى التى يطلق عليها حمولة كما يطلق على مايحمل من الخيل والبغال والحمير ثم قال (كلوا مما رزقكم الله) أى كلوا مما أحل الله لكم منها ولا تحرموها كما فى الجاهلية * روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ـ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ـ الى قوله ـ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ـ ثم قال (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فى التحريم والتحليل من عند أنفسكم كما كانت الحال فى الجاهلية (إنه لكم عدو مبين) ثم أبدل من قوله ـ حمولة وفرشا ـ (ثمانية أزواج) والزوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه وقد يقال لمجموعهما والمراد الأول (من الضأن اثنين) زوجين اثنين الكبش والنعجة وهو بدل من ثمانية والضأن اسم جنس كالابل وجمعه ضئين أو هو جمع ضائن كتاجر وتجر (ومن المعز اثنين) التيس والعنز . ولقد كان القوم فى جاهليتهم كما تقدم يحرمون بعض الضأن والمعز والابل والبقر تارة الاناث وتارة الذكور وتارة أولادها كيف كانت زاعمين أن الله حرمها فقال الله (قل) يامحمد (آالذكرين حرم) ذكر الضأن والمعز (أم الأنثيين) ونصب الذكرين والانثيين بحرم (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) أى أوماحملت اناث الجنسين ذكرا كان أوأنثى (نبئونى بعلم) أى بأمر معلوم يدل على أن الله حرم شيأ من ذلك (إن كنتم صادقين) فى دعوى التحريم (و) خلق (من الابل اثنين) ذكرا وأنثى (ومن البقر اثنين) ذكرا وأنثى (قل) يامحمد لهم (آالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء) أم منقطعة أى بل أكنتم شهداء حاضرين (إذ وصاكم الله بهذا) حين وصاكم بهذا التحريم (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فنسب اليه تحريم مالم يحرم والمراد كبراؤهم المقررون لذلك وأولهم عمرو بن لحى بن قمعة المؤسس لذلك (ليضل الناس بغير علم إن الله لايهدى القوم الظالمين * قل لا أجد فيما أوحى الى) فى القرآن (محرما) طعاما محرما (على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) أى إلا أن يكون الطعام ميتة (أو دما مسفوحا) عطف على أن المصدرية ومادخلت عليه أى إلا كونه ميتة أودما مسفوحا فهذا عطف على المصدر المؤول والمسفوح المصبوب كالدم فى العروق لا كالكبد والطحال (أولحم خنزير فانه رجس) فان الخنزير أولحمه قذر لتعوده أكل النجاسة (أوفسقا) عطف على لحم خنزير (أهل لغير الله به) صفة له موضحة

وسمى ماذبح على اسم الصنم فسقا لتوغله فى الفسق (فمن اضطر) فمن دعته الضرورة الى تناول شئ من ذلك (غير باغ) على مضطر مثله (ولاعاد) أى ولامتجاوز قدر الضرورة (فان ربك غفور رحيم) لايؤاخذه على مافعل وهذه هى التى كانت محرّمة عند نزول هذه الآية * وروى مسلم عن ابن عباس نهى النبى ﷺ عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير * وروى أيضا مسلم أنه ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية * وروى البخارى ومسلم أنه ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل * وعن جابر أنه ﷺ نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه . وقد استثنى النبى ﷺ من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال * وورد فى الصحيح خمس يقتلن فى الحل والحرم وهن الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور * ونهى ﷺ عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والقرد أخرجه أبوداود . ولقد أوضحنا الكلام فى هذا المقام فى سورة (المائدة)

﴿ ذكر ماحرم على اليهود ﴾

ثم شرع يذكر ماحرم على اليهود فقال سبحانه (وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر) ماله أصبع كالابل والسباع والنعام . وكل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفرا مجازا (ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما) الثروب وشحوم الكلى (إلا ما حملت ظهورهما) إلا ما علقت ظهورهما (أوالحوايا) أوما اشتمل على الامعاء جمع حاوية أوحاوياء كقاصعاء وقواصع أوحوية كسفينة وسفائن (أوما اختلط بعظم) يعنى من شحم الالية لأنه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التى تكون فى الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال لليهود والمحرم عليهم شحم الثرب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهو حلال لهم * عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح بمكة ان الله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لاهو حرام ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك قاتل الله اليهود . يعنى أن الله لما حرم عليهم شحومها جلوه يعنى أذابوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه قال تعالى (ذلك) التحريم أوالجزاء (جزيناهم ببغيهم) أى بسبب ظلمهم (وإنا لصادقون) فى الاخبار (فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بامهاله فانه لايهمل (ولايرد بأسه عن القوم المجرمين) حين ينزل . ولما كان هذا المقام يقتضى سؤالا يرد فيقال هذه السورة جاء فيها التحريم والتحليل والايمان والكفر وقد جاء نسبة الايمان لله وقضائه كما فى قوله تعالى ـ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله الخ ـ وجاء أيضا ـ ولوشاء ربك مافعلوه ـ فالقرآن صريح أن كل هذا من فعل الله نفسه صراحة وان كان أهل السنة يقولون بالكسب الاختيارى والمعتزلة يقولون قولا آخر وهو أن الفعل للعبد وآخرون يقولون بالجبر وعدم الاختيار فكيف يكون هذا فحسن هنا أن يأتى بهذه الآية قال (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرّمنا من دونه من شئ) فكيف توعدنا يامحمد بالعقاب على الشرك وعلى التحريم والتحليل مع ان صريح القرآن أن الله هو الذى أراد هذا منا . وقد تقدّم فى هذا التفسير مرارا أن هذا العالم قد خلق على نظام بديع وانه درجات بعضها فوق بعض ومامثل النفوس الناقصة مع النفوس الكاملة والمستعدّة للفضائل التى لا استعداد عندها إلا كمثل الحيوان مع الانسان وكمثل النحاس مع الماء فالنحاس لايذوب إلا على درجة عالية والماء يذوب على درجة قريبة من الصفر ولكل منفعة فى الوجود فللنحاس منفعة وللماء منفعة وللحيوان منفعة وللانسان منفعة ولكن الغرائز المودعة فى الحيوانات . والعقول المودعة فى الانسان . والديانات التى نزلت والعلوم التى اخترعت تدعو حثيثا الى الارتقاء الى أعلى مدارك العرفان . ولذلك وجدنا الانسان علم الحيوان حتى أدّبه فركب عليه ولم يتركه على طبعه فهنا أمور عملية قام الانسان والحيوان بها فلايجوز ترك

الأشياء وطباعها بل لابد من المزاولة والعمل واخراجها من حال أدنى الى حال أعلى فعلى ذلك أمر الأنبياء أن يهذبوا الناس ليخرجوهم من ظلماتهم الى نورهم . والآباء يعلمون أبناءهم . والعلماء يعلمون الجهال لاخراجهم الى العلم . وهذا العمل هو الذى امتاز به العقلاء من الناس وليس لهم سبيل للرقى إلا به

فالأنبياء والعلماء وسائر العقلاء عليهم الجهاد فى تهذيب أنفسهم وهذه العلوم وهذه الديانات أعمال ألزموا بالقيام بها ولو تركوها لأصبح الانسان كالحيوان الاعجم ولو أن الناس قالوا كفانا ان الله هو الذى أراد كل شئ فعلام السعى لجاز لهم أن يتركوا الأكل والمشى وشرب الماء وتموت الناس فى يوم أو بعض يوم . والناس لغفلتهم يعترضون على القضاء . ولايفكرون انهم يأكلون ويشربون فلم لايتركون الأكل والشرب اتكالا على الله

إن أمثال هذا القول من الأسباب التى تسقط الأمم وتثبط الهمم ومامن أمة أخذت به إلا خربت ديارها وذهبت سدى وضاعت . وليس عذاب الآخرة تشفيا ولا أخذا بالثأر وليس إلا عملا من الأعمال التى لابد منها كما أن الماء يسيل على أدنى درجات الحرارة والنحاس يسيل على درجات رفيعة جدا عالية كما تقدم فى هذا التفسير

وهناك مصالح لانعلمها نحن ولكن اذا ارتقت عقولنا أدركت فأصبح بهذا القول عذاب الآخرة سائرا على الناموس الذى نشاهده كل يوم ونحن غافلون فمن أكل السم مات ولايعترض أحد لأنه ناموس طبيعى ومن أكل أكلا صحيا لم يمرضه . وهذه أمور مشاهدة محسوسة فالآخرة كالأولى ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ

واعلم أن أمثال هذا القول كان علماؤنا رحمهم الله يقولون ان هذا هو سر القضاء والقدر والسر الآن يجب اظهار بعضه لأن النوع الانسانى ارتقى فلابد من اظهار العلم له . ولما كان هذا القول نتيجة تكذيب القرآن قال تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى مثل هذا التكذيب لك كذبت الأمم الخالية أنبياءهم وقالوا مثل هذا القول (حتى ذاقوا بأسنا) الذى أنزلناه عليهم بتكذيبهم (قل) يامحمد لهم (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) أى هل عندكم من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه فيثبت أن الله رضى شرككم (إن تتبعون إلا الظن) فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم مالم يحرمه الله وتحسبون أنكم على حق (قل) يامحمد (فلله الحجة البالغة) البينة الواضحة فأنتم لم تطلعوا على مايعلمه الله وانما أنتم مكلفون بالأعمال فلله علمه وعليكم العمل (فلوشاء لهداكم أجمعين) اذا كنتم مستعدين للايمان وهولايشاء إلا ماهوممكن فالمشيئة لاتتعلق إلا بالامور الممكنة والوجود ليس فيه طفرة فهويهدى ويضل على حسب الدرجات ولولم تكن درجات لم يكن هذا النظام (قل) يامحمد (هلم شهداءكم) أى احضروهم وهذا الفعل لايتصرف عند أهل الحجاز ويتصرف عند بنى تميم (الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم) لأنهم فى شهادتهم كاذبون (ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى اذا وقع منهم شهادة فهى باتباع الهوى (والذين لايؤمنون بالآخرة) أى ولاتتبع أهواء الذين لايؤمنون بالآخرة كعبدة الأوثان (وهم بربهم يعدلون) يجعلون له عديلا . اهـ التفسير اللفظى

﴿ لطيفتان فى هذا المقام ﴾

اللطيفة الأولى الزهر . اللطيفة الثانية فى الكلام على المتشابه وغير المتشابه و بعض الأشجار

﴿ اللطيفة الأولى الزهر ﴾

قد جاء فى هذا المقصد قوله تعالى ـ أنظروا الى ثمره اذا أثمر ـ وقد ذكر هذا فى قوله ـ إن الله فالق الحب والنوى ـ وقد بينا هناك أن مسألة الثمر والزهر هى الشغل الشاغل للأمم اليوم فى تقسيم النبات وأن

رتبه (٢٤) رتبة . وهنا لابد من الاشارة الى أنواع الزهر تفكهة للقراء ليكون ذلك ترويحا للنفوس واظهارا للعجائب العلمية والبدائع الحكمية والمحاسن الطبيعية

﴿ جمال النبات وبهجته فى عجائب الأزهار والقاحها ﴾

كنت أودّ أن أذكر هنا عجائب الازهار والقاحها (١) وأبين تلك الزهرات التى لها شعرات تحميها فلايدخلها إلا النحل (٢) والزهر ذا المفاتيح والأقفال (٣) وذا الحارس (٤) والزهر المنظم كأنه الجند (٥) ونوعا من الشجر فيه نوعان من الزهر فيهما أعضاء ذكور وأعضاء اناث طويلات وقصيرات وللفصل مع هذين النوعين عجائب وغرائب وحكم ونظام لامحل لذكرها الآن (٦) وكيف ينام الزهر وكيف يستيقظ وما أوقات نومه وما أوقات يقظته وما العلاقة بين نوم الزهر ويقظته و بين الحشرات والنحل وكيف يستيقظ نوع الحشرات عند استيقاظ الزهر الخاص به و ينام عند نومه ليلا ونهارا وعلاقة ذلك كله بالالقاح والالقاح لسعادة نوع الانسان (٧) و بيان الزهر الأحمر والأصفر والأبيض والأزرق . وكيف كان اختلاف الألوان مناسبا لأنواع الحشرات الطائفات عليه . وكيف كان الأبيض والأصفر يناسبان وقت الغلس بعد الغروب وغيرهما يناسب النهار ولكل حشرات تعرفه

وكيف كان الزهر الذى لاجمال فيه كزهر السنط والصفصاف لايحتاج للحشرات و يكفيه الهواء . والزهر الذى جمل شكله ولونه قد احتاج للحشرات فكان ذلك الجمال معشقا لتلك الحشرات الخ (٨) والزهرة التى أعطيت من السياسة والايهام مالم يعطه غيرها بحيث يغتر بشكلها نوع من الحشرات جهالة فيقع عليها فيحصل الاهتزاز فيكون الالقاح ولاتنال الحشرة شيأ (٩) والزهرة التى يحصل القاحها بمجرد الاستدفاء بها اذ تصل لها الحشرة مستدفئة وتطير لأخرى مستدفئة وهكذا والبرد يحكم على الحشرات بالدخول ثم يضيق صدرها فتخرج فيحصل البرد فتدخل فى أخرى من نفس النوع . وفى أثناء ذلك تكون قد أخذت طلعا من زهرة الذكور ووضعته فى زهرة الاناث فحصل الالقاح والناس حولها لايشعرون

أقول كنت أود أن أبين هذا المقام وأشرح هذه الأنواع شرحا مستفيضا ولكن لايسوغ لى ذلك هنا لأنه بسورة (الحجر) أليق فانظر هذا المقام هناك واضحا جليا شارحا للصدور فى تلك السورة ان شاء الله تعالى عند قوله تعالى ـ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء الخ ـ فهناك تقرأ هذا المقام منقولا من كتابى (الزهرة) التى هى مقدمة لكتابى (نظام العالم والأمم) مترجما من كتاب اللورد (افبرى) الانجليزى المسمى جمال الطبيعة ـ والله هو الولىّ الحميد ـ اه

﴿ اللطيفة الثانية فى الكلام على المتشابه وغير المتشابه من النبات والشجر ﴾

من النبات والشجر ماورقه وثمرته متناسبات فى الكبر واللون والشكل واللمس كالاترج والنارنج والليمون والكمثرى والتفاح وماشاكلها . ومن النبات والشجر ماثمرته وحبه غير مناسبين لورقه فى الكبر مثل شجر الرمان والتين والعنب والجوز والنخل

ألاترى أن شجر الاترج مدحرج الشكل ثمرها أخضر اللون لين اللمس مناسب لورقه والنارنج مستدير الشكل مناسب لورق الشجرة . والكمثرى مخروط الشكل وكذلك ورق شجرته . والتفاح مستدير الشكل وكذلك ورق شجرته . وأما ثمرة الرمان فغير مناسبة فى الكبر لورق شجرته . وكذلك التين والعنب وغيرهما على هذا القياس

﴿ الكلام على النخل ﴾

قد ذكرت فى تفسير (الفاتحة) شيأ فى النخل ونزيد الآن فنقول

(١) كثرت عروق النخلة الضاربة فى الأرض لشدة حاجتها لها لكبر جثتها وطول قامتها وكثرة عدد

سعفاتها

سعفاتها وأوراقها لكيما تخدم فى جرم أصولها . وفى جرم سعفها . وفى جرم أوراقها . وفى ليفها . وفى جرم أكمام طلعها . وفى جرم قضبان قنوانها . وفى جرم نواة ثمرها ودبسها وشيرجها . فهذه الفروع الضاربة فى الأرض لتقسم على تلك الأنواع والأعضاء المختلفة

(٢) لماذا جعل جسم ساقها رخوا متخلخلا . ذلك لأنه لو كان غير متخلخل كالساج والسرو لعسر على القوى الطبيعية جذب تلك المواد الى أعلى النخلة فى السعف والليف وغيرهما وأيضا تلك الخيوط الدقيقة التى ركب منها باطن جذع النخلة كل خيط منها متصل بعرق ضارب فى الأرض لتوزع الغذاء على تلك العروق لتوصله الى ماخلقت له من أول الأمر

(٣) ومن أعجب العجب أن الناس يشاهدون النخلة وقد جعل عليها (ليف) كأنه مآزر مشدودة على أصول مخارج سعفاتها من أجذاعها كأنها مشمرة بها والناس يأخذونه يجعلونه حبالا لأمتعتهم لحفظها من التبدد وما علم أكثر الناس أن الليف قبل أن يلم أمتعتهم ويحفظها قد حفظ النخلة من التفرق والتشتت لأن جرمها كما قلنا رخو ومستحيل أن يثبت عليها سعف أو قنوان بل كانت لولا الليف المشدود بتحريك يسير من الهواء تتناثر وتتبعثر تلك السعفات وتقع على الأرض فلا خوص ولا سعف ولا ثمر ولا يكون على وجه الأرض نخلة مثمرة ولا ثمرة تؤكل . فتعجب ثم تعجب من الحكمة والعلم والناس فى الأرض غافلون نائمون

(٤) وهناك ما هو أعجب . ترى طلع النخلة يحفظ فى غلاف وهو (الكفرى) ليصونه من الآفات العارضة من الحر والبرد المفرطين والمطر الشديد والرياح والعواصف والغبار وغيرها لأن الطلع يخرج رطبا نديا رخصا رخوا فاذا استحكم واشتد انشقت تلك الاكمام والغلف عنها وظهرت تلك الثمرات لنسيم الهواء وحرارة الجو لتربو وتنضجها حرارة الشمس وتصير بسرا ورطبا ثم تجف وتصير تمرا

لعمرى ما أغفل الناس عما يشاهدون فى جمال الدنيا . طلع النخل يحفظه الغلاف عند ضعفه كالجنين فى بطن أمه فاذا استأهل وقوى انشق الغلاف عنه كما يخرج الجنين من بطن أمه والبيضة من الطائر عند قدرة تحملها ملاقاة الجو والاكتساب منه والعيش فيه — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت —

وهذا هو علم التوحيد . وعلم رقى الأمم . وعلم سعادة الدنيا والدين فليقلع المسلمون عن نومهم العميق وليعلموا أن هذا هو دين الاسلام . هذا هو أصل الدين . أصل الدين أن تقرأ وتدرس ماخطه الله بيده على هذه الطبيعة انه حكيم ومن هذا فلتعرف الحكمة ومن هذا فليفهم مقصد الحكيم . فى القرآن قد ذكر انه — حكيم — عشرات المرات فهذا تفسيره . تفسيره هذا الوجود . فلتفتح البصائر ولتجمل السرائر . وبمثل هذا يكون الحكماء فى الاسلام . وبهذا يكون حب الله . هذا هو سعادة الدنيا والدين

(٥) وهناك حكم أخرى مثل النسج الحريرى على النواة . ومثل الحفرة المستطيلة فى جرم النواة . ومثل النقرة التى على ظهر النواة التى منها تخرج النخلة . ومثل القمع الذى على رؤس الثمرات . فهذه وأمثالها تقدم ذكرها فى تفسير (الفاتحة) عند قوله — رب العالمين —

وبمناسبة ماتقدم من ذكر التمر وبهيمة الأنعام أذكر هنا محاورات دارت بينى و بين فلاح مصرى . وقد نشرتها جريدة (كوكب الشرق) فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٥ . وهاهى ذه

﴿ حديثي مع فلاح مصرى ذكى الفؤاد ﴾

خرجت يوم السبت (٢٩) من شهر أغسطس سنة ١٩٢٥ لاروح النفس من عناء الأعمال فى الحقول وأستنشق النسمات فى الخلوات لا القهوات والمنتديات فأسامر الزهر والشجر والزرع والثمر والحب والورق وأمتعها بالحكمة واجتلاء بدائع النظام فى مناظر الفاكهة — والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان — * قال الشاعر

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ❋ ذهب الأصيل على لجين الماء

وذلك فى المزارع النائية عن بلدة (الجيزة) و بينما أنا أمشى فى طرقات المزارع وأتأمّل ذلك الجمال الرائع اذ قابلنى (فلاح) يسقى الذرة وهو يجمع الكلأ من تحته لجاموسته فأخذ يقول أظن انك جئت هنا للنزهة واستنشاق الهواء منفردا عن الجامع والمجالس . قلت نعم وكان فى يدى إذ ذاك زهرة قطن أخذتها من حقله فسألنى قائلا ما الذى تستفيده من هذه الزهرة إذ ليس لها رائحة ذكية ولامنافع مادّية . فقلت انظر معى تعال هنا لأريك عجائبها وأعلمك بدائعها . قال وأىّ عجب فيها ونحن نشاهدها كل حين ولانرى فيها عجبا . فقلت أنظر ألست ترى ههنا ثلاث وريقات محيطات بالزهرة أتدرى مافائدتها . قال هى هكذا ر بنا يعلم أمرها . فقلت هذه تحافظ على دثار هذه العروس الجميلة وملابسها السندسية الصفراء المزدانة بلون الشفق وفى داخلها نقط حمر وقطرات العسل الحلو قد أعدت للحشرات تجتنيه

فقال عروس وملابسها . أما الملابس فهى حق انها بهجة جميلة لأنى أرى هذه الوريقات الصفراء كذلك ولكن أين العروس . فقلت أنظر هنا داخل الأثواب البيض المصفرة . أنظر هذه الأنبوبة من داخلها ألست ترى أنها حاملة حملا خفيفا فى جوفها وهى جوزة القطن . قال أرى ذلك . قلت هذا هو الرحم وهذا هو الجنين وهذه الأنبوبة هى الأنثى وهذه الأوعية الحاملات حولها حبوبا صفرا هى الذكور وتلك الحبوب الدقيقة هى الطلع الذى هو كطلع النخل وهذا الطلع به يكون الالقاح وكل نبات هكذا فيه ذكر وأنثى كهذه الجاموسة وكالانسان . إذ ذاك رأيت الرجل أخذ يظهر الدهش والتعجب و يقول عشنا ولم ندر شيأ فى الدنيا زدنى زدنى سبحان الله أهذا كله فى العلم الله يعمر الأزهر و يجعله آهلا بالعلماء الله الله إن العلم حسن جدا قل لى قل لى وهل هذا فى القرآن ياسيدنا . قلت له نعم قال الله تعالى ــ ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ــ قال (هه) لعلكم تذكرون ونحن لا نتذكر من هنا جاء الذل للناس من هنا حاقت بهم المصائب هم لايعرفون ر بهم لايعرفون شيأ من أمور دينهم ودنياهم . قال (الفلاح) أنت قلت لى ههنا عسل وهل هذا العسل للعروس تأكله والله ان العروس فى ثيابها كأجل ثياب العرائس . فقلت قد قلت لك ان العسل أعد للحشرات مثل النحل . فقال ولماذا . قلت ان الحشرات اذا نظرت لون الزهرة فانه يعجبها فتطير اليها لحسنها ثم اذا دخلتها أكلت هذا العسل وعند دخولها وخروجها تحمل أجنحتها من هذا الطلع الأصفر ونحوه فيقع منها على الأنثى التى رأيتها بعض الطلع فيحصل اللقح والنحلة لاعلم لها بما تحمله وانما هى مسخرة وقد أخذت أجرتها وهو العسل والمناظر البديعة فى الزهرات وتارة تكون الرياح هى الملقحات وحدها ولون الزهر معد لأجل الحشرات الطائفات على الزهرات وهى مغنيات كما تسمع النساء يغنين للعرائس أيام الزفاف . فقال ياسبحان الله شئ عجيب أنا الآن أريد أن أسألك عن كل شئ . فقلت له أجيبك على ما أعرفه . فقال أنت تعرف كل شئ . فقلت قليلا قال الله تعالى ــ وفوق كل ذى علم عليم ــ . قال (ياسيدنا) ماذا تقول فى الذرة . قلت هو كالقطن . قال فأين مادة اللقاح . قلت فى أعلى العود ألست تراه أشبه بشماريخ طلع النخل . قال بلى وأخذ يضرب كفا على كف وقال هو هكذا . قلت نعم هكذا قال فأين الرحم فى الأنثى . قلت أنظر الى هذه الأنابيب الشعرية التى هى سلوك حريرية ان فيها فتحات لاتراها والطلع ينزل من أعلى العود ويمرّ داخلها فتحمل بحبة واحدة فكل حبة على المطر (الكوز) من الذرة جاءت من لقح ذكر وحمل أنثى واذن يكون المطر الواحد عبارة عن قرية فيها بيوت كثيرة ومواليد بعدد الحبات المنتظمات على (القولحه) . قال هذا حق والله لانى رأيت رجال الحكومة فى مصلحة البساتين الأميرية يجعلون الذرة فى خطوط ويأتون الى الخط الذى يأتى الريح من جهته فيتركونه و يأتون الى الخط الذى تحت الريح فيقطعون أعلاه ليجيء اللقح من الأوّل الى الثانى وهما من نوعين من الذرة فيحصل صنف

جديد من الذرة بأشكال جديدة . فقلت له أحسنت أنت فهمته عملا ولكنك لم تكن قد اطلعت على سره . قال نعم

ثم قال الفلاح أنظر الى جوزات القطن فهاهى ذه قد فتحت وظهر قطنها . قلت وماذا تسأل عنه قال اسأل عن السبب فى أن القطن هكذا ظاهر واضح فأما الذرة فانها اذا نضج حبها وأينع فانه لايزال داخل الغلاف ونحن نرفعه عنه بأيدينا فأما القطن فانه يظهر للناس خارجا ليس له وقاية تقيه ولاحافظ يحفظه فالزهرة قد ذبلت ووقعت والجوزة انحلت عنه وأصبح بارزا تراه العيون وأما حب الذرة فانه يبقى محفوظا فى سنابله مخبوأ فى أماكنه . فقلت له ليس القطن ظاهرا كما تقول بل هو خاف مخبوء فكما اختبأت حبات الذرة محافظة عليها فهكذا اختبأ القطن . فقال اختبأ هاهو ذا تراه بعينك . قلت أرى الشعر وهو وقاية للبذرة فالمقصود الأعظم هو البذرة وأما الشعر فهو وقاية لها كغلاف الذرة فهناك غلاف حافظ للحب وهنا شعر القطن يحفظ البذرة التى تنبت فتصير قطنا آخر فيما بعد والغلاف فى الذرة والشعر فى القطن فى الحفظ كزلال البيضة الحافظ لمحها (صفارها) . فقال لاتدخلنى فى مسائل عويصة ولاتطوح بى بعيدا بل نبقى هنا فى الغيط ثم قال انك فتحت لى بابا عظيما وأنا سعيد جدا لهذا الكلام ان العلم حسن وعلماء الأزهر متمتعون بنور العلم فرحون به . فقلت له هذا العلم يقل من يدرسه فى مصر الآن . فقال يقل ومن اين تعرفه أنت . فقلت أنا من القليل الذين يدرسون . قال ألم يكن هذا فى الدرس وأنت قلت انه فى القرآن . قلت بلى ولكن الاهمال عظيم جدا وليس كل عالم بالدين دارسا لهذه العلوم الجميلة

ثم جاء ابنه ومعه ما كان مجموعا من (الكلأ) ليقدمه للجاموسة . فقال أسألك ياسيدنا عن هذا أيضا . قلت سل . قال ربنا جعل الحشيش للبهائم وجعل لنا الحب لأننا أفضل من البهائم والبهائم تأكله وهى قوية الجسم ومرضها اذا اعتنينا بها قليل ولكن الحب نطحنه ونخبزه والخضر نطبخها ومع ذلك تتعب من الأكل ونحس ببعض الأوجاع والمغص ونستعمل الأدوية فلماذا . قلت ان الله لما أعطاك العقل وطبخت وخبزت أعطاك أيضا معدة واحدة فقط أما هذه الجاموسة وأمثالها من الحيوانات التى تأكل الحشيش فانها لها أربع معدات اثنتان تجعلان مخزنا للطعام حين تتعاطاه الجاموسة يحفظ فيهما أحدهما تسمى (الكرش) والثانية (القلنسوة) واثنتان لهضم الطعام بعد رجوعه من الاوليين لفم الحيوان فالحيوان يسترجع ماخزنه فى الاوليين ليجتره وبعد مضغه يدخله فى الاخريين ليتم هضمه فيهما وهاتان الاثنتان أحدهما يسمونها (الانفحة) والثانية يسمونها (أم التلافيف) فالعدل قام هنا وظهر

فلما كان الحيوان لايقدر على طحن ولاعجن ولاخبز ولاطبخ أعطى أربع معدات تخبز وتطبخ له وكانت له الحرية التامة أن يخزن فى اثنتين ويمضغه بعد ذلك ثم يرجعه للاثنتين الاخريين . وأما الانسان فكفاه ماهو فيه من الأعمال الخارجية الكثيرة ولم يمنح إلا معدة واحدة . وهنا تمت المسائل العلمية بيننا وابتدأ (الفلاح) يسأل أسئلة عامة فى أحوال الأمة المصرية

فقال ألا قل لى ولماذا كان لهذه الجاموسة فى بطنها مخزنان ولماذا لم يكن الطعام متوجها الى ما تسمونه (الانفحة وأم التلافيف) مرة واحدة . فقلت هذان المخزنان جعلا لأجل هذه الحيوانات فى الجبال إذ تكون الغزالة خائفة من الأسد والنمر ونحوهما فاذا صادفت عشبا أخذت منه مسرعة ماتحتاجه وخزنته ثم أسرعت الى كناسها واستراحت وأخذت ترجعه ثانيا الى فمها وهكذا تجتر الطعام وترجعه

المرىء
الفؤاد
أم التلافيف
الانفحة
الكرش
القلنسوة
الامعاء

(شكل ٧ – رسم آلات الهضم للانعام)

للهضم فهذان المخزنان خلقا للخوف من السباع الضارية • فقال ولماذا ترى ربنا سلط السباع على هذه الحيوانات • فقلت لقد أطلت الأسئلة • فقال لا أزيد على هذا السؤال • فقلت ان السباع جعلت لتأكل لحم هذا الحيوان بدل أن يعفن فى الجوّ فيملأه بالمكروبات الضارّة فيكون الوباء والكوليرا ويموت الناس والحيوان فالآساد نعمة لانقمة وأيضا اذا مات هذا الحيوان ولامنفعة للحمه يكون عبثا فجعل لحمه للآساد والنمور والذئاب لتعيش به أفلست ترى أن الناس حين يموتون يعيش الدود فى لحومهم ويتغذى بها ذلك لأنه يراد أن يكون لكل شئ منفعة • فقال الرجل والله ان هذا كلام حسن وجيل لأنه يفتح الأعين ويشرح الصدور وانى كنت قد فرحت بك ولكن لما قلت لى ان الذين يعرفون الدين يجهلون هذا اغتممت غما شديدا واذا كان هذا قولا جيلا فلماذا لايعرفه الناس كافة وكيف يعرفون ربهم وبماذا يعرفون الله إذن • فقلت عندنا علم يسمى علم التوحيد • فقال هذا هو التوحيد • التوحيد فى معرفة فعل الله الذى أريته لى الآن • ثم قال وكيف يفكرون فى التوحيد • قلت يقولون الله واحد وهو قادر وعالم وحىّ ومريد ويقولون ان الله لولم يكن واحدا وكان له شريك لحصل هناك نزاع بينهما والغالب منهما يكون إلها قادرا فاذن لا يكون الا إله واحد • قال ولماذا يذهبون بعيدا الله واحد وهو ظاهر فى فعله جعل الذكور والاناث فينا وفى البهائم وفى شجر القطن والذرة فلوكان الخالق غيره لكان العمل مختلفا فالعمل هنا يجرى بطريقة واحدة منظمة وأما هذا الكلام فالاقتصار عليه تقصير فى العلم وفى الدين وضياع للعقول وغرور كبير • ثم قال يظهر لى ان الناس أغمضوا عيونهم ولم يعلموا • قل لى قل لى هل واحد فى الدنيا يعرف هذه الأشياء معرفة عامة • قلت هم الفرنجة • قال تعنى الخواجات • قلت نعم هم يدرسون هذا ويعرفونه قال ولكن أنت تقول ان ديننا يطلبه • قلت نعم ولكن الغفلة استحكمت • فقال أنا فهمت الآن • قلت ماذا فهمت • قال فهمت أننا فى الفلاحين مثلكم تماما فالفلاح منا يرى هؤلاء الأجانب يزرعون زرعا منظما وينظمون الطرق ويأتون بأشجار غريبة ونحن ننظر لهم ولانفكر فيما يعملون ويقول الرجل منا هذا يحتاج لنقود كثيرة واذا صرفنا فنحن لسنا عن يقين من المكسب وهؤلاء أغنياء ونحن فقراء ونقول هذا ماوجدنا عليه آباءنا فالابن يتبع أباه وهؤلاء يرتقون فى بلادنا ويملكون أرضنا ونكون نحن عندهم مأجورين عاملين لاغير فأظن انكم أنتم مثلنا يخاف كل واحد منكم على مركزه ووظيفته ويقول لوانى جعلت النظام على الطريقة النافعة لكرهنى الناس ولقاموا علىّ قومة واحدة فيبقى تعليمكم عقيما وتعلمون الناس ألفاظا يحفظها الابن عن الأب والتلميذ عن الاستاذ وهكذا طبقا عن طبق وربنا لايرضى عن الناس قط اذا فعلوا هذا فالأجانب ملكوا أرضنا بجهلنا وأنتم أيضا بعلمكم المعوج ضيعتم البلاد والعباد والله يسألنى عما أقول أن احتلال البلاد وضياعها ناشئ من جهل القائمين بالأمر من رجال الدين وغيرهم • نحن نستحق المدافع والطيارات والموت مادام كل واحد منا يقول مالى وللمسلمين فنحن وأنتم فى هذه المسؤلية سواء بسواء

أنظر ياسيدنا ان مصلحة (البساتين) كانت تعمل كل يوم تجارب وهذه التجارب تأتى بأنواع جديدة ونظامهم أحسن من نظام الأجانب ثم ان الفلاحين لايقلدون هذه المصلحة واذا كان للفقراء عذر فلماذا نرى الأغنياء عنها ساهين لاهين فأنا أظنّ انكم مثلنا تماما أهملنا وأهملتم وضيعنا أرضنا وضيعتم أنتم عقولنا

ولكن ياسيدنا أنت تقول ان علماء الدين لايقرؤن هذا • فقلت كانوا يقرؤنه أيام المغفور لهم (اسماعيل باشا وتوفيق باشا) وأوائل الاحتلال وبعد ذلك حذف من البلاد بالتدريج • قال حذف من المدارس • قلت نعم • قال لأجل أن تقفل الأعين جميعا • أعين رجال الدين ورجال الحكومة ولكن كيف ياسيدنا تقول هذا القول مع انى أخبرتك أن رجال البساتين يقطعون أعلى الذرة ليعملوا تجارب وهذا يدل على أنهم يعرفون مسألة اللقح فلابد انهم يعرفون فكيف تقول انهم لايعرفون • فقلت هؤلاء هم علماء هذا الفن وطبعا

يعرفونه

يعرفونه أحسن منى أنا ومن غيرى ولكن هذه معرفة لأجل الصناعة لا انها لأجل الاستنتاج العقلى منها فما أتكلم معك فيه وكان يجب أن يكون جميع رجال الدين وتلاميذ المدارس عارفين هذه الامور معرفة تامة لترقية عقولهم . فأما رجال البساتين ومصلحتها فهم أشبه بالأطباء يبحثون عن الزراعة كما يبحث أولئك عن المرض فهذا بحث خاص . قال الآن فهمت وصدّقت قولك يعنى ان هذا العلم ليس معمما فى المدارس قلت نعم وسيعم من الآن . قال ومن أين جاء لك . قلت انهم تنبهوا لهذه الامور الآن . قال تنبهوا هذا لا يكفى ياسيدنا أنت حرام عليك ان لم تقل لهم هذا القول واياك أن تكون خائفا كالذين يخافون وان هذا الكلام الذى قلته ينفع كثيرا . وصار يقول سألتك بالله أن تقول لهم هذا القول ولوكنت بدلك لكنت ملأت المجالس بهذا وكتبت فى الجرائد . فقلت له سأكتب كل ماجرى بينى و بينك اليوم فى الجرائد السيارة ومتى كتب أحضر اليك هنا وتسمعه . قال وهل تعاهدنى على ذلك . قلت أعاهدك . قال الآن انشرح صدرى وهذا العمل يرقى الناس ترقية عامة . انتهى حديث (الفلاح) ولقد أحببت أن أكتبه لأن العامة أقرب الى الفطرة فوجدانهم وشعورهم مقتبسان من النور الالهى — إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار — .
انتهى الكلام على المقصد الخامس

(المَقْصِدُ السَّادِسُ)

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ

فى أيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون * إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون * قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(قل تعالوا) أى هلموا أيها القوم (أتل) أقرأ (ماحرم ربكم عليكم) حقا يقينا لاشك فيه وليس كما تزعمون من تحريمكم للبنى على الأهواء بل هذا نزل به الوحى علىّ ثم قال المتلو (ألا تشركوا به شيأ) من الشرك (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق) من أجل فقر ومن خشيته كقوله فى آية أخرى ـ خشية املاق ـ (نحن نرزقكم واياهم) يقول لاتئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فانى رازقكم واياهم فالله تكفل بالرزق فعلى الآباء القيام بالتربية (ولا تقربوا الفواحش) كبائر الذنوب (ماظهر منها ومابطن) بدل من الفواحش أى علانيتها وسرّها (ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله) واعلم أن جميع الفواحش الظاهرة والباطنة لا استثناء فى تحريمها كالزنا والغصب والسرقة وما أشبهها. أما القتل فقد يكون لقصاص أولزنا الثيب أولترك الدين بالردّة لذلك أفرد بالذكر لينص على الاستثناء بقوله (الا بالحق) المذكور من هذه الثلاثة ونحوها (ذلكم) ماذكر من الأوامر والنواهى (وصاكم به لعلكم تعقلون) لكى تفهموا مافى هذه التكاليف (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) أى بالفعلة التى هى أحسن مايفعل بماله كحفظه وتثميره (حتى يبلغ أشدّه) حتى يصير بالغا والأشد جمع كنعمة وأنعم (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بالعدل والتسوية (لاتكلف نفس الا وسعها) الا مايسعها ولايعسر عليها فليس ايفاء الكيل والميزان الا بما فى الطاقة أما الامور المعسرة فقد عفى عنها لأن التكليف بما فى الطاقة والوسع (واذا قلتم) فى حكومة ونحوها (فاعدلوا) فيها (ولو كان ذا قربى) ولو كان المقول له أوعليه من ذوى قرابتكم (وبعهد الله أوفوا) يعنى ماعهد اليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تتعظون به (وان هذا) المذكور فى هذه السورة بأسرها من اثبات التوحيد والنبوّة وبيان الشريعة وعجائب الخلقة من السموات والأرض والجنات المعروشات وغير المعروشات وبدائع الحكمة الالهية والأنوار والظلمات والنظر فى الثمر اذا أثمر والنهى عن قتل الأنفس والمحرمات بأسرها وماشا كل ذلك وكذلك جميع أحكام الشريعة وكل مابينه الرسول وورد فى القرآن من دين الاسلام (صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى (فتفرق

بكم

بكم) أى فتفرقكم وتميلكم (عن سبيله) الذى هو اتباع الوحى والبرهان (ذلكم) الاتباع (وصاكم به لعلكم تتقون) السبل والضلال والتفرق عن الحق • ولما أتم الكلام على المحرمات والتوصية بتركها شرع سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ (ثم) أخبركم أنا (آتينا موسى الكتاب تماما) للكرامة والنعمة (على الذى أحسن) أى على من أحسن القيام به من أمته كما أنزلنا القرآن كذلك اتماما للنعمة والكرامة على كل من أحسن القيام به وحافظ على أوامره وترك نواهيه كالذى ورد فى هذه السورة من الأوامر والنواهى والارشادات للجمال والبدائع التى أحسنها الله وزينها للناظرين (وتفصيلا لكل شئ) أى تماما للنعم على المحسنين وبيانا مفصلا لكل مايحتاج اليه فى الدين (وهدى ورحمة لعلهم) أى لعل بنى اسرائيل (بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب) أى القرآن (أنزلناه مبارك) كثير النفع (فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه وانما أنزلناه ولم نكتف بالتوراة والانجيل كراهة (أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) اليهود والنصارى وانما لم يذكر الكتب السماوية الأخرى لأن العرب لايعرفون غيرهما (وان كنا) ان هى المخففة من الثقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة فى خبر كان أى وانه كنا (عن دراستهم) قراءتهم (لغافلين) لاندرى ماهى أولا نعرف مثلها (أو تقولوا) عطف على الأول (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وكيف لا يكون كذلك ونحن على أميتنا حفظنا تاريخنا بأشعارنا وعرفنا الأنواء والنجوم والمنازل بحدة أذهاننا ولنا قوة جلد وصبر نقتحم بهما المهالك وننشر العرفان فى أنحاء الكرة الأرضية فنصل الى الهند والصين وأوروبا وننشر علمنا فى العالمين ثم قال الله تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) لمن تأمل فيه وعمل به (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله) بعد أن عرف صحتها وتمكن من معرفتها (وصدف عنها) أعرض أو صد عنها فضل وأضل (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) شدته (بما كانوا يصدفون) باعراضهم أو صدهم (هل ينظرون) أى ما ينتظرون (إلا أن تأتيهم الملائكة) ملائكة الموت أو العذاب (أو يأتى ربك) أى كل آيات ربك أى آيات القيامة والعذاب والهلاك الكلى (أو يأتى بعض آيات ربك) أى أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها * قال رسول الله ﷺ ثلاث اذا خرجن لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض • أخرجه مسلم * وروى البخارى ومسلم أنه ﷺ قال لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها * وفى رواية فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا * وفى رواية عن مسلم أن هناك عشر آيات الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس الى محشرهم قال تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها) كالمحتضر اذا صار الأمر عيانا والايمان برهانا (لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا) والمعنى انه لاينفع نفسا حينئذ ايمانها غير مقدمة ايمانها أو مقدمة ايمانها غير كاسبة فى ايمانها خيرا * قال الضحاك من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع ايمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك • فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا فانهم لاينفعهم ايمانهم • ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التى تضطرهم الى الايمان والتوبة • قال الله تعالى (قل انتظروا) أى انتظروا ماوعدتم به من مجىء الآية ففيه وعيد وتهديد (إنا منتظرون) ماوعدكم به ربكم من العذاب يوم القيامة (إن الذين فرقوا دينهم) كاليهود الذين افترقوا احدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية الا واحدة وكالنصارى افترقوا اثنتين وسبعين فرقة وهكذا المسلمون فرق كثيرة (وكانوا شيعا) فرقا وأحزابا

(لست منهم فى شئ) أى فى شئ من السؤال عنهم وعن تفرقهم أومن عقابهم (انما أمرهم الى الله) يتولى جزاءهم ولـكن لما نزلت آية السيف قاتلهم (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) بالعقاب (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أى عشر حسنات أمثالها فضلا من الله سبحانه وتعالى وسبعون وسبعمائة و بغير حساب كما فى آيات أخرى فالعشر اما أقل العدد المضاعف واما المراد بها الكثرة بلانظر لنفس العدد الخاص (ومن جاء بالسيئة فلايجزى إلا مثلها) أى فى مقابلتها (وهم لايظلمون) بنقص الثواب وزيادة العقاب (قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم) بالوحى والارشاد الى مانصب من الحجج (دينا) بدل من محل صراط لأن المعنى هدانى ربى صراطا مستقيما (قيما) فيعلا من قام كسيد من ساد أوقيما فى قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى على أنه مصدر نعت به وكان القياس أن يقال قوما كعوض فاعل لاعلال فعله كالقيام (ملة ابراهيم) عطف بيان لدينا (حنيفا) حال من ابراهيم (وما كان من المشركين) عطف عليه (قل إن صلاتى ونسكى) عبادتى كلها (ومحياى ومماتى) أى وحياتى وموتى واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وسائر أفعاله لايشاركه فيها أحدمن خلقه وهذا هو قوله (لله رب العالمين * لاشريك له و بذلك أمرت) يعنى قل يامحمد وبهذا التوحيد أمرت (وأنا أول المسلمين) وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره (قل) يامحمد لهؤلاء الكفار (أغير الله أبغى ربا) أى سيدا أو إلها (وهو رب كل شئ) سيد كل شئ ومالكه لايشاركه فيه أحد (ولاتكسب كل نفس إلاعليها) أى ان اثم الجانى عليه لاعلى غيره (ولاتزر وازرة وزر أخرى) أى لاتؤاخذ نفس آثمة باثم أخرى أولاتحمل نفس حاملة حمل أخرى ولايؤاخذ أحد بذنب أحد (ثم الى ربكم مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعنى فى الدنيا من الأديان والملل (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) أى جعلكم يا أمة محمد خلائف فى الأرض فان الله أهلك من قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم فى الأرض تخلفونهم فيها أوخلفاء الله فى أرضه تتصرفون فيها وعلى هذا يكون الخطاب عاما لكل الأمم ثم قال (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فى الغنى والشرف (ليبلوكم فيما آتاكم) من الجاه والمال وغيرهما أى يعاملكم معاملة المختبر والمبتلى فيبتلى الغنى بغناه . والفقير بفقره . والعالم بعلمه . والشريف بشرفه . والوضيع بدناءته . والعبد والحر من جميع أجناس خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب لأن العبد إما أن يكون مقصرا فيما كلف به واما أن يكون موفيا ما أمر به فالمقصر يخوف ويرغب فلذلك قال (إن ربك سريع العقاب) لأن ماهو آت قريب (وانه لغفور رحيم) أى لذنوب أهل طاعته . انتهى التفسير اللفظى

يقول الله فى هذا المقصد اياكم والاشراك بربكم ثم أطيعوا الوالدين واستوصوا بأولادكم خيرا فلاتقتلوهم خيفة الفقر وكأنه تعالى لما أمر الناس باعظام الخالق فالوالد فتربية الولد قد أتم هذا النظم وهو اعظام من فوقنا والرحمة بمن تحتنا أخذ يأمرنا بترك الفواحش الظاهرة والباطنة فكما راعينا بالعبادة والاجلال من فوقنا وبالرحمة من تحتنا هكذا يشملنا تجمل الظاهر والباطن من أحوالنا بالتباعد عن سيآت الامور . هذه أول وصية

فأما الوصية الثانية فهى المعاملة مع الناس فلا نأكل مال اليتيم ونلاحظه كما نرحم أبناءنا ونزن ونكيل ونقول بالحق فلانطفف المكيال والميزان ولا نظلم فى أقوالنا ونشهد بالحق على الأنفس والأقارب

فأما الوصية الثالثة فهى أن لا نعدل عن هذا الصراط الذى فى هذه الآيات وفى هذه السورة وفى القرآن كله فاذا اتبع كل فريق هواه ضل وغوى ووقع فى الهاوية . ولما أتم الوصايا الثلاث شرع يخبرنا عن سبيل الديانات قديمها وحديثها وذكر أهم القديم وهودين موسى عليه السلام وأهم الحديث وهو دين محمد ﷺ الذى أمرنا بأن نتبعه فلا نعدل عنه فقال أيها الناس قد آتينا موسى كتاب التوراة لنتم النعمة على من أحسن القيام به علما وعملا وفصلنا فيه البينات والهدى وجعلناه رحمة عسى أن يوقن أتباعه بلقاء ربهم . هكذا أنزلنا القرآن فاتبعوه فليس محمد بدعا من الرسل . أيها الناس ليس لكم اعتذار فلا تقولون قد أنزلت التوراة

والانجيل على غيرنا فكيف تعذبنا ونحن غافلون عن دراستهما مع اننا أذكى أذهانا . وأحدّ أفئدة . وأقوى قلوبا وأشجع وقد صدق وعدنا ووعيدنا وصبرنا فى البأساء والضرّاء فقوى بأسنا فلونزل علينا كتاب لرفعنا به الأمم الأرضية ولطرنا به فى الشرق والغرب ولهذبنا الأمم وهديناها وربيناها وأدّبناها . فهاهوذا القرآن قد أزال اعتذاركم بارشاداته القيمة البليغة فمن أعرض عنه أوصدّ الناس عن اتباعه جازيناه سوء العذاب

فاتبعوا القرآن ولاتتبعوا الأهواء فلم يبق لكم عذر واحذروا التفريق ولاتكونوا كالأمم السالفة ومن لم يتبع هذه النصائح من الأفراد والأمم فانهم لامحالة واقعون فى العذاب الأليم

﴿ عجيبة من عجائب القرآن فى هذه الآيات ﴾

وهى ـ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا ايمانها الخ ـ الآية

اعلم أن كل عمل له وقت خاص فاذا تجاوزه لم ينفع العمل . ألاترى رعاك الله أن لكل زرع وشجر وقتا محدودا وزمنا معينا فتى جاوزه لم يفلح زرعه ولم يثمر . هكذا ترى بنى آدم انما يكون تعلمهم وقت الصغر فاذا كبروا صعب التعلم . وهكذا الأدب لايفيد الا صغار السنّ ومتى جاوز السنّ لم يفد . هكذا جميع أعمال الحياة فى هذه الدنيا لها أوقات معلومة متى جاوزتها لم تكن لها فائدة

فلننظر نظرة فى أهل الأرض فى الفرد والأمة والكرة الأرضية كلها فاذا لم تكن الأخلاق والآداب والعلوم للفرد فى حال تمكنه وذهب وقت ذلك وحلّ الموت فلايفيد الايمان ولاالعلم ولاالأخلاق . ان الانسان يحشر على مامات عليه فاذا رأى الحقائق عند الموت وهو قد مات ولاعلم عنده ولاأخلاق فأىّ قوّة له على الطيران فى تلك الباحات الشاسعة والأماكن العالية . وكما لاينفع سقى القطن بعد أن عطش أيام اثماره فلا اثمار بعد فوات سقيه فى أيام الاثمار . هكذا لا فائدة من ظهور الحقائق للذى مات ولاعلم ولاعمل ولاأخلاق وانما يكون فى حسرة وحزن على ضياع زمانه بلافائدة جناها ولاأعمال زاولها

وكما رأيت الفرد ترى الأمة فانها ان لم يقم كلّ فيها بما استعدّ له من علم أوصناعة أوعمل ضاقت عليها الأرض بما رحبت وأسرعت اليها الأمم من كل جانب . وكذلك اذا تفرّقت أهواؤها فان العدو يغير عليها كما حصل فى الأزمان الغابرة أيام هجم المغول والتتار وهما الأمتان المجاورتان للبلاد الصينية وهم المسمون (يأجوج ومأجوج) فى كتب الجغرافيا القديمة كما يتضح لمن اطلع على خريطة كتاب (اخوان الصفا) فانه يرى أن تلك البلاد تسمى (يأجوج ومأجوج) . فى ذلك الوقت هجم (جنكيزخان) على الأمم الاسلامية لما قتل (قطب أرسلان) رسل (جنكيزخان) الذين أرسلهم للتجارة فى بلاد الاسلام ولم يستحل جنكيزخان ذلك الهجوم إلا بعد أن أرسل خطابا لقطب أرسلان وسترى نصه فى سورة (الكهف) نقلته عن كتابى المسمى (نظام العالم والأمم) وهذا الكتاب فيه طلب المبادلة والمعاملة . ولما قرأ قطب أرسلان الخطاب قطع آذان الرسل فحينئذ صام (جنكيزخان) ثلاثة أيام لم يذق فيها الطعام وقال يا ألله أردت عمارة أرضك ولكن المسلمون هم الذين أرادوا خرابها ثم هجم الهجمة التى مزقت الاسلام شرّ ممزق فلم تقم للدولة قائمة إلا قليلا وخربت بغداد بعد ذلك خربها (هولاكو) من أعقاب جنكيزخان . هكذا ترى دولة الأندلس إذ فسق المسلمون هناك بعد واقعة بغداد بنحو (٣) قرون وتقاطعوا وتدابروا وأباحوا التجارة بلاقيد ولاشرط فشربوا خمر الفرنجة ولبسوا ملابسهم . وتعلموا فى مدارسهم . فتفرّقوا شيعا . وذاق بعضهم بأس بعض . وكانت شروط الهدنة بين بارونات أوروبا ودوق فينيزيا والبابا من جهة وبين ملوك الاسلام فى الأندلس من جهة أخرى أن التعليم حرّ والتجارة حرة والدين حر فتوغل الأسبانيون فى بلاد الاسلام إذ ذاك وسقوهم الخمر وعلموهم التنعم بلبس الحرير والترف والفسوق والخلاعة واستداتوا وتقامروا خاصروا الشبان الشابات فى الحارات وعلى قارعة الطريق

وخلعوا العذار وحقروا مجد العرب ودينهم وصاروا يقرؤن علوم أسلاف الأسبانيين وآدابهم وتاريخهم فأصبحت مدارس الاسلام خاوية على عروشها وصار الناس مسرفين شرهين جاهلين خفت عليهم كلة ربك فأخذهم العذاب من حيث لايشعرون وحقت عليهم آية ـ إن الله لايحب المسرفين ـ وهؤلاء أسرفوا فى الأموال والخلاعة فاستعبدهم الأسبان فقام الملك (فرديناند) والملكة (ايزابله) فأفنوهم وطردوا من بقى الى أفريقية ذلك لأنهم تفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وصار لكل منهم وجهة هو موليها حتى ان أحد ملوكهم لما استغرقوا فى الفسوق اصطاد فتاة أورنجية من أبيها فشكا أبوها الى ملك آخر من ملوك الاسلام هناك فأرسل هذا الملك الى الأول الذى هو ابن ذى النون أن أقلع عن خطتك وارجع الفتاة لأبيها وكيف تكون زانيا فرد عليه جوابا شديدا فقامت بينهما الحرب وساعد الفرنجة ذلك الملك المنتصر للفتاة وضربوا الأمير ابن ذى النون وعملت هناك ليال راقصة فرحا بانتصار الاسلام والنصرانية معا على ابن ذى النون الذى فسق وغوى . هذا هو سبب خراب دول الاسلام قديما والى الآن نرى آثار ذلك فى الأعقاب فان المسلمين اليوم متفرقون شيعا وقد ذاق بعضهم بأس بعض ـ وكل حزب بما لديهم فرحون ـ فان الفرنجة يعلمون الناس تحقير الديانات والآداب والأخلاق الشرقية وهم قائمون بدياناتهم عاكفون على كنائسهم يريدون أن يصدونا عن عوائدنا وأخلاقنا ليضعوا أيديهم علينا ونحن صاغرون ولم يتفطن لذلك إلا طائفتان وهم أهل (الهند) فقد منعوا المنسوجات الأجنبية من بلادهم واخواننا (الترك) فانهم فى هذا الشهر (مارس سنة ١٩٢٥) قد حرموا تدريس الديانات غير الاسلام فى بلادهم وهذا أول ماتنبه الشرقيون للخطر الداهم . فاذا سمعت الله فى القرآن يقول فيما نحن بصدده هل ينظرون الا أن تأتيهم ملائكة الموت فيقبضون أرواحهم أو يأتى بعض آيات ربك وقد فسر فى الصحيحين معا بطلوع الشمس من مغربها . فاعلم أن موت الانسان كهلاك الناس كلهم فاذا طلعت الشمس من مغربها فذلك من أشراط الساعة وخراب الأرض فاذا مات انسان فلاينفعه ايمانه اذا عرف الحقيقة واذا هلك أهل الأرض كلهم فلاتوبة لهم بعد الموت . واذا سمعت حديث مسلم وقد روى أن آيات ربك عشرة وذكر منها أنواع الخسوف وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ابن مريم وخروج الدابة ونحو ذلك مما تقدم ايضاحه فى غير هذا المكان فلتعلم أن ذلك راجع الى طلب الشئ بعد فواته

ألاترى أن خروج يأجوج ومأجوج الذى أوضحته فى كتاب نظام العالم والأمم وستراه فى سورة الكهف قد كان خرابا على الاسلام كما أجلته لك سابقا وقس عليه ماذكر من الخسوف فانه لم يخرج عن اهلاك الأنفس التى خسفت الأرض بهم فكيف يفيد ايمانها بعد ذلك . فأصبحت آيات الله عبارة عن الانقلاب الذى يحصل فى الأمم أوفى الأرض كلها كخراب دولة كخراب الأرض كموت انسان

﴿ عموم القرآن للأمم ﴾

ولما كان القرآن لم ينزل لأمة خاصة بل لعموم أهل الأرض جاء ذكر هذه الأمور عامة حتى يأخذ كل من أهل الأرض منها بقدر طاقته وأن المسلم كما ينظر فى أمر نفسه ينظر فى أهل وطنه ودينه وينظر فى أمر الامم كلها فلذلك ترى المذكور فى حديث مسلم عبارة عن أمور عامة لاتخص أمة مما يدل أن المسلم يعنيه النظام العام

وملخص آيات ربك فى هذا المقام ما يكون من الأمور الموجبة لفوات الفرصة فالموت والانقلاب العام فى دولة وخراب الأرض كلها متساوية فى هذا المعنى

﴿ وضوح معنى الآية ﴾

فكأن الله يقول أيها الناس احرصوا على العلم والدين والأعمال الصالحات قبل الفوات وعلى كل امرئ أن يهذب نفسه ويسعى فى تعليم أمته لئلا تضل فهلاك الفرد لاينفع بعده ايمانه وكذلك هلاك أمته يكون سبب هلاكه لأن المصائب تعم . واذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خربت دورهم لأن الأمة

كالفرد الواحد فليكن المسلم مهذبا لنفسه هاديا لأمته فان لم تفعلوا ذلك ولم تكونوا على سبيلى فانتظروا معاينة العذاب بموت الأفراد منكم أوانتظروا ماسيحل بكم من تفرق الأهواء حين يخرج (يأجوج ومأجوج) ويقتلون الفرس والعرب الذين هم مسلمون وكذلك تقوم الفرنجة على المسلمين فى الأندلس وهكذا انتظروا الانقلابات العظيمة فان هذه كلها ستحصل واذن لاتنفع التوبة ويذل المسلمون - فانتظروا انا منتظرون - ولذلك أعقبه بقوله - إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ - معناه أنت منهم برىء وهم منك براء . تقول العرب ان فعلت كذا فلست منك ولست منى أى كل واحد منا برىء من صاحبه . هكذا هنا يقول الله ان أمتك يامحمد حين تتفرق أهواؤها وتختلف أحوالها وتصبح شيعا ويقوم كل قوم ضد الآخرين فانك برىء منهم وانتسابهم لك لايجديهم نفعا . ولقد صدق الله وعيده فان ابن العلقم وزير المستعصم هوالذى سهل لهولاكو دخول بغداد انتقاما من المستعصم الذى كان (سنيا) والوزير (شيعى) واحتل (يأجوج ومأجوج) البلاد فلم يرحموا (سنيا ولا شيعيا) فحاق الخراب بالأمم الاسلامية لما تفرقوا شيعا . هذا معنى قوله تعالى - لست منهم فى شئ - وليس معنى ذلك انهم كفار بل ذلك معناه انهم يعاقبون بما يستحقون لمخالفتهم صراطك المستقيم لأن شريعتك قائمة على قول الحق والعدل واقامة الميزان فى كل شئ واعظام الكبير ورحمة الصغير فاذا تحولت أمتك عن الجادة نزل بها العقاب ولا تقصير منك فلا تثريب عليك فقد بلغت ونصحت

﴿ جواب اعتراض ﴾

لقد اطلع على هذا القول أحد الفضلاء . فقال هذا حمل للآية على معنى بعيد جدا وما لهذه الآية والخراب ببغداد وخراب الأندلس ومالك تذهب بالمعانى الى مالاتحتمل الآية فقل لى بالله كيف يثق الناس أن هذا هو معنى الآية . كلا والله ان هى الا معان قامت بذهنك فأوردتها فى هذا المقام كأنها معنى وليست بمعنى وياليت شعرى كيف تذكر هذا وانه لبعيد . فقلت أيها الفاضل أنا لست بدعا فى هذا التفسير ولم آت به من عند نفسى فهل اذا أسمعتك أنه تفسير النبى ﷺ نفسه تكون مقتنعا بذلك . قال نعم . قلت فاسمع قال أبوهريرة رضى الله عنه فى هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروى ذلك مرفوعا قال قال رسول الله ﷺ - إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ وليسوا منك - هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة أسنده الطبرى . فهذا حث للمسلمين على الاتحاد * وروى عن عمر ابن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لعائشة - إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا - هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة ذكره البغوى عن العرباض بن سارية . وفى هذا المقام ذكر المفسرون الأحاديث التى تحض على الاتحاد وما أخرجه أبوداود والترمذى من وعظ النبى ﷺ أصحابه حتى وجلت القلوب وأمرهم بالسمع والطاعة ولو ولى عليهم عبدحبشى وأمر أن تتبع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده وقال اياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة * وفى أحاديث أخرى أن اليهود افترقت والنصارى افترقت كما تقدم وأن هذه الأمة ستفترق (٧٣) فرقة الى آخر ماتقدم فهذا كله يدل أن مسألة الآيات فى قوله - يوم يأتى بعض آيات ربك - الى آخر ماتقدم يرجع الى ممالك الأمم الاسلامية الذين تفرقوا شيعا وذلوا

﴿ رأى المفسر ﴾

وأرى أن هذه الآيات أكبر عبرة فى الدين الاسلامى ذلك أن تفرق المسلمين انما جاء للجهالة الشائعة بينهم ولوأن علماءهم أفهموهم أن دين الاسلام ليس خاصا بالمسائل الفقهية بل هو يشمل جميع العلوم لأصبحوا أمة واحدة ولكن الجهالة العمياء والبلاهة الكتعاء وظلم الملوك والأمراء وجهل بعض علماء الدين الذين لايعرفون من هذا الدين الا أحكام الفقه التى لاتزيد على مائة وخمسين آية . كل ذلك هو الذى حصر عقل المسلم فى عناد

أخيه حتى كره كل صاحب مذهب الآخر ولو أنهم عرفوا أنهم يجب أن يكونوا أعلم الأمم بالعلوم العلوية والسفلية ففي القرآن (٧٥٠) آية في الأخلاق و (٧٥٠) آية في العلوم الكونية لوعرفوا ذلك لرأوا أن الاختلاف في أحوال قليلة جدا والاتحاد في أمور كثيرة فاذن يتحدون

ولكن أقول أن عمر الاسلام لم يزد عن (١٣) قرنا إلا قليلا وهذا العمر في الديانات أشبه بالطفولة للانسان ولقد جاء زمن المراهقة للاسلام وسيكون في المستقبل من المسلمين فطاحل العلماء في العلوم العلوية والسفلية لا الفقهية وحدها واذن يرتقي المسلمون ويكونون حاملي ألوية السلام وذلك بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات علماء الاسلام في الأقطار الاسلامية

هذا ولما كان المسلم لايم نفعه إلا بالاخلاص أعقب هذا القول بما يفيد ذلك فبدأ بالحسنات وانها تضاعف للمحسن وأكمل القول بالاخلاص اشارة الى أن الحسنات لاتكون إلا بالاخلاص كما أن الاتحاد لا يكون الا بالاخلاص فلذلك قال ـ انني هداني ربي الى صراط مستقيم ـ وهو الدين القيم الذي كان عليه الخليل عليه السلام وصلاتي وعبادتي وحياتي ومونى • كل هذه مسلمة ـ لله رب العالمين ـ وأنا بذلك مأمور ـ وأنا أول المسلمين ـ ثم أفاد انه رب كل شئ وأن النفس لاتحمل الا ذنبها وكل لله راجعون

ثم ختم السورة بقاعدة عامة وهي ان الناس جميعا في الأرض ممتحنون مختبرون فلاينجو مسلم باسلامه من الاختبار ولا صالح ولاطالح بل جميع الناس سواء في ذلك • فاذا عوقبت أمة من الأمم الاسلامية أوأفراد فذلك لايمنعه الاسلام لأن كل نفس تحمل ذنبها وعدل الله حق على الجميع فالناس كلهم خاضعون لتلك القوانين العادلة الالهية •

واذا كان الله سريعا عقابه فليس معنى هذا أنه يتمادى في غضبه فالأمة التي ترجع الى ربها تقبل وترق ولذلك ختم بقوله ـ وانه لغفور رحيم ـ فاذا اتعظ المسلمون بأسلافهم وتعلموا وعرفوا علوم الأمم وعلوم العوالم فانهم يسودون أهل الأرض ولا يكونون كالمسلمين أيام (قطب أرسلان) اذ جهلوا قوة المغول والتتر لنومهم على مهاد الراحة لأنه ثبت أنهم كانوا يجهلون قوة جيرانهم فاحتقروهم فما شعروا الا وطلائع القوم قد حلوا بساحتهم فأبلوا بلاء حسنا فعرف المسلمون أنهم جاهلون بمن حولهم وأيقنوا بالهلاك فدهمهم التتر والمغول وخربوا المدن تخريبا تاما وقتلوا كل نفس كما تقدم

فعلى المسلمين أن يعلموا أن تفرقهم لأنهم جهال نائمون غافلون وأن الأمم الاسلامية الماضية كان بعض علمائها أشبه بالأميين لايعرفون من العلوم الشرعية إلا الفقه وصرفوا الناس عن علوم جمال السموات والأرض ففتنوا المسلمين وناموا نومة أهل الكهف في الجهالة العمياء والبلاهة الكتعاء فعذبهم الله بالذلة فليعتبر المسلمون الحاليون واني موقن أنه ظهر فيهم مصلحون وما أكثر المصلحين اليوم في الاسلام •

واني أسأل الله أن يجعل كتابي هذا من مبشرات الرقي في الاسلام بل أقول انه سيكون كذلك • وهذا أوان الرقي فلا بشر به المسلمين وليكونوا من مستقبل أمرهم على يقين ـ ولتعلمن نبأه بعد حين ـ

﴿ جوهرة مشرقة ﴾

بعد أن ختمت تفسير هذه السورة رأيت أن قوله تعالى ـ يوم يأتي بعض آيات ربك ـ يحتاج الى زيادة ايضاح فهاك ما وقر في النفس بعد ماتقدم • فأقول

اعلم أن هذه الأحوال كلها أوجلها قد ظهر في هذه الأرض وقد قلت فيما تقدم ان مرجعها كلها المفاجأة بالهلاك ونتيجة ذلك أن تكون الأمم والأفراد مستيقظين للأعمال النافعة في الدنيا والدين فان الموت يأتي فجأة وكذلك الأحوال العامة التي تحل بالأمم

(١) فاذا جاء في الحديث الذي أجمع عليه البخاري ومسلم أن الشمس اذا طلعت من مغربها لم تقبل

التوبة فذلك للفاجأة التى تصيب الناس من ظهور الحقائق بالبلاد الأوروبية حيث تغرب الشمس فان العلوم لما ظهرت وبهرت وكانت أمم الاسلام لايعرفون إلا العلوم الفقهية مدّة قرون جاء لهم أهل الغرب فأذلوهم وقتلوهم وابتدؤا بذلك بالأندلس ثم تخطوا ذلك الى بلاد الشرق وهانحن أولاء نراهم يحرقون القرى ويهلكون أهلها ولايرحمون صغيرا ولا كبيرا . فالأمم الاسلامية التى تأنف من علوم الكائنات وتظن انها تنافى ايمانها ودينها فهى لامحالة آيلة الى الهلاك كما حصل فى بلاد (أفريقيا) من دول أوروبا . فأما التى يكون اعتقادها بالاسلام يحضها على العلوم فهؤلاء الذين يكسبون فى ايمانهم خيرا وحينئذ ينجون من الخطر فيعيشون مع العالم بسلام . فاذا رأينا بعض الأمم الاسلامية اليوم يقرؤن العلوم العصرية فهؤلاء اذا اعتقدوا أنها من الدين ترقوا سريعا لاعتقادهم الراسخ فى أذهانهم فيعيشون مع العالم بسلام والا أذلهم الغرب بالحرب والهلاك وفاجؤهم بالمدافع فقتلوهم

(٢و٣و٤) واذا جاء فى الحديث أن هناك خسفا بالمغرب وخسفا بالمشرق وخسفا بجزيرة العرب . فاعلم أن هذا تنبيه على أن الأرض تحصل فيها زلازل كما تقدّم فى هذا الكتاب وهذا تنبيه أيضا على أمر طبيعى ومفاده أن من القرى ماتقع فيها الزلزلة على سبيل المفاجأة فأهلها يموتون وكل منهم يموت على ماعاش عليه ولاتنفع التوبة وهذا تحذير من أمر طبيعى كما يحذرنامن الغفلة لئلا يفاجئنا الموت

(٥) واذا جاء فى (مسلم) أن هناك نارا تطرد الناس الى محشرهم فحكمها كسابقها وهى المفاجأة فليكن الناس على حذر صالحين فى أعمالهم

(٦) واذا جاء فى حديث (مسلم) أيضا أن الدجال اذا نزل لاتقبل التوبة . فاعلم أننا قدّمنا فى سورة (البقرة) أن من يشبه الدجال هم الأمم المستعمرون فانهم اذا نزلوا بساحات الأمم الشرقية أذلوها وأهلكوا أهلها فمن مات منهم لاينفعه توبته عند الموت وهذا تحذير للأمم الاسلامية من دجل الأمم واضلالها ومدّها بالترف والنعيم والصناعات والخمر والملابس الفاخرة فيستنزفون ثروتهم ثم يقبضون عليهم ويملكون بلادهم وقد أروهم جنة الشهوات واللذات والوظائف والبضائع الجيلة فأصبحت على الشرقيين نارا تلظى لايصلاها إلا الجاهلون فأذلوهم . وقد قلت فى سورة (البقرة) وغيرها أنا لست أقول انهم هم (المسيح الدجال) وانما أقول هم نظراؤه وأشباهه فلهم حكمه كما انى أقول ان طلوع الشمس من مغربها وان كان على حاله وحقيقته يراد منه على سبيل الكناية المقصودة للناس فى هذا الزمان شمس العلوم والعرفان وهذه كناية بحسب القواعد فى علم البيان . فالدجال كناية وطلوع الشمس من مغربها كناية والقرآن أولى بالكنايات والكناية أبلغ من المجاز ومن الحقيقة

(٧) واذا جاء فى حديث (مسلم) الدخان فقدظهر بأوضح وجه فى هذا الزمان . أولست ترى أن الدخان هو الذى يحارب به الآن . أولست ترى الغازات الخانقة والمعمية . والتى تأتى بالطاعون . والتى تميت سريعا والتى تأتى بالسل . والتى تأتى بالجنون الخ

وهذا قوله ــ يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ــ وقوله تعالى ــ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ــ وهذا الحاصب ينزل من الطيارات فى بلاد (العراق) وفى بلاد (مراكش) وفى بلاد (سوريا) فالأول من الانجليز . والثانى من الأسبانيين . والثالث من الفرنسيين وذلك حاصل الآن أى سنة ١٩٢٦

(٨) واذا جاء ذكر (يأجوج ومأجوج) فها أنت ذا عرفت حقيقتهما فيما سبق قريبا وقد أريتك ما يكفيك والا فاقرأه فى كتاب (نظام العالم والأمم) وفى سورة (الكهف) فيما سيأتى

(٩و١٠) واذا ذكر الدابة وظهور عيسى ابن مريم فهذا كناية ظهور الحقائق واضحة جلية . فالقلوب النقية

المستعدة تنال السعادة وتفهم الحقائق • والقلوب المطموسة التى لم يهذبها الدين ولا العلم فلاتوبة لها لعدم تعقلها وفهمها.

واذا ذكرت هذا فانما جعلته كناية والكناية تكون مع الحقيقة والقرآن للهداية نزل • واعلم أن سورة الأعراف قد أوضحت هذا المقام تمام الايضاح فلقد جاء فى أولها كيف تفاجأ الأمم بالهلاك ثم سرد قصص نوح وعاد وثمود ومدين وقوم لوط وفرعون وانهم دمروا وهم لايشعرون • فهذا من بعض آيات ربك التى اذا جاءت لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيرا

واعلم أن ثمرة هذه الآيات والمفاجآت انما يكون فى هذا الزمان فالخسف والتدمير والدخان والعلوم والدجالون الكذابون من الأمم القوية كل أولئك أحاطوا بالمسلمين وكذلك العلوم والمعارف • فاذا لم يشاكل المسلمون الأمم التى حولهم حقت عليهم كلمة العذاب فأصبحوا خامدين • وماكانت سورة الأعراف الآتية ولا بعض آيات ربك التى فى هذه السورة لتنزل لمجرد التلاوة أوالاخبار بل هى انما نزلت لاستيقاظكم أيها المسلمون فى هذا العصر وانى أنذركم صاعقة العذاب الهون وخراب الدول ان لم تقوموا من فوركم بما أبنت لكم فى تفسيرى هذا من عجائب الله تعالى وتعرفوا ماذرأ الله فى الأرض والسموات من بديع صنعه وجميل ابداعه

هذا هو الزمان الذى تنتشر فيه الحقائق الاسلامية ويقوم المسلمون بنهضتهم العلمية العمرانية والا فليعلموا أنهم خامدون مائتون هالكون صرعى المدافع والقنابل والدخان والدجالين أوتخسف بهم الأرض بما يقذف عليهم من الطيارات وهكذا ـ ان ربك سريع العقاب ـ بذلك ـ وانه لغفور رحيم ـ لمن أدركوا وعقلوا فأبقاهم الى حين • انتهى تفسير سورة (الأنعام) ويليها سورة (الأعراف)

﴿ تفسير سورة الاعراف ﴾

(هذه السورة مكية الا ثمان آيات)

وهي قوله تعالى ـ واسألهم عن القرية ـ الى قوله ـ وإذ أخذ ربك من بنى آدم الخ ـ

وقد قسمت الى تسعة أقسام (القسم الأول) من أول السورة الى قوله ـ كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ـ وهذا القسم فيه أربع مقاصد (المقصد الأول) فى مقدمة السورة فى ابتداء تفصيل الكلام على ما أجمل فى آخر سورة (الأنعام) من مفاجأة الأمم بالحوادث المزعجة فعليه يجب أن يكون الناس مستيقظين دائما من قوله ـ المص ـ الى قوله ـ قليلا ما تشكرون ـ (المقصد الثانى) فى قصة آدم وحوّاء وما أصيبا به من خروجهما من الجنة ونزولهما الى الأرض وهى أول ما جاء من القصص كالتطبيق على ما يصاب به الناس مفاجأة من قوله ـ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ـ الى قوله ـ وفيها تموتون ومنها تخرجون ـ (المقصد الثالث) بيان أن هذه القصة كسائر القصص ليست تقصد لذاتها أو للتفكه بل هى للحكمة والاعتبار والعمل وحث الناس على ألا يتبعوا وسوسة الشيطان كما اتبع أبوهم آدم وسوسته فغوى. وليحذروا أن يفتنهم الشيطان فينزع عنهم لباس التقوى كما نزع من أبويهم اللباس المادّى • ثم أخذ يذكر أحكام اللباس فى الصلاة وحكم الزينة التى خلقها الله وهكذا وذلك من قوله ـ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ـ الى قوله ـ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ـ (المقصد الرابع) فيما هو أهم مما تقدّم وهو النظر فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والسحاب والمطر والنبات الخ من قوله ـ هل ينظرون إلا تأويله ـ الى قوله ـ كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ـ

﴿ القسم الثانى ﴾ فى قصة نوح وقومه وكيف غرقوا بكفرهم من قوله ـ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه ـ الى قوله ـ انهم كانوا قوما عمين ـ

﴿ القسم الثالث ﴾ فى عاد ونبيهم هود عليه السلام من قوله تعالى ـ والى عاد أخاهم هودا ـ الى قوله ـ وما كانوا بآياتنا مؤمنين ـ

﴿ القسم الرابع ﴾ فى ثمود ونبيهم صالح عليه السلام من قوله ـ والى ثمود أخاهم صالحا ـ وكيف كانوا يتخذون من السهول قصورا وينحتون من الجبال بيوتا • وكيف خسفت بهم الأرض لما طغوا وبغوا الى قوله ـ ولكن لا تحبون الناصحين ـ

﴿ القسم الخامس ﴾ قصة قوم لوط عليه السلام إذ كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء فأمطر الله عليهم مطرا غزيرا فهلكوا من قوله ـ ولوطا إذ قال لقومه ـ الى قوله ـ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ـ

﴿ القسم السادس ﴾ قصة أهل مدين ونبيهم شعيب عليه السلام إذ كذبوا وطففوا المكيال والميزان وبخسوا الناس أشياءهم فأخذتهم الرجفة لما كذبوا من قوله تعالى ـ والى مدين أخاهم شعيبا ـ الى قوله تعالى ـ فكيف آسى على قوم كافرين ـ

﴿ القسم السابع ﴾ فى نتائج عامة من القصص المتقدّمة ونصائح عامّة فصل فيها ما أجمل فى أول السورة وفى آخر سورة (الأنعام) من أحوال الأمم العاصية وانه يجب الحذر فى كل حين لأن خراب الأمم قد يأتى بغتة ليلا أو نهارا وأن أكثر نوع الانسان لا عهد له من قوله تعالى ـ وما أرسلنا فى قرية من نبىّ ـ الى قوله تعالى ـ وان وجدنا أكثرهم لفاسقين ـ

﴿ القسم الثامن ﴾ قصص موسى عليه السلام وما كان من أمر فرعون معه • وكيف كان أصحاب العقول أقرب للحقائق ممن يتبعون خوارق العادات كما حصل لسحرة فرعون وجهلة بنى اسرائيل إذ آمن

الأوّلون لما رأوا ماهو فوق قدرتهم على يدى موسى وكفر الآخرون لما جاوزوا البحر وقالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة وغيرذلك من الآيات المفصلات الى قوله ـ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ـ

﴿ القسم التاسع ﴾ قصص بلعام بن باعوراء الكنعانى إذ أعطاه الله العلم فضل به ومايتبع ذلك من الأحكام العامة من قوله ـ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا الى آخر السورة

﴿ مقدّمة تبين ارتباط هذه السورة بما قبلها ﴾

اعلم أن سورة (الأعراف) متممة لسورة (الأنعام) وبيانه أن سورة (الأنعام) يرجع أهم مافيها الى أمرين اثنين (أوّلهما) النظر فى العالم العلوى والسفلى (والثانى) اجتناب الشرك والظلم والمعاصى والقتل والعقوق والزنا وما أشبه ذلك وتجد العناية بالأمر الأوّل واضحة جلية فى ابتداء السورة بالحمد على أن الله خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وفى نظرات الخليل فى الكواكب متدرّجا من أدناها الى أعلاها وفى أن الله هوالذى فلق الحب والنوى وأخرج الحىّ من الميت وأخرج الميت من الحىّ وأضاء النهار وأظلم الليل وأنشأ جنات وأعنابا ونخيلا وهكذا مما كثرذكره فى السورة وترى الأمر الثانى ظاهرا فى التنديد بعبادة الأصنام والشرك واتباع الهوى وتحريم الحلال وتحليل الحرام وظهر جليا فى آخر السورة إذ قال ـ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ـ

وختم السورة بانذار الأمم اذا أهملت العلوم فجهلت العوالم العلوية والسفلية أولم تراع الأخلاق والآداب فظلمت وعصت فأنذرها بقوله ـ يوم يأتى بعض آيات ربك ـ ولم يبين تلك الآيات وانما أبهمها وتركها للناس يفكرون فيها وجاءت بعض الأحاديث بما يشف عن بعض الآيات بطريق الرمز ورجع مافيها الى أمور عامّة ذكرناها يقصد بها أن تكون الأمم متيقظة عالمة عاملة كما شرحناه

فكأن الله يقول فى سورة (الأنعام) كما قال فى سورة (الفاتحة) أى عبادى هأناذا آمركم أن تحمدونى لأنى ربيت العالمين ولن تعرفوا التربية العامّة إلا بدراسة ماربيته ونظمته من العالم العلوى والسفلى • أنتم مأمورون أن تحمدونى لأنى ربيت العالمين ولأنى خلقت السموات والأرض وجعلت الظلمات والنور ولاحمد لمن يجهل صفات المحمود ولاشكرلمن غفل عن صفات المشكور وأنا لم أبتدئ القرآن بحمدى على انى رب الثواب والعقاب ولارب البيوع والشفعة والرهن والميراث والقضايا والبينات والوضوء وأركانه وأنواع الحيض وأقسام المياه التى يجوز التطهير بها ولاعلى مسائل العتق ولاعلى مجادلات علماء التوحيد واختلافهم فى صفاتى وهل هى عين ذاتى أوغير ذاتى وانما أمرتكم بحمدى على انى خلقت السموات والأرض وجعلت الظلمات والنور وخلقتكم من طين وربيت العالمين • وكيف تحمدوننى وأنتم أجهل الناس بأعمالى وجمالى ونورى الذى أشرق والظلمات التى تجئ وتذهب بحساب • وكيف تحمدوننى وأنتم لم تدرسوا الفلك ولا الطبيعة ولا النبات ولاالحيوان ولاجمال مخلوقاتى • على هذه يكون حمدى ولاحمد لكم إلابالدراسة والعلم فمن جهل صفات المحمود كان حمده نفاقا وشكره لفظا وتعبده جهلا وحبه لربه رياء • وكيف تحبون من تجهلون أوتتقرّبون الى من لاتعرفون وهل تعرفوننى إلا بأعمالى • أعمالى التى أبرزتها فى جوّ الكواكب والشموس والأقمار والنبات والحيوان والانسان فلاجمال الا من جمالى ولاحكمة إلا من أعمالى

ولا يتسنى لكم معرفة جمالى فى هذه المخلوقات إلا اذا انتظمت دولكم ولا يكون النظام إلا حيث تتركون المعاصى ظاهرا وباطنا وتقومون بالصلاة والزكاة وبقية أركان دين الاسلام وتتركون ظاهرالاثم وباطنه وأن تتركوا ماحرم ربكم عليكم فلاتشركوا به شيأ ولاتقتلوا أولادكم

وانظر رعاك الله كيف ختم السورة • بماذا ختمها • ختمها بالانذار للأمم كلها • أنذرهم وحذرهم قال لهم اتبعوا صراطى مستقيما ولاتفرّقوا والا أنزلت عليكم مايصيب الأمم الجاهلة بفعل ربها ونظامه فى خلقه

الظالمة

الظالمة فى أعمالها العامة والخاصة . فاذا أنت لكم بعض آيات ربكم لاتنفعكم التوبة

يقول قوموا بالأمرين معا . معرفة نظام السموات والأرض . وتهذيب نفوسكم ونظام دولكم والا فانكم معرّضون للانتقام وذهاب دولكم يوم يأتى بعض آيات ربكم واذن لاينفعكم توبة ولاينجيكم اتباعكم لدين الاسلام بمجرّد اللفظ وأنتم تجهلونه فلاتكسب كل نفس إلا عليها انكم خلائف الأرض وأنتم مختبرون ممتحنون فمن فاز فى الامتحان قرّبناه ومن رسب أنزلناه ـ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى . نحن اختبرناكم فيما أعطيناكم فلاتقصروا فى شكرنا ولاتناموا عن معرفة نظامنا

﴿ سورة الأعراف ﴾

لما كانت سورة (الأنعام) لم يفصل فيها هلاك الأمم الجاهلة ولم يبين كيف يهلك الذين لايعقلون والذين هم يظلمون بارتكاب المعاصى جاءت سورة (الأعراف) وقد ذكر فيها آدم ونوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وبنواسرائيل وقوم فرعون وقد هلك من هلك من هؤلاء اما لتطفيف المكيال والميزان واما لعدم معرفة النعمة وشكرها على قصور فى سهول و بيوت منحوتة فى الجبال . واما على الظلم بالقتل . واما على الفسوق بمباشرة الرجال ومخالفة حكمة الخالق فى الاقتراب من النساء . واما على تكذيب الأنبياء ونبذ الحق ومخالفة طريق الهدى

فانظر كيف ابتدأ سورة (الأعراف) بما لم يبتدئ به سورة (الأنعام) . ابتدأ سورة الأنعام بايقاظنا الى النعم التى حولنا وتوجيه عقولنا اليها . ولما علم الله أن أمة الاسلام ستكون بعد النبوّة بأمد طويل كالقرن الرابع عشر لاتعير هذه النعم التفاتا ولاتلوى اليها عنانا ولاتعرف المقصود منها مع انها أهم العلوم وأهم النعم وأن الحمد لم يذكر فى الفاتحة ولافى الأنعام إلا عليها

ختم سورة الأنعام بالانذار . وابتدأ سورة الأعراف باكمال الانذار فقال ـ كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ـ يقول فى سورة الأنعام توجهوا بعقولكم الى مخلوقاتى واتركوا المعاصى . ويقول فى الأعراف أنزلت اليك الكتاب فلا يكن فى صدرك ضيق منه فأنذر به الناس واتل عليهم أنباء الأمم الضالة فكم من أمّة أهلكناها ليلا أونهارا . فسورة الأعراف لبيان الأمم التى جهلت ما صنعه ربها وغفلت عن نعمه أوعصت فى أعمالها

﴿ القرآن ونهرالنيل ﴾

اعلم أن مثل القرآن مع الأمم الاسلامية كنهر النيل مع الأمّة المصرية . ان النيل كان يجرى قديما من وراء خط الاستواء من فوق جبال (القمر) ويمرّ فى الأودية والبحيرات ويقطع أميالا وأميالا آتيا من نهرين النيل الأبيض والنيل الأزرق وهما يجتمعان عند مدينة (الخرطوم) ويتجهان شمالا الى البحر الأبيض المتوسط ولم يكن للنيل سدود تمنعه ولاقناطر تحجزه ولاحبوس تحفظه ولكن كان يمرّ فى طريقه ولايعرج على شئ ولايلوى على أحد حتى يصب فى البحر الأبيض . وغاية الأمر انه فى زمن الفيضان أيام الخريف يعم الأرض وبعد ذلك يقلّ ماء النيل فتجف الأرض فيزرعونها مرة واحدة . وكان الناس أيام الفيضان يعيشون فى مدنهم وقراهم والماء من حولهم ويأكلون مما يخزنون ولايتزاورون إلا على المراكب والقوارب وما أشبههما . ولقدكان لقدماء المصريين بحيرة يخزنون الماء فيها لينفع ذلك أيام قلة المياه . ومن ابتداء الفتح الاسلامى وقبله الى أمد قريب لم يكن لتلك البحيرة عمل بل هجرت لما ذهب مجد الأمة القديمة وبقى النيل يجرى بمجراه حتى اذا كان العصر الحديث جعلت للنيل قناطر وسدود فى جهات كثيرة وضبط مافيه من الماء بقدر الامكان فأخصبت مصر وأصبحت عروسا وازينت للناظرين هكذا القرآن

﴿ القرآن ﴾

يقرأ الناس القرآن بألسنتهم وهم لايعملون بما فيـه بل هم أجهل الناس به كما كان النيل يجرى من وراء خط الاستواء الى البحر الأبيض ولاينتفع الناس به إلا أيام الفيضان وهى أيام قليـلة ولذلك لم يكن يسكن بلادنا إلا نحو مليونين . أما الآن فقد أصبح السكان نحو (١٤) مليونا أى سبعة أضعاف سكانه من قبل وفيضان القرآن على أمة الاسلام فى القرون المتأخرة لم يكن إلا الأحكام الشرعية من الحيض والنفاس والميراث والوضوء وهكذا فأجدبت الأمة الاسلامية وخلت ربوعها من الأنيس وحلّ بها الانكليس وأذلها الانجليز والفرنسيس ووسوس لها ابليس

فهذه سورة (الأعراف) جاء فيها ذكر الأمم الجاهلة أو الفاسقة تذكر المسلمين بما حلّ بهم الآن من خراب ممالكهم كما خربت عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون لما طغوا وبغوا وجهلوا العلم والحكمة وكانوا ظالمين سورة (الأعراف) تذكرة للمسلمين وانذار لهم بقرب ذهاب دولهم بل مافيها من القصص هى عين ما حلّ بالأمة من ذهاب مجد وضياع بلاد وخراب أمم بما فسقوا وبما جهلوا والفسق والجهل متلازمان وهما صنوان واخوان لايفترقان

﴿ سورة الأعراف جاءت لاظهار الحقائق ﴾

جاء فى سورة (البقرة) قصـة آدم وأتبعت بقصص بنى اسرائيل ولم يذكر هناك صراحة نتائج قصص آدم ولاثمرته . ولكن فى هذه السورة العلم والمعرفة والفهم . ألم تر أن قصة آدم فى هذه السورة قد أعقبها بدرس فى التهـذيب والتربية فقال - يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة - ينزع عنهما لباسهما بل تجاوز ذلك الى ماهو أرقى وأكمل وأتم وأعظم وأنفع وأشمل فقال - ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله - ياعجبا يذكر قصة آدم ويخرج من نزع لباسه الجسمى الى الكلام فى لباس التقوى لنا ويجعل لباس التقوى خيرا ويقول - ذلك من آيات الله -

إن هذه القصة ذكرت فى أوّل سورة (الأعراف) فى ابتداء القصص ليدلنا أن هذه الحكايات والقصص لايراد لفظها ولامجرّد حفظها ولافهم معناها . بل يراد منها مايلزمنا فى حياتنا . ويحفظنا فى كياننا . ويؤلف جامعتنا . ويرقينا فى هذا الوجود والا فأين ماحصل لآدم وحوّاء من كشف سوآتهما وما ألهماه من خصف الورق عليهما وماجاء تفريعا على قصصهما من ذكر اللباس الذى يوارى سوآتنا من القطن والكتان والتيل والحرير وغيرها ومافوق ذلك من اللباس التقوى وانه يجب علينا أن نتقى وسوسة الشيطان لئلا ينزع عنا لباس التقوى كما نزع من أبوينا اللباس الظاهرى . هذه القصة تنطق بلسان فصيح أن ماورد فى القرآن من القصص لم يكن الا للنتائج التى تنفعنا ولم يذكر من ذلك قصص لذاته والا فهذه القصص أصبحت مشهورة بين الناس وهم لايلتفتون اليها

فعلى المسلمين أن يحذروا من وقوع العذاب الذى هم أعلم الناس به فقد حلّ بالدول الاسلامية كلها وأحاط بهم من كل جانب وهم نائمون . ولوأنهم عرفوا أن سورة (الأعراف) ان هى الا مثل من الأمم الخالية لما سيحصل فى الأمم المستقبلة التى نحن منها وقد مسنا نفس العذاب الذى حاق بتلك الأمم من عاد وثمود الخ

لوعرف المسلمون ذلك لرجعوا الى نظام الله فى السموات والأرض وفهموا خلق السموات والأرض والظلمات والنور وعلوم النبات والحيوان الخ . واذن تكون هذه العلوم التى تبلغ آياتها (٧٥٠) آية أشبه بالقناطر التى فى نهر النيل والسدود والعرم والحبوس التى تحفظ الماء فيسقى الأرض هكذا أنتم أيها المسلمون عليكم أن تقفوا عند آيات النظام العام التى لا يمكن حمد الله حمدا حقيقيا الا بها . وتدرسوا ما اشتملت عليه دراسته كدراسة أوروبا بل أعظم وتكون تلك الدراسة أشبه بالقناطر فى نهر النيل فيعم العلم ويتبعه السعادة

فتعرفون نعمة الله وتنالون منافع ماخلق بعلمكم وعملكم لا بمجرد الطبيعة كما يتربى الدود على العود لايفكر من أين والى أين وهم خلق . وإذن يعطيكم الله من منافع جباله وأنهاره وسهوله ونجومه وزروعه والا قال لكم ـ فلا كيل لكم عندى ولاتقربون ـ لأنى لم أخلقكم دودا ولاذبابا ولاناموسا ولابهائم بل خلقتكم لتفكروا ولاتفكر أعظم من معرفة العوالم العلوية والسفلية معرفة بها تستنتجون المنافع المادّية والمعنوية وأنا اذن أعطيكم على قدر ماتكسبون ـ والوزن يومئذ الحق ـ وكل شئ عندى بميزان . انتهت المقدمة

﴿ القسم الأوّل من سورة (الأعراف) وفيه أربعة مقاصد كما تقدّم ﴾

(المَقصِدُ الأوّلُ)

(بِسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ)

المٓصٓ * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(المص) تقدّم الكلام عليها بأبسط وجه فى أوّل سورة (آل عمران) وهذه السورة (كتاب أنزل اليك) والجملة صفة كتاب (فلا يكن فى صدرك حرج) ضيق (منه) لما اشتمل عليه من هلاك الأمم السالفة ومفاجأتها بالعذاب لما قصرت فى كيل وميزان أوعدل أوشكر لنعمة أوكانت تفعل الخبائث . ولم تسبق سورة قبل هذه فيها انذار باستئصال الأمم فلذلك ابتدئت بأمره ﷺ ألا يكون فى صدرك حرج وضيق لأن التبليغ يحتاج الى الانذار والتبشير والخوف والرجاء وهذه السورة وكذا سورة يونس وهود ويوسف وابراهيم عليهم السلام وما أشبهها قد أنزلت لبيان مايعترى الأمم من الهلاك . وهذه السورة أوّل سورة من هذا القبيل فلذلك بدأها سبحانه بطلب نفى الحرج عن صدره إيذانا باتمام التبليغ وهى ليست كسورة الفاتحة المبدوأة بالحمد على تربية العالمين ولا كسورة آل عمران المبدوأة بتوحيد الله ولا كسورة النساء المبدوأة بطلب تقوى ربنا لأنه خلقنا من نفس واحدة ولا كسورة المائدة المبدوأة بالأمر بالوفاء بالعقود ولا كسورة الأنعام التى ابتدئت بحمد الله على خلق السموات والأرض والظلمات والنور بل هذه هى التى فيها ذكر الأمم الهالكة بظلمها وقد جىء بها هنا بعد ماتقدم من تبيان الصلاة والزكاة والصيام والحج والتوحيد والنبوّة والميراث والعدل والحلال والحرام فى السور المتقدّمة بل بعد ماذكر أن ديننا قد تم وكمل فى سورة (المائدة) فناسب أن يؤتى هنا بما يفيد خراب الأمم الظالمة فناسب ذكر عدم الحرج فى قلب النبى ﷺ

يقول الله تعالى ـ فلايكن فى صدرك حرج منه ـ (لتنذر به) ولتذكر (وذكرى للمؤمنين) فمن يكذبونك ينذرون به ومن يؤمنون بك يذكرون بما حل بالأمم قبلهم وليعلموا أنهم لاينجون من الخطر اذا قصروا فى شريعتك والا فلامعنى للذكرى فتذكير المؤمنين معناه انهم معرضون لما تعرضت له الأمم الظالمة فاذا تفرق شمل المسلمين واذا جهلوا واذا ظلموا فانى أنزل بهم العذاب كما أنزلت على الأمم الماضية وليس الاسلام بمنجيهم من الهلاك لأنى عدل أعدل بين الأمم و بين الأفراد فلذلك أعقبه بقوله (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) من القرآن والسنة (ولاتتبعوا من دونه أولياء) يضلونكم من الجن والانس أى ولاتتبعوا من دون دين الله أولياء (قليلا ماتذكرون) أى تتذكرون تذكرا قليلا ومازائدة للتأكيد • ثم شرع يبين مقصود ماجاءت به السورة مما يوقع الحرج فى القلوب والضيق فى النفوس تبيانا لما سبق فى آخر الأنعام من مجىء آيات الله بغتة حيث لاتنفع التوبة للأمم ولا للأفراد فقال (وكم من قرية) وكثيرا من القرى (أهلكناها) أردنا اهلاك أهلها (فجاءها بأسنا) عذابنا (بياتا) بائتين كقوم لوط (أوهم قائلون) عطف على بياتا أى قائلين نصف النهار كقوم شعيب اذ أخذتهم الظلة وأصل الكلام بياتا أووهم قائلون فحذفت واو الحال استثقالا لاجتماع حرفى العطف الواو وأو وانما خص وقت البيات والقيلولة لأنهما وقت الاستراحة فوقوع العذاب فيهما أفظع (فما كان دعواهم) أى فما كان دعاء أهل القرية واستغاثتهم (اذ جاءهم بأسنا الا أن قالوا انا كنا ظالمين) أى الا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه و بطلانه تحسرا عليه وهذا هو المشاهد الآن فى الأمم الاسلامية اذ يدخل أهل الغرب فى مصر وتونس والجزائر ومراكش والهند وجاوه وسومطرة وسائر بلدان الاسلام كالهند وغيرها و بلاد السودان ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم و ينزلون المقذوفات والنار من الطيارات فى سوريا والعراق وغيرها فتنزل تلك النار على الأمم الاسلامية ليلا ونهارا أو وقت القيلولة كما فى هذه الآيات فنسمع المسلمين يقولون ربنا نحن متفرقون جاهلون متواكلون ظالمون فعاقبنا الله بذنوبنا وليس عندنا علماء ولاحكماء ونحن فينا الطمع والحسد والظلم فعاقبنا الله بما كنا ظالمين

هذا كلام المسلمين الذى قال الله فى هذه الآيات لنبيه ﷺ فى شأنهم ـ وذكرى للمؤمنين ـ فعذاب هذه الأمم جاء فى هذه السورة ـ ذكرى للمؤمنين ـ ونحن المؤمنون وقد حل بنا ماذكرنا به ولم ينفع الندم ولا التوبة عند وقوع المصائب بالأمم الاسلامية • ومن أعظم المصائب ما أخبرت به عند كتابة هذا الموضوع إذ جاءنى مدرس بمدرسة (الأمريكان) بالقاهرة وهو من متخرجى مدرسة دار العلوم وقال ان ناظر المدرسة المسيحى يأمر التلاميذ المسلمين جميعا أن يحضروا الصلاة وكذلك يأمر المدرسين المسلمين أن يحضروا ثم انه يجمع التلاميذ فى يوم من الاسبوع و يلقى عليهم درسا فى الأخلاق ملخصه الذم فى الاسلام وفى القرآن وفى نبينا ﷺ حتى أن بعض التلاميذ ارتد وتنصر والباقون يحقرون دينهم • وعندنا مجلس النواب ومجلس الشيوخ والوزارة وليسوا يقدرون أن يصنعوا شيأ لأنه لاسلاح عندنا • أما الترك أيدهم الله بالنصر المبين فقد حرموا مثل هذا فى هذه الأيام وأغلقوا مدارس أمثال هؤلاء وهم مصلحون

وهذا من آثار العذاب الذى حل بديارنا أن يكون ثمرة غرسنا وهم أحسن أبنائنا والخلص منهم يخرجون حاقرين دينهم ووطنهم وأمتهم ونرجع فنقول إنا كنا ظالمين

ثم لتعلم أيها الذكى أن حكمة الله فى مثل هذا انما هو ايقاظ النفوس وترقية المدارك • ولعمرك ما أرسل الله هؤلاء ليـنقموا فى ديننا إلا ليحثنا على ارتقائه وذلك حتما يرقى الناس فارتقاء الشعوب لا يكون إلا بالمناظرة واذا كان الحرب داعيا الى رقى الأمم هكذا فليكن حرب الديانات بالذم والطعن داعيا حثيثا لرقيها والبحث فى اعلاء شأنها وكل ذلك لارتقاء الأمم على الأرض • ولما كانت الأمم لابد لها من هداة وأولئك الهداة مسؤلون والأمم مسؤلون أعقبه بقوله (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) فيسأل الله

الأنبياء هل أجيبوا والأمم عن قبول الرسالة والسؤال القصد منه التقريع والتوبيخ لايقاع النكال وهذا هو عذاب الخزى المذكور فى سورة آل عمران والا فانه تعالى يعلم مايفعلون وليس غائبا (فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين) فليس يخفى علينا شئ من أحوالهم • ولما كان العالم بالأشياء لايلزم أن يكون عدلا فى حكومته أردفه بقوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) أى ووزن الأعمال العدل السوى حاصل يومئذ أى يوم القيامة ولقد عرفت الوزن فى أول سورة آل عمران وأن الله وزن فى هذه الدنيا سائر الذرات والحركات والسكنات ومن قرأ علم الفلك والطبيعة والكيمياء أدرك وشهد كيف توزن الذرات فى دخولها فى الماء المكوّن من (اكسوجين واودروجين) إذ تكون ذرات أحدهما مع ذرات الآخر بنسب صادقة تامة عدّا ووزنا ولو اختلفت ذرة واحدة لم يكن ماء وهكذا اذا قرأت ما كتبناه فى سورة (البقرة) عند قوله تعالى ـ وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس ـ وكيف كان نظام الذرات والعناصر فى تركيب النبات من القمح والذرة والبرسيم وغيرها لايختلف وباختلاف العناصر فى المقدار عند دخولها فى النبات يختلف فيصير الغذاء ملبسا والملبس غذاء • كل هذا مذكور فى البقرة وفى آل عمران موضحا مشروحا ليعرف الذين قرؤا هذه العلوم وليشهدوا أن الله وزن كل شئ بالحق ومن شهد ذلك فى هذه الحياة سهل عليه وزن يوم القيامة فالله رب العالمين • والعالم قسمان • عالم الدنيا وعالم الآخرة ولقد شهد الحكماء الوزن فى الدنيا فهكذا يقرون بالوزن يوم القيامة وهذا سهل على من قرأ صفة الله فى الدنيا فأما من عداهم من الذين لايقرؤن فما أحراهم أن يوصف لهم ذلك بضرب الأمثال

قال ابن عباس رضى الله عنهما يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان واذا سمعت ماقاله البغوى عن بعضهم ان الاشخاص هى التى توزن مستدلين بما روى فى الصحيحين أنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عندالله تعالى جناح بعوضة • واذا سمعت ماقاله غيره ان صحائف الأعمال توزن • وماقاله آخر ان نفس الأعمال توزن فاعلم أن ذلك كله ضرب مثل ليعرف الناس بما يزاولون والا فنحن نشاهد وزن الله فى السموات والأرض فبهذه العلوم أدركنا انه وزن الحركات والسكنات والذرات فى النبات والحيوان والفلك ومن اطلع على ماتقدم من هذا التفسير أيقن ايقانا تاما أن الله يزن كل شئ ولايبخس شعيرة ولذلك تسمع الله سبحانه وتعالى يقول ـ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ فكأن العبد لما اطلع على صورته الحقيقية أدرك بنفسه نقصه وكماله وصار هو نفسه شاهدا على نفسه كأن ميزانه أصبح فى فهمه وقام بذهنه وأدرك ماكان حسنا وماكان قبيحا من أفعاله • واذا كانت الأيدى والأرجل والألسن تشهد ثم الأنفس تعرف فهذا دليل أن ميزانه فى الدنيا هو ميزانه فى الآخرة

بهذا فليعرف جمال الله وحكمه ووزنه الحق الذى شاهدنا ونظامه الجميل الذى أدركنا فالموزون هاهنا والميزان مارأيناه فالموزون مشاهد والميزان معلوم لم تشهده العيون وقد أقرّت به القلوب

واذا سمعت ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال ان الله عزوجل سيخلص رجلا من أمتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مدّ البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيأ أظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب الى أن قال فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ • وهذا الحديث أخرجه الترمذى وأحمد بن حنبل • فاذا سمعت هذا فاعلم أنه تمثيل لحال الوزن وترغيب فى الايمان لأن من آمن يطمع فى أن يعمل ومتى عمل ثقلت موازينه وكثير من يغترون بظاهر الحديث فينطقون بالشهادتين ويكتفون بهذا وهم مغرورون جاهلون بل الوزن حقّ والحساب مبنى على الوزن ولابد من التهذيب والتربية • فالمراد من ذلك أن هذه الشهادة أسّ للأعمال فالوزن لها ولما ترتب عليها وان لم يكن كذلك ضاعت ثمرات جميع الأديان

وهذا هو الذى يغترّ به الجاهلون كما أوضحناه فى غيرهذا المكان ولذلك قال تعالى هنا ـ والوزن يومئذ الحق ـ (فمن ثقلت موازينه) أى أعماله الحسنة (فأولئك هم المفلحون) الناجون الفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) أى أعماله (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) بتضييع الفطرة السليمة التى فطرت عليها (بما كانوا بآياتنا يظلمون) فيكذبون بدل التصديق • واعلم أن الوزن كما ذكر فى ديننا ذكر فى الديانات السابقة كديانة قدماء المصريين وقد صوّروا هيئة الميزان والكفتين واللسان فان غلبت الحسنات السيئات ارتقت الروح الى ربها وان غلبت السيئات الحسنات التقم قلب الميت كاب والذى يقضى على الميت عندهم (٤٢) قاضيا وصورهم مرسومة فى المعابد والهيا كل يقرؤها المتعلمون فى الدول الحاضرة • فهذا الوزن الذى فى القرآن وردت به الكتب السماوية لأن دين المصريين هو دين ادريس الذى ورد ذكره فى القرآن وهو من الرسل الذين يجب معرفتهم تفصيلا فى دين الاسلام ويسمى عند بعض الأمم (اخنوخ) ويسمى أيضا (سيزوستريس) وهذه اللفظة وردت فى القرآن (ادريس) ولها مشابهة فتعجب كيف شابهت الأديان فى الوزن والميزان

ولما كان الناس خلفاء الله فى الأرض وهم يستمتعون بها وبذلك وجب حسابهم أردفه بقوله (ولقد مكناكم فى الأرض) أى مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) أى أسبابا تعيشون بها جمع معيشة (قليلا ماتشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا على ماصنعت لكم وأنعمت به عليكم والشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ويقال الشكر تصوّر النعمة واظهارها • انتهى المقصد الأوّل من القسم الأوّل

(المَقصِدُ الثَّانى)

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُمًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا

رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(ولقد خلقنا كم ثم صوّرنا كم) ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صوّرناه (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) ممن سجد لآدم . وظاهر الآية أن ابليس كان من الملائكة . واعلم أنه لاطائل فى الخلاف أمن الملائكة هو أم ليس منهم وانما هو من نار وهم من نور والاستثناء على الأوّل متصل وعلى الثانى منقطع فان الله هو أعلم بغيبه ولكن الذى نشاهده فى هذا الوجود يفيدنا أن آدم وأبناء آدم قد انقسم العالم الذى أمامهم قسمين قسم أطاعهم كالأنعام والدواب والطيور وقسم عصاهم كالوحوش والاسود وما أشبه ذلك وهكذا الحيوانات الذرية منها ماهو لفائدة الحيوان والانسان ومنها ماهو لقتلهم . ولاجرم أن هذا كله خاضع لتنظيم الملائكة بحكمة دبرها الحكيم فآثار السجود من الملائكة وامتناع سجود ابليس لها نظائر فى المشاهدات حولنا كما أن من النفوس المجرّدة عن المادّة ماتوسوس للناس ومنها ماتهديهم فترى آثار الصلاح من الهداية والطلاح من الوسوسة . هذه هى الآثار التى نعلمها فى المشاهدات أمامنا والمعلومات بعلومنا وماعدا ذلك نكله الى الله . واليك بقية المحاورة (قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك) أى أىّ شئ منعك من السجود ولازائدة . وفى آية أخرى ـ مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ـ وهذا السؤال للتوبيخ والتقريع (قال أنا خير منه) أى الذى منعنى من ذلك أنى خير منه وهل يسجد الفاضل للمفضول والرفيع للوضيع فكيف يؤمر به . ثم علل ذلك فقال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) ولاجرم أن النار ألطف جوهرا واخفّ وأجل وفيها الضياء والنور ولها الشرف . أما الطين فانه ثقيل لاضوء فيه ولاشرف وأنا وان كان بعض المادّة فى تركيبى فالنار غالبة على هيكلى وآدم وان كانت الحرارة من قوام جسمه ومن نظام هيكله فان الطين غالب عليه . إن آدم من صلصال اذا نقرته صوّت كالفخار الذى يصنع منه الناس الآنية . ولاجرم أنه مركب من نار وطين والطين هو الأغلب ولذلك ترى فيه طبائع مختلفة فبينما تراه لايقدر على الطيران فى الجوّ لثقل جثته تراه يفكر فى الامور العالية لخفة روحه ولطافة شكله ففى الانسان ثقل الطين وخفة النار ولطافتها وفيه الغضب وهو من القوّة النارية وفيه الشهوات وطلب الأغذية وهى ترجع الى عنصر الطين . أما أنا فانى خير منه لأن طبع النار وهو الأشرف غالب علىّ وهذه الحجة من الحجج التى يستعملها الناس فى محاوراتهم للمغالطة والمكابرة والمكاثرة والكبرياء ذكرها الله ليرينا أكثر مايحاور الناس فى سياساتهم وجدالهم . واعلم أن هذه الحجة خطؤها من أربعة وجوه فان عنصر الطين فيه من الفضائل مالايصلح لها عنصر الماء كالرزانة وقبول النبات من الشجر والزرع وفى الطين الامانة بحفظ الصور وليس فى النار مثل ذلك وفى النار اهلاك . واذا سلمنا أن النار أفضل من الطين جدلا فمن ذا الذى جعل الفضل بالعنصر والأصل أليس للصورة دخل فى التفضيل وكذلك الفاعل وهكذا نتائج الأعمال والاخلاق فكل مصنوع كالكرسى لابد له من مادة وصورة وفاعل وغاية فمادة الكرسى الخشب وصورته هى التى بها يصلح للجلوس عليه وفاعلها النجار وغاية هذا كله الجلوس عليه . هكذا آدم مادّته الطين وفاعله الله وصورته معروفة وغايته الحكمة والعلم والعمل . فانظر كيف يقول الله فى الصورة ـ فاذا

سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ـ فهذا اشارة الى اكمال الصورة وقال ـ مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي ـ اشارة الى عناية الفاعل . وأشار الى غاية آدم بقوله ـ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ـ فاذا كان استعداد آدم للعلوم فاق استعداد بعض الملائكة أفلا تكون هذه الغاية ذات فضل عظيم ويكون هو أفضل من ابليس فثبت أن هذه الحجة أشبه بحجج (أباليس الأرض) من رجال السياسة والدجالين والكذابين . ولست ترى كلام أكثر الناس إلا على هذه الطريقة . فترى الرجل يقول أنا خير من فلان فان أبي كان أكثر مالا وولدا وأنا من نسل رجل عظيم فيظنّ الجهول أن الله يرفع الناس على حسب عناصرهم وأصولهم ومادرى أن الورد تشم رائحته ولاينظر لما في الطين الذي تغذى منه من قذر وهكذا يستقذر الناس ماخرج من الانسان وهو أفضل من على الأرض و يقول رجال الاستعمار قد جئنا بلادكم لنرقيكم وهم انما جاؤا ليفسدوا في الأرض ويأكلوا أرزاقهم . فهذه الحجة من الحجج التي نسمعها صباحا ومساء من أمم الأرض المتعلمين في المدارس والكليات في أوروبا والشرق الذين يضلون الناس بآرائهم ليأكلوهم ـ أكلا لما ـ لأنهم يحبون المال حبا جما

ولما كانت هذه من نوع السفسطة وهي المغالطة وهي من أقيسة المنطق الخمسة وهي أدناها منزلة كما يقال للرجل لاتشرب العسل فانه قيء الزنابير . وكان من هذا ديدنه من الناس لايقنعه جواب ولايهذبه خطاب كما نرى رجال السياسة يحاولون بالباطل ولا يسكتهم إلا الحرب . فأما القول فلايفيد . لذلك أجاب الله ابليس اجابة تعلمنا ألا نجادل المشاغب المسفسط المغالط وانما نعدل الى القوّة والغلبة ونسعى لازالة المنكر بالعمل لا بالقول ولذلك (قال) الله تعالى إن كنت تتكبر (فاهبط منها) أي من صورة الملائكة أومن السماء (فما يكون لك أن تتكبر فيها) في صورة الملائكة أوفي السماء لأن آثار المخلوقات ان لم تكن مشاكلة لمبادئها انحطت قيمتها والانسان مثلا اذا لم يحافظ على فضائل العلم والعقل انحط الى درجة أدنى واستعمل استعمال البهائم لجرّ الأثقال وهكذا اذا كان ملوك الأرض لايقومون بجلال الملك وحقه ينزلون عن عروشهم والسيف اذا لم يكن قاطعا صار ما استعمل استعمال السكين . هكذا من خالط الملائكة وتنزل عن صفاتهم أولى بأن يسلب صورتهم ويطرد من مقامهم وينحط الى الأعمال الصغرى كما نرى الحيات والعقارب المؤذية للانسان والحيوان فلتكن الأرواح الشريرة الابليسية منحطة الى دركات الجهالة فتستعمل استعمال الحيات لتؤذي الناس

فهذه بسمها وهذه بوسوستها وكما لاتصل الحية لمنصب غزال المسك الحامل نوافجه هكذا لاتصل نفس ابليس ومن على شاكلته درجات العز والكرامة فتوصل الى الناس علما ومعرفة كالملائكة بدل الوسوسة التي ترديهم وتسقط ناقصهم . وكما ينجو من خطر الحيات من سكنوا بيوتا خلت من العفونات . هكذا ينجو من خطر الوسوسة نفوس نقية صالحة ومن كانت هكذا حالهم من الشقاوة بسبب الكبرياء والعظمة فان الهوان لاحق به ولذلك أردفه تعالى بقوله (فاخرج إنك من الصاغرين) أي فاخرج من صورة الملائكة انك من الأذلاء المهانين . ولما كان من عادة الله ألا يدع جسما ولا روحا بلاعمل لأنه لامعطل في الوجود فانك ترى الأرض التي لايزرعها الناس يخرج فيها زروع ينبت بهطول المطر سواء انتفع الناس به أم لم ينتفعوا وهكذا نجد أجسام الحيوان الميتة تصبح مأوى للدود والحشرات تعيش فيها وهي رديئة منتنة فاذن لامعطل في الوجود

ولما كان ابليس من المخلوقات وقد فاته حياة الكرامة فلاجرم يعيش حياة أدنى منها فان لم يصلح للالهام فلاجرم ينحط للوسوسة وهذا حتم في هذه الحياة التي نحن فيها لأن عالمنا فيه الخير والشرّ والنحس والسعد والموت والحياة ومن فقد أحد الضدين تلبس بالآخر و بهذا تفهم هذه المحاورة (قال) ابليس (أنظرني) امهلني (الى يوم يبعثون) أي الى يوم القيامة فلاتمتني (قال) الله (إنك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) أ ـ فبسبب اغوائك إياي وايقاعك الغي في قلبي الذي كان سبب هبوطي الى

الارض

الأرض لأجلسن لهم على طريقك القويم بأن أوسوس اليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم قياما بطبيعتى كما تقوم الحيات باللدغ والوحوش بالافتراس والهوام بالايذاء والحيوانات الذرية باحداث الحمى والجدرى والحصباء والطاعون • فليكن فى بنى آدم من يكونون على شاكلتى اتماما للنظام العام فلاينجو من وسوستى إلا المصطفون الأخيار ولذلك قال تعالى فى آية أخرى ـ هـذا صراط علىّ مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعـك من الغاوين * وانّ جهنم لموعدهم أجمعين) وانما انحطوا الى جهنم لأن الكبرياء من آثار الغضب الذى هو قوّة نارية فجهنم يرجع اليها من كانوا فى الدنيا على طبيعـة تدعوهم الى ورودها وطبيعة الكبرياء لا اعتدال فيها وحرارة النار وزمهريرها خارجات عن الاعتدال • ثم أخذ ابليس يفصل كيفية الاضلال فقال (ثم لآتينهم من بين أيديهـم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين) وانما قصّ الله علينا ذلك ليعلمنا أن الوسوسة داخلة فى أحوالنا كلها فهى أشبه بالهواء المحيط بالانسان والحيوانات الذرية التى تحدث الأمراض فينا كالسل والجذام والبرص وهى محيطة بنا من كل جانب ولاينجو منها إلا الأقوياء الذين لم يستعدّوا لتلقيحها • هكذا هنا نجد الوسوسة والخداع عامّة فى النوع الانسانى • وماهو ذاك هو أنك تجد الأدلة التى يستعملها الناس فى أحوالهم العامّة كالدليل الذى ذكره ابليس • فاذا قال ابليس ـ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ـ على سبيل المغالطة هكذا ترى الناس يضلون بأدلة مثل هذا الدليل سواء بسواء بل الضلال الذى يحيط بنا كثير جدا • ولذلك قال شقيق البلخى

مامن صباح إلا قعد لى الشيطان من الجهات الأربع من بين يدىّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى أما من بين يدى فيقول لاتخف فان الله غفور رحيم فاقرأ ـ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ـ وأما من خلفى فيخوّفنى من وقوع أولادى فى الفقر فاقرأ ـ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ـ وأما من قبل يمينى فيأتينى من الثناء فاقرأ ـ والعاقبة للمتقين ـ وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ ـ وحيل بينهم وبين مايشتهون ـ اهـ

فانظر كيف جعل الناس الغفران سببا فى الذنوب وهذه هى الداهية الدهياء والمصيبة العمياء أن يسمع الانسان آية أوحديثا وربما كان موضوعا أوضعيفا فيغترّ به فيصبح فاسقا فاجرا وقد أصبح المسكين بسبب فهمه فى الدين جهلا من الغاوين الضالين • ومن الناس من يكتفى باسم الاسلام ولاعلم ولاعمل وهذا هو قوله تعالى ـ يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضلّ به إلا الفاسقين ـ وحجج هؤلاء كحجة ابليس سفسطة ومغالطة ومجادلة بالباطل • وبهـذه الحجج الابليسية انحط كثير من أمم الاسلام وتأخروا فيقولون لا نقرأ الطبيعة لأنها كفر ولانبالى بالأسلحة الحديثة لأن الاسلام منصور • وهكذا من الحجج الخاطئة الكاذبة الجاهلة الناقصة • فتعجب كيف كانت الوسوسة كلها من قبيل هذه الحجة • ولتعجب كيف جاءت فى القرآن وكيف كان ذلك دائما صباحا ومساء فنغتاب الناس ونقول ـ إن الله غفور رحيم ـ ونأكل فوق طاقتنا وعلم الطب يمنعنا فنقول شئ قليل والقليل لايضرّ • ونظلم الناس ونقول هم يستحقون • وهكذا من الأدلة الكاذبة التى تلازمنا فى أكثر أحوالنا

﴿ عجائب القرآن ﴾

فانظر كيف كانت هـذه الحجة الابليسية فى ظاهر الأمر وعند العامة أمرا سهلا لاشئ فيه وعند العقلاء والخواص أصبحت رمزا لكل الحجج التى ندلى بها صباحا ومساء فى أكلنا ونومنا ومحادثاتنا • فياعجبا كل العجب من هـذا البيان القرآنى • ظاهره يفهمه الجاهلون • وباطنه بحر علم زاخر وأمر عظيم وحكمة دقيقة بالغة لايمسها إلا المطهرون • ولايعقلها إلا العالمون • ولايدركها إلا المفكرون • ولما كان أكثر الناس

متقلبين فى هذه الحجج صباحا ومساء قال ـ ولا تجد أكثرهم شاكرين ـ وقال تعالى فى آية أخرى ـ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون إلا الظن ـ فانظر كيف تطابق القولان

ولما كان هذا شأنه (قال اخرج منها) من السماء (مذؤما) معيبا من ذأمه اذا ذمّه والذأم والذم العيب (مدحورا) مطرودا مبعودا من رحمة الله والله (لمن تبعك منهم) وجواب القسم قوله (لأملأن جهنم منكم أجمعين) والقسم وجوابه جواب الشرط . ولما أتم الكلام على ابليس وكبره وحججه السفسطية أخذ يبين نتائج هذه الأخلاق وثمراتها فان من طبيعة هذا الوجود أن يجذب كل مخلوق غيره الى مشاكلته والدخول فى زمرته والسير على طريقته والجرى على منواله . ألا ترى الى النبات كيف يجتذب اليه العناصر المحيطة به فتدخل فى تركيب جذوعه وسوقه وأغصانه وأوراقه وأزهاره وأثماره والى الحيوان كيف يجتذب تلك الأوراق والأزهار الى جثمانه فتتشكل بهيئته وعروقه وعظامه ولحمه ودمه ورأسه وعينه والى الانسان كيف كان يسعى لأن يملك ماحوله ويستخدم الانسان والحيوان المحيط به ولا يفتأ يدعو من حوله ليكونوا على شاكلته فى أخلاقه وملابسه وعاداته ودياناته وعلومه . وهذه الطبيعة شاملة لهذا الوجود حتى ان النار لتلتهم ماحولها وتدخله فى حدود مزاجها والماء يرطب ماخالطه . فهكذا هنا فى ابليس لما حرم الدرجات العليا وتلبست نفسه بالاثم والبغى وخاطب الله بحجة المغالطة أشربت نفسه الضلال والبهتان وأصبح ذلك عادة ملازمة وطريقة دائمة أخذ يلقى الى غيره من بنى آدم مارسخ فى نفسه ويوحى اليهم ما امتلأت به نفسه من الضلالات والرجس والبهتان كما نرى أن المرأة الفاجرة اذا طوى الزمان سجل شبابها وخارت قوى شهواتها وفارقها أعز أحبابها عمدت الى الشابات فأوعزت اليهن بما امتلأت به نفسها . وهكذا الرجال الفاسقون الذين شبوا وشابوا وهم فى الفسوق هائمون تستروح نفوس هؤلاء وهؤلاء بمن يشاكلهم فى أخلاقهم ويوافقهم فى آدابهم ويناسبهم فى أعمالهم ويحب الفاجر والأكول أن يرى الفاجرين والآكلين ليتسلى بطلعتهم ويفرح بمرآهم

وقد ورد فى المثل «ان الطيور على أشكالها تقع» لذلك قص الله قصص آدم الذى أغواه ابليس ولقنه من الحجج السفسطية ما امتلأت به نفسه لميله الى طبعه ويقوده الى خلقه استرواحا بالنقائص وحبا للمشاكلة فقال (و) قلنا (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) أما الجنة فهى كما قال أبومسلم الأصبهانى كانت بعض جنات الأرض ولذلك تمكن الشيطان من الوسوسة لآدم فلذا قال تعالى (فوسوس لهما الشيطان) الوسوسة الصوت الخفى كالهيمنة والخشخشة . ومنه وسواس الحلى . ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ووسوس اليه ألقاها اليه ثم ذكر عاقبة الوسوسة فقال (ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما) ليكشف لهما ماستر عنهما من عورتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . ثم ذكر كيفية الوسوسة والحجة السفسطية التى اجتذب بها ابليس آدم وأغواه بها فقال تعالى (وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا) كراهة (أن تكونا ملكين أوتكونا من الخالدين) أى انما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة لأن من أكل منها إما أن يكون كالملائكة يعلم الخير والشر ويستغنى عن الغذاء واما أن يكون من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة . فالله منعكما منها لتبقيا مفتقرين للأكل والشرب ولتموتا فهو بهذا المنع يحرمكما من الكمال الأتم والمقام الأعظم . ولم يكتف بهذا الدليل الموهوم بل أقسم لهما (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) فبهذا البرهان المغالطى الذى يشبه البرهان المتقدم الذى تعالى فيه على آدم بشرف عنصره وبالقسم الذى يدخل فى النفس صدق قائله خدع آدم فلذلك قال (فدلاهما) أى فنزلهما الى الأكل من الشجرة وبذلك أنزلهما من درجة عالية الى درجة سافلة (بغرور) بما غرهما به من القسم كما يقول الرجل لآخر اشرب هذا الكأس فانه مقو لشهوة الطعام ومفرح للقلب وكما يقول آخر انما الحياة مغالبة فخذ من الناس ماقدرت عليه حقا وباطلا (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما)

أي فلما وجدا طعمها وهما يأكلان منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عورتهما كما يسقط لباس الشرف والفضل والمال بالخمر والزنا والظلم ويصبح الانسان موصوفا بأنواع الفسوق والظلم وتتلون نفسه بلون تلك المعاصي فتصير سجية له . وهل لباسهما كان نورا ساطعا مانعا من رؤية العورات أوغيره لافائدة في معرفة ذلك لأن الذي يهمنا نحن غير ذلك . يهمنا أخلاقنا المستنبطة من هذه القصة

ولما كان من يفعل ذنبا يجد في اخفائه ليستر عورته البادية ويخفيها ويكتمها عن الناس حتى لا تنكشف سوأته ويبذل للقراء وللخطباء الأموال ويدفع للجرائد مالا ليذودوا عنه وليخفوا عوراته وسوآته . هكذا من انكشفت عورته يجد في اخفائها لذلك قال الله تعالى (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أي أخذا يرقعان ويلزقان ورقه فوق ورقة من ورق التين أوغيره . وكما انك ترى من نوع الانسان في السودان المصرى من يعيشون بلا لباس بل هم عراة يأنفون الملابس ولاستر عليهم حتى على عوراتهم واذا حضروا أمام الحكام المصريين أوالانجليز ألبسوا لباسا ثم يخلعونه عند خروجهم . وهناك قوم آخرون يخصفون الورق وآخرون يسترون العورة . وهكذا ذكر الله كيف كان آدم عاريا ثم خصف الورق ثم أنزلهما الى الأرض فزرع هو وأولاده فأكلوا ولبسوا بعرق جبينهم . ولما كان الانسان عادة يذكر عواقب الذنوب بعد وقوعها ويكون التوبيخ والتقريع قال الله (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) يعاتبهما على مخالفة النهي موبخا (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) أضررناها بالمعصية والتعريض للاخراج من الجنة (وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذا كان قبل أن يكون آدم نبيا واعلم أن طاعة الجاهل قد تكون معصية العالم وطاعة العالم قد تكون معصية الأنبياء كما قيل ﴿ حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴾

ألا ترى أن العالم المفكر اذا ترك العلم وأخذ في العبادة ليلا ونهارا وترك الأمة فانه قد عصى وظلم نفسه ولكن معصيته بترك ماهو أفضل ويعاقب مع ان صرف الزمن في العبادة أرقى درجات الذين تنحوا عن العلوم وعن الأعمال النافعة للأمة . فمعصية آدم بالنسبة لدرجته فما صدر منهم على سبيل السهو أوالتأويل يجدون في أنفسهم حرجا منه وليست معاصيهم كمعاصي بقية الناس هكذا يقول كثير من العلماء . لذلك خاطب الله آدم وحواء وذريتهما (قال اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) أي متعادين وذلك أن العالم الانساني مركب من عناصر مختلفة وطباع متشعبة وباختلاف قواه تختلف الأخلاق وباختلاف الأخلاق تكون العداوات وبالعداوات يكون الارتقاء فان المسابقات في الحروب والصناعات والأعمال تحث الناس على إكمال الأعمال فصار العقاب على المعاصي من أسباب الكمال . فان النوع الانساني لما تنزل عن العالم الكامل الجميل ونزل الى عالم الكون والفساد كان المعبر عنه بالعقاب سببا لارتقائه وسهولة معايشه . ولذلك أردفه بقوله (ولكم في الأرض مستقر) استقرار (ومتاع) تمتع (الى حين) الى أن تنقضي آجالكم (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) للجزاء على الأعمال . انتهى المقصد الثاني من القسم الأول من سورة (الأعراف)

(المَقْصِدُ الثَّالِثُ)

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ

حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا
وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ *
قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ
رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ
أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ
لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ
الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ

الْأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي هَدانا لِهٰذا وَما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانا اللّٰهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ * وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ * وَنادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللّٰهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنادى أَصْحابُ النّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قالُوا إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هٰذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

اعلم أن هذا المقصد قد جاء عقب قصة آدم ليبين المقصود من القصص وانها ليست ترد لمجرد الحكاية فماذا يهمّ الحاضرين من الماضين إلا العبرة . ولعمرى ليس للتاريخ من فائدة إلا الاتعاظ فلذلك لما قصّ الله قصص آدم عليه السلام أخذ سبحانه يبين مقاصد وفوائد هذه القصة المشتملة على لباس آدم وقد تعرى منه وعلى أن ذلك بسبب فتنة الشيطان له وبهاخرج من الجنة وعلى احتجاج ابليس بأنه من عنصر النار واغوائه لآدم حتى لبس عليه الأمر فقال انك ان أكلت من الشجرة كنت كالملائكة فهذه ثلاث أصول اللباس والاغواء والحجة الداحضة فلذلك أخذ الله عزّ وجل يخاطب بنى آدم جميعا ممتنا عليهم باللباس الذى أنزله فى الأرض من القطن والكتان والحرير وما أشبهها بحيث يستغنون عن خصف الورق . وكيف كانت العناصر الأرضية بتفاعلها وامتزاجها بنسب معلومة تكون قطنا أوكتانا وهى بأنفسها على نسب أخرى تكون قمحا أوشعيرا فالملبوس هو عين المأكول من حيث العناصر وانما أصبح هذا ثوبا وهذا رغيفا لاختلاف المقادير الداخلة فى النباتين (راجع هذا المقام العجيب فى سورة البقرة) عند قوله تعالى ـ وانظر الى حمارك لى آخر الآيات ـ فى قصص العزير فانك تجده مستوفى هناك من علم الكيمياء العضوية فتأمّل فيما هناك وتعجب وذلك هو السرّ العجيب فى قوله تعالى ـ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ـ وقد أفاد أن اللباس الجسمى الناتج من هذه العناصر الذى هو من آيات الله ويوارى سوآتكم وتتجملون به ليس خير لباس بل لباس التقوى من العمل الصلح

والايمان والحياء والسمت الحسن والعفاف وخشية الله فهذا اللباس خيرمن اللباس الذى أنزله الله للناس من القطن والحرير والكتان الخ

ثم أشار سبحانه الى ثانى الامور الثلاثة وهو الاغواء فقال محذرا أبناء آدم قائلا . إياكم يابنى آدم أن يخرجكم الشيطان من الجنة باغوائكم كما أخرج أبويكم من الجنة فلاينزعنّ ملابس التقوى عنكم كما نزع عن أبويكم اللباس . وبين سبب ذلك بأن ابليس وقبيله يرونكم من حيث لاترونهم وأن الأرواح جنود مجندة والنفوس الشيطانية تنزع الى أخلاقها فى وسوستها . ولقد جاء فى علم الأرواح الحديث وفى مقال الامام الغزالى والفخر الرازى أن أرواح الأشرار من الناس تمنى لوتعاد الى اللذات فى الدنيا فلما حرمت تلك اللذات أخذت توسوس لما شاكلها من أرواح الأحياء حبا فى المشاكلة واكثارا للأمثال والأشكال كما سيأتى فى قصة بلعام ابن باعوراء الذى آتاه الله العلم والحكمة فتركها وصار معلما الضلال . فالعالم الفاضل يعلم الناس طريقه حيا بالتعليم وميتا بالالهام . والفاسق الضال يعلم الضلال حيا وميتا كما قيل عن هؤلاء الأعلام وكأن الشرير ملحق بالشياطين والفاضل ملحق بالملائكة فهذا قوله تعالى ــ انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون ــ

وأشار سبحانه الى الأمر الثالث فى القصة وهو الاحتجاج بالمغالطة كما احتج ابليس عند ربه لما أغرى آدم فقال (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) فهذه الحجة كالتى تقدمت فى قول ابليس إذ اعتبر الفضل بالأصل وهكذا هؤلاء يعتبرون التشريع بالموروث عن الآباء والحجتان مستويتان مغالطتان فان الآباء قد يكونون ضالين كما كانت النار فى حجة ابليس قد تكون سبب التدمير والاهلاك كما ان المخلوق منها وهو ابليس والشياطين والأرواح الشريرة سبب المعاصى والضلال لقصور عقول الأرواح الموسوسة والموسوس اليها . وهذا هو ملخص قوله تعالى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) الى قوله (أتقولون على الله ما لاتعلمون) وقوله فيها (يوارى سوآتكم) أى التى قصد الشيطان ابداءها * يروى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لانطوف فى ثياب عصينا الله فيها وقوله (وريشا) أى لباسا تتجملون به والريش الجمال . وقيل الريش المال يقال تريش الرجل اذا تموّل (ولباس التقوى) تقدم هنا تفسيره وقوله (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) حال من أبويكم (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) تعليل للنهى وتأكيد للتحذير منه ومن جنوده وقوله (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون) أى بما أوجدنا بينهم من المناسبة وقوله (قل إن الله لايأمر بالفحشاء) لأنه تعالى لايأمر إلا بمكارم الأخلاق والفضائل

ثم أخذ سبحانه يبين الأوامر التى يأمر بها الله فقال (قل أمر ربى بالقسط) بالعدل وهو الوسط فى كل شئ فلا افراط ولاتفريط فى قول ولافى عمل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) أى اقصدوا عبادته تعالى مستقيمين اليها غير عادين الى غيرها فى كل وقت سجود أوفى كل مكان سجود (وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة مبتغين بها وجهه خالصا (كما بدأكم تعودون) كما أنشأكم ابتداء يعيدكم . واذا كان كذلك فلتكن العبادة خالصة له سبحانه وتعالى (فريقا هدى) بأن وفقهم للايمان (وفريقا حقّ عليهم الضلالة) بمقتضى استعدادهم ثم بين سبب ذلك فقال (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) للمناسبة الموجودة بينهم وهذا مقتضى طباعهم (ويحسبون أنهم مهتدون) فان المذنب له حجة يقتنع بها كما اقتنع ابليس بحجته والضالون مقتنعون بالاحتجاج باتباع الآباء . واعلم أن النوع الانسانى ماأوقعه فى الضلال إلا جهله فمن سرق أوقتل أوظلم أوأسرف فى الأكل والشرب وغيرها أواستدان أوأسرف فى عمل من أعمال الحياة فانه لم يفعل ذلك إلا وهو معتقد أن له عذرا . ولاترى شريرا أوظالما إلا وعنده براهين يقيمها وأعذار ينتحلها كالبرهان المذكور عن ابليس فقوله ــ ويحسبون انهم مهتدون ــ أى بما قام عندهم من الدليل السفسطى

الذى

الذى أقامه ابليس فى تفضيله نفسه على آدم

ولما كان ذكر المساجد والصلاة فيها والدعاء بعد ذكر اللباس ناسب أن يبين حكم الملابس فى الصلاة . ولما كان الأكل مناسبا للملابس لاقترانه به فى أمور الحياة ذكر أحكامهما معا فقال (يابنى آدم خذوا زينتكم) ثيابكم لمواراة عوراتكم (عند كل مسجد) لطواف أوصلاة . ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة فى الصلاة . وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة

قال قتادة كانت امرأة تطوف وتضع يدها على فرجها . وقال ابن عباس انه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى ان كانت المرأة لتطوف بالبيت وهى عريانة فتعلق على سفلها سيورا مثل هذه السيور التى تكون على وجه الحمر من الذباب . وهى تقول

اليوم يبدو بعضه أوكله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ـ خذوا زينتكم عند كل مسجد ـ أخرجه مسلم . وقال مجاهد كان حىّ من أهل اليمن كان أحدهم اذا قدم حاجا أومعتمرا يقول لاينبغى لى أن أطوف فى ثوب قد عصيت ربى فيه فيقول من يعيرنى مئزرا فان قدر عليه والا طاف عريانا فأنزل الله فيه ماتسمعون ـ خذوا زينتكم عند كل مسجد ـ والمراد من الزينة لبس الثياب التى تستر العورة فستر العورة واجب فى الصلاة والطواف . وقد كان بنو عامر لايأكلون فى أيام حجهم الا قوتا ولايأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم . فقال المسلمون نحن أحقّ أن نفعل ذلك يارسول الله فأنزل الله عزوجل (وكلوا) من اللحم والدسم (واشربوا ولاتسرفوا) بالشروع فى الحرام أوفى مجاوزة الشبع أو بتحريم مالم يحرّمه الله من أكل اللحم والدسم فلا تحرّم الحلال ولاتتناول الحرام ولا يكن منك افراط فى الطعام وشره عليه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما كل ماشئت واشرب ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة

وكان للرشيد طبيب نصرانى حاذق . فقال لعلىّ بن الحسين بن واقد ليس فى كتابكم من علم الطب شئ والعلم علمان . علم الأبدان . وعلم الأديان . فقال له قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه وهو قوله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولاتسرفوا ـ . فقال النصرانى ولم يروعن رسولكم شئ فى الطب . فقال جمع رسولنا الطب فى ألفاظ يسيرة وهى قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء واعط كل بدن ماعوّدته ﴾ . فقال النصرانى ماترك كتابكم ولانبيكم لجالينوس طبا . ولما كان الاسراف مذموما شرعا وعقلا أتبع ماتقدم بقوله تعالى (إنه لايحبّ المسرفين) فى الأكل والشرب وغيرهما . فأما فيهما فالمرض وضياع المال . وأما فى اللباس والزينة وزخرفة المنازل والمباهاة فان الاسراف فيها يدعو الى ضياع المال والمجد ثم ان الأمم الشرقية الاسلامية وغيرها التى تتناول صناعات الفرنجة من مأكل وملبس ومشرب ومفرش وهم يصرفون فيها أموالهم ويهلكون أنفسهم يصبحون وقد ملكهم أرباب تلك المصنوعات ثم تبعهم دولهم فيحتلون البلاد . ولقد غرق العالم الاسلامى اليوم فى المنسوجات الافرنجية وفتنوا بأعمالهم فياليتهم قلدوهم فى الصناعات ولكنهم اشتروا مصنوعاتهم ترويجا لها وكسادا لصناعات بلادنا فينشط الأجنبى ويكسل الوطنى وتتدلى الأمّة الى مقام الذل والعبودية

إن التجارة اليوم هى أسّ الاستعمار والاحتلال كما هو حاصل فى أكثر بلاد الشرق . إن اسراف المسلمين أذلهم للفرنجة وأضاع بلادهم . لأذكر لك مثلا مما امتاز به المسلمون فى الاسراف لتعلم كيف جهل ملوكهم جهلا فاحشا فأسرفوا وعموا عما حولهم من العالم الراقى وجهلوا دينهم جهلا فاحشا فقلدهم العامّة وحذوا حذوهم فى الاسراف فلذلك سقطوا فى الذل لأن الله لايحبهم لأنهم مسرفون ومن لايحبه الله أذله فهؤلاء المسرفون يبغضهم الله وان كانوا فى ظاهرهم مسلمين فهاك ماجاء فى احدى جرائدنا المصرية يوم ٦ نوفبر

حمل الينا البرق فى الاسبوع الماضى نبأ الاحتفالات الباذخة التى أقامها مولاى يوسف سلطان مراكش احتفالا بتزويج ولديه وطرفا من النفقات الطائلة التى بذلت فى هذه الاحتفالات من ذلك أن تكاليف الأنوار بلغت وحدها ثلاثة ملايين فرنك والحلوى زهاء مليون والمثلجات زهاء مليون وأن المدعوين من فرسان وسادة وأمراء بلغوا زهاء أربعمائة ألف فذكرنا فى الحال ذلك الاغراق الذى يبلغ حد السفه فى صنوف البذخ الذى لبث لعنة الأمم الشرقية على القرون ٠ ثم قرأنا بعد ذلك ما أذيع من محتويات البرنامج الرسمى لقران ملكى آخر هو زواج ولى عهد البلجيك بالأميرة (أستريد) السويدية ٠ واليك خلاصة هذا البرنامج الذى يشف عن الحزم ولاتنقصه الفخامة فى نفس الوقت

يعقد العقد المدنى فى (استوكهلم) ثم يعود الأمير البلجيكى وعائلته الى (بروكسل) فى اليوم السابع من هذا الشهر وفى اليوم التالى تذهب العائلة المالكة الى (انفرس) حيث يصل فى ذلك اليوم الطراد السويدى (تالجيا) وعلى ظهره الأميرة (أستريد) ووالداها ودوق ودوقة فستروجاسى والأمير اليكس الدنماركى وزوجته وأشقاء العروس وغيرهم من الأمراء والأميرات

ولن يحضر ملك السويد الى (بروكسل) حيث تذهب الأسرتان الملكيتان فى قطار خاص وتقام الزينات من المحطة الى القصر الملكى ٠ وتقام فى المساء حفلة كبرى فى الاوبرا تقيمها بلدية (بروكسل) اكراما للعروسين

ثم تقام حفلة الزواج الدينى فى كاتدرائية (بروكسل) فى اليوم العاشر من نوفمبر ٠ وفى المساء يقيم ملك (البلجيك) وملكته حفلة استقبال كبرى يحضرها ثلاثة آلاف شخص ٠ ويقال ان البرنس (أوف ويلز) سيكون بين المدعوين

هذه مقارنة اسراف السلطان المراكشى واقتصاد البلاط البلجيكى وهو اسراف يثير العقل والحزم خصوصا اذا ذكرنا ماهنالك من فرق بين البلجيك ومراكش و بين سلطان تظلله الحماية الأجنبية و بلاط أمة مستقلة

وهذا من سر قوله تعالى ـ إنه لايحب المسرفين ـ ثم أخذ سبحانه يرد على من حرم الملابس فى الطواف فقال (قل) يامحمد لهم (من حرم زينة الله) من الثياب وكل مايتجمل به (التى أخرج لعباده) أى أصلها يعنى القطن من الأرض والقز من الدود ونحو ذلك (والطيبات من الرزق) والمستلذات من المآكل والمشارب ٭ قيل كانوا اذا أحرموا حرموا الشاة ومايخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) بالاصالة والكفار وان كانوا شركاءهم فيها فهم تبع لهم (خالصة يوم القيامة) لايشاركهم فيها غيرهم ٠ ثم قال (كذلك) أى كتفصيلنا هذا الحكم (نفصل الآيات لقوم يعلمون) و ياعجبا لم ختم هذا المقام بهذه الجملة بعد أن أبان أن الطيبات من الرزق حلال وأن زينة الله التى أخرج لعباده كذلك ٠ وما الغرض إذن من تبيين الآيات لقوم يعلمون ٠ يريد الله عزوجل أن يفهمنا فى أيامنا هذه نظائر ما كانت تفعله الجاهلية وأن نقيس الغباوة والجهل الحاصلين فى بلاد الاسلام الآن بالغباوة والجهل اللذين كانا عند أهل الجاهلية ٠ كلا ٠ ثم كلا ان الغباوة والجهل الحالين بأمم الاسلام الآن أشد وقعا وأعظم فتكا وأشد قتلا وأقوى عملا وأبعد أثرا فى انحطاط الأمم الاسلامية من عمل الجاهلية فى انحطاط أممهم ٠ ولعمرى لئن تحامى الجاهلى لبس الثوب فى الطواف فلكم تحامى بعض علماء الاسلام فى أيام أسلافنا وفى العصر الحاضر أن يدرسوا علوم الآفاق من الفلك والطبيعة مثلا ويحسبون أنهم بذلك يخدمون الدين وهم انما يخدمون الشيطان ويحسبون أنهم مهتدون

اختص الفرنجة بالمعادن ونظام النبات وتربية الحيوان ٠ فأما المسلمون فانما يقرؤن ما كان يقرؤه آباؤهم وهم مقتصرون على علوم قشرية وأحكام شرعية وهم فى الكون لاينظرون ٠ ومن بحر نعمة الله الزاخر لايغترفون

ولئن تحرّج بنوعامر أيام الحج عن تعاطى الطعام الدسم واللحم . واذا امتنع أهـل اليمن أن يلبسوا أثوابهم فى الطواف فلقد تخطى المسلمون فى أقطار الأرض كل معقول وتركوا نعم الله فى الأرض وفى السماء للفرنجة وخالفوا نص كتابهم لظنهم أن علم الفقه كاف وحده . ولقد أخـبرنى عظيم من عظماء الهند أن بعض العلماء هناك يحرّمون العلوم وقال لى العالم الصينى (وان ون كين) من مدينة (نايتسن) ان العلماء هناك حرموا على المسلمين جميع العلوم حتى سبقتهم الأمم العائشة معهم فى الصـين من الوثنيين . ولعمرى لئن قال الله هنا ـ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ـ وقال المفسرون ان زينة الله للذين آمنوا بالاصالة ولغيرهم بالتبع . لقد انعـكس الأمر وأصبحت زينة الله ومائدته المنصوبة ونجومه المنظورة وحيواناته المبثوثة ونباتاته المشهودة وآثاره المشهودة وجنوده المنظومة ومدنه العظيمة وجواهره البـديعة ومعادنه اللطيفة ونظام الحـكومات وحفظ العـلوم واللغات . كل ذلك أصبح خاصا بالفرنجة والمسلمون لهـم تابعون . فيا الله ألهمنا علما وحكمة اننا من عبادك . وهذا كتابك وأنت أخبرت أنها لنا فى الدنيا وقال السادة المفسرون انها لغيرنا تبع لنا فـكيف انعكست الآية . اللهم انك عدل وقولك صدق نصبت المائدة فأعرضنا ودعوتنا الى شكر النعمة فامتنعنا وأحجمنا . اننا يا الله حاملو كتابك لمن بعدنا وهم الذين يكونون قد تلوا نعمك وزينتك بالاصالة وغيرهم تبع لهم لأنهم رحمة للعالمين بعد نبينا ﷺ

ثم شرع سبحانه يبين ما حرّمه فقال (قل انما حرّم ربى الفواحش) جمع فاحشة وهى ما قبح وفحش من قول أو فعل أى قل يا محمد لهؤلاء المتجرّدين من الثياب عند الطواف ويحرّمون أكل الطيبات مما أحل لهم كيف تحرّمونه على أنفسكم والله لم يحرّمه عليكم ـ انما حرم ربى الفواحش ـ من الأفعال والأقوال (ما ظهر منها وما بطن) أى سرّها وعلانيتها (والاثم) وما يوجب الاثم وهذا تعميم بعد تخصيص (والبغى) الظلم والـكبر (بغـير الحق) متعلق بالبغى للتأكيد (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) تهكم بالمشركين ودلالة أن ما ليس عليه برهان لا يجوز اتباعه (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) بالالحاد فى صـفاته تعالى والافتراء عليه كما قالوا هنا والله أمرنا بها

ولما أتمّ سبحانه الـكلام على ما ترتب على القصة من الأوامر والنواهى شرع يحذر الناس أفرادا وأمما (١) من التهاون لئلا تعاجلهم المنايا (٢) ومن عصيان الرّسـل بالـكذب والافتراء وينـذرهم هول الموت وسؤال الملائـكة . وكيف يجتمع الظالمون من الأمم لا تحاذهم فى الصفات ويلقى الآخرون الذنب على الأوّلين وكيف تـكون حجتهم داحضة فلا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة وانما يدخلون النار وليس التكليف بما لا يطاق فعلى كل امرئ أن يقوم بما فى وسع طاقته . ثم وصف أهل الجنة بأنهم صافية نفوسـهم عالية درجاتهم . وهناك محاورات أهل الجنة وأهل النار . وكيف يكون الأنبياء والعلماء بين الجنة والنار وهم ينظرون الى أهلهما ويحاور بعضهـم بعضا . هذا ملخص ما يأتى من الآيات وهو (ولـكل أمة أجـل) وقت معين لنزول العذاب بهـم اذا كذبت رسولها وهذا وعيد لأهـل مكة (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت (يابنى آدم إما يأتينكم رسـل منكم يقصون عليكم آياتى) أى يقرؤن عليكم كتبى والجملة صفة وجواب الشرط قوله (فمن اتقى) الشرك (وأصلح) العمل منكم (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا) تعظموا عن الايمان بها (أولئـك أصحاب النار هم فيها خالدون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) ممن تقوّل على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله (أولئك ينالهم نصيبهم من الـكتاب) مما كتب لهم من الأرزاق والآجال أو من اللوح المحفوظ (حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) أى يتوفون أرواحهم باذننا وهم أعوان ملك الموت المذكور فى آية أخرى . فالموت من الله بواسطة الملك وأعوانه وجواب اذا قوله تعالى (قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال

توبيخ أى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله (قالوا) أى قال الكفار مجيبين الرسل (ضلوا عنا) غابوا عنا (وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كفرين) اعترفوا بكفرهم (قال) الله تعالى يوم القيامة أوأحد الملائكة (ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم) أى كائنين فى جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة (من الجن والانس) يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين (فى النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) النار (لعنت أختها) شكلها فى الدين أى التى ضلت فى الاقتداء بها (حتى اذا اداركوا) أصله تداركوا أى تلاحقوا واجتمعوا فى النار فأبدلت التاء دالا وسكنت للادغام ثم أدخلت الهمزة (جميعا) حال (قالت أخراهم) منزلة وهم الأتباع والسفلة أوآخرهم دخولا (لأولاهم) أى لأجل أولاهم لأن الخطاب مع الله وهؤلاء اما القادة والرؤس واما الذين دخلوا أولا على ماتقدم (ربنا هؤلاء أضلونا) سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم (فآتهم عذابا ضعفا من النار) مضاعفا لأنهم ضلوا وأضلوا (قال لكل ضعف) أما القادة فبكفرهم وتضليلهم وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم (ولكن لاتعلمون) مالكل فريق منكم من العذاب (وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل) عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة أولل أخرين فى الدخول - لكل ضعف - أى فقد ثبت ألا فضل لكم علينا وانا متساوون فى استحقاق الضعف (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة أوالمتقدمين دخولا للأخرين ويصح أن يوقف على فضل وتكون الجملة بعده من كلام الله والخطاب منه سبحانه للطائفتين • ثم شرع سبحانه يصف مايلاقيه الرؤساء والمرؤسون جميعا فقال (إن الذين كذبوا بآيتنا واستكبروا عنها) أى عن الايمان بها (لاتفتح لهم ابواب السماء) لايؤذن لهم فى صعود السماء ليدخلوا الجنة إذ هى فى السماء وانما تكون أرواحهم راجعة الى ما كانت تحن اليه من العالم السفلى فتبقى فيه محبوسة تهيم فى أودية العوالم المظلمة والتاء فى تفتح لتأنيث الأبواب و لتشديد لكثرتها • وفى قراءة - لاتفتح - بلاتشديد (ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) الولوج الدخول والجمل الحبل الغليظ من القنب وكذلك الحبل الذى تشد به السفينة • وسم الخياط ثقب الابرة فسم بالضم والكسر والخياط والمخيط مايخاط به وهو الابرة فدخول الكفار الجنة محال كما ان دخول الحبل العظيم فى ثقب الابرة محال • ويصح أن يراد بالجمل الحيوان المعروف والمعنى واحد ثم قال (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى المجرمين * لهم من جهنم مهاد) فراش (ومن فوقهم غواش) أغطية (وكذلك نجزى الظالمين) المشركين وصفهم تارة بالاجرام وتارة بالظلم وقرن الأول بالحرمان من دخول الجنة وقرن الثانى بالعذاب تنبيها على عظم الذنب • يقول ان توغلهم فى المادة و بعدهم عن صفاء النفوس منعهم من دخول الجنة فلا محالة يدخلون النار بظلمهم للتناسب بين الساكن والمسكن

ولما وصف الكافرين بما ذكر أخذ يصف سبحانه وتعالى المؤمنين ومن عادة القرآن أن يتبع الوعيد بالوعد والعكس

﴿ وصف المؤمنين ﴾

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وقوله - لانكلف نفسا إلا وسعها - جملة اعتراضية للترغيب فى اكتساب النعيم المقيم (ونزعنا مافى صدورهم من غل) أى نخرج من قلوبهم أسباب الغل أونطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد فانه لايتفق النعيم مع الحقد والغل كما ان النار تناسب الطباع الغليظة التى لاصفاء فيها فالاجرام سبب دخول النار كما ان الصفاء يناسب دخول الجنة (تجرى من تحتهم الأنهار) زيادة فى لذتهم وسرورهم ولاللذة بالأنهار وغيرها إلا القلوب خلت من الشواغل المحزنة كالغل فلذلك قدم نزعه • ولما تم لهم السرور النفسى ومباهج الآفاق حولهم فرحوا (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) لما جزاؤه هذا (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) لولا هداية

الله وتوفيقه لنا وجواب لولا محذوف دل عليه ماقبله أى وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله لنا واللام لام الجحود لتوكيد النفى ثم قال (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) فاهتدينا بارشادهم يقولون ذلك اغتباطا وسرورا واظهارا لما اعتقدوا (ونودوا أن تلكم الجنة) أن بمعنى أى كأنه قيل وقيل لهم تلكم الجنة (أورثتموها) أعطيتموها بسبب أعمالكم والجنة بدل أوعطف بيان لتلكم وأورثتموها خبر . ولقد ورد فى الحديث أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله وانما يدخلها برحمة الله تعالى وهو لاينافى ماهنا لأن العمل الصالح من رحمة الله فالعمل الصالح من الرحمة ودخول الجنة مسبب على ماتسبب من الرحمة (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن) بمعنى أى فهى مفسرة (قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا) وهذا المقول شماتة بأصحاب النار وتحسير لهم واعتراف بنعم الله لهم وقوله ـ ماوعد ربكم ـ أى وعدكم ربكم (قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم) نادى مناد وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار (أن) بمعنى أى مفسرة كما تقدم (لعنة الله على الظالمين) ثم وصفهم بقوله (الذين يصدون عن سبيل الله) دينه (ويبغونها عوجا) أى ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض (وهم بالآخرة) بالدار الآخرة (كافرون * وبينهما) وبين الفريقين (حجاب) وهو السور المذكور فى قوله ـ فضرب بينهم بسور ـ أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر احداهما الى الأخرى (وعلى الأعراف) أى على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الفريقين أو الدارين وهى أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك . والعرف المرتفع من الشئ فهو لظهوره يكون أعرف من غيره (رجال) من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخيار المؤمنين والعلماء (يعرفون كلا) من زمرة السعداء والأشقياء (بسيماهم) بعلاماتهم . واعلم أن الفراسة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن قال تعالى ـ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ـ وقال ـ تعرفهم بسيماهم ـ وقال ـ ولتعرفنهم فى لحن القول ـ فكأن الفراسة اختلاس المعارف وذلك ضربان ضرب يحصل للانسان عن خاطره ولايعرف له سبب وذلك ضرب من الالهام أوالوحى واياه عنى النبى ﷺ بقوله ان فى أمتى لمحدثين وان عمر لمنهم ويسمى ذلك أيضا النفث فى لروع والضرب الثانى ما يكون بصناعة متعلمة وهى الاستدلال بالاشكال الظاهرة على الأخلاق الباطنة وقوله تعالى ـ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ـ قال بعض العلماء فيه ان البينة هو القسم الأول وهو اشارة الى صفاء جوهر الروح والشاهد هو القسم الثانى وهو الاستدلال بالاشكال على الأحوال . فاذا سمعت المفسرين يقولون ان أصحاب الأعراف يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم وأهل الجنة ببياض وجوههم ونضرة النعيم وبعضه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فاعلم أن ذلك ضرب من سيماهم والسيما العلامة الدالة على شئ وأصله من السمة (ونادوا أصحاب الجنة) أى نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة (أن) بمعنى أى كما تقدم (سلام عليكم) وذلك تهنئة منهم لأهل الجنة وقوله تعالى (لم يدخلوها) صفة لرجال أى لم يدخلوا الجنة (وهم يطمعون) فى دخولها * قال الحسن ماجعل الله ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم . ولاتظن أن الجنة التى طمعوا فى دخولها لم يدخلوها إلا أعلى الجنة التى لايصل اليها إلا المقربون وانما وقفوا على الأعراف ليطلعوا على الفريقين ليظهر عدل الله على ألسنتهم وليبينوا للناس أن هذا جزاء مافعلوا من خير وشر ثم يرتقون الى منازلهم العالية وهذا على أنهم أعاظم الناس من الأنبياء وغيرهم وهناك تفسير آخر لامحل لذكره وهؤلاء كما قالوا لأهل الجنة سلامتم من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة حين ينظرون اليهم يقولون لأهل النار حين ينظرون اليهم ـ ماأغنى عنكم جمعكم الخ ـ ولذلك أعقبه سبحانه بقوله (واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا) نعوذ بالله (ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) فى النار (ونادى أصحب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم) من رؤساء الكفرة (قالوا ماأغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) عن الحق أوعلى الخلق (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة) وهذا من

تمة قولهم للرجال يشيرون الى أهل الجنة الذين كان الكفار يحتقرونهم فى الدنيا ويحلفون أن الله لايدخلهم الجنة (ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) أى فالتفتوا الى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوها وأنت ترى أن أصحاب الجنة نادوا أصحاب النار وأصحاب الأعراف نادوا الفريقين ولم يبق إلا أصحاب النار فلذلك قال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن) بمعنى أى مفسرة (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) من غيره من الأشربة أو الطعام والفاكهة اذا أريد من الافاضة الالقاء (قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) منعهما عنهم منع المحرم عن المكلف ٠ ثم وصف الكافرين فقال الله تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) فحرموا وأحلوا ماشاؤا (وغرتهم الحياة الدنيا) اغتروا بطول البقاء فيها وخصب العيش ولذته (فاليوم ننساهم) نتركهم فى العذاب المهين (كما نسوا لقاء يومهم هذا) فلم يخطروه ببالهم ولم يستعدوا له (وما كانوا بآياتنا يجحدون) وما كانوا منكرين أنها من عند الله أى كنسيانهم وجحودهم (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ وميزنا حلاله وحرامه وقصصه (على علم) عالمين بكيفية تفصيل أحكامه (هدى ورحمة) حال من منصوب فصلناه (لقوم يؤمنون) ظاهر التفسير

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون الخ ـ ﴾

أيها المسلمون انظروا كيف يذكر الله عزوجل أخذ الملابس فى الصلاة ويعقبها بعدم الاسراف فى الأكل والشرب ويتبع ذلك بحل الطيبات من الرزق ٠ أيها المسلمون أى مناسبة بين الصلاة وبين الأكل والشرب وعدم الاسراف فيهما وحل الطيبات من الرزق ٠ ان المقام مقام علم وحكمة وليس للاهمال فيه من نصيب ولذلك ختم المقال بقوله ـ نفصل الآيات لقوم يعلمون ـ

يقول الله هنا ان أخذ الزينة فى الصلاة ونحوها والأكل والشرب بلا اسراف وطيبات الرزق انما نفصلها لقوم يعلمون ٠ و يقول فى سورة الأنعام قبلها ـ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ـ وأتبعه بأنه خلقنا من نفس واحدة الخ وأن ذلك البيان لقوم يفقهون فعلم الفلك لقوم يعلمون وعلم التشريح لقوم يفقهون كما تقدم ٠ وههنا علم الصحة لقوم يعلمون ٠ إذن علم الفلك وعلم الصحة كلاهما محتاج الى علماء ٠ أما علم الفلك والهيئة فعلمهما ملئت به الأقطار إلا فى بلاد الاسلام فى القرون المتأخرة اللهم إلا شذرات ضئيلة وهكذا علم الصحة ٠ اللهم انك أنت الذى أرشدت المسلمين لعلم الصحة فناموا وماذا تقول لهم أكثر من أن الطيبات حلال وأن الخبائث حرام وأن الاسراف فى المآكل والمشرب حرام وهكذا فى الملابس وكل شئ ٠ اللهم ان هذا هو علم الصحة ٠ ان علم الطب قسمان قسم يخص ارجاع الجسم الى الصحة بالعقاقير ٠ وقسم تحفظ به الصحة من المرض وثانى القسمين أفضل من الأول وهو الذى أوجبه الله فى هذه الآية وأمثالها ٠ جعل الله علم حفظ الصحة واجبا وجوبا شرعيا عينيا فعلى كل امرئ أن يعرف من علم حفظ صحته مايحتاج اليه وكما أن الواجب من علم الفقه كما تراه مسطورا فى احياء الغزالى على كل نفس ماتحتاج اليه فالزكاة لايجب تعلم تفصيلها إلا على من عنده ذلك النوع مما يملكه ٠ هكذا هنا فى صحة الأبدان يجب على كل امرئ فى نفسه أن يعتنى بصحته و يتعلم مايقدر عليه وكلما ازداد مرضا وضعفا وجب عليه أن يزيد علما وعلى أمة الاسلام أن يكون فيها علماء للصحة كما يكون فيها علماء للفقه

فقل لى رعاك الله ٠ قد جاء فى السور السابقة ـ يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم الخ ـ أمرنا الله بالصلاة وقال نظفوا أجسامكم تارة بالغسل وتارة بالوضوء ٠ وما الوضوء ولا الغسل إلا لصحة الصلاة وماطهارة الثياب إلا لذلك ٠ وماهذا وذاك إلا ليكون المصلى حاضر القلب لايلهيه قذارة ثوبه ولاجسمه وهو

متوجه للقبلة مصروف الفكر للمعبود • فاذا كان الوضوء ومايتبعه نافعات فى حضور قلب المصلى فيكون بالأولى مرة وألف مرة صحة البدن ان المريض ومن به قولنج أوصداع لايحضر قلبه فى الصلاة فاذن تكون العناية بالصحة أولى وأجدر ولهذا لما جاء الوضوء والغسل فى السور السابقة ووجوب النظر فى العالم العلوى والسفلى فى سورة الأنعام جاء فى هذه الآيات فى هذه السورة يقول لنا توضؤا واغتسلوا وتطهروا وانظروا فى السموات والأرض ولكن لايتم ذلك إلا بعلم الصحة فأنا أنهاكم عن الاسراف فى المأكل والمشرب وغيرهما وأنهاكم عن الخبائث فى الرزق والاسراف فى المأكل والمشرب لايعرفه إلا علماء يخلقون لذلك لأن هذا من فروض الكفايات وفروض الكفايات اذا لم تقم بها طائفة وقع الذنب على الجميع والمسلمون اليوم جميعا آثمون معذبون فى هذه الحياة الدنيا لذلك عذبهم الله بالجهل فى سائر العلوم لاسيما علم الصحة الذى لايتم حج ولاصلاة ولا زكاة ولاعلم إلا به • لهذا قال الله ـ إنه لايحب المسرفين ـ وحرم الخبائث المفهوم من لفظ الطيبات

اعتنى العلماء بعلم الفقه وابتدؤا بكتاب الطهارة • هذا حسن ولكن الأحسن منه أن يؤلف لأبناء المسلمين كتب صغيرة تعطى لهم قبل الوضوء والطهارة يذكر فيه علم الصحة امتثالا لقوله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولاتسرفوا ـ ولقوله ـ والطيبات من الرزق ـ ياعجبا كل العجب يذكر الله اللباس والأكل والشرب وعدم الاسراف ـ والطيبات من الرزق ـ مصحوبا بقوله ـ خذوا زينتكم عند كل مسجد ـ وقد علمت أن فى تفسيرها الصلاة • ان هذا رمز الى أن الصلاة كما تحتاج الى الوضوء والغسل تحتاج الى جسم صحيح وعقل حاضر ولاصحة ولاحضور عقل إلا بمعرفة علم الصحة فلئن وجب الوضوء فان الصحة أوجب أى الأخذ فى أسبابها أولى فاذا طرأ المرض على المصلى وتيمم لضرر الماء فليكن عليه أيضا أن يتداوى أو يلازم شروط الصحة جريا على أمر الله من عدم الاسراف ومن ترك الخبائث من الرزق

﴿ علم الصحة ﴾

وها أنا ذا أبدأ بما بدأ الله به فى الصحة وهى الملابس ثم المأكل ثم الماء وأبين الطيبات منها والخبائث بطريقة مختصرة وأتبع ذلك بفوائد صحية • وانى موقن أن علماء الاسلام بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيقرؤن علوم الطب ويوقنون بأنها من علوم الدين وأن ما أذكره هنا نموذج صغير أوقطرة من بحر أوحبة ستنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء

﴿ الملابس ﴾

يقول الله تعالى يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ـ ويقول ـ ولاتسرفوا ـ ولم يعين فى أى الأنواع يكون الاسراف فهو وان ذكر بعد الأكل والشرب محذوف المعمول فالله تعالى لايحب من أسرف فى أى عمل من الأعمال وحذف المعمول مؤذن بالعموم • فالاسراف فى الملابس وغير الملابس على حد سواء وسواء أكان الاسراف بغلو الثمن للفقير أوبالملابس التى تزيد عن الحاجة وهكذا فكله اسراف فلا ذكر لك أحوال الملابس • يشترط فى الملابس ما يأتى

(١) ألا تكون ضيقة تتعب الانسان فى غدوه ورواحه بل يجب أن تكون واسعة

(٢) ألا تكون ثقيلة فقد أجمع علماء الصحة أن الدفء لن يكون بتراكم الملابس وانما يكون بنوع مايفيد الدفء

(٣) أن تكون الملابس لها مسام لتجفف العرق لأن العرق اذا بقى فى الجسم أصابه البرد الذى يكون سبب الزكام وآلامه فالمسام اذن أكبرعون على الصحة

﴿ الصوف ونحوه والحرير والقطن والتيل والجلد ﴾

اعلم أن صوف الغنم ووبر الجمال وشعر المعز لها خاصيتان . الأولى انها تحفظ حرارة الجسم . الثانية انها تنشف العرق . إن كانت هذه المواد أصلح لأن تلبس على نفس الجلد وهو (الشعار) وعليه يحسن أن يكون الشعار من الصوف

﴿ الحرير ﴾

اعلم أن الحرير الذى أحله الله للنساء وحرمه على الرجال يحفظ الحرارة كالصوف ولكنه لا ينشف العرق بسهولة كالصوف

﴿ القطن ﴾

أما القطن فهو قليل الحفظ للحرارة وقليل التنشيف للعرق والملابس المأخوذة من (التيل) أقل من القطن فى خواصه

﴿ الجلد ﴾

والملابس المصنوعة من الجلد تحفظ الحرارة ولا تلبس إلا فى البلاد الباردة

﴿ فوائد عامة فى الملابس ﴾

يجب أن تكون واسعة وألا تكون طويلة وأن تحفظ فى صيوان خاص وأن يوضع معها نحو الفلفل الاسود بعد تنظيفها أو (النفتالين) أونحوها خيفة (العثه)

وليغير الشعار مرتين فى كل اسبوع صيفا ومرة شتاء . ومعلوم أن الملابس (الوسخة) تغسل بالماء الساخن والصابون . وينظف الصوف بغسله بالماء البارد مع عدم عصره ثم توضع فى الظل حتى تجف

وليكن الشعار خفيفا فى زمن الشتاء . وليكن لون الثياب الخارجية فى الصيف غير قاتم . أما فى الشتاء فيجب أن يكون اللون (أدكن) وذلك ليسمح لحرارة الشمس أن تدخل الى الجسم . أما الأبيض فانه يمنع حرارة الشمس أن تدخل للجسم وهو بالصيف أليق . انتهى الكلام على الملابس

﴿ الأكل ﴾

اعلم أن الأغذية المستحسنة عند علماء الطب هى الأغذية السهلة الهضم الطازجة من الأغذية الحيوانية والنباتية مثل اللحم واللبن والزبدة والقمح والذرة والبطاطس . ويستحسنون طبخ الأغذية لسهولة هضمها لقتل الجراثيم الضارة ويوجبون غسل الخضر بالماء الساخن قبل أكلها وقاية من الاصابة بالديدان . فاذن يغسل الفجل والجرجير والبصل وأمثالها بذلك قبل الأكل . ويقدمون من الحيوان ما كان أصغر سنا على غيره ولحم الضأن على غيره فى الهضم . ولحم الدجاج على لحم البط والأوز . ويقولون ان لحم السمك أقل تغذية من لحوم غيره من لحوم الحيوانات . ويقولون ان اللبن غذاء الأطفال ولا يكفى للكبار . ويوجبون غليه وحفظه فى اناء مخصوص محكم الغطاء مغسول بالماء المغلى . ويقولون ان البيض الصالح يعرف بوضع ما يملأ ثلاثة فناجيل قهوة من الملح فى ثمانمائة درهم من الماء ويذوب فيه ثم يوضع البيض فما طفا فوق الماء فهو غير صالح وما رسب يكون صالحا . ويقولون الجبن أجود ما يصنع من اللبن المحض الخالى من المواد المضافة فى الصناعة

﴿ الزبدة ﴾

الزبدة غذاء مفيد ويستحسن أن تؤكل مع الخبز وقليل من السكر وهى تنفع رجال العمل الجسمى

﴿ البقول ﴾

هى مثل العدس والفول ونحوهما يمكن الاستغناء بها عن مقدار عظيم من اللحم بأنواعه ويضاف اليها الزبدة أو الزيت

﴿ الخضر ﴾

بعضها أسهل هضما مثل القرع وبعضها عسر الهضم قليل التغذية ولكنه نافع للجسم مثل الاسفاناج (السبانخ) . وخبز القمح أحسن من غيره وأكثر تغذية

﴿ التوابل ﴾

هى كالفلفل والخل والخردل والملح . هذه كثرتها تعسر الهضم . فاذا قلت الشهوة للطعام حسن تعاطى القليل منها . وقد نهى الأطباء عنها إلا قليلا

﴿ الأغذية التى هى غير طيبات وهى الخبائث ﴾

القريب (الفسيخ) والسردين والفواكه التى ليست ناضجة مثل (الرمخ) وهو البلح الأخضر . ومثل الفواكه التى زادت فى نضجها . واللحوم الكثيرة الدهن . والاسماك ذات القشور الغليظة وذات المحار

ولأختم هذا المقام ببيان المدة التى تهضم فيها الأطعمة من لحم وخضر وفاكهة ليختار الانسان ما يناسب مزاجه ولا يتناول إلا ماتقدر معدته على هضمه . (فأولا) الطعام الذى لا يهضم فى أقل من ست ساعات وهو لحم الضأن المقلو فى السمن . والخيار . والقثاء . (وثانيا) الطعام الذى يهضم فى أقل من ست ساعات ولا ينقص عن خمس وهو لحم العجل والكلى المقلوين فى السمن ولحم الضأن المسلوق . (وثالثا) ماتنقص مدة الهضم فيه عن خمس ساعات ولا تنقص عن أربع وهو

(١) لحم الدجاج والحمام والبقر والبط والاوز المقلوات كلها فى السمن (٢) لحم العجل المشوى (٣) لحم البط والاوز المسلوقين (٤) لحم السمك المسلوق (٥) لحم العصافير المقلى (٦) الكرنب (٧) الجزر (٨) الفجل (٩) السلجم وهو (اللفت) . (ورابعا) مايقل عن أربع ساعات ولا ينقص عن ثلاث وهو لحم الأرنب والجمل المقلوين فى السمن . ولحم الدجاج والحمام والكلى المسلوقات . ولحم البقر المشوى . والكبد واللسان . ثم الدجر الجاف والكرفس والبطاطس والخس والتين والشمام والجوز

(وخامسا) ماينقص عن ثلاث ساعات ولا ينقص عن ساعتين وهو لحم الديك (الرومى) المقلو فى السمن والمسلوق منه ومن الأرانب ومن لحم البقر ثم المخ . هكذا الباذنجان والباميه والدجر (اللوبياء) الخضراء والفول الأخضر والقنبيط والبطاطه المشوية والطماطم والتفاح النئ (وهو الذى لم يطبخ) والبلح والبرتقال والعنب والكمثرى وعصير حب الرمان . (وسادسا) ماينقص عن ساعتين ولا ينقص عن ساعة وهو الكرش المسلوقة والمليون (كمشك المناط) والقرع والاسفاناج (السبانخ) والتفاح المطبوخ والموز والسفرجل . انتهى

فاذا سمعت قول الله عزوجل ـ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ـ وكنت ضعيف المعدة فاعلم أن الأوفق لك ما كان سريع الهضم كالقرع وكالعنب . فاذا أكلت الخيار والقثاء فأنت مسرف لأنك جاوزت حدك وعلى هذا أبدا فقس . فأما اذا كنت قوى المعدة فلتأكل ماتشاء من لحم العجل والضأن وغيرها . ولكل مقام مقال . انتهى ماقصدته من الكلام على الغذاء

﴿ الماء الذى يشرب يجب له الشروط الآتية ﴾

(١) أن يكون خاليا من الرائحة . ومن اللون

(٢) أن يكون رائقا فلاترى ذرات صغيرة سابحة فيه . ولا يرسب منه فى قرار الاناء شئ

(٣) أن يكون عذبا

(٤) أن يذيب الصابون وينضج البقول والخضر انضاجا تاما . والا كان محتويا على أملاح ضارة بالجسم

(٥) أن يكون خاليا من الجراثيم وهى (المكروبات) ولا يمكن معرفة المكروبات إلا بالمجهر أى

(المكرسكوب)

﴿ الأمراض التى يكون سببها الماء الذى ليس مستوفيا الشروط ﴾

(١) الاسهال المزمن بسبب التراب والرمل اللذين يكونان فى الماء
(٢) الحمى التيفوذية
(٣) الهيضة الاسيوية (الكوليرا)
(٤) البول الدموى (البلهارسيا)

هذه الثلاثة الأخيرة بسبب الجراثيم المنتشرة فى الماء

﴿ تنقية الماء ﴾

لذلك طرق ثلاث (الطريقة الأولى) أن يوضع نوى المشمش أوالخوخ أواللوز الحلو فيرسب هناك طبقة تحمل الأقذار فى أسفل الاناء ويكون مافوقها من الماء صافيا . ويوضع جزء من الشب فى الماء . وهذه الطريقة فيها ضرر للشاربين يستعملها العامّة وهم يجهلون أضرارها . (الطريقة الثانية) أن يرشح الماء فى إناء ذى مسامّ من الفخار و يغسل من الداخل والخارج بالماء والصابون والليف غسلا جيدا ثم يغطى ذلك الاناء بغطاء نظيف ويوضع تحته اناء نظيف ليتاقى الماء النقى المتساقط بعد رشحه من السطح الخارج ويجب أن يوضع هذا الاناء وماتحته فى محل نظيف بحيث لايصل اليه الغبار . والأحسن أن يكون وعاء خشبيا كبير الحجم . وفى اللغة العربية يقال للاناء الذى فيه الماء (الحب) ولغطائه (الكرامه) فيقولون لمن يحبون (حبا وكرامه) وأصله هذا المعنى الذى عرفته . وهذا يسمى فى مصر (الزير وغطاءه)

وهناك أدوات للرشح غير ماذكر . وهذه تباع فى الأسواق فلاطائل فى ذكرها مثل مايسمى (راشح بركفيلد) . (الطريقة الثالثة اغلاء الماء) وهذه هى الطريقة التى بها نعرف تماما خلو الماء من الجراثيم وهذا هو الذى يتبع فى زمن الأوبئة فيغلى الماء للشرب وللطبخ وغيرهما ويحفظ ما للشرب فى اناء نظيف محكم الصمام ويشرب بعد أن يبرد

هذه نبذة مما يتضمنه قوله تعالى ـ يابنى آدم خذوا زينتكم ـ وذكر الأكل والشرب . ثم أمر بعدم الاسراف فمن لبس مايضرّه أوأكل السردين أوالفسيخ أوالفواكه التى ازدادت فى النضج فهو مسرف كمن يأكل فوق الشبع . ومن شرب فوق حاجته مسرف كمن شرب الماء الذى فيه التراب أوالرمل أوالجراثيم التى تصيب الانسان فتورثه البول الدموى أوالحمى التيفوذية أوالحمى الاسيوية . كل هؤلاء مسرفون فمن لبس شعار الصوف الغليظ فى الصيف مثلا أوأكل البلح الأخضر أوشرب الماء الذى فيه قذر فكل هؤلاء مسرفون . فالاسراف اما فى الكم كلبس الملابس الكثيرة وأكل وشرب المآكل والمشارب الكثيرة واما بالكيف كما تقدّم . كل هذا اسراف والمسلمون نائمون والدنيا كلها طافحة بالعلم ولم يغفل عنه إلا المسلمون

اللهم إنى أدّيت ماعلىّ وماقدرت عليه وأنت ستنتقم من كل من قرأ هذا التفسير وفهمه ولم يرشد المسلمين الى جميع العلوم ومنها علوم الصحة التى ذكرتها فى هذه الآيات خللت الطيبات وحرّمت الخبائث ـ إن الله لايصلح عمل المفسدين ـ

اللهم انك أوجبت هذه العلوم على طوائف من الأمّة ولما قصرنا فى ذلك عذبتنا فى الدنيا بالضعف والذل وسلطت علينا الناس حاربونا لنتذكر وهانحن أولاء تذكرنا وانى أكتب هذا تفسيرا لكتابك فهل للمسلمين عذر فى الجهل بعد هذا التفسير وأمثاله . كلا . ثم كلا ان قارئ هذا التفسير ملزم أن يرفع صوته فى كل مجالس ومقام . وفى كل كتاب يكتبه ـ والله عليم حكيم ـ

﴿ فوائد صحية ﴾

اعلم أن أسباب نقل المرض من المريض الى الصحيح إما أن تكون من الأوّل الى الثانى مباشرة واما أن تكون بواسطة الماء واما أن تكون بواسطة الحشرات

فالأوّل وهو أن يكون بنفس المريض فذلك مثل (الجرب) وهو مرض جلدى معد سريع الانتشار ويكثر بين من لايحافظون على نظافة أجسامهم • وينتقل هذا المرض من الأجرب الى الصحيح بالمصافحة والمساكنة والملامسة واستعمال ملابس المصاب بهذا المرض الوبيل • فأما الثانى وهو أن يكون بواسطة الماء • فانظر تر العجب العجاب فى العلم وفى دين الاسلام • أنظر ترى علماء الفقه نهوا عن الاستحمام فى الماء الراكد • وعن البول فى الماء مطلقا الخ • وانظر العلم الحديث وظهور فضائل الدين الاسلامى • أنظر ثم انظر • ههنا مرضان • مرض البول الدموى وهو (البلهارسيا) المتقدّم ذكره • ومرض الضعف العام المسمى (الانكلستوما) • فهذان المرضان يكونان بالعدوى ولكن بطريق الماء • فمرض البول الدموى انما يكون من ديدان تسكن فى (الأوردة) وتعيش فى الدم وتبيض فيه ويخرج البيض مع الدم ومتى بال الانسان فى الماء فقس ذلك البيض الذى لايراه الناس وخرج منه حيوان صغيرلاتراه العيون ولكنه اذا نظر له الانسان بالمنظار المعظم ظهر كهيئة العقرب • فهذا الحيوان يبحث عن قوقعة من قواقع الماء فيدخل فيها تكون له اما بدل أمه فاذا كبر فيها خرج فاذا صادف انسانا يستحم مثلا ودخل جسمه كما كانت أمه سابقا وهو لايعلم تاريخ حياتها فيدخل من المسام ويتجوّل فى الجسم حتى يكبر ويبيض كما كانت أمه تبيض وهكذا يكون الخلف كالسلف • سبحانك اللهم ربيت الدود فى أجسامنا وأنزلته فى مائنا وأدخلته فى القوقعة حتى يكبر ثم أرجعته الى أجسامنا بعد ماصار حيوانا عقابا منك للمسلمين على تقاعسهم عن علم الصحة وعلى مخالفتهم للفقهاء الذين نهوا عن التبرز والبول فى الماء والاستحمام فى ماء البرك والمستنقعات التى فيها ذلك الحيوان

أما مرض الضعف العام فهو المسمى (الانكلستوما) وهو فقر الدم فترى الوجه شاحبا والشفتين ذابلتين وعسر التنفس بعد أى عمل ويحس بألم فى الرأس والركبتين واضطراب فى الهضم • وذلك أن هناك ديدانا تلقح ذكرانها اناثها فتبيض فى الامعاء لاكديدان البول الدموى التى تبيض فى الدم وهذا البيض يخرج مع الفضلات فاذا تبرز المصاب فى الماء فقس البيض فيه وعاش الحيوان الخارج منه أشهرا فيه فاذا شرب انسان ذلك الماء أوأكل خضرا مغسولة فى تلك المياه أواستعمله لاستحمامه دخل هذا الحيوان جسمه بواسطة الجلد أو بواسطة المعدة فيصاب بالمرض القتال

ولاينجى الناس من هذا ونحوه إلا ترشيح الماء كما تقدّم • وألا تغسل أوانى الأكل إلا بالماء المرشح أوالمغلى • وألاتؤكل الخضر التى لاتطبخ إلا بعد غسلها جيدا بالماء المغلى • وألا يمشى الانسان عارى القدمين • ولايلعب فى المياه القذرة • وأن يقضى الحاجة فى حفرة ويطمرها بتراب جاف • وأن يغسل اليدين جيدا بالماء والصابون بعد قضاء الحاجة وقبل الأكل • انتهى الكلام على القسم الثانى

﴿ القسم الثالث ﴾ وهو أن يكون نقل المرض بواسطة الحشرات • فاعلم أن الله عزوجل جعل ما ينفعنا ومايضرّنا من الحيوان على قسمين قسم ظاهر وقسم باطن وكل منهما إما نافع واما ضارّ • فالقسم الباطن النافع منه مثل الكرات البيضاء والحمراء فى الدم فانها تشبه الحيوان من حيث المدافعة عن الانسان وتقاتل جراثيم المرض الداخلة فى الجسم وهذا معلوم فى الطب • والقسم الضارّ منه مثل ما ذكر آنفا من جراثيم البول الدموى وجراثيم فقر الدم اللاتى تعيش فى الماء وتدخل جسم من يستحم مثلا وهكذا

فأما القسم الظاهر من الحيوانات فهو قسمان أيضا نافع للانسان وضار • فالنافع للانسان مثل المذكور

فى قوله تعالى – وأوحى ربك الى النحل الخ – وقد قدّمت لك أن النحل وأمثاله من الحشرات هى التى تطوف على الأشجار فتنقل الطلع من الذكور الى الاناث . ولذلك تجد الحدائق دائما فيها أصوات هذه الحشرات ولذلك تصفها العرب بأنها غناء . فهذه الحشرات التى ترى شرحها فيما تقدّم فى التفسير كسورة (الأنعام) وغيرها جعلها الله لتكون سببا فى فاكهتنا وحبوبنا ونحن لا نشعر فأكثر الناس يأكلون الفاكهة وينعمون بالنعم وهم لايعلمون أن الحشرات التى أمامهم هى من أسباب تلك النعم . فأما الضارّ للانسان من الحشرات فهى كثيرة منها الذباب والقمل والبق والبراغيث والناموس . ولأتكلم على الناموس ثم الذباب مكتفيا بهما فى هذا المقام فأقول

(١) الناموس يعيش فى المياه الراكدة والمستنقعات . وفى المنازل التى هى غير صحية . وهى تنقل حمى (الملاريا) وهى نوع من أنواع الحمى وتسمى (الحمى الاجيه) منسوبة للاجات لأن الناموس يعيش فيها . ولذلك يجب ابادة الناموس من المنازل بوضع زيت البترول فى المراحيض . ويجب ردم البرك والمستنقعات . أووضع زيت البترول على سطح الماء حتى يقتل صغار البعوض التى تعيش على سطحه . وعلى النائم أن تكون له ناموسية سليمة من الثقوب حتى لايدخل اليه الناموس

فهذا الناموس اذا لدغ مصابا بالحمى المذكورة ثم بعد ذلك لدغ آخر سليما أصيب السليم بها أيضا فينتقل المرض من الأوّل الى الثانى . فكما رأيت أن الجرب ينتقل من المريض الى الصحيح بالملامسة ومرض البول الدموى ومرض الفقر الدموى ينتقلان بواسطة الديدان التى تعيش فى الماء . هكذا ترى هنا الناموس ينقل المرض مباشرة من المريض الى الصحيح . هذا ولأختم هذا المقام بالكلام على الذباب

﴿ الذباب ﴾

ان الذباب ينقل المرض من انسان لآخر كما يفعل الناموس

﴿ غذاء الذبابة ﴾

تأكل اللحم والدم والخضر واللبن والزبد والجبن والمادّة السكرية والمواد المتخمرة كالجبن المتخمر والمش وبراز المواشى وبراز الانسان وهو يفضل المواد المتخمرة لأنها فيها يبيض ومنها يأكل

اذا علم أن الأنثى من الذباب تبيض مابين شهر وشهرين ونصف . والبيض يكون على دفعات كل دفعة من مائة بيضة الى مائة وخمسين بيضة وجميع البيض يبلغ ألف بيضة . وفى النادر شاهد العلماء أنها باضت فى احدى وثلاثين يوما نحو ألفى بيضة . والبيضة تفرخ فيما بين ثمان ساعات واثنتى عشرة ساعة . ومتى فقس البيض خرج دود أبيض يتحوّل فيما بعد الى ذبابة فى مدّة ستة أيام أوعشرة أيام أوأربع وأربعين يوما بحسب اختلاف الأماكن حرارة وبرودة . ومن ذلك دود المش واللحم ونحوهما . فهذا كله دود ظهر من بيض الذباب أونحوه لأن الذباب وسائر الحشرات يكون له بيض فالبيض يكون دودة فشرنقة أى مثل ماترى فى دود القز إذ ينام مدة بهذه الصفة ثم يصير حشرة كاملة

﴿ ضرر الذباب بنوع الانسان ﴾

(١) ينقل جرثوم الرمد الصديدى من العين المريضة الى العين الصحيحة من نفس الطفل المريض أوطفل اخر مجاور للمريض وأكثر العميان فى مصر بسبب هذه الحشرة

(٢) مرض (الدسنتاريا) وهو اسهال شديد بهيئة خاصة . هذا المرض ينقله الذباب من المريض الى الصحيح

(٣) الذباب ينقل جراثيم الحمى التيفودية لأنه يذهب الى البراز الملوّث بجراثيم المرض ثم يذهب الى أطعمة الأصحاء الذين هم قريب من ذلك المكان لأن الذباب لايذهب بعيدا

(٤) الكوليرا تنتقل بأطراف الذبابة وخرطومها • ويقال ان مكروب المرض يبقى حيا ١٧ ساعة على أطراف الذبابة • وقد يدخل الجرثوم المرضى فى باطن الذبابة بطريق الطعام ويخرج حيا بالتبرز فى طعام الأصحاء فهى تنقل المرض بأطرافها و ببرازها

(٥) جرثيم (السل) التى يتلقفها الذباب من بصاق المسلولين يرى حيا فى براز الذبابة بعد مرور خمسة أيام من أكلها البصاق المعدى • وهكذا وجدوا ديدان الحيوانات التى تعيش فى أمعاء الانسان • وهكذا الدودة الوحيدة • كل هذه يبلعها الذباب مع المواد البرازية وتخرج مع برازه • انتهى ماأردت من الكلام على الذباب

﴿ الصراصير ﴾

وهكذا يقولون ان الصراصير يعيش فى جوفها جراثيم السرطان • فاذا جاءت على طعام الانسان أنزلت ذلك فيه فتولد السرطان فى جسم من يأكله ولايزال يمشى فى الجسم حتى يجد له مكانا ضعيفا فيعيش وينمو ويموت المريض • اه

هذا قطرة من بحر من قوله تعالى ــ وكلوا واشربوا ولاتسرفوا ــ وقوله ــ قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرّزق ــ فياعجبا كل العجب كيف يقرأ المسلمون الطيبات من الرّزق وأكثرهم يجهلون الفرق بين الطيبات والخبائث • فياليت شعرى كيف يعرف المسلم أن هذا الطعام خبيث وأن هذا الطعام طيب إلا اذا قام فى الأمة جماعة فدرسوا هذه العلوم ثم نشروا بين الأمة كيف يكون الطعام الذى يحوم حوله الذباب أوتلم به الصراصير خبيثا • وكيف يتحامون الاستحمام فى الماء الراكد أوملامسة (الأجرب) أونحو ذلك إلا بنشر هذه العلوم نشرا تاما مع بيان الفوائد بقدر الامكان • اللهم إنى بينت هذا المقام فى كتابك بقدر امكانى وانى موقن أنه سيأتى بعدنا من يسهلون الطرق ويرقون الشعوب ويعلمون أمم الاسلام وسترى ما يكون

ولأختم هذا المقام بأرجوزة كنت نظمتها منذ نحو عشر سنين قبل طبع هذا الكتاب • وهذا نصها

﴿ حفظ الصحة فى فصل الصيف ﴾

قرأت مقالة فى حفظ الصحة فى أوّل فصل الصيف سنة ١٩١٦ بقلم عظيم من أعاظم الأطباء النطاسيين فجعلتها نظما • وها هى ذه

أرجوزة فى الطب للاخوان * نظمتها أيام الامتحان
من بعد ماقرأتها تكرارا * لكى أزيد فهمها استبصارا
ليحفظوا صحتهم فى الصيف * لحرّه مثل غرار السيف
للصيف حرّ يلفح الوجوها * ويزهق النفوس إذ يغزوها
والشمس مهما قتلت جرثوما * فانها تحيى سواه دوما
ماأفتك الجرثوم بالأطفال * فانها مكثرة الاسهال
تسطو بحماها على الأولاد * فتحتسى بفلذ الأكباد
إن انقاء المرض المخوف * أفضل من علاجه الموصوف
فنظف الطعام والشرابا * والجسم والمكان والثيابا
كذلك الحدائق الغناء * وكل مجرى كان فيه الماء
فانها حمالة للداء * تقذفه فى داخل الأحشاء
فلتحترس من طائف الذباب * فانه أعدى من الذئاب
يعدى الذى يلقى بلا ارتياب * ويجعل الأحياء فى تباب

مثل الذباب فعل الناموس * فانه لمرض جاسوس
فاجعل له وقاية تقيكا * على السرير حيث لايرديكا
يا ربة المنزل يا ذات الأدب * حفظ الصغار صحة مما وجب
فارعى رعاك الله عين الطفل * وفمه وأذنه بالغسل *
لايشربن لبنا أوماء * حتى تزيل النار منه الداء
كذلك الفواكه اطبخيها * حتى يزول الداء مما فيها
وليستحم الرجل الكبير * والطفل والطفلة والصغير
بكل ماء فاتر نظيف * منظف للجسم فى المصيف
وليأخذ القوى ماء باردا * اذا أراد حيث لايخشى ردى
وقلل المأكول والمشروبا * ولاتطع من أكلوا ضروبا
وكل ما تشربه مبردا * يبرد الاحشاء حتى تخمدا
والثلج والكازوزة المعروفة * وشبهها على الأذى معكوفه
ولا تطع قول الذين قالوا * الثلج يروى انهم جهال
وخذ من البقول والفواكه * والخضر ماتهواه غير واله
* وأقلل اللحوم والمغلظا * فهل تحب أن تكون فى لظى
خير الثياب البيض عند الحر * وشبه بيض مثلها كالسمر
ثم لتكن واسعة الأطراف * كالردن والقباب والاعطاف
واجعل شعار الجسم لبس الصوف * لمص ريح العرق المعروف
كذاك أما كنت فى عراء * ليلا نخص الصوف بالغطاء
ومن يكن ذا عرق فى الصيف * فشرب مثلوج له كالسيف
وكل تيار من الهواء * يدعوه للبأساء والضراء

﴿ جمال الله فى هذا المقام ﴾

يا الله خلقت آدم و بنيه بيديك وقلت لابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى الخ فأنت بخلقك له بيديك شرفته وعظمته وهذا الشرف وهذه العظمة ظاهرة واضحة فى التكاليف التى كلفته بها فلم يقف التكليف عند الفرائض التى نزلت بها الأنبياء بل خلق الله للانسان باحدى يديه النور والهواء والجمال والنجوم والحيوانات النافعة . وهكذا النباتات المثمرة . وخلق باليد الأخرى الموت والحيوانات القاتلة الفاتكة فمن السباع الى الذباب والناموس والحيات والعقارب الى الذرات الفاتكة بالأجسام الى ما وراء ذلك

وهكذا نرى النبات يفتك به الكلأ والحشائش القاتلة له . يتأمل العاقل فى هذه الدنيا فيرى هذا الانسان يحوط باحدى يديه النحل النافع لالقاح الأشجار ويقتل بالأخرى أنواع السباع والحشرات وهكذا يحافظ باحدى يديه على القمح والقطن وأمثالهما ويقطع بالأخرى الحشائش والكلأ

اللهم ان نظرنا فى هذه الأرض جعلنا نفهم انك خلقت الانسان ليكد ويجد وبهذا يقوى على السير فى عالم آخر والا فلماذا جعلت الذباب ينمو ونحن نقاتله ويحيط بنا من كل جانب ونحن والحوادث الجوية نبيده وهو لايبيد ونقاتله وهو لايزال فى الوجود . انك بذلك فتحت بصائر الانسان وعلمته التبيان وجعلته لايهدأ ولوأنه هدأ لأحطته بالمهلكات . كل ذلك من رحمتك لأنك تريد رقى عقله وقواه ولارقى لهما إلا بالجهاد فى جلب النافع ودفع الضار وضعف النافع كالنحل وقوة الضار كالذباب يجعلانه دائما يجاهد لتقوية الأول

واضعاف الثانى • انك يا الله بهذا تريد نقلنا الى عالم غير هذا تكون الحياة فيه على مقدار مانلنا من القوّة وما كسبنا من العلوم • فالشرّ والخير والذباب والنحل جعلتهما لنا رحمة كما أمرتنا أن نقرأ بسم الله الرحمن الرحيم • انتهى المقصد الثالث من القسم الأوّل

(المَقْصِدُ الرَّابِعُ)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى ٱللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ ٱللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

يقول الله تعالى (هل ينظرون) هل ينتظرون (إلا تأويله) أى إلا مايؤول اليه أمره من تبين صدقه بظهور مانطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل) تركوه ترك الناسى (قد جاءت رسل ربنا بالحقّ) أى قد تبين أنهم جاؤا بالحقّ (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) اليوم (أو نردّ) أوهل نردّ الى الدنيا وجواب الاستفهام الثانى (فنعمل غير الذى كنا نعمل) ثم قال تعالى (قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) بطل عنهم فلم ينفعهم • ولما كان ماتقدّم من محاورات أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف ونعيم الجنة وعذاب النار راجعا الى اليوم الآخر المرتب على الايمان بالله والكفر به وكان التوحيد أجل مايبنى عليه العالم المشاهد المحسوس أعقب ماتقدّم بما يذكر بعجائب السموات والأرض الدالة على الله فذكر خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر والنجوم وارسال الرياح والسحاب وانبات النبات المختلف الثمرات • وهذه الآية أشبه بآية ـ إن فى خلق السموات والأرض ـ المذكورة فى سورة (البقرة) وكأنها خلاصتها فارجع اليها هناك • ثم قال تعالى (إنّ ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) أى فى ستة أوقات (ثم استوى على العرش) والعرش فى اللغة يطلق على السرير وعلى ماعلا فأظلّ وسمى مجلس السلطان عرشا لعلوّه ويكنى عن العزّ والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز يقال فلان ثلّ عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه • وثم للترتيب الذكرى والا فالله عزوجل مستول على الملك أزلا وأبدا يدبر الأمر من السماء الى الأرض • ولذلك أخذ يبين الاستيلاء على

العالم العلوى فأبان أعظم الأعمال التى نراها من ذلك الاستيلاء وهو تسخير الشمس والقمر والنجوم وبهذه الحركات التسخيرية تكون جميع العوالم التى بها حياتنا وبقاؤنا فلذلك قال (يغشى الليل النهار) يغطيه به فيحتمل أن النهار يغشى الليل وأن الليل يغشى النهار . ولاجرم أن كلا منهما يغطى الآخر بسبب جريان الأرض حول الشمس فالوجه المقابل للشمس مضىء والمغطى عنها مظلم (يطلبه حثيثا) يعقبه حال كونه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شئ . والحثيث فعيل من الحث (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) بقضائه وتصريفه بمقتضى استيلائه على الملك ونصبها للعطف على السموات ونصب مسخرات على الحال ثم لخص ما تقدم كله فى هذه الجملة فقال (ألا له الخلق) راجع لقوله - إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الخ - (والأمر) راجع لقوله - ثم استوى على العرش وسخر الخ - فالخلق وأمر الكائنات بيديه كما قال - يتنزل الأمر بينهن - ثم قال (تبارك الله رب العالمين) تمجد وتعظم وارتفع . فانظر كيف ذكر أنه خلق السموات والأرض فى أوقات ستة بحيث أدار المادة اللطيفة المسماة (بالأثير) وحركها فى أزمان قديمة العهد جدا فكان منها شموس وشموس ثم دارت الشموس ومنها شمسنا آلافا وآلافا من السنين فانفصلت منها الكواكب السيارة ومنها أرضنا وانفصل القمر من الأرض ثم كان المعدن والنبات والحيوان والانسان فهذه هى الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . فأولها الشمس . فالأرض ومعها السيارات . فالمعدن . فالنبات . فالحيوان . فالانسان * هذه هى الأيام الستة التى خلق الله فيها عالمنا

﴿ لطيفة ﴾

اعلم أن لفظة (يوم) قد وردت فى علوم البابليين والاشوريين التى عثر عليها العلماء فى المكتبة الملكية بقصر (آشور بانيبال) ففى هذه الخزانة وجدوا أنهم قسموا منطقة البروج الى اثنى عشر قسما وهى البروج وقسموا الدائرة ٣٦٠ درجة وهكذا الدقيقة والثانية الخ والاسبوع سبعة أيام . ويقولون ان تقهقر الاعتدالين فى زمان (٤٣٢٠٠ سنة) ويسمون هذه المدة يوما من الأيام العالمية . وجعلوا السنة الشمسية التى قدرها ٣٦٥ يوما وربع يوم ثانية واحدة من السنة العالمية . ثم هم يقسمون اليوم العالمى الى اثنتى عشرة ساعة فتدبر تجد أن اليوم قد جاوز عشرات الالوف من السنين وهو اليوم العالمى . فاليوم فى الآيات عبارة عن أزمان متطاولة نسميها أياما عالمية لا أياما معتادة فتعجب . ولنرجع الى مقام التفسير فنقول

وها نحن أولاء نشاهد الأمر يجرى بين السموات والأرض فنرى الليل يغشى النهار والنهار يغطى الليل ونرى القمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب لاحرية لكوكب أن يسير على غير نظام . فاذا كان هذا الخلق له وهذا الأمر له أفلا يكون مستحقا للتعظيم والاجلال فيقال - تبارك الله رب العالمين - من العوالم السفلية والعوالم العلوية . واذا كانت هذه صفات الله وانه خلق هذه الكائنات واستوى على عرشها وسخرها ونظمها فلم يبق إلا أن يتوجه له عبيده بالدعاء فلذلك أعقبه بقوله (ادعوا ربكم تضرعا) تذللا من الضراعة وهى الذل (وخفية) سرا (إنه لا يحب المعتدين) المجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره بأن يرفعوا أصواتهم ونداءهم وصياحهم فى الدعاء وبأن يسألوا منازل الأنبياء * قال رسول الله ﷺ سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء أخرجه أبو داود * وعن النبى ﷺ أيضا أنه قال سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب منها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل وهل الأفضل اظهار العبادات أو اخفاؤها رأيان رجح الأول من نظر الى الاقتداء بالعابد ورجح الثانى من خاف عليه الرياء . وقال قوم الأول فى الفرض والثانى فى النفل كالصلاة والزكاة فرضا ونفلا

ولما أكمل الكلام على خلق العالم العلوى والسفلى وأتبعه بوجوب الدعاء والتوجه لله بالقلب مع الخشوع والتضرع وحرم مجاوزة الحد وأمر بالخضوع والتذلل لمن هو المستوى على العرش المدبر للأمر عند ذكر

العالم

العالم العلوى . أقول لما أكمل ذلك كله أمر باصلاح الأرض وعدم الافساد فيما قبل أن يبدأ بذكر الرياح والسحاب الجاريات حول الأرض الساقيات المزارع النابت بسببها النبات . وأخذ يصف البلد الطيب والبلد الذى خبث . فانظر كيف جعل عند كل عالم ماينا سبه فاذا نظرنا للاستواء على العرش دعونا وخررنا ساجدين وان نظرنا الى نظام أرضنا وسحابها ومطرها ورعدها وبرقها ونباتها وحيوانها وجب أن نكون عادلين صادقين فنسعى لرقى الأمم حولنا ونظام حكوماتنا والانتفاع بخيرات هذه العوالم المحيطة بنا فهو كما دبر ملكه وهو مستو على عرشه مجر كواكبه منظم لعوالمه . أمرنا الله أن ندبر ملكنا بالعدل وتقوم بالقسط والا كنا مفسدين فى الأرض مهملين غير شاكرين . وانظر كيف أمرنا هنا أن ندعوه خوفا وطمعا لأن الأمر فى العوالم الأرضية غيره فى العوالم السماوية . ففى الأول لاعمل لنا فى ادارة السموات فلذلك نرانا مضطرين الى الخضوع والتذلل لمجرى الكواكب فرحين بأعماله . وفى الثانى نرانا ندعو خوفا من العقاب وطمعا فى الثواب لأن المقام مقام عمل لامقام علم . فبالعلم بما فى نظام الملك خشعنا . وبالنظر للعمل فى أرضنا دعونا خائفين تارة وطامعين أخرى لأننا مكلفون بالنظام والقيام بالعدل واستخراج المنافع من عالمنا وهذا قوله تعالى (ولا تفسدوا فى الأرض) بالظلم والشرك والمعاصى والدعوة الى الشر واتلاف النفس بالقتل أوغيره وافساد الأموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بالحيل وافساد العقول بالخمر والانساب بالزنا وافساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء (بعد اصلاحها) بالعدل والايمان والطاعات والدعوة الى الخير ونظام الأمم والأفراد وحفظ الأعضاء والعقول وارسال الرسل بالاحسان ومكارم الأخلاق (وادعوه خوفا وطمعا) ذوى خوف من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع فى اجابته تفضلا واحسانا لفرط رحمه . ثم رجح جانب الطمع بالرحمة فقال (إن رحمة الله) شئ (قريب من المحسنين) فمن أحسن عمله أوخلقه توالت عليه الرحمات . ومن أتقن صناعته أوزراعته أوعاشر الناس بالمعروف نشاهد الاقبال عليه يكون على قدر اتقانه . وكذلك الذين صبروا وعبدوا وصدقوا فى العبادة فهؤلاء تتوالى عليهم الرحمات والرحمة فى كل عمل بحسبه فان كان جسمانيا كانت الرحمة من قبيله وان كان روحانيا كانت الرحمة من قبيله فالرحمات على قدر الاحسان إن الله حكيم فى اعطائه يعطى على مقتضى الاستحقاق فاذا لم يحسن المسلمون صناعاتهم أقبلت اليهم الأمم الغربية فأذاقتهم العذاب الهون . واذا جهلوا الزراعة والتجارة والصناعة ولم يحسنوها أقبل عليهم أهل الغرب وأهل أمريكا وأنزلوا بضائعهم فى أسواقهم وباعوها منهم وأخذوا ماملكت أيديهم لأنهم لايحسنون صنعا ولا يقيمون للعمل وزنا فيصبحون أذلاء فقراء يتخطفهم المحسنون وفى الأثر ﴿إن الله يحب المتقن عمله﴾ ثم أخذ يصف الرحمة العامة فقال (وهو الذى يرسل الرياح بشرا) جمع بشيرة وهى التى تبشر بالمطر أى مبشرات * وقرئ (نشرا) مخففة نشر كرسل ورسل جمع نشور كرسول ورسل أى ناشرات للمطر (بين يدى رحمته) قدام رحمته يعنى المطر فان الريح تهب حاملة قطرات الماء من البحار فتحفظها الجبال الراسيات من الجانبين فلاتزال هابة حتى تصل الى الأماكن البعيدة فتسقى الزرع قال تعالى (حتى اذا أقلت) حملت (سحابا ثقالا) بالماء وانما جمعه لأن السحاب بمعنى السحائب (سقناه لبلد ميت) أى لأجله أولاحيائه وسقيه ولن يكون ذلك إلا بحفظ الجبال للهواء والسحاب من الجانبين (فأنزلنا به الماء) بالبلد (فأخرجنا به) بالماء (من كل الثمرات) من كل أنواعها (كذلك نخرج الموتى) أى كما أحيينا البلد الميت وأخرجنا من كل الثمرات نخرج الموتى برد الأرواح الى أجسادها بعد جمعها وتنظيمها (لعلكم تذكرون) فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا (والبلد الطيب) الأرض الكريمة التربة (يخرج نباته باذن ربه) بمشيئته و بتيسيره حيث يكثر النبات ويغزر نفعه (والذى خبث) كالأرض السبخة والحجرية والطبشيرية والجيرية وما أشبهها (لايخرج إلا نكدا) قليلا عديم النفع ونصبه على الحال وتقديره والبلد الذى خبث لايخرج نباته إلا نكدا . فهكذا

الناس كالأرض لأنهم منها . فنهم من هم كالأرض الطيبة فهم يعلمون ويعملون . ومنهم من هم كالأرض الخبيثة فهم لاينتفعون بالعلم ولا الدين * وفى الحديث ان مثل مابعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله عزوجل ونفعه مابعثنى الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذى أرسلت به . أخرجاه فى الصحيحين . ثم قال تعالى (كذلك نصرّف الآيات) أى مثل ذلك التصريف نصرّف لآيات نردّدها ونكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها و يعتبروا بها وليقوموا بحقها فلايفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها بل عليهم أن يكونوا صالحين مصلحين عادلين فهؤلاء هم الشاكرون . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأوّل من سورة (الأعراف) وفيه عشرة لطائف

(اللطيفة الأولى) قوله تعالى ـ فلا يكن فى صدرك حرج منه ـ

(اللطيفة الثانية) ـ وكم من قرية أهلكناها الخ ـ

(اللطيفة الثالثة) ـ والوزن والميزان ـ

(اللطيفة الرابعة) نظام هذا القسم من السورة مع ذكر فرعون وهما قوله تعالى ـ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا الخ ـ وايضاح مامضى من قوله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحبّ المسرفين ـ

(اللطيفة الخامسة) قوله تعالى ـ كما بدأكم تعودون ـ وقوله تعالى ـ ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والانس فى النار الخ ـ

(اللطيفة السادسة) ـ لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة الخ ـ وقوله تعالى ـ إن الله حرّمهما على الكافرين ـ

(اللطيفة السابعة) ـ لانكلف نفسا إلا وسعها ـ

(اللطيفة الثامنة) ـ ونزعنا مافى صدورهم من غلّ ـ

(اللطيفة التاسعة) أصحاب الأعراف وكيف يعرفون أهل النار وأهل الجنة بسيماهم

(اللطيفة العاشرة) إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الخ ـ

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ فلا يكن فى صدرك حرج منه ـ ﴾

لقد شرحت هذه اللطيفة فى أوّل السورة وأبنت كيف كان أوّل هذه السورة مؤذنا بأن الانذار والارهاب حاصل فيها بهلاك الأمم الغابرة وذلك تذكرة للمؤمنين وانذار للكافرين . ولقد تبين هناك كيف حلّ هذا الوعيد بالأمم الاسلامية لما قست القلوب وضلت العقول وجهلت الأمم وخربت الذمم وتقاتل الرؤساء وجهل المرؤسون فلم يعرفوا كيف يؤدّبونهم وقوله تعالى ـ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ـ هو وماقبله من قوله ـ فلا يكن فى صدرك حرج منه ـ ومابعده من قوله ـ وكم من قرية أهلكناها الخ ـ من تمام الكلام فى آخر سورة (الأنعام) . ألم ترفى آخرها قوله تعالى ـ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ـ وفيه أيضا ـ يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها الخ ـ ولانطيل بايضاح هذه اللطيفة فقد استوفيت فى أوّل السورة

﴿ اللطيفة الثانية ـ وكم من قرية أهلكناها الخ ـ ﴾ قد وضحت فى تفسير أوّل السورة

﴿ اللطيفة الثالثة ـ الوزن والميزان ـ ﴾

قد ذكر بعضه فى هذه السورة وقد تقدم فى آل عمران وفى البقرة وفى الأنعام فى مواضع شتى ولكن

لابد

لابد من ذكر عجيبة جاءت فى بعض الجرائد وهى تبين أن الأرض تتنفس كما يتنفس الناس وتنفسها فى أوقات محدّدة فهى فى نفسها موزونة أيضا فتعجب

﴿ تنفس الأرض ﴾

هل تعلم أن الكرة الأرضية (تتنفس) مرة فى نحو كل مئتى سنة وأن تنفسها هذا ينجيها على الأرجح من الانفجار لأن الغازات تمدّد فى باطنها باستمرار . وعند ماتتنفس تراها تتقلص من نواح وتمدّد من نواح أخرى فينشأ عن ذلك خلل صغير فى ضبط المواقيت لم يتنبه اليه العلماء إلا منذ عهد قريب فقد اتفق فى أثناء حرب (البوير) انهم أنبأوا بقرب وقوع خسوف كلى ولكن ذلك الخسوف لم يقع إلا بعد الوقت المعين بسبع ثوان . وحدث أيضا بعد ذلك ببضع سنوات أن خسوفا آخر تأخر عشرين ثانية عن ميعاده فدهش علماء الفلك فى العالم أجمع وشرعوا يبحثون عن السبب حتى انجلت لهم الحقيقة وعرفوا أن تقلص الأرض وتمددها بسبب تنفسها هما سبب ذلك فأخذوا يحسبون حساب أرصادهم ويضبطون المواقيت

﴿ اللطيفة الرابعة فى نظام هذا القسم من السورة وفى قوله تعالى ـ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا الخ ـ وايضاح مامضى من قوله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا الخ ـ ﴾

إن فى نظام هذه السورة ولاسيما هذا القسم منها لعبرة لنا وتفهيما . انظر كيف ابتدأ السورة بالاخبار بالأمم البائدة والقرون الخالية ومن فاجأهم العذاب ليلا أونهارا وهم يقولون ـ إنا كنا ظالمين ـ وكيف أتبعه بأن الميزان حق والنظام صدق فمن غلبت حسناته فهو الفائز ومن غلبت سيآته فهو الهالك . ثم أخذ يقول مامعناه أيها الناس إنا مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش فكفرتم النعمة وأبيتم الفضيلة فكان شكركم قليلا وكفركم كثيرا . ثم أخذ يصف ما كان من ابليس من براهين المغالطة والحجج السفسطية والكبر الجاهلى . وكيف أصبح بعد أن ضل وغوى موسوسا لآدم و بنيه فخرج الآخر من الجنة كما سقط الأول من الصورة الملكية ومن السموات العلية ثم تاب آدم ولكن ابليس لايزال شيطانا رجيما

وكيف جعل سبحانه هذه القصة لنا عظة واعتبارا لم يدع جزأ من أجزائها إلا جعله درسا نقرؤه وعلما نفقهه وحكمة نتلوها وآية نعقلها وعبرة نعتبر بها . ألم تر كيف وعظ بنى آدم ألا يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم من قبل . وكيف حذرهم من نزع لباس الفضيلة والأدب بوسوسته كما نزع عن أبيهم لباس الجسم المادّى . وكيف جعل ذلك عبرة للعرب الذين حرموا اللباس فى الطواف بوسوسة الشياطين ودعواهم أن هذا قربة لرب العالمين . وكيف كان أمثال هذا من مثار البدع والشكوك والأهواء منهيا عنها داخلا فى حوزتها جاريا على منهجها . وكيف كان تحريم الحلال والتحرج من طيبات الرزق من خدع الشيطان . وذلك كله مبنى على وسوسة ابليس لآدم ومشابه له ومماثل . وكيف كان سقوط المسلمين اليوم فى الحضيض والجهالة العمياء والضلالة العوراء والنوم العميق والجرم العظيم مشبها لما حصل لآدم من الوسوسة بل لما حصل للعرب الجاهلية الذين ظنوا العرى قربى الى الله فى الطواف كما ظنّ المسلمون اليوم ترك العلوم والمعارف والصناعات وترك حبل الامور على غاربها من المقرّبات لذى الجلال والاكرام وكما كثر من يدعو الى ذلك من بعض رجال الصوفية الذين يعلمون أتباعهم مناهجهم و يفهمونهم أن طريقهم خير الطرق بل ربما كفروا بقية المسلمين . ولعمرى ان هذا لهو الداء العياء والأمر العظيم . وسوس الشيطان لعرب الجاهلية فأعراهم فى الطواف ووسوس لمسلمى الشرق والغرب بقول صغار العلماء وضعاف شيوخ الصوفية الذين هم ومن قبلهم من شياطين الانس يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا أن العلوم حرام وما أشبه ذلك من الضلالات والخرافات التى علقت بالأذهان فليس يخرجها إلا نشر الحكمة والعلم والعرفان بين أمم الاسلام

﴿ حكاية ﴾

لما حضر الى مصر العالم (وان وين كين) من مدينة تاينتسن الذى أشرت اليه سابقا قال لقد سـ تمنا الوثنيون وقالوا للمسلمين أنتم مخرفون وليس عندكم إلا الحيض والنفاس والجهل والوسواس فأنتم لاتحفظون إلا علم الطلاق والميراث والبيع والهبة والقرض وماشا كلها من العلوم فأما هم فانهم يقرؤن العلوم بأنواعها من طبيعة وفلك وينقلونها عن أهل أوروبا . فأما العلماء فى الاسلام هناك فانهم يصدّون الناس عن سبيل العلوم ويقولون انها حرام ودين الاسلام لايوجب أن نحب الأوطان ولا أن نعلم شيأ عن بنى الانسان ولا أن نفكر إلا فى الركعات والسجدات والحج والزكاة وماعدا ذلك فانما هو حديث خرافة . وقدكان كتاب (القرآن والعلوم العصرية) يطبع إذ ذاك فترجمه وكانت سورة (الفاتحة) من هذا التفسير تطبع فترجمها وأرسلها الى بلاده . أفليست هذه الحكاية دلالة أن الشيطان أعرى المسلمين من العلوم كما أعرى الجاهلية فى الطواف

﴿ رأى المفسر ﴾

والذى أراه أن أمم الاسلام قد دخلت فيها أمم وأدخلت على عقائدها ما أصبح عالقا بالاسلام وقواعده حتى أصبحوا كالبوذية فى التزهد ودخل فى الصوفية الصحيحة ماشوّهها من الفواشى الغريبة فان المتأخرين من الصوفية أحدثوا بدعا أبعدت أصولهم عن الدين وصاروا هم قادة الأمم الاسلامية لاحتلال الأمم الافرنجية اللهم إلا الصالحين منهم الصادقين الفضلاء أولئك هم الصالحون . ثم انظر كيف ذكر الناس بأنه أنزل عليهم لباسا من الحرير والقطن والكتان وقال ان ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . نعم انه من آيات الله ألاترى أن شعر القطن وحب الشعير كلاهما مكوّن من مواد واحدة . ولما اختلف التركيب اختلفت الصور فالبوتاسا فى الشعير ٢١ فى المائة تقريبا وفى القطن ٥ فى المائة تقريبا والصودا ٤ فى المائة فى الشعير و٤ فى المائة فى القطن إلا قليلا والجير ٢ فى الشعير و١٥ فى القطن والمغنيسيا ٩ فى الشعير و٩ الا قليلا فى القطن وحمض الفصفوريك ٣٤ الاقليلا فى الشعير و٨ فى القطن وحمض الكبريتيك ٢ فى الشعير و٨ الا قليلا فى القطن والسلكا ٢٨ الا قليلا فى الشعير و٦ فى القطن والكلور أقل من واحد فى المائة فى الشعير و٦ فى القطن وأوكسيد الحديد نحو ثمن الواحد فى المائة فى الشعير وهو معدوم فى القطن . هذا صنف واحد مما نلبسه وهو القطن قد وازناه بالشعير وكلاهما يزرعان فى حقولنا

﴿ عجائب الجذور الأرضية النباتية ﴾

فتعجب كيف كان نبات القطن ونبات الشعير قد أعطى كل منهما فتحات صغيرات فى الجذور وهذه الفتحات قدّرت بقدر بحيث لايدخل فى فتحات جذور القطن مالا يصلح للملبس ولافى فتحات جذور الشعير مالا يصلح للأكل . هل يعلم الناس ذلك وهل يعلم الناس أن فتحات جذر الشعير لاتصلح لادخال شئ من مادّة الجير إلا نحو سبع ماتدخله فتحات جذور القطن ولو أن جذور الشعير أخطأت فتحاتها فأدخلت من الجير فوق سبع ما أدخلت جذور القطن لم يكن الحب شعيرا بل كان شيأ فاسدا . فياليت شعرى ماهذا الحساب . ماهذا النظام . أيها المسلمون هل كانت جذور القطن علامة دراكة فوزنت البوتاسا بحيث كان ما أدخلته فى جرم شجرة القطن يبلغ نحو ربع ما أدخلته جذور الشعير . عجب لهذا النظام . أيها المسلمون هذا هو دينكم هذا هو الذى عناه الله فى القرآن . يقول الله تعالى ـ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ـ فهذا هو اللباس . وكيف ينادى الله بنى آدم ويقول قد أنزلنا عليكم لباسا وهو لاينادبهم إلا فى الامور العظيمة . لماذا ناداهم . ناداهم ليقول لهم ـ ذلك من آيات الله ـ ولقد عرفت فى هذا المقام كيف كان من آيات الله بالعلوم الكيميية التى تقدّم ذكرها

﴿ ايضاح قوله تعالى - يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم - أيضا ﴾

(ذكرى أيام الشباب وطلب العلم)

أذكر فى هذا المقام ما كنت أفكر فيه أيام الشباب فى نحو سنة ١٣٠٠ هجرية ذلك انى كنت نلت فى الأزهر قسطا من العلم وهو النحو والفقه وشئ من التوحيد . ومعلوم أن العادة جرت أن الصبى يحفظ القرآن صغيرا بلا عقل ولا فكر ولا فهم فها أنا ذا كانت هذه حالى فى تلك الأيام . أيام أن دخل الانجليز مصر انقطعت عن الأزهر ردحا من الزمن وهو ثلاث سنين كنت فى خلالها أقاسى متاعب ومرضا ومشاق وفى الوقت نفسه كنت أقوم بأمر الأسرة وهناك تجلت لى هذه الحياة بمظهر لا يتسنى لى وصفه الآن وقد وصفته فى كتابى المسمى (التاج المرصع) وهو منتشر بالعربية واللغة الأوردية بالهند واللغة القازانية بالروسيا ولكن الذى يهمنى الآن ما يناسب هذه الآيات فأقول . لقد كنت أصوم بعض الأيام وأصلى بالليل وأفكر فى أكثر الأحوال فى هذا الوجود وفى صانع العالم وما الدليل عليه وهل العالم منظم واذا كان منظما وعرفت ذلك نلت كل مطلوبى من حياتى . فليفكر الذكى فى موقفى لا علم عندى ولا علماء حولى ولا كتب تهدينى ولا مدارس ترشدنى ولا أعرف إلا علم التوحيد وعلم التوحيد بصورته فى البلاد الاسلامية مبعد عن الحقائق إلا قليلا أخذ ورد والقرآن فى ناحية والناس فى ناحية وكنت أقول هل القرآن يترك نظام هذه الدنيا وهل ديننا قاصر على هذه المشاغبات فى علم التوحيد وكيف يكون دين الفطرة فصممت أن أقرأ القرآن بتعقل فى الصلاة لأنى كنت أردد هذا البيت

وصلاة الليل مسافتها ✱ فاذهب فيها بالفهم وجى

وكثيرا ما كنت أصلى ليلا وأتممه قراءة فى صلاة الليالى أشهرا لا أتذكر عددها الآن وها أنا ذا وصلت الى ما أريد الآن وذلك أنى ليلة كنت أقرأ فى الصلاة هذه الآيات - يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا - وكنت كثيرا ما أكرر الآية عشرات المرات فى نفس الصلاة مستحضرا المعنى فأعجبنى معنى هذه الآية وأدهشنى كيف يوافق ما أراه فى حقولنا . نحن نزرع الذرة والقطن بجانبه القطن للملابس والذرة والقمح للمآكل . عجبا ذرة تؤكل وقطن يلبس كانت هذه الآراء تهجس فى نفسى وأقول ان فى هذا القطن وفى هذه الذرة التى فى حقولنا بمصر لسرا يدهشنى أن ألبس من نفس الحقل وآكل منه . وكيف يكون هذا الطين مخرجا لنا غذاء ولباسا . أهذا الطين يتحول ملبسا و يتحول غذاء يهضم وهكذا كانت هذه المعانى لا تفارقنى من وجهين . وجه الغاية منهما وهى ملابسنا ومآكلنا . ووجه التركيب فى الخلقة أى انى أقول كيف اتفق أن الأرض صالحة لأن يتحول طينها الى قطن وكتان الخ تلبس على الأجسام والى طعام وغذاء ثم كيف ظهر أن هذا التحول للبس وللغذاء مناسبا لحياتنا فأنا فى دهش من هذا الوجود ثم أعود فأقرأ الآية فى الصلاة فرحا مندهشا كثير التعجب كثير الحسرة على جهالتى والحزن على نفسى المسكينة التى لا تجد لها معلما يرشدها ولا هاديا يهديها فيريها كيف تركب هذان النباتان وما الأجزاء الداخلة فيهما . وهكذا تمر الشهور تلو الشهور وأنا على هذه الحال وكنت لا أجد محيصا من هذا إلا التضرع لموجد هذا الكون ليلا ونهارا أن يرجعنى الى الجامع الأزهر فأجاب الدعاء ووصلت لطلب العلم مدة كافية ثم دخلت (دار العلوم) فدهشت أيضا إذ وجدت العلوم الطبيعية والفلكية هى هى التى كنت أبحث عنها وأنا أصلى حتى ضج اخوانى الطلبة من فكرتى وتوجهوا الى أستاذنا المرحوم الشيخ حسن الطويل وقالوا ان (طنطاوى) متهوس فى هذه العلوم التى أتى بها النصارى وهى كلام لا طائل تحته فأجابهم قائلا (دعوه يبحث عن ربه فى سمواته وأرضه دعوه دعوه) فكنت إذ ذاك أرى أن ما طلبته فى الحقول وفى الصلاة هو عين ما يدرس فى المدارس فى العالم الانسانى كله

أفليس هذا الذى ذكرته لك أيها الذكى يوجب علىّ أن أوضح للمسلمين أن القرون المتأخرة فى الأمم الاسلامية كانت فى نوم عميق وأن الدين الاسلامى هو أمثال ما فى هذا التفسير . أليس مما يؤلمنى و يوجب

الحسرة والأسى أن أرى أمما تتبعها أمم يتلاحقون ويحيون ويموتون وهم يقرؤن وأكثرهم لايعقلون . هاهى ذه حقيقة الاسلام . حقيقة الاسلام ماجاء فى نحو هذا التفسير . ذكرت لك أن فطرة الاسلام هى مثل ما اتفق لى فهل من المعقول أن يكون هذا دين أضعف الأمم قوة . اللهم انى أبرأ اليك من الكتمان وأعلم أنى محاسب على كتمان هذه الحقائق بل فوق كل ذلك من اطلع على هذا التفسير وشاركنى فى هذه الحقائق فهو مدين ومعاقب ومعذب فى الدنيا والآخرة ان لم يفعل مافعلته أنا من بث الفكرة بين أمته على قدر امكانه وليعلم أن الله سيعينه وفوق ذلك يرى اكراما واجلالا واحتراما وعطفا وحبا وودا

أنا مسؤل عن نشر هذه الآراء وأنت أيها الذكى المشارك لى فيها مسؤل . كيف يكون دين الاسلام العلوم التى بها ارتفعت أوروبا وأمريكا والمسلمون لايعلمون . على وعليك أن نعمم الفكرة بين الأمم التى نعيش فيها وهذا التفسير اليوم يقرأ بين يدى المسلمين فى أقطار الاسلام فاذا ذكرت قومك بما قرأته فيه فلتعلم أن اخوانك فى الأقطار الأخرى يذكرون قومهم بما يقرؤن فيه أيضا . واعلم أن هذه الفكرة ستعم سريعا وسيتم ما أنبأتك عنه وسيكون فى الاسلام جيل وأجيال خير ما أقلت الأرض . فمن هذا المنبع فاسق المسلمين وعلى هذا المهيع فليجد المجدون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . انتهى

بهذا فليفسر القرآن . وبهذا وأمثاله فليرتق المسلمون . تمر قصة آدم على كثير من المسلمين وغيرهم فى مشارق الأرض ومغاربها ولكن القرآن يقول قفوا قفوا لاتتخطوا أيها الناس ادرسوا نباتى انظروه . ألم أقل لكم فى أول السورة — والوزن يومئذ الحق — أنا واحد ووزنى واحد فى الدنيا والآخرة كما قلت — وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه — فزنوا ذرات الملابس وذرات الماكل النباتية وتعجبوا من صنعتى حتى تحبونى وتمنوا اللحوق بى فلاتغتروا بالأرض ومن عليها . ولما كان مقام الملبس ربما يصعب عليكم ذكرت مباحثه بعد كلام الأرض والنبات والبلد الطيب والبلد الخبيث واختلاف النبات تبيانا لما ذكر من الملابس النباتية فى القصة الآدمية — والله هو الولى الحميد — . وهنا نذكر الفرعين لهذه اللطيفة

﴿ الفرع الأول ايضاح — يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا الخ — ﴾

(تفصيل معنى (عليكم) فى قوله تعالى — يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم الخ —)

فقوله تعالى — عليكم — يفيد تخصيصه ببنى آدم وهنا ينظر فى صفين وهما

(الصف الأول) — أسد . ثور . طير (الصف الثانى) — الانسان

هذان الصفان تراهما فى الأرض وفى الجو ها أنت ذا ترى الطير له ريش يقيه غوائل (القيظ والزمهرير) وترى الأسد والثور كل منهما قد كفاه ماله من جلد وما عليه من أشعار . كفاهما الله وكفى غيرهما من دواب الأرض حتى الحيات فى أجحارها والسمك فى الماء والحشرات فى الخلاء . كل هذه كفاها ماخلق لها من فلوس على السمكات ووقايات مختلفات . أما الصف الثانى فهو أمر عجب أقول أمر عجب لأنى نظرت وما أعجب مانظرت . هذا الانسان خلق عارى الجسم رقيق البشرة قل شعر جسمه فماذا صنع الله له . صنع له نظاما آخر واليك مواده (١) ادخر له فى الأرض فحما (٢) وجعل قوة الكهرباء (٣) وبذر القطن (٤) وجعله واقفا على رجلين (٥) وله يدان تعملان (٦) وله عقل يفكر (٧) فعرف أن القطن والكتان والأوبار والأشعار والأصواف وقاية له (٨) زرع القطن (٩) جعل الله للقطن قوة بها ينبت مرة أخرى (١٠) استعمل الكهرباء والفحم فى ادارة الآلات لسقيه (١١) وهكذا لحلجه (١٢) ونقله بالتجارة (١٣) وغزله (١٤) ونسجه (١٥) وخاطه (١٦) ولبسه . هذه ملابس الانسان من تيل وقطن وغيرهما وكذا الحرير تعاون عليها الماء والأرض والحيوان والكهرباء والفحم . فانظر للانسان عارى البدن رقيق البشرة كيف اضطر الى جميع هذه الأعمال ووجد كل مايحتاج اليه فلبس بعد كل هذا لينال مانال الأسد

والثور

والثور والطير . فانظر لحكمة مدهشة وآية عجيبة حيوان ضعيف جعل له مايقويه فى نفسه بالعقل وفى الآفاق فانا نجدها تساعده وهذا هو ايضاح قوله فى أول السورة ـ ولقدمكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيهامعايش قليلا ماتشكرون ـ وانما قل تشكرنا لأننا كثيرا مانذهل عن هذا الجمال الباهر والنظام المحكم . إن هذه آيات بحروف كبيرة ليقال كيف كان هذا النظام سائدا ولم رأينا الوجود كاملا فى خلقه تاما فى نظامه . ما أجهل هذا الانسان بزرع المصرى والأميركى القطن وأكثرهم لايعقلون إلا ربحه فى الثمن أوخسارته ونحوهما

أما كون هذا النوع من الحكمة عجيب وغريب وكيف اختص الانسان بالعقل وجعلت أعضاء الحركة ملائمة للزرع وللغزل وللنسج ووافقته العوالم الخارجة كلها وساعدته على اتمام لبسه وكيف منع هذا العقل وهذه الأعضاء المطاوعة للعمل عن الثور والأسد والطير . وكيف رأينا نظاما محكما فى كل مانشاهد من هذا الوجود فان الناس جميعا لايفكرون فيه إلا قليلا من حكمائهم . هم الذين تراهم على أرائك الحكمة متكئين . هؤلاء هم الذين يقرؤن هذا الوجود بلاحرف ولا كتاب فيرونه ناطقا نطقا أفصح من اللسان قائلا تضافرت الأدلة وتكاثرت بل أصبحت أشبه بالشمس المشرقة جللت وجه الأرض ولونتها بلونها الذهبى بحيث أصبحت البصائر فى ضوئها اللامع أشبه بأعين الخفافيش تبهرها الأضواء اللامعة ولايتجلى لها النور إلا فى دجنات الليال وظلمات الآفاق . ان هذا الدرس وحده أى درس الملابس بل درس الحكمة (لكم) وحدها أى تخصيص الملابس بالانسان فى الآية وفى الطبيعة يعطى علما جما وهو الذى عبرنا عنه بالنور الشمسى ان الناس يعرفون وجوداً نفس الحيوان والانسان بما ظهر لهم من الحس ومن الحركات فاذا فقد هذان من الحى حكمنا بأنه ليس فيه نفس . انا لم نر نفسا قط وانما حكمنا على النفوس التى فى أجسامنا وأجسام حيواناتنا بآثارها فاذا كانت أنفسنا وأنفس حيواناتنا ماعرفناها بأبصارنا وانما عرفناها بعقولنا مستدلين بآثارها واذا كان هذا حكمنا على وجودنا فهكذا حكمنا بوجودمدبر حكيم لهذا العالم واذاكان حكمنا على وجود زيد ودابة زيد والطير فى وكره والأسد فى عرينه بما ظهر من آثار أرواحهم حكما لايشوبه شك فكيف يكون حكمنا على هذا الحيوان الكبير الذى نعيش فيه وهو المجموعة الشمسية التى رأيتها مرسومة مصورة مفهومة فى (سورة الأنعام) هذه المجموعة التى نحن وأرضنا جزء منها فيها آلاف وآلاف من الحكم التى رأيتها فى القطن والكتان واختصاصهما بالانسان . فكل هذه ناطقات شاهدات بحكمة نظمت وقدرة بها أبرزت هذه العجائب . ان الشواهد الناطقة بالحكمة العامة والتدبير المحكم لاعدد لها وأى نسبة بين حيوان عرفته بآثار جسمه و بين منظم الكون الذى رأينا له آثارا لاتتناهى ونعما لاتحصى

سهل على عقل الانسان أن يفهم وجود زيد وحيوانه لأنه صغير فهم الصغير ولكنه قديعسر عليه فهم خالق العالم لأنه عظيم ودلالاته لانهاية لها فبهرت بصيرته فصار يبحث عن هذا الخالق فى ظلمات البراهين والمناقشات والكتب أن جميع مانطقت به الأدلة المنطقية والعلوم الوضعية المكتوبة بالحروف اللفظية أشبه بظلمات الليالى والناس فيها خفافيش فأماالدلائل التىعرفتها هنا فهى أشبه بالنهار فغابت عن العقلاء فتاهوا فى البيداء . هذا ماوقر فى نفسى عند طبع هذه السورة أثبته ليكون تبصرة لأولى الألباب . إن هذا هو الحب والشوق والعشق والغرام والهيام . هذا هو المقام الذى فيه تذوب القلوب حبا وهياما . وهذا هو المقام الذى يقال فيه ان طلبنا أن نرى نفس الصانع لامجرد الصنعة وههنا يضمحل جمال الجنات وتختفى أنواع اللذات إلا لذة النظر الى الذات الواجب الوجود وهذا مقام الحكماء والأولياء . قال الشاعر

اذا اشتبكت دموع فى خدود * تبين من بكى ممن تباكى

وكل يدعى وصلا لليلى * وليلى لاتقر لهم بذاكا

وهذا هو الفرع الأول من فرعى هذه اللطيفة الرابعة فى ايضاح قوله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولاتسرفوا

انه لايحب المسرفين ـ

﴿ الفرع الثانى من اللطيفة الرابعة ﴾

. (زيادة ايضاح لما مضى فى قوله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين ـ)

لقد تقدم الكلام على جسم الانسان وتشريحه مرارا فى هذا التفسير لاسيما فى سورة (آل عمران) ولكن لابد لنا من جملة وجيزة توضح مجمل هذا البدن ثم نتبعها بجملة أخرى فى أطعمته اجمالا وفيما يضر منها زيادة للفائدة فأقول

ان البدن الانسانى كله قوامه الهيكل العظمى وأهمه العمود الفقرى الذى ينتهى بالجمجمة الكاسية للمخ الذى تتفرع فيه أعصاب الحس وأعصاب الحركة وفى هذا العمود الفقرى تغرس الأضلاع المنحنية المكونة لما يشبه صندوقا يحتوى على القلب والرئتين وتحت هذا الصندوق البطن وفيه المعدة والامعاء والكبد والكليتان . ثم ان هذا الهيكل يمتد منه الرجلان من أسفل واليدان من أعلى فبالرجلين نسعى لجلب الطعام وباليدين نتناوله ونضعه فى الفم وتتناوله الأسنان بأنواعها وتطحنه كما تفعل الطواحين التى صنعها الانسان ليصلح أن يدخل فى المرئ الموصل الى المعدة فيستقر هناك زمنا ما ويهضم حتى يصلح أن يكون دما

ولما كانت الآلة البخارية الطاحنة مثلا لابد لها من وقود هكذا كانت أجسامنا فهذه الآلة الجسمية يجب أن يقدم لها الوقود وماهو اذن هو الطعام . ان الجسم ليس موقدا توقد فيه النار حقا ولكن فيه الطعام الذى يدفئنا بلادخان ولانار وينقلب دما يجرى فى شراييننا فينتشر من القلب الى جمجمة الرأس والى نهاية أصابع اليدين والرجلين . وما القلب إلا كالطلمبة الماصة الكابسة فهو يجذب الدم اليه ثم هو يدفعه دائما ولن يدوم القلب فى حركته التى لانعيش إلا بها الا اذا استوفينا شروطا لابد منها لذلك الدوام فضلا عن الطعام كالهواء النقى والضوء والرياضة البدنية . اذا تم هذا كله فان الفضلات لابد من اخراجها وهى تخرج بالجلد والكليتين والرئتين والامعاء فبالجلد يخرج العرق وبالكليتين يخرج البول وبالرئتين يخرج الكربون أى المادة الفحمية وبالامعاء تخرج الفضلة الغليظة . ومعلوم أن الكليتين يأخذ الماء عنهما الحالبان وهما يوصلانه الى أحد السبيلين . اذا عرفت هذا وقمت بما يوجب صحة بدنك ومضغت الطعام جيدا ولم تر فى ذلك أى ضرر فانك تكون فى صحة جيدة ولكن لايتم ذلك الا بخمسة أمور وهذا بيانها

(١) أن تكون مسرورا بما حولك أو بعملك
(٢) وأن تكون آراؤك وأميالك موزونة لامضطربة
(٣) وأن تكون قانعا بما لديك من أمور هذه الدنيا
(٤) وأن تكون صابرا عند الملمات والحوادث المزعجة
(٥) وأن تجعل لك فى وقت فراغك عملا مقبولا لأنك اذا تركت نفسك لحظة تنازعتها الأهواء فضلت فأحزنتك فمنعت الصحة

اعلم أيها الذكى أن الفقير تعينه الصحة على جلب القوت واذا فقد الصحة الغنى والفقير فقد فقدا السعادة والسرور . فالصحة شرط للسعادة متى صح جسمك نفعت نفسك ونفعت غيرك وكنت سعيدا فاياك أن تأكل فوق الشبع مثلا أو تعرض نفسك للبرد أو تأكل مايضرك بل عليك بالنظام الذى يشير به الأطباء

ان الدم الجارى فى الأوعية الدموية يعوض ماتفقده كما تقدم فمنه يكون العظم والشحم واللحم والظفر والشعر والعين والأذن وما شاكل ذلك فاذا اختلفت الأعضاء وجب أن يختلف الغذاء والخبز عماد الحياة وقوامها فانه يحتوى على مادة اللحم والمادة التى تحدث فى الجسم حرارة ومن الأغذية الفاكهة والخضر واللبن والبيض . ثم ان الملح فى الطعام وبعض المعادن الأخرى التى تدخل فى الأطعمة كلها يتكون منها العظم

فكان هذا النوع الانسانى اذ يميل الى الملح فى خبزه وفيما يطبخه من الخضر واللحم يعمل لتكوين عظمه وهو لايعلم لماذا دام هذا الاصطلاح فى الناس • واعلم أن الناس لما اتفقوا على أن يطبخوا ويخبزوا ويغلوا الطعام لم يكن ذلك عبثا فهذا فضلا عن جعله الطعام مقبولا فى ذوقنا يجعله أقرب الى الهضم وأسرع دخولا فى الأوعية الدموية

﴿ مناقضات الصحة وموجبات العلل والأسقام ﴾

(١) الطباق وتسميه الفرنجة (توباكو) سموه باسم جزيرة (توباجو) احدى جزائر (انتيله) بأمريكا قد اعتاد الناس تدخينه وحرّم جميع الأطباء استعماله وقد شرحنا هذا المقام فى سورة (البقرة) عند آية الخمر بايضاح تام وكذلك شرحنا مسألة الطعام عند قوله تعالى ـ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير الخ ـ فقد أفضنا فى هذا المقام هناك وبينا أن أكثر ما اصطلح عليه الناس أنه حسن هو ضارّ بهم كالسكر الصناعى المعروف فقد أشار الأطباء بالاكثار من الفواكه بدله لأنه ضار وقد عملت بهذا ووجدته حقا • وهكذا مما لانعيده هنا وانما نريد أن نشرح مسألة الطباق (الدخان) شرحا أوسع لم نذكره هناك • واليك مواد أضراره بالصحة العمومية وهاهى ذه

ان أكثره (١) يفسد الريق (٢) ويضرّ حاسة الذوق والشم والبصر (٣) ويضعف المعدة (٤) ويقلل شهوة الطعام (٥) ويهيج الأنسجة الهوائية فى الرئة (٦) ويورث الخفقان فى القلب (٧) ويضعف الأعصاب (٨) ويجعل فى المخ ارتجاجا وتخديرا (٩) ويجعل الذاكرة ضعيفة (١٠) ويضعف القوّة المفكرة (١١) وقوّة الارادة (١٢) وربما يحدث الجنون (١٣) وتارة يحدث الرمد فى العينين (١٤) وفى المجموع العصبى يجعل فتورا (١٥) ويعيق الجسم عن النموّ • وقد حلله الأطباء كيماويا فوجدوا أنه يحتوى على مادة سامة اذا وضع منها خمس نقط فى فم كلب مات فى الحال أوعشر نقط فى فم جمل كفت لقتله • وهاك حكاية

أكثر طبيب من النصح لرجل كان يدمن تعاطى التدخين فلم يزدد المريض الا غراما به فبينما هو سائر ذات يوم اذ رآه الطبيب يسعل وهو لايستطيع المشى ولا أى عمل الا ببطء وقد أصبح يحمل العصا لتعينه فقال الطبيب له لقد صدق من قال ﴿ الذى يفرط فى استعمال (الطباق) لايسرق متاعه لصّ ولايعضه كلب ولا يبيض له شعر ﴾ فلما استفهم المريض عن سبب ذلك قال الطبيب لأنه يسعل الليل كله لمرضه فيظنه اللصّ مستيقظا فلايسرق منزله وعصاه التى يتوكأ عليها تحرسه من الكلاب وهو يموت فى ريعان شبابه فكيف يبيض شعره وقد ضمه القبر فاعتبر المريض وتحمل فراق (الطباق) وعاش قرير العين اهـ

﴿ ويلحق بالدخان الأفيون ﴾

هو عصير الخشخاش يعصر منه قبل تمام شجره فاذا يبس تراه أسود اللون مرّ الطعم وهو خطر شديد يورث اخلال العقل فيهذى الانسان ولايعقل ما يقول • ومتى ملكت هذه العادة الانسان أصبح فى عبودية لها لاتطاق ومثل ذلك أيضا مايسمى

﴿ الحشيش ﴾

وهو مخدر مزعج شديد الفتك بالأبدان والعقول • وهو من نبات ينبت فى البلاد الحارة • وتستعمله الطبقات المنحطة فى بعض البلاد كبلادنا المصرية والحكومة تراقبه مراقبة شديدة وتعاقب من يتعاطاه بالحبس وهو سم مهلك لمن استعمله إلا من تاب • وأنا أسأل الله أن يجعل ما أكتبه الآن مثالا ينسج على منواله المسلمون وينشرون مضار هذه السموم بينهم حتى يخرجوا من عداد المذكورين فى قوله تعالى ـ إنه لايحبّ المسرفين ـ فهذا كله من الاسراف المذكور فى الآية وأن هذا البيان الذى ذكرته تشمله الآية وتشمل غيره فالمسلم الذى يتعاطى الدخان أوالقهوة أوغيرهما مما هوأشدّ فتكا كالشاى والخمر والحشيش والأفيون • أوأقلّ

فتـكا مثل الـكاكاو وغيره معدود من المسرفين و يقول الله تعالى ـ إنه لايحب المسرفين ـ ولما قل حب الله لنا بسبب تعاطى هـذه المضار ساط علينا الأمم فهو لايحب أكثرنا لجهلنا بأمرين القرآن وعجائب صنعه لأنهما متفقان إذ كلامه يوافق عمله والحمد لله رب العالمين

﴿اللطيفة الخامسة قوله تعالى ـ كما بدأكم تعودون ـ وقوله تعالى ـ قال ادخلوا فى أمم قد خلت الخ ـ﴾

فقوله تعالى ـ كما بدأكم تعودون ـ اعلم أن الناس اذا ماتوا فقد درجوا على طباع ألفوها وأخلاق سلكوها وعوائد عرفوها وأحوال اقترفوها • وكل فريق مغرم بما جبـل عليه محب لما خلق فيه من صلاح وطلاح وكمال ونقص وفضل وجهل كل يعمل على شاكلته فاذا ماتوا رجع كل الى مشربه وحن الى مألفه وفرح بما عنده * وروى عن ابن عباس أن الله عزوجل بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال ـ هو الذى خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن ـ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا * وروى جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ يبعث كل عبد على مامات عليه (أخرجه مسلم) • وزاد البغوى فى روايته المؤمن على ايمانه والـكافر على كفره • وهذا هو الذى ورد فى علم الأرواح فى الوقت الحاضر فانهم أثبتوا أن روح الانسان تبقى فيها أخلاقها وآدابها وأعمالها وذلك كله تام غير منقوص • ويحسن أن أنقل اليك أيها الذكى ماسطرته فى كتاب الأرواح لتعجب من مطابقة الكلام النبوى والقرآن لعلوم العصر الحاضر وهذا نصه

﴿ مطابقات للشريعة الاسلامية الغراء ﴾

ثم قلت أليس هذا (ياشير محمد) من العجب العجاب أوليس حديث ديكنس السابق هذا يومئ الى قوله عزوجل ـ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون ـ وقوله ـ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ـ وقوله ـ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ فقال (شير محمد) أما حديث ديكنس فهو عجيب ان صح بل هو أعجب ماسمعنا وأما هذه الآيات فلا أدرى ماموقعها وأى علاقة لعرض جهنم على الـكفار يوم القيامة وعلى الله وقراءة الانسان كتابه لما فى حكاية ديكنس من نمط الانشاء وخطأ الاملاء • فقلت اعلم (ياشير محمد) ان هذه الآيات فيها دلالة واضحة أن كل عمـل نعمله واعتدناه يصبح فينا سجية وغريزة ثابتة فلاينزعه منا الموت وأن ديكنس لم يقتلع الموت منه خطأ الاملاء وأبقى عنده حسن الانشاء • ولاجرم أن كل ذنوبه وأعماله من الخير والشر بقيت فى نفسه يحاسب عليها ويعاقب وهذا قوله تعالى ـ ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون ـ لأن الغريزة لاتقاوم كما لم يمكن اصلاح الاملاء بعد الموت عند ديكنس وهكذا كل ذرة من الخير والشر حاضرة عندنا باقية فى نفوسنا هى هكذا لم تتغير فلايغادر الله صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وكفى بنفسنا حسيبا علينا • واذا قلنا ارجعنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أجابنا ـ أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ـ ويقول لورددتكم لعدتم لما نهيتكم عنه وأنتم تكذبون كما كنتم تكذبون فى الدنيا بنقض عهدى بعد مرض يصيبكم أوفاقة تنتابكم أونازلة تحققكم فلاعهد لكم عندى

ياشير محمد اننا غافلون عن نفوسنا فى هذه الدنيا ولقد أفلح المؤمنون الذين هم فى آيات ربهم يتفكرون ولأذكرك بالحديث الصحيح الشريف ﴿ يبعث العبد على مامات عليه ﴾ وقال الشيخ محمد الزرقانى

وتحشر أطفال وسقط كمثل ما * يكونون عند الموت ثم تـكمل

وقال فى شرحه للنظم هل يحشر الطفل والسقط بصفته وقت الموت أم لا جوابه قال الحافظ ابن حجر كل واحد من أهل الموقف يكون على مامات عليه

أقول ألست ترى (ياشير محمد) أن كلام النبوة صريح فى أن الانسان حافظ لأخلاقه وآدابه حتى يحشر

عليها • أليس هذا بعينه مافى حكاية ديكنس وأنه قد حفظ أخلاقه فى أسلوب الانشاء وخطأ الاملاء • وهكذا يقاس عليها سائر أخلاقه التى يحشر عليها الا أن هذه الأخلاق الثابتة فينا بعد الموت أعدل ناقد وأكبر شاهد كمنت فينا فأظهرها الله • ألا وان العادات المغروسات فينا بالتكرار لن تزول بل تبقى خزيا علينا وعارا وفضيحة يقرؤها الناس فى صحائف أرواحنا ويكون عذاب الخزى • فليقلع المرء عن عاداته وليوطد النفس على منابذة الهوى ومحاربة العادات الذميمة فانها برسوخها فينا تشهد علينا

أوليس الخطأ فى املاء ديكنس شهد عليه بذنبه . أليس ذلك مصداقا لقوله تعالى ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ـ وقوله ـ حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ـ اهـ

﴿ اللطيفة السادسة قوله تعالى ـ إنّ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء الخ ـ ﴾

اعلم أن هذا المقام قد استوفيناه فى سورة (آل عمران) بما لا مزيد عليه فالمدار فى هذا الوجود على الاستعداد فالنفوس الغليظة التى لا تعرف إلا المادّة ولا تقدّس الا الأجسام ولا قدرة لها ولا ميل الى صفاء النفوس وتهذيبها وترقيتها لا تقدر على العروج الى الدرجات العالية والسموات الصافية بل تبقى فى عوالم منحطة على مقدار طاقتها كما مثلنا لذلك مرارا بأحوالنا الدنيوية فليس منا أحد يقدر أن يطير فى الجوّ ولا أن يعيش فى البحر بل حكم علينا أن نبقى على وجه الأرض ومن لم يتعلم الهندسة لا يقدر أن يجارى المهندسين ومن جهل البناء لا يوكل له بناء البيوت هكذا فى الآخرة يجد الانسان فى نفسه مانعا يمنعه من الصعود الى المقامات الرفيعة متى كان ليس أهلا لها كما يمنع فى الحال الجسمية من الطيران فى الهواء مع ان الهواء مباح مبذول للجميع وليس المانع هو الهواء ولا خالق الهواء ولكن المانع استعداد الانسان ومثل ذلك يقال فى قول أهل الجنة الى أهل النار لما قالوا لهم ـ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ـ ـ قالوا ان الله حرّمهما على الكافرين ـ وليس ذلك التحريم إلا استعداد نفوسهم وضعفها عن تلك المنازل الرفيعة إذ يجدون روحا وريحانا ويشربون ويأكلون

﴿ اللطيفة السابعة قوله تعالى ـ لا نكلف نفسا إلا وسعها ـ ﴾

لقد تقدّم الكلام عليها فى (سورة البقرة) فراجعها هناك فقد شرحتها شرحا وافيا يشمل العلوم الواجبة على الأمة الاسلامية وعلى نظام التدريس فيها

﴿ اللطيفة الثامنة قوله تعالى ـ ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ ـ ﴾

فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا اهـ فتأمل هذا الحديث فانه موافق للقرآن وللحقائق العلمية فذكر الاقتصاص وكيف يأخذ كل حقه وهذا موافق لقوله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ وانظر كيف يقول انهم يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار الخ و يقول حتى اذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم فى دخول الجنة • فاعلم أيها الذكى أن هناك من الأمور المغيبة وراء هذه الألفاظ مالا نعلمه الآن فالجنة لن يدخلها إلا من تأهل لها بالعمل كما تأهل الطير باستعداد جسمه الى الارتفاع فى الجو • هذا هو الحقيقة فاذن نزع الغلّ والحقد لابد منه قبل دخول الجنة وما دام الحقد باقيا والعداوات متراكمة فلا جنة ولا نعيم • وكيف يتنعم الانسان والعداوة كامنة فى صدره وأهل الأرض معذبون

بالعداوات فى الدنيا فمن مات على ذلك بقى معذبا به فكيف يفرح بالجمال المحيط به وقلبه بالعداوة مشغول وكشف هذا المعنى فى علم الأرواح بأوروبا فقد جاء فى كتاب الأرواح فى ترجمة كتاب (برايفت) داودينج قال . ألا وان جهنم دار خداع وضلال . ألا وان من أنس بالحواس وصدّق أنه لاوجود إلا ماصورته ولا حياة إلا مانسجته فاغترّ بغرورها واستضاء بنورها وفرح بجمالها فذلك مخدوع يوم يأتى حتفه . ومن ذا يقدر أن يرجعه عن غيه وهو يقول ياليتنى أردّ فأقاتل الأعداء وأواسى الأصدقاء وأقضى الوطر واستلذ بما أسعد به الحواس من المطاعم والمشارب والمآرب . هنالك تثورفيه ثائرة الحزن والأسى على مافاته وتحيط بهخطيآته من الحسد والغشّ والعداوة والبغضاء والطمع والكبرياء وحب الذات والحقد وصغر الهمة - بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون - وهناك مطهرة انا الآن فيها يخرج المطهرون فيها الى العلا وقليل من الناس يأبونها . ألا وان الناس فريقان . فريق عرف أن هناك حياة روحية فعمل لها وآخر عكف على ارضاء أهوائه وسدّ شهواتها . فالأوّلون هم الناجون . والآخرون لايسمعون نصحا . ولا يذرون ما اعتادوه فى الحياة من المطامع والشهوات . ولما أن حللت بساحة جهنم قال الرسول لن تقدر أن تخترق تلك الآفاق المظلمة فمكثت مكانى وتقدم أخى والملاك حتى وصلا الى ذلك الجندى لينقذاه ولكنه أبى أن يفارق الجحيم لأن الهلع خلع قلبه أن يغادر مكانه حتى لايصيبه ماهو أشدّ من العذاب فالخوف والجهل أعمياه ولو عرف الحب لكان من الناجين . فانظر كيف ذكر أن هناك مكانا للتطهر الذى عبر عنه بالمطهرة بكسر الميم وفتحها . وقال السدى فى آية - ونزعنا مافى صدورهم من غلّ - أن أهل الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من احداهما فينزع مافى صدورهم من غلّ فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم (الحديث) فتعجب كيف تقول الأرواح ان عندها ماء تتطهر به لتزيل الحقد من القلوب وكيف كان هذا مصداقا للحديث

﴿ اللطيفة التاسعة فى أصحاب الأعراف وكيف يعرفون الناس بسيماهم ﴾

لقد عرفت أن أصحاب الأعراف هم أعاظم الأمم وهؤلاء يعرفون كلا بسيماهم وفى الحقيقة أن أكابر الحكماء والأنبياء والعلماء يعرفون اليوم كلا بسيماهم فمن هم أصحاب النار ومن هم أصحاب الجنة . اعلم أن أصحاب النار واضحون لذوى البصائر فى الحياة الدنيا ففى الحديث ﴿ أنت مع من أحببت ﴾ فمن أحبّ المباهاة والمفاخرة والمكاثرة والمغالبة وأحاديث الباطل والزور والأكاذيب والظلم فهو فى الحياة لاقرار لراحته ولا سعادة لقلبه ولاهناء لعيشه ولاصفاء لضميره فهو متقلب فى الشقاء . يظنّ القلق راحة والاضطراب صفاء وهو أبدا قلق معذب كثير الهموم والأحزان . يرضى من السعادة بالرياء . ومن الحياة بالخيال . ومن الراحة بالخبال . فهو أبدا فى هم مستطير وألم مقيم وعذاب دائم والناس يرونه سعيدا وهو شقى قريبا وهو بعيد فمن هذه حاله اذا مات لاتفارقه صفاته وتبقى روحه معذبة أبدا حتى تغير حاله بحال أخرى كما قال تعالى - إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم -

فأما أهل الجنة فانك تراهم من الذين هدأت نفوسهم وصفت أرواحهم وهم ساكنون هادئون قد كفوا الناس شرّهم وضمائرهم فى راحة وقد اتسموا بالصبر والفضيلة والعفة وعيشهم أشبه بالكفاف . لا كثرة تطغيهم ولاقلة تقلقلهم ولاظلم يضعف ابصارهم . فأهل الجنة يعرفون بسيماهم وأهل النار يعرفون بسيماهم . فالنفوس المائلة للعلوم والمعارف أقرب الى الجنة . والنفوس المنهمكة فى جمع المال وفى الوظائف أقرب الى أهل النار وهناك منازل بين الطائفتين - ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا - فالنفوس فى الدنيا هى النفوس فى الآخرة وخير النفوس من عملت لمنفعة الجميع وأحبت النوع الانسانى وكانت مغرمة بالعلم وترقية الجميع فهذه أقرب الى الجنات وأبعد عن النيران والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ اللطيفة العاشرة فى قوله تعالى — إنّ ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام — ﴾

لقد ذكرت فى تفسير الأيام الستة بما يناسب العلم الحديث ولا تظنن أن الذى قلته هو المتعين وانما هى صورة من الصور المحتملة فانا نعلم أن هناك المادّة الأصلية للكائنات وهى الأثير ثم كانت شموس وأرضون ومعدن ونبات وحيوان وانسان فهذه ستة أعمال فى ستة أزمان . ويقال أن أوّل ماخلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وماسيكون وماخلق وماهو خالق الى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درّة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات ومافيها من نجوم وشمس وقمر ثم مدّ الأرض وبسطها من التربة التى خلقها أوّلا ثم خلق جميع مافيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط الى الأرض فتكامل جميع الخلق فى ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول أكثر العلماء

أفلست ترى أن هذا الحديث أقرب الى ما كشف فى العلم الحديث وذكرته فى (سورة الأنعام) فى أوّلها أفلا ترى أن قوله خلق السماء من درّة بيضاء أقرب الى خلق جميع الشموس من الأثير الذى لايرى وقوله ثم خلق التربة اشارة الى انفصال الأرض وجميع الأرضين من الشموس وجميع السيارات التى بردت بعد مدّة فاستعدّت لمادّة التراب والشموس لاتزال حارّة وقوله ثم خلق السموات ومافيها من نجوم وشمس وقمر الخ اشارة الى نظام الشموس فى دورانها وتنظيمها وقوله ثم مدّ الأرض وبسطها من التربة اشارة الى ماحدث فى الأرض من الطبقات المذكورة فيما تقدّم فى (الأنعام) من صوّانية الى فحمية وهكذا . وقوله خلق جميع مافيها من جبال اشارة الى علم المعادن الذى فى الجبال الذى هو مقدّم على النبات الذى أشير له هنا بالشجر وهو مقدّم على الحيوان وهى الدواب المذكورة هنا . ثم فى آخر الأمر خلق آدم . فهذا الحديث على وجه التقريب أقرب الى الكشف الحديث — والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم —

﴿ بهجة العلم والحكمة والنظام والسلام العام فى قوله تعالى — وهو الذى يرسل الرياح بشرا الخ — ﴾

سأريك أيها الذكى فى هذا المقام عجبا عجابا وذلك فى نظام المطر والرياح وكيف كانت الكرة الأرضية كلها متصلة متضامنة متحدة والناس يقرؤن وكأنهم لايقرؤن ويعلمون ولكنهم لايشعرون أنهم يعلمون

أنت تعلم أن الهواء لايكون رياحا إلا بسبب وذلك السبب هو الحرارة الشمسية . وآية ذلك أننا نوقد النار فى تنورنا فى منازلنا فيخف الهواء فى داخل المنزل ويلطف فيعلو الى الجوّ ويحلّ محله الهواء الذى هو خارج القرية فنرى فى الحال تيارا يجرى الى داخل المنزل وذلك التيار جاء خاصا بهذه الحادثة . هذه حادثة تمرّ على الناس فى منازلهم وهم لايعلمون وعلى هذه القاعدة ننظر فى الأرض كلها أى فى نصف الكرة الشمالى ونصف الكرة الجنوبى فماذا نرى

﴿ نرى هذه المسألة وأمثالها تظهر فى قارّة آسيا وقارّة استراليا ﴾

اذا حلّ زمان الصيف فان داخل بلاد آسيا يكون حارّا فترتفع درجة الحرارة تبعا لشدّة حرارة سطح الأرض وهناك تتدافع الرياح من المحيط الى القارّة كما رأينا تيارا يدخل منازلنا لما ارتفعت الحرارة فى التنور لخبز العجين فهذه الرياح المتدافعة تهبّ على الهند والهند الصينية والصين وهناك تكون أمطار غزيرة وتقف الجبال فى طريق المطر فتصدّ الأمطار عن الدخول الى أواسط البلاد الجافة . وكما رأيت صيف آسيا هكذا ترى صيف قارّة استراليا فانه أيضا يكون داخل القارّة فيه شديد الحرارة فتهبّ هناك رياح شمالية غربية تحمل الأمطار وهذه الرياح هى تلك الرياح التى تهبّ على الهند فى ذلك الوقت نفسه الذى هو شتاء هناك

﴿ فصل الشتاء فى آسيا وفى استراليا ﴾

ومثل مارأيت آسيا واستراليا فى الصيف هكذا تراهما بعكس ما تقدّم فى الشتاء . ذلك أن كلا منهما

يكون وسطه شديد البرودة فاذا يكون تتجه الرياح من الداخل الى أطراف القارة فى الجهتين . ومعنى هذا أن استراليا فى زمن الشتاء وآسيا كل منهما يبرد وسطه ففى برد الوسطان كان هناك شتاء مع العلم بأن ماء البحر فى أطراف القارتين يعلوه هواء أدفأ مما فى وسط القارة وقد قلنا ان الحرارة بها يرتفع الهواء فيحل محله الهواء البارد وعلى ذلك تجرى الرياح من داخلهما الى خارجهما فى شتاء كل منهما . ومعلوم أن شتاء أحدهما هو صيف الآخر فصيف النصف الشمالى من الكرة شتاء الآخر والعكس بالعكس . فتجد الرياح فى زمن الشتاء فى استراليا متى اتجهت من الداخل الى المحيط تمر من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى وتستمر الى بلاد الهند التى يكون ذلك الوقت صيفا عندها فتكون هناك رياح موسمية جنوبية غربية . ومثل ذلك الشتاء فى بلاد آسيا فان الرياح التى تهب من وسطها الى خارجها من الشمال الشرقى تصير شمالية غربية جنوب خط الاستواء . فاذا رأيت الجهات الموسمية فى بلاد آسيا وهى الهند والهند الصينية والصين وكوريا وسهول منشوريا وجزر اليابان . أقول اذا رأيت هذه الجهات نزل المطر فيها مدرارا فى زمن صيفها فزرعوا الارز والشاى والقطن الخ فاعلم أن تلك الريح امتداد للرياح الآتية من وسط بلاد استراليا فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية

﴿ عجب عجاب شتاء فى آسيا وصيف فى استراليا فى زمان واحد ﴾

يكون البرد فى أولاهما والحرارة فى أخراهما سببا فى حدوث الرياح بحيث تهب الرياح من الجهة الشتوية الى الجهة الصيفية وهكذا بالعكس شتاء فى استراليا يدعو الرياح أن تهب منها الى الجهة التى فيها الشمس فهذه هى الرياح الموسمية المحددة الهبوب فستة أشهر تهب الى جهة وستة أشهر بالعكس على طول الزمان . تظهر الشمس فى جهة فتجلب الرياح الى جهتها فان كانت فى الجنوب فالرياح تتبعها وان كانت فى الشمال فكذلك

﴿ عدل الله فى النسيم بين الشتاء والصيف والبر والبحر ﴾

يعلم الناس اليوم أن الأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس فبالأولى يكون الليل والنهار وبالثانية يكون الشتاء والصيف والعجب العجاب هنا . ان الحركة الأولى كما يكون بسببها الليل والنهار ليقوم العدل فى الاضاءة والاظلام هكذا يكون العدل أيضا فى الرياح . ان اشراق الشمس على اليابسة يسرع تسخينها أكثر من الماء فيخف الهواء فوقها فيحل محله نسيم البحر فيهب فى البر فاذا جن الليل وأرخى سدوله كانت الأرض أسرع للبرودة من البحر فانعكست الآية وأخذ نسيم البر يهب على البحر الذى لا يزال جوه أدفأ من البر فهناك عدل ونظام وحكمة فكما يقلب الله الليل والنهار بالاضاءة والاظلام هكذا يقلب النسمات من البر الى البحر ليلا ومن البحر الى البر نهارا وهذا يسمى نسيم البر والبحر وأما الذى يكون بالنسبة للحركة السنوية فهى الرياح الموسمية التى شرحناها فيما تقدم . فاعجب لنظام محكم مقدر بالعدل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء - ذلك تقدير العزيز العليم - الذى أحسن كل شئ خلقه . اللهم ان صنعك لعجيب موزون منظم ولعمرى ماذا نريد من الوجود إلا أن نقرأه فنراه بهجة الناظرين وجنة المفكرين وحياة الأنبياء والعلماء العاملين اللهم ان جمال وجهك أشرق فملأ الأرجاء

هذا وبينما نرى الرياح تهب تبع حركات الشمس صيفا وشتاء وليلا ونهارا نرى ذلك يتبعه سير السفن للتجارة وسير الرياح لتفريق المطر على اليابسة - إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم -

واعلم أنه كما يكون الشتاء والصيف ببعد الشمس وقربها هكذا يكون الجمود فى الأمم والنشاط بقرب العلوم وبعدها . كان أهل الشرق قديما أعلم من أهل أوروبا ثم طلعت على الغربيين شمس المعارف وأصبح الشرقيون فى برد شتاء الجهل . ولكن الله يقلب الليل والنهار والرياح الموسمية ونسيم البر والبحر كما رأيت فهاهوذا سبحانه وتعالى أخذ يعكس الآية وهانحن أولاء نرى أهل الشرق قد استيقظوا فى مصر وشمال أفريقيا

والبابان

واليابان والصين والترك والأفغان لأن الله له نظام مبنى على العدل فى الضوء والاظلام والرياح وهكذا فى سياسة الدول ونظام الشرق والغرب • اقرأ هذا المقام فى قوله تعالى ـ قل اللهم مالك الملك الخ ـ فى سورة آل عمران

هذا بعض قوله تعالى ـ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ـ فلولا الرياح ما كان سحاب وما عاش انسان • ولولا حرارة الشمس لم تكن رياح لحرارة الشمس بها تحريك الرياح والرياح تحمل السحاب والكرة الأرضية كلها متضامنة متحدة • فبلاد استراليا و بلاد آسيا تعطى كل منهما الأخرى فى زمانها هواءها فتعطى استراليا لآسيا الرياح زمان صيف الثانية وتعطى آسيا الرياح لاستراليا زمن صيف الثانية فهناك اتحاد لم يعمل الانسان بعلمه والحيوان عمل على مقدار غريزته فالانسان اليوم قاصر وهو جهول كفار

اللهم ان الناس على أرضك غافلون • اللهم انى وجميع المتعلمين فى أوروبا والشرق نعلم هذا وندرس نظامك ونعرف انك جعلت كرتنا الأرضية جميعها ذات نظام موحد فرياح آسيا ورياح استراليا تتجه من كل منهما الى الأخرى فى زمان معين فكل منهما لها نصف السنة وهذا قد رتبته على مقتضى سير الشمس والشمس واحدة أنت جعلت نظامك واحدا ولم تجعل فيه تفاوتا • ونراك علمتنى وعلمت جميع أهل العلم فى الأرض هذه المعارف ولم تعلم هذا الأمثال النمل والنحل والغربان وكلاب البحر تلك الأمم التى تعيش جماعات وجمهوريات ذات نظام جميل تام على حسب طبائعها وغرائزها • هذه الحيوانات لا تعرف النظام العام كما نعرفه نحن وقد قامت بما تعرف من نظام جماعاتها وحاربت جماعات النمل فى قرية جماعات النمل فى قرية أخرى فهى لا تعرف إلا ذلك ولو أنها درست كما درسنا نظامك لكان نمل الشرق متحدا مع نمل الغرب • أما الانسان الذى أعطيته هذه العلوم والمعارف فانه جميعه طفل فى الشرق والغرب • كل هؤلاء ساساتهم وفلاسفتهم أنظارهم قاصرات على أممهم يجارون العامة والجهلاء

﴿ الانسان الأعلى ﴾

فأما الانسان الذى يصل الى مدى الانسانية الحقة فهو ذلك الذى يجعل جميع الناس فى الكرة الأرضية متحالفين متحدين منظمين فى الكرة الأرضية على مقتضى نظامك وعدلك فكما أعطت كل من آسيا واستراليا الرياح للأخرى زمن شتائها هكذا يكون الانسان فى شمال الكرة وجنوبها وشرقها وغربها كل منهم يعدل مع الآخر كعدل هذه الرياح • أما الانسان الحاضر فهو لا نزال طفلا وربما عددناه مراهقا • والدليل على ذلك انك بينما تراهم متشاكين تفتخر الدولة بتسخير دولة أخرى فى اطعامها ومساعدتها ترى بلاد أمريكا تبلغ الممالك المتحدة فيها فوق مائة مليون بعد أن كانوا ممالك مختلفة فهذه هى المراهقة • فأما بقية الأمم كأممنا الاسلامية وغيرها فانهم لم يزالوا جهلاء مختصمين لجهلهم مع ان الله خلقهم ليكونوا خلفاء

﴿ ما الواجب على المسلمين فى هذا الزمان ﴾

جاء فى هذه الآيات ـ والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ـ ان الأمم الاسلامية ماعاقها عن ظهور الكمال فيها و بزوغ الشمس المحمدية والسلام العام فيها إلا انها أمة فى هذا العصر جاهلة جهلا مريعا محزنا فاضحا ولا يؤهلها للخلافة فى الأرض إلا تعميم التعليم فتعميم التعليم هو الذى يؤهل القلوب أن تقبل النصائح القرآنية وتكون القلوب هناك مثل الأرض الطيبة تقبل الاصلاح سريعا

فليستعد المسلمون لتعليم جميع الأفراد رجالا ونساء من الآن لنكون خلفاء الله فى الأرض ويكون التعليم ابتدائيا وثانويا وعاليا كأهل اليابان وأوروبا وأمريكا ولنأخذ بأحسن الطرق والأساليب فهناك يليق أن يكونوا مع الأمم وليبدأوا هم بالسلام العام وذلك لأن نبينا ﷺ أرسل رحمة للعالمين فلنكن نحن رحمة للعالمين ومستحيل أن نكون رحمة وهم علماء ونحن جهلاء بديننا لأنك تعلم من هذا التفسير أن العلوم التى ملأت الأرض اليوم هى نفسها علم التوحيد الذى هو أهم من علم الفقه والتعمق فيها فرض كفاية فتى عرفنا العلوم

وعمت أقطار الاسلام هنالك نجلس معهم أى مع أهل أوروبا واليابان والصين ونقول نريد السلام العام لأن الله أخبرنا أنه يأتى يوم تضع فيه الحرب أوزارها كما سيأتى فى سورة (القتال) والقرآن لم يقيده وقال المفسرون هو يوم مجىء عيسى عليه السلام ولكن القرآن لم يخصص . فلو أن الأمم استعدت للسلام فلا معنى لأن المسلم هو الذى يحارب . ان الانسان اليوم ناقص وهو يسير الى الكمال فلا معنى لأن المسلمين يتقاعسون فليتعلموا وليكونوا خير أمة أخرجت للناس بأمرين . (أوّلا) أن يتعلموا كما تعلمت الأمم . (ثانيا) أن يقودوا الأمم للسلام العام . فأما الآن فان الانسانية جاهلة غافلة يتحاربون كما يتحارب النمل لم يمتازوا عن الحشرات وكلاب البحر والغربان فى نظام الجمعية الانسانية ـ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ

﴿ ذكرى للأمم الاسلامية ﴾

فيا أيتها الأمم الاسلامية استعدّوا للواجبات العلمية والعملية . أفلا ترون أن الأرض التى نعيش عليها قد أصبحت مغلفة بالأسلاك البرقية والطرق الحديدية وتبادل البريد والطرق الجوّية للطيارات وهكذا للتلغراف الذى لاسلك له فهاهى ذه أرضنا اليوم أصبحت أشبه بجسم حيوان فلكل حيوان جلد يحسّ بما يصيبه بالحواس الخمس المفرقة على ظواهره هكذا أرضنا فهما حصل فى جهة فان سائر الجهات شرقا وغربا تعرفه. الأرض كانت قبل اليوم لا علم لشرقيها بما عند غربيها ولا لجنوبيها بما عند شماليها إلا قليلا واليوم أصبحت أشبه بانسان فى ابتداء صباه يحسّ ويتحرّك ولكنه يعوزه التربية والتعليم أصبحت الآن الأمم متصلة بعضها فهاك ﴿ مسألة القطن فى أمريكا ومصر والعرض والطلب بأوروبا انها كمسألة الرياح الموسمية بين آسيا واستراليا ﴾

قد عرفت أيها المسلم الذكى فيما تقدّم كيف كانت الرياح فى شتاء استراليا تبعث منها الى الصين وما والاها ستة أشهر وفى الستة الأشهر الأخرى ينقلب الأمر فترسل آسيا الريح من أواسطها ذاهبا الى استراليا وتكون تلك الأيام صيفا لها . هكذا نحن نرى القطن فى أمريكا لما كثر أضرّ بقطننا فى مصر فصار السعر رخيصا على قاعدة العرض والطلب فيقال ان عندهم فى هذه السنة (١٩٢٦) عند طبع هذه السورة نحو (١٨) ألف ألف بالة غير ما خزنوه من عام أوّل وهو نحو ثلث هذا المقدار فأضرّ هذا بقطننا المصرى . هذه مسألة واحدة من مسائل التجارة والاجتماع فاذن تصريف الرياح وازجاء السحب ونحوها ذلك يضارعه أحوال أهل الأرض فالناس أشبه بأسرة واحدة كما ان المطر والرياح قد صرفها الله بالتبادل والتكافؤ والاشتراك . فالانسان لا يتمّ كماله إلا اذا أصبح أمة واحدة . ان النحل والنمل لا اشتراك بين شرقية وغربية ولكن الانسان يتبادل المنافع شرقيه وغربيه فما دام أشبه بالحيوان فى نظامه وأن كل جماعة تحارب أخرى كالنمل فانه طفل ظالم لنفسه جهول وهذا قوله تعالى ـ إن الانسان لظلوم كفار ـ وقوله ـ إنه كان ظلوما جهولا ـ فليكن نظامه على مقتضى رقى عقله اهـ

يقول الله تعالى هنا ـ كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ـ قد صرّف الله هذه الآيات فى القرآن كما صرّف آيات الرياح والسحاب كل ذلك ليشكر الناس ولا معنى للشكر إلا بثلاثة أمور ﴿ الأمر الأوّل ﴾ العلم بهذه الدنيا ونظامها وحكمها ﴿ الثانى ﴾ ما ينتج من هذا العلم طبعا وهما أمران . حب منافع المخلوقات طرا لاسيما الانسان . الثانى حب الله لأن من أعجب بهذا النظام المتقن بحيث يرى أن الرياح والسحب لم تكن بلا قوانين بل هى تابعة لسير الشمس الذى هو نظام لا خلل فيه فيتبعه نظام مثله وحينئذ نرى النظام فى مزارع استراليا كما نراه فى الصين فكل قوم فيهما يعلمون أوقات الزرع والحصاد فلا يخطؤن والمطر يجىء لهم فى وقته ذلك لحسن نظام الشمس وسيرها . فالله لم يترك الرياح وسحبها بلا نظام متقن فمثل هذا يحدث فى القلب حبا للخالق واخلاصا لعباده . وهذان هما الأمران الناتجان عن الأوّل ﴿ الأمر الثالث ﴾ انطلاق اللسان بالحمد وتسخير الأعضاء للعمل للصالح العامّة . هذا هو الشكر الذى قاله علماؤنا وهو المذكور هنا

فى

فى قوله تعالى - كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون - اللهم اننا معاشر المسلمين قد قصرنا فى شكرنا فلاعلم نظامك الذى ذكرته هنا درسنا ولا نتائجه حصلنا بل نحن من أقلّ الأمم علما فأين الشكر اذن فالشكر مافصلناه وذلك بالتعليم العام بجميع أنواعه ثم قيادة أهل الأرض الى السعادة والسلام حتى نكون شاكرين ورحمة للعالمين وهناك نكون نحن خلفاء الله فى أرضه والحمد لله رب العالمين

وهذا مايرمى اليه قوله تعالى - وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين - أرسل الله نبينا ﷺ رحمة للعالمين ولايتمّ هذا فى الدنيا إلا باجتماع الناس على فكرة عامّة بينهم والمسلمون هم نواب عن نبينا ﷺ فليقوموا بهذه النيابة • وقد ألفت كتابا بمعنى هذا يسمى (أين الانسان) وقد انتشر فى أوروبا والشرق وقرظه الاستاذ (سنتلانه) التليانى فى مجلة العلوم الشرقية وكذلك الاستاذ (كراديفو) الفرنسى فى المجلد الخامس من كتابه (مفكرو الاسلام) وهكذا غيرهم من العلماء لا أذكرهم الآن • وما كنت أعلم الاهية • انى أنى أعيش حتى أرى هذه الفكرة ينشرها الناس فى حياتى فى الشرق والغرب وهذا من عجائب الحكم قد قلت فى الكتاب المشار اليه أن الأمم سائرة الى هذه الغاية • فانظر كيف جاء اليوم الى مصر الاستاذ الشاعر الهندى (طاغور) الذى ملأ صيته الآفاق شرقا وغربا أثناء طبع هذا التفسير وخطب خطبة يوم الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٦ توافق مانحن بصدده الذى قرأته فيما تقدّم وتوافق كتابى (أين الانسان) وهذا نصّ ماقاله نقلا عن جريدة (الاهرام) فى التاريخ المذكور وهاهى ذه

لقد أسرفت الأمم فى الاثرة والانانية وفى العصبية الجنسية التى يتمسك بها فريق كبير من أهل الأمم المتحضرة على أن هذه العصبية أكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة فهى التى تجرّ الأمم الى التطاحن لنيل غايتها وهى التى تثير بينها حروبا مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الاثرة • وما أشك مطلقا فى أنه قد وجدت أمم من قبل وبادت أفنتها الحروب فى سبيل أغراضها • ومازال الآن فى مجاهل أفريقيا أمم تسير فى طريق الفناء لأخذها فى حياتها بهذه الخطة • ولئن كان هذا ممكنا تصوّره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الأمم وتجعل كلا تعتز بكيانها وبجنسها وتجعل من لون أصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر فلم يبق لهذا التصوّر اليوم محل بعد أن أصبحت الحدود الطبيعية لاحقيقة لها لأسباب أهمها تقدم المواصلات والنموذج العقلى بين الأمم • لذلك يجب أن تزول الاثرة وأن يزول التعصب للجنس والتعصب للون • ويجب أن يشعر العالم أن هناك وحدة روحية تربط أممه المختلفة • ومن حسن الحظ انى رأيت أثناء سياحاتى فى البلاد المختلفة كثيرا من الرؤس الكبيرة متفقة واياى فى الرأى واثقة كما أثق بأن سيأتى اليوم الذى تسود فيه هذه الفكرة الشعوب جميعا • بل لم يقف الاقتناع عند الرؤس الكبيرة فقد احتفل بى فى بلاد عدّة كثير من البسطاء لأنهم أحسوا فى كتاباتى الدعوة لهذه الوحدة الروحية التى تصبو اليها نفوسهم والوسيلة لقهر الانانية ولزوال التعصب الجنسى ليست هى الحديد والنار وانما هى انتشار الأفكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعا لادراك الحقيقة • فهذه الحقيقة • الحقيقة المجرّدة • الحقيقة المطلقة يجب أن تكون غاية الغايات لكل شاعر ولكل مفكر ولكل فيلسوف وغاية الغايات للانسان الكامل • ويوم يأتى الوقت الذى يعمل فيه كل لمعرفة الحقيقة فاذا رآها لم يتردّد فى اعلانها يومئذ يكون الانسان قد وصل الى الكمال • وفى هذا اليوم ينشر السلام على الأرض • نعم • فالسلام لن يترتب على عمل صناعى مطلقا كالاتفاقات الدولية وما اليها انما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هى الوحدة الروحية وأحسّ أن هذه الوحدة بدا فى العالم ظهورها • وختاما لهذا الحديث ارتل حكمة غالية من أحد كتبنا المقدّسة • وهنا أطرق ورتل حكمة بصوت عذب يصل الى القلب بلغته الأصلية أبياتا نقلها الى الانكليزية ومعناها على التقريب مايأتى

﴿ رب الأرباب واله البشر جميعا تنزهت عن كل لون وجنس • يامهيمنا على جميع الأمم وان اختلفت

ألوانها وحد بين قلوبها وألهمها تبادل المحبة وأيدها بروح الحق والعدل ﴾

وهذه الفكرة الدينية نزل بأجمل منها القرآن كآية ـ والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ وكآية ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الخ ـ وكآية ـ وتعاونوا على البر والتقوى الخ ـ • انتهى

﴿ جوهرة ﴾

﴿ عجائب أسرار القرآن فى هذا التفسير معنى ـ المص ـ ﴾

قبل الانتقال من القسم الأول من سورة (الأعراف) والابتداء فى القسم الثانى المشتمل على قصص الأنبياء عليهم السلام يحسن أن أذكر من عجائب القرآن مابه يتذكر أولو الألباب ويعجبون لآى التنزيل

قد جاء فى أول السورة ـ المص ـ وقد أحلنا ذلك على أول سورة (آل عمران) ولكن المعنى هناك عام والخاص بآل عمران ذكرته هناك عند قوله تعالى ـ ألم تر الى الذين أوتوا ـ وأريد هنا أن أبين السر المصون والجوهر المكنون والحكمة البالغة والآية الباهرة والنور الزاهر والسلطان القاهر • انظر وتعجب كيف اختير فى أولها هذه الحروف الأربعة • فاعلم أن المقصود من قصص القرآن نتائجه • ولعمرى مالنا حظ من هذا القصص إلا ما انتفعنا به فان لم ننتفع ولم نعلم فلاتفسير ولاعلم ومحل الانتفاع فى هذه السورة أمران اثنان يجمعان زهرة علومها ومقاصد حكمها وثمرات أخبارها (أولهما) الاعتبار بهذه القصص والأخبار فالاعتبار هو الذى أنزل له القرآن ومنه هذه السورة (الأمر الثانى) نصح الناصحين مع صبر المسترشدين بالعمل بالنصيحة والى الأول (ألم) والى الثانى (ص) فانظر قوله تعالى ـ ألم أقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ـ هذه الجملة تجمع مقصود السورة بتمامها لأن أخبار نوح ومن بعده يقصد منها ملخص هذا المعنى ألم أقل لكما كذا فهذه الجملة تفيد كل ماسيأتى من الانسان اذا وقع فى الجريمة فهو مقصر إذ وضحت أمامه الأدلة فالألف واللام والميم قد أدت مقصود هذه السورة اجمالا وقوله ـ ألم أقل لكما الخ ـ تفصيل للمجمل • ثم نفس أخبار الأنبياء مع أممهم ترجع لهذا المعنى

وانظر قول ابليس لآدم وحواء ـ إنى لكما لمن الناصحين ـ وقول نوح ـ وأنصح لكم وأعلم من الله مالاتعلمون ـ وقول هود ـ وأنا لكم ناصح أمين ـ وقول صالح ـ ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين ـ وقول شعيب ـ ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ـ وقول موسى عليه السلام لقومه ـ استعينوا بالله واصبروا الخ ـ

فههنا نصح من الأنبياء ومن ابليس وأحد الناصحين أمين كما فى قول هود والنصيحة تلتبس فلايدرى الانسان أيهما أصدق • نصح ابليس فعمل آدم بنصيحته • ونصح الأنبياء فكفر الناس بهم • فالأمين متروك والكاذب متبع • هذه هى قضية هذه الدنيا • لذلك يقول الله ـ ألم أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ـ فالنصح والصبر على قبول النصيحة ممدوحان وفى كليهما الصاد وانصح الصادق فيه صعوبة ومشقة لكن نصح الكاذب فيه لذة كالأكل من الشجرة • يقول الله ـ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة فهذا التوبيخ منصب على آدم وأولاده لأنهم يتبعون الشهوات بسبب النصح المغشوش فلاصبر عندهم ولايميزون بين النصحين

كل هذه المعانى مندمجة فى ـ المص ـ وتفصلها السورة بتمامها فاذا تذكر المسلم فى أكثر أوقاته هذه الحروف الأربعة كانت كنزاله ثمينا فهى تذكره بالتقريع على المعصية الشهوية وعلى عدم الصبر على الفضيلة وعلى عدم سماع النصيحة وتذكره بخصف الورق على أبويه من قبل • فهذه أربع صادات • وهذه الألفاظ فى نفس السورة كلها وتذكره بالقصص المذكور فى هذه السورة إذ قال تعالى ـ فاقصص القصص ـ هذا هو المعنى المفهوم من ـ المص ـ • ولقد تبين لك فى سورة البقرة أن ـ الم ـ هناك تشير الى قصة

الذين

الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . والى قصة العزير وقصة الخليل إذ يقول ـ ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه الخ ـ فكأنه فى سورة (البقرة) ذكر المسلمين بأهم الامور وهى أمران الجهاد والعلوم الطبيعية والفلكية وغيرها وهذه الأخيرة تضمنتها قصة الخليل والعزير وهكذا سورة (آل عمران) جاء فيها ـ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا الخ ـ يحذر المسلمين من الغرور الذى وقعنا نحن فيه الآن . وقد أوضحت هذا هناك ايضاحا تاما باطناب و بينت مسألة البقرة هناك لافى سورة (البقرة) لأنى لم أوفق لذلك إلا فى (آل عمران) أما هنا فان ـ المص ـ تبيان لفهم القصص ولتمييز النصح من الناصحين المختلفين والصبر على المشاق حتى نميز بين الأمين وغير الأمين فهذه السورة فيها تشديد وتوبيخ وتقرير ولذلك زاد حرف (ص) فكأنه يقول فى أوّل (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف) هكذا عليكم بالجهاد وحوز العلوم واذا نلتم ذلك فاياكم والغرور لئلا تتفرّقوا شيعا ويذوق بعضكم بأس بعض . ثم إياكم أن يغركم الشيطان بنصحه ألم يكن الشيطان عدوكم فليكن الصبر ديدنكم . هذا هو الذى افتتح الله به هذا المقام والحمد لله رب العالمين . انتهى القسم الأوّل من سورة (الأعراف)

(القِسْمُ الثَّانِي : مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِهِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَلٰكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مالاتَعْلَمُونَ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قد علمت فيما مضى أن هذه السورة نزلت للاعتبار بالأمم وهلاكها والدول وخرابها وأن هذه أوّل سورة جاءت لهذا المعنى بحسب الترتيب الذى جاء فى السور لابحسب ترتيب الوحى فابتدأ بقصة آدم وحوّاء وابليس وكيف كان أمرهم عبرة للمعتبرين . فابليس أقصى عن المعالى وآدم وزوجه نزلا الى الأرض وحكم عليهما وعلى أولادهما بالمكث فى الأرض وأن بقاءهم فيها متوقف على تنازع البقاء المعبر عنه بقوله تعالى ـ بعضكم لبعض عدوّ ـ وفى قصص آدم نكتة جميلة وهى أن البيئة والتوارث من أسباب الأخلاق وتكوينها فى الأشخاص فآدم لما خالط ابليس غشه وهذا هو الذنب والخلق بسبب (البيئة) أى الوسط وآدم لما أذنب خرج هو وكل ذرّيته الى الأرض . والذى يهمنا من هذا القصص مانراه ماثلا أمامنا كل حين وهو أن للوسط والبيئة تأثيرا فى أخلاقنا وكذلك الميراث فقصة آدم منطبقة تمام الانطباق علينا معاشر أهل الأرض . اننا نعيش غافلين فنرى ابن المسيحى مسيحيا وابن اليهودى يهوديا وابن البوذى بوذيا وابن الوثنى وثنيا وابن المجوسى مجوسيا وهذا تأثير البيئة وتأثيرها فى الأخلاق . وهكذا نجد المنسول من أسرة عريقة المجد طيبة الأصل غالبا يتخلق بأخلاقها . ومن كان أبواه طويلين أوأبيضين أوأسودين خرج غالبا على هيئتهما وهذا فى الشكل الظاهرى . وهناك بواطن لاندركها نراه قد تخلق بها كما نرى العصفور يلد العصفور والبازى يلد البازى والنحل ينتج نحلا . فقصة

آدم ترينا أمرا عجيبا . ترينا أننا فى هذا الوجود قد حكم علينا أن نعيش على صفات خاصة وأديان معلومة يوجبها علينا تناسلنا وتوارثنا وأوساطنا التى نعيش فيها . وهذا هو الأمر الطبيعى الذى خطه الله على الوجوه ورسمه فى القلوب . ولكن يمنع ذلك ماجاء فى قصص هؤلاء الأنبياء من أنهم فكوا الأغلال عن الناس وكسروا الأصنام وأمروا الناس أن يذروا عاداتهم ويتركوا ماعليه آباؤهم من الأخلاق والآراء والعقائد وان من بقى منهم على ذلك حاق به الهلاك وأودى به العذاب وعليه ذكر هذه القصص كقصة قوم نوح وعاد وثمود وما بعدها ليقول لنا ذروا العادات واخلعوا عن أعناقكم ربقة الكسل والجمود وارتقوا فى الأسباب

ثم ان الفطن اذا علم أنه فى وسط وبيئة مملوءة من الأباطيل وأنه واحد من هذه البيئة له مالها وعليه ماعليها يجدّ ويجتهد فى تهذيب طباعهم وغسل أدرانهم وتطهير أخلاقهم ورفع رؤسهم ولنا فى الأنبياء قدوة حسنة

فعلى كل عاقل أن يجدّ فى تطهير المجتمع الذى هو فيه من أدرانه فيكون أقرب الى ربه وذلك هو المقام الأوفى . وهاك قصص نوح عليه السلام

اعلم أيها الذكى أن هذه القصة ومابعدها من سورة (الأعراف) وهكذا بقية قصص الأنبياء أكثرها انما نزل قبل الهجرة يوم لم يكن للنبى ﷺ تابعون كثيرون فانظر هذه القصص وتأمل فيها تجد أن كل واحدة منها تبتدئ بتكذيب الأنبياء وهلاك الأمم المكذبة وبقاء المؤمنين . ثم تراه يقول ـ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ـ فلتتأمل أيها الذكى كيف كان يقص هذه القصص وليس فى يده حول ولاطول ولاجيش بل كانوا يصلون خفية خائفين من الكفار . وان من أعجب العجب أن يكون تاريخه ﷺ كتواريخ الأنبياء الذين قصهم فكان فى أول أمره مكذبا وفى آخر أمره منصورا . وهذه فى الحقيقة أكبر معجزة لأنه ﷺ تنبأ بما سيحصل وقد تم كما جاء به الوحى . فانظر فى هذه القصة يقول الله والله (لقد أرسلنا نوحا الى قومه) فهى واقعة فى جواب قسم محذوف * يقال انه كان نجارا * ويقال ان أباه لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام ومعلوم أن ادريس نبى قدماء المصريين وهو من المقدسين عندهم ولعله (سيزوستريس) المذكور فى كتبهم المنقول عن آثارهم . وعلى هذا يكون نوح من أبنائه وهذه مما لايقوم عليها برهان قاطع وليس يهمنا من تحقيقها شئ وانما المقصود أنه أرسله الله (فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وغيره يجرّ على اللفظ ويرفع على المحل لأن إله مرفوع بحسب اعرابه مجرور بحسب لفظه (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة أو يوم نزول العذاب بهم من الطوفان لأن التحقيق أن عذاب الناس فى الدنيا والآخرة ولكن أكثر الناس لايعلمون أنهم معذبون فالعاصون والظالمون معذبون بظلمهم فاذا هلكوا ذهبوا الى جهنم ليتموا دروسهم التعذيبية فيوم العذاب قد يكون فى الدنيا كما هو فى الآخرة . ثم قال تعالى (قال الملأ من قومه) أى الأشراف لأنهم يملؤن العيون جلالة والقلوب مهابة (إنا لنراك فى ضلال مبين) بين (قال ياقوم ليس بى ضلالة) أى شئ من الضلال (ولكنى رسول من رب العالمين) والرسول يكون فى الغاية القصوى من الهدى (أبلغكم رسالات ربى) ما أوحى الىّ من الأوقات المتطاولة أو فى المعانى المختلفة من الأوامر والنواهى والمواعظ والبشائر . وهذه الجملة مستأنفة بيان لكونه رسول رب العالمين (وأنصح لكم) وأقصد صلاحكم باخلاص يقال نصحته ونصحت له والنصح أن تريد الخير لغيرك أوهى النهاية فى صدق العناية (وأعلم من الله ما لا تعلمون) فأعلم صفاته من القدرة والعلم وانه لايردّ عذابه عن الكافرين (أ) كذبتم (وعجبتم) من (أن جاءكم ذكر) موعظة (من ربكم على رجل منكم) على لسان رجل من جنسكم إذ تنكرون ارسال الأدمى ولاتصدّقون إلا بملك من السماء وتقولون لوشاء ربنا لأنزل ملائكة (لينذركم) ليحذركم عاقبة الكفر (ولتتقوا) ولتخشوا بسبب الانذار (ولعلكم ترحمون) ولترحموا بالتقوى ان وجدت منكم (فكذبوه) فنسبوه الى الكذب (فأنجيناه والذين معه) يقال انهم كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة * ويقال أيضا هم

تسعة سام وحام ويافث وهؤلاء الثلاثة أبناؤه وستة آمنوا معه (فى الفلك) متعلق بمعه كأنه قيل والذين صحبوه فى الفلك أى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان (إنهم كانوا قوما عمين) عمى القلوب غير مستبصرين يقال أعمى فى البصر وعم فى البصيرة • انتهى القسم الثانى من السورة

(القِسْمُ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ : مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

وَإِلَى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِى سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ * قالَ ياقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفاهَةٌ وَلكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّى وَأَنا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِى فِى أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللّهِ وَلا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دارِهِمْ جاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ ياقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ

﴿ التفسير اللفظى ﴾

اعلم أن عادا وثمودا من العرب البائدة كالعمالقة وطسم وجديس وأميم ووبار وجرهم وحضرموت ومن

ينتمى اليهم * ويقال انهم كانوا نزحوا من بابل وحلوا بجزيرة العرب وجميع العرب البائدة من نسل سام بن نوح • أما العماليق فمن نسل لاوذ بن سام • وأما بقيتهم فمن نسل ارم بن سام • وعلى ذلك يقال عاد ارم وثمود ارم ثم قيل لكل من كان من نسل ارم بن سام ارمان • هذا ملخص مايقوله العلامة ابن خلدون والكشف الحديث على الاجمال يؤيده فالعرب البائدة جميعهم آراميون إلا العمالقة فانهم من نسل لاوذ * ويقال انهم ملكوا العراق وملكوا مصر ويسمون الرعاة • ولقد كان فى العراق دولة المادّيين ودولة الكلدان ودولة العرب ودولة الاشوريين والدولة العربية المذكورة هى التى تسمى (الدولة البابلية الأولى) ورأسها يسمى (حورابى) المشهور كان فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وقيل ان عدد ملوكها (١١) ملكوا ثلاثة قرون وهذا رأى (مسبيرو)

وفى أيام هذه الدولة العربية ظهر ابراهيم الخليل عليه السلام وقد كشف العلم الحديث ما كان لهذه الدولة من العلوم والقوانين ومجموع القوانين (٢٨٢) مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ فى بلاد السوس منقوشة بالحرف المسمارى على مسلة من الحجر الاسود الصلب طولها سبعة أقدام • ولما غلبت هذه الدولة على أمرها نحو ٢٨٢ سنة قبل الميلاد وقد حكمت ٣٣٤ سنة خرجت من العراق الى جزيرة العرب راجعة الى موطنها الأصلى وأنشأوا فى (اليمن) دولة عربية تسمى (دولة المعينيين) كانت عظيمة جدًا قبل دولة سبأ وحمير وآثارها ظهرت فى العالم الغربى اليوم • ولقد كشف المستشرق (هاليفى) لما سافر الى بلاد الجوف وحدها ٧٩ نقشا فى معين و١٥٤ نقشا فى براقشن بالقرب منها • ولقد حكم المعينيون جزيرة العرب حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وشواطئ الخليج الفارسى فكأنها حكمت جزيرة العرب كلها وهذه الدولة أفناها السبأيون

﴿ الكلام على عاد ﴾

ان العرب كما قلنا نزحوا من العراق لما غلبوا على أمرهم فرجعوا الى الجزيرة وقلنا ان المعينيين سكان اليمن أخذوا دورهم ثم أفناهم السبأيون وهذه الدول آثارها ظاهرة اليوم • هكذا نعلم أن العرب دخلوا مصر وبقوا بها نحو ٥٠٠ سنة أى من نحو الاسرة الثانية عشرة الى نحو الأسرة الثامنة عشرة ثم طردهم المصريون فرجعوا الى جزيرة العرب أيضا • أفلا ترى أن يكون عاد من هؤلاء كالمعينيين المذكورين فيما تقدم وربما كانوا هم أنفسهم ولقد أفناهم أهل سبأ • أولست ترى أن هذا القول يوافق ماهو معلوم أن قدماء المصريين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا • وكيف لا يكون ذلك وأنت ترى فى جبالنا المصرية بيوتا منحوتة لأغراض خاصة وقد كانوا اذا اقتطعوا حجارة من جبال مصر جعلوا هذا الاقتطاع هندسيا ليستفيدوا فائدتين البناء بما اقتطعوا من الجبل والانتفاع بمكان القطع • فاذا قال الله ـ تنحتون من الجبال بيوتا ـ كان ذلك مما تعلموه من المصريين

﴿ لطيفة ﴾

قد كان العالم الأثرى الفاضل كمال بك الذى هو أعلم العلماء فى فن الآثار المصرية يوما يلقى درسا عاما فيما عرفه من علوم قدماء المصريين فذكر لنا تاريخ حياته وانه تعلم هذا العلم من ابتداء سن الخامسة عشرة من عمره وانه أخذ عن علماء فرنسا وقال قد كنت أعثر من وقت لآخر على كلمات أجدها مطابقة للغة العربية حتى ان الخبز وحده وجدت له ٤٢ كلمة مثال ذلك (خبز • عيش • خبز الملة • كعك • بتاو) وهكذا • قال وقد كنت أبحث فى (لسان العرب) و (القاموس) فأجد جميع الألفاظ عربية غاية الأمر انها دخلها القلب والابدال وهكذا وأرانا ١٣ جزأ أمامه قد كتبها مبينا اتفاق العربية مع لغة قدماء المصريين • ثم انه بعد ذلك بسنين أتم هذا الكتاب ثم توفى قريبا رحمه الله

فلما انصرف من ذلك الدرس التفت الينا معاشر مدرسى اللغة العربية وقال قد وجدنا كتابة على الدير

البحرى

البحري تاريخها فى الأسرة الثامنة عشرة ملخصها أن المصريين قد كثروا جدا فهاجر منهم طائفتان طائفة نزحت الى بلاد العرب وطائفة نزحت الى بلاد المغرب فى شمال أفريقيا وعلى هذا يكون منهم عاد وثمود • أفلاترون ذلك ياحضرات الأساتذة فوافقه المرحوم حفنى بك ناصف وكذلك أنا (طنطاوى) وقلنا لامانع من ذلك وليس عندنا مايمنعه • فهذا آخر ماوصل الينا من العلم فى أمر عاد من حيث التاريخ الحديث

أما ثمود فكان مقامها فى الحجر المعروفة بمدائن صالح فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى الى مكة • وقد وصلت لها السكة الحديدية الحجازية • والذى ثبت الآن أن مدائن صالح وهى الحجر دخلت قبل تاريخ الميلاد فى حكم النبطيين سكان بطرا • و بطرا هذه قصبة الأنباط مدينة صخرية قائمة فى مستوى من الأرض تحيط به الصخور وهى واقعة فى وادى موسى عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن وأطلالها الآن باقية كشفها العلماء فى هذه الأيام • وهناك كتابات ونقوش بالقلم النبطى وبجانبها مسرح منقور فى الصخر ووراءه كهوف كثيرة منقورة وطبيعية وكانوا يسكنونها قديما وهى الآن يأوى اليها الفقراء من المطر الغزير

هذه هى (بطرا) التى هى عاصمة النبطيين الذين ملكوا الحجر وهى مدائن صالح التى كلامنا فيها فلقد وجد على أطلال تلك المدائن كتابة نبطية وقد زار هذه المدائن مستشرقون وقرؤا نقوشا منقوشة فى الصخر منها أنقاض تعرف (بقصر البنت) و(قبر الباشا) و(القلعة) وقرؤا عليها مانصه

هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائله بنت حرم وكليبه ابنتها وذريتهما فى شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فعسى ذوالشرى وعرشه واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتهما ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذوالشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر غرامة مقدارها ألف درهم حارثى الامن كان بيده تصريح من يد كمكم أوكليبه ابنتها بشأن هذا القبر والتصريح يجب أن يكون صحيحا • صنع ذلك وهب اللات بن عبد عباده • انتهى

واعلم أن هذه المعلومات التى وصلت الينا فى العصر الحاضر ستزيد على مدى الأيام فان بلاد العرب مشحونة بالامور العجيبة المدفونة تحت الثرى

﴿ كشف الأمم العربية القديمة فى العصور القريبة ﴾

اعلم أن أول من فكر فى كشف آثار آبائنا العرب مثل ثمود وسبأ وحمير ومعين ولحيان وأمثالها انما هم الألمان فى أواسط القرن الثامن عشر • ومادعاهم الى ذلك إلا ما كان يسمعه الفرنجة فى أسفارهم الى الهند عن طريق البحر الأحمر ومصر وماتتناقله ألسنة أهل شواطئ اليمن وحضرموت إذ يقولون عندنا آثار مدفونة عليها كتابات لانعرفها وأول من فكر فى ذلك العالم (ميخايلس) وهو عالم ألمانى توفى سنة ١٧٩١ وهو الذى اقترح على (فردريك الخامس) ملك الدنمارك سنة ١٧٥٦ تأليف لجنة للبحث عن تلك المدائن لذكرها فى التوراة تحقيقا للعلم • وكان الرجل فيلسوفا عالما عظيما فأرسل الملك المذكور جماعة فماتوا إلا رجلا يسمى (نيبوهر) كتب كتابا عن بلاد اليمن التى هى المقصودة بالذات وانتشر فى أوروبا • وفى القرن التاسع عشر عرفت اللغة (الهيروغليفية) بمصر فطمع العلماء بأوروبا فى معرفة علوم جيرانها • ثم سافر (رنسن) الألمانى سنة ١٨١٠ الى اليمن فعثر على مدينة (ظفار) وبعد ذلك تنبه الانجليز • فأول الباحثين الألمان فالانكليز فالفرنسيون وهم أوسع مجالا ومنهم العلامة (هاليفى) سنة ١٨٦٩ بلغ مأرب ورجع ومعه ٦٨ نقشا وقد مر ببلاد الجوف التى هى قرب (صنعاء) وأهل صنعاء لايعلمون بها • ثم كشف معين المتقدمة وهو سائر الى (نجران) ثم ذهب (أدوارد غلازر) الى اليمن وهو عالم ألمانى فوصل الى مأرب ونقل معه ألف نقش وفيها

كيفية بناء سد مأرب واصلاحه

ولقد أصبحت متاحف أوروبا الآن ملآى بآثار اليمن بعضها منقوش على الحجر . و بعضها على البرونز و بعضهامنقول بالرسم أوالطبع يزيد عددها على ألفين . فبهذه الرسوم والنقوش عرفنا بعضا من أخبار القرآن كما سيأتى فى سورة (سبأ) والسدّ المذكور فى القرآن وطوله وعرضه والجنتان اللتان هناك كما سيأتى فى سورة (سبأ) أيضا . هذا ملخص ماوصل لنا الآن من الكشف واهتمام أوروبا بالبحث فى علوم العرب آبائنا وآثارهم لأنه ورد ذكر هذه الآثار فى التوراة

﴿ الخرافات ﴾

لقدكان كثير من أهل السير قديما يتسلون بحكايات خرافية كمدينة ذكرها القصاصون تسمى (إرم ذات العماد) بناها عادوهى فى اليمن لينافس بها قصور الذهب والفضة فى الجنةوانه كتب الى عماله أن يجمعوا جميع مافى أرضهم من الذهب والفضة والدرّ والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فيوجهوا بهااليه ثم استخرج المعادن من الذهب والفضة ثم استخرج عماله الجواهر من البحر وأتوا بالياقوت والزبرجد من المعادن فضرب الذهب لبنا و بنى به المدينة وأمر بالدرّ والياقوت والجزع والزبرجد والعقيق ففصص به حيطانها وجعل فيها غرفا من فوقها غرف بعمد من الزبرجد والجزع والياقوت ثم جعل تحتها واديا ساقه تحت الأرض ٤٠ فرسخا وأجراه فى كل مكان تحتها وجعل حصباءها الجواهر وجعل على حافتى البحر أشجارا من الذهب مثمرة وثمرها الياقوت والجواهر وطول المدينة ١٢ فرسخا وعرضها مثل ذلك وفيها ٣٠٠٠٠٠ قصر مرصعة ومرصفة وقصره يعلو على القصور كلها واتخذ بنادق المسك والزعفران فألقيت فى الشوارع وارتفاع البيوت ٣٠٠ ذراع والسور ٣٠٠ ذراع ومكث فى بنائها ٥٠٠ عام . هذه ملخصات علوم الأواخر وخرافات أرباب السير من المتقدمين

﴿ يا أمّة الاسلام ﴾

عجبا كنا نقرأ فى القرآن أخبار عاد وثمود فنمرّ عليها مرّ الكرام كأن عادا ليسوا من أسلافنا وكأن ثمودا ليست مساكنها فى بلاد الاسلام . وياليت شعرى كيف بحث الغربيون عنها ونحن نائمون . ويدرسون آثارها ونحن غافلون . بل يبحثون عن معانى كتابنا المقدس ونحن عن ذلك كله ساهون لاهون

نعم ان قصة عاد وثمود لم ترد الا للاعتبار بالأمم المكذبة ولكن واسوأتاه واحسرتاه على أمم الاسلام . ان سمعوا قوله تعالى ـ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ـ قالوا لقد عرفنا الله فلماذا ننظر . وان سمعوا قصص الأوّلين قالوا انها جاءت للاعتبار ومعرفة تقلب الأيام ونحن بذلك عالمون . وعلى هذا أصبح القرآن فى نظر الأمة الاسلامية كتابا يتلى . فأما المعانى والمباحث فهم عنها نائمون . اللهم إلا المباحث الفقهية وليس منها إلا مائة وخمسون آية كما قدّمنا . وياللأسف لايستدلون بها إلا تبعا للأئمة الأربعة رضوان الله عليهم وغيرهم من كبار العلماء

بهذا وأمثاله نامت أمّة الاسلام فعلى مجدهم فليبكوا وعلى بلادهم فليحزنوا للجهالة العمياء والبلاهة الغبراء والنومة الشوهاء السوداء وقد آن أوان استيقاظهم ـ والله بكل شئ محيط ـ

وقد آن أن أفسر الآيات تفسيرا لفظيا بعد مابينت المقام بقدر الامكان فأقول . قال تعالى (و) أرسلنا (الى عاد) وهو عطف على نوح (أخاهم) واحدا منهم تقول يا أخا العرب للواحد منهم واذا كان واحدا منهم كانت الحجة ألزم عليهم (هودا) عطف بيان لأخاهم وهو من نسل سام بن نوح كما تقدّم (قال ياقوم اعبدوا الله) الى قوله (أفلاتتقون) وهذا ظاهر (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) خفة وطيش وسخافة عقل (وانا لظنك من الكاذبين) فى ادّعائك الرسالة (قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من

رب العالمين) الى قوله (وأنا لكم ناصح) فيما أدعوكم اليه (أمين) على ما أقول لكم

﴿ جمال الخطاب ﴾

اعلم أن مقابلة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم الى الضلال بمثل هذا القول الجميل الرقيق اللطيف داع الى كسر حدة الخصم وهو الدواء الوحيد لتلطيف حدته وثوره بل ربما أذعن بمثل هذا الحلم • يقولون ـ إنا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين ـ فيقول ـ ياقوم ليس بى سفاهة الخ ـ فلايقول لا بل أنتم السفهاء فان هذا من أخلاق الجاهلين والعفو وحسن البيان والأدب بالأنبياء والعلماء ألزم • فهذا من الله تعليم للأنبياء ولله عاد • وأما قوله ـ أوعجبتم أن جاءكم ذكر ـ الى قوله ـ لينذركم ـ فقد تقدم نظيره ثم قال (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أى خلفتموهم فى الأرض أوفى مساكنهم واذ مفعول به وليس ظرفا (وزادكم فى الخلق بسطة) قامة وقوة (فاذكروا آلاء الله) جميعها (لعلكم تفلحون) لأن ذكر النعم يؤدّى الى شكرها فيكون الفلاح (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) وهذا احتجاج كالذى تقدم فى حجة ابليس المذكورة فى أوّل السورة إذ احتج بأصله وهو النار وهؤلاء احتجوا بصفة من صفات آبائهم الذاتية فاتبعوها وهذا برهان سفسطى (فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) فيه (قال قد وقع عليكم) قد وجب عليكم (من ربكم رجس) عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب (وغضب) ارادة الانتقام (أتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) حجة أى فى أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الالوهية (فانتظروا) نزول العذاب (إنى معكم من المنتظرين) ذلك (فأنجيناه والذين معه) أى من آمن معه (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) الدابر الأصل أوالكائن خلف الشئ وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) وملخص القصة التى فى كلام المفسرين أن عادا قد ملكوا البلاد مابين (عمان وحضرموت) وكانت لهم أصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله اليهم (هودا) عليه السلام فكذبوه فأمسك عنهم المطر ثلاث سنين وكانوا اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى الله الفرج منه عند بيته الحرام فأوفدوا اليه قيل بن عنز ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد وكان يكتم ايمانه بهود عليه السلام وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فنزلوا عليه بظاهر مكة فقال لهم مرثد لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود فخلفوا مرثدا وخرجوا فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله سحابات ثلاث بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء (ياقيل) اختر لنفسك ولقومك فاختار السوداء على ظن انها أكثر ماء فخرجت على عاد من واد لهم فاستبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم ونجا (هود) والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا اه

أنا لا أطيل لك فيها لكنى فى هذه القصة قد أسمعتك ما قال المفسرون وما حققه علماء العصر الحاضر

﴿ ولعلك تقول أين فائدة القصة ﴾

تقول أين فائدتها • عاد هلكوا وماتوا بريح صرصر عاتية • ومالنا ولهم • أقول نستفيد فائدتين فائدة أدبية وفائدة علمية • أما العلمية فقد تقدمت فى البحث فى الأرض اليمانية • وأما الأدبية فاعلم أنه وان لم تكن سحابات تنزل علينا اليوم ولم نخير كما خيروا فان هذه الأحوال تحصل لنا كل يوم ونحن غافلون ألم تر الى الأمم الشرقية كيف يغترون بالفرنجة فيحتمون بهم ليضربوا بهم أعداءهم من جيرانهم الشرقيين ثم ينقض عليهم الفرنجة أيضا • وهذه قاعدة مطردة • يدخل الفرنجى بلاد الشرق بالاستعانة ببعض أهل البلاد كما فى العراق والشام ومصر وغيرها فينقلب الفرنجة على أهل البلاد فيكونون سببا لخسرانهم وهذا هو الحاصل الآن تماما فيظن أهل الشرق أن هذا الغربى نعمة عليه لغناه وجاهه اذا هو كالسحابة السوداء كثيرة الماء فاذا دخلوا بلادهم انقلبوا عليهم نارا وسعرا فابتزوا أموالهم • وكم غفل الغربيون أهل الشرق فأذلوهم أجمعين

ـ إلا من رحم ربك ـ ومار بك بغافل عما يعمل الظالمون ـ

وهـذه كقصة المسيخ الدجال من حيث ان الناس يطمعون فى جنته اذا هى نار بل أكثر أمور الحياة هكذا نحن امـذب بما ظننا أنه نعيم فالمناصب والأموال والبنون كل ذلك يكون من أسباب الشقاء والتعب كما وضح فى سورة (البقرة) فلنجعل ذلك سلما للفضيلة لا نتيجة الحياة • قال تعالى (والى ثمود) أى وأرسلنا الى ثمود هم من ذرّية إرم بن سام بن نوح وهم وعاد ونحوهم يقال لهم الآراميون نسبة لارم ولذلك جاء فى القرآن ـ عاد إرم ـ بالاضافة وهو ظاهر والتاريخ يوافقه والكشف يبينه • وقد تقدّم ذكر مساكنهم بإيضاح ثم قال تعالى (أخاهم صالحا) الى قوله (قد جاءتكم بينة من ربكم) آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوّتى فكأن سائلا قال ماهذه البينة (قال هذه ناقة الله) اضافتها للتعظيم والتخصيص لأنه كوّنها بلا صلب ولارحم (لكم آية) حال من الناقة والعامل معنى الاشارة ولكم بيان لمن هى له آية وهى ثمود لأنهم عاينوها (فذروها تأكل فى أرض الله) أى الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل فى أرض ربها من نبات ربها (ولاتمسوها بسوء) ولا تضربوها ولا تنفروها ولاتطردوها (فيأخذكم عذاب أليم) وهوجواب النهى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم) ونزلكم المباءة المنزل (فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا) غرفا للصيف (وتنحتون الجبال بيوتا) للشتاء وبيوتا حال مقدّرة كما تقول خط هذا الثوب قميصا فالجبل لايكون بيتا حال النحت ولا الثوب قميصا فى حال الخياطة (فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) وملخص قول المفسرين فى قصتهم أن عادا لما هلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوها فى الأرض وعمروا أعمارا طوالا فأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله اليهم صالحا عليه السلام وكانوا عربا وصالح منهم فلم يتبعه فى دينه إلا المستضعفون فأنذرهم فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عشراء فصلى ودعا ربه فتمخضت فخرجت منها ناقة كما شاؤا فآمن به رهط من قومه (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا) للذين استضعفوهم رؤساء الكفار ثم أبدل منه قوله (لمن آمن منهم) أى من قومه فيكون جميع المستضعفين مؤمنين أومن الذين استضعفوا فيكون المستضعفون قسمين كافرين ومؤمنين (تعلمون أن صالحا مرسل من ربه) قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) فكأنهم قالوا إنا نعلم انه مرسل ودليله انا مؤمنون به وهو أبلغ فى الجواب (قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) فوضعوا آمنتم موضع أرسل به ردّا لما جعله المؤمنون معلوما مسلما (فعقروا الناقة) أى نحروها وماتحرها إلا قدار بن سالف ولكن كان ذلك برضاهم • وكان قدار هذا أحمر أزرق قصيرا (وعتوا عن أمر ربهم) تولوا عنه واستكبروا وهوماباغهم صالح بقوله ـ فذروها الخ ـ (وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا) من العذاب (إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة) الصيحة التى زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) خامدين ميتين • قال المفسرون انهم من بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا ونحتوا البيوت فى الجبل وكانوا فى خصب من العيش فأرسل الله لهم صالحا وأجابهم الى الآية التى طلبوها كما تقدّم فخرجت الناقة من الصخرة ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فمكثت الناقة ترعى فى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها حتى تشرب البئر ثم يحلبون منها مايشاؤن ويملؤن أوانيهم ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب أنعامهم منها الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك فذبحوها واقتسموا لحمها وغاب الفصيل فى الجبل بعد أن رغا ثلاثة أيام فقال لهم صالح تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودّة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله فى أرض فلسطين • ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا • ثم قال تعالى (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين)

والظاهر

والظاهر أنه خاطبهم بهذا القول بعد موتهم كما خاطب رسول الله ﷺ أهل مكة فى قليب بدر وهم ميتون

﴿ سؤال ورد على المؤلف ﴾

لما وصلت الى هذا المقام واطلع عليه أحد الأصدقاء أهل العلم المفكرين قال أى فائدة لهذه القصة فى زماننا ونحن اليوم فى عصر الحديد والبخار والغازات الخانقة والكهرباء والطيارات وزلزلة الأرض بأنواع الديناميت فلا ينتظر الناس أن تزلزل بهم الأرض زلزلة عظيمة طبيعية . وأى ثمرة لمعرفة ناقة خرجت من صخرة وتبعها ابنها ثم قتلت . وأى فائدة فى ذكر أنهم شربوا لبنها ثم خانوا فأتتهم الصاعقة . وياسبحان الله ان عصر التقلبات والآيات والمفاجآت قد مضى وانقضى وأن العقول اليوم لاترى لهذا أثرا فى الوجود . وكيف يأتى كتاب سماوى بمثل هذا . وما الفائدة اذا كان لاينتفع به الناس

﴿ الجواب ﴾

اعلم أيها الذكى أن هذا السؤال يرد على جميع العقول الذكية فمنهم من اذا مر عليه هذا الكلام يسكت و يقول فى نفسه اننى ان نطقت بهذا كفرت مع ان الله مطلع على قلبه . ومنهم من يجهر ويقول ان الدين للعوام أما نحن فنحن علماء فلاحاجة الى الديانات عندنا . هذا ما عليه المتدينون فى هذه الدنيا شرقا وغربا واعلم أن كل دين فيه أمثال هذه القصص ولوخلا دين من أمثال هذا لم تتبعه الأمم فان الديانات جاءت ليفهمها الجهلاء بظاهرها ويستنتج منها العقلاء من أسرارها وعجائبها وليس يخفى عليك كتاب (كايلة ودمنة) الذى يقرأ فى المدارس جميعها شرقا وغربا وفيه حكايات يفهمها الجهلاء بظاهرها ويدرسها الحكماء والفلاسفة والسياسيون بحسب باطنها ويستخرجون منها نظام الدول والممالك والحيل السياسية وهى بحر علم وفلسفة وحكمة وأدب وخلق وجمال . واذا كان هذا فيلسوفا فكيف بكتاب أنزل على نبى من ربه . إن سائر الديانات ظاهرها سهل وفيها معان للحكماء لعلهم يتدبرون . ولاتظنن انى أقول أن ناقة صالح كحكايات كتاب (كايلة ودمنة) فى انها غير حقيقة فنحن نؤمن بناقته وبما جاء فى ظاهر القرآن ونكل علمها الى الله تعالى ولا نؤمن بالتفصيلات الطويلة التى لم يرد فيها نص . فقال عرفت هذا وأى فائدة فيها عند الخواص . قلت اعلم أن أحوالنا التى نحن عليها ونشاهدها كل حين فى بلاد الاسلام أشبه بما حصل لقوم صالح فالناقة نعقرها كل سنة والرجفة تأخذنا كل يوم ونحن غافلون . قال واعجبا لك أنت رأيت الناقة وسمعت الرجفة . قلت له وأنت أيضا لأنك من الذين رضوا بقتل الناقة فعذبوا . قال هذا خارج عن المعقول فكيف تفسر القرآن اذا كنت تقول مايخالف العيان . قلت أنا أقول لك كما يقول القرآن . قال قل . قلت انظر أليس أمر الناقة المذكورة انها خرجت من صخرة وكان لها لبن يشربونه فنحروها . قال بلى . قلت أليس الصخر يفتته الماء والهواء والحرارة فيصير حصا ورمالا ويجرى عليها الماء فينزل الى السهل فيزرع فيخرج منه الشجر والزرع فتأكله الدواب فيخرج ألف ناقة وألف جمل ونحن نشاهد هذه الآيات ونكفر بها أوليس من الكفر بها أن نترك النعم التى أنعم الله بها علينا فى السهل والجبل والسماء والأرض أوليست السموات والأرض من آيات الله كما ان ناقة صالح من آيات الله غاية الأمر أن الناقة يفهمها العامة والآيات الأخرى يفهمها الخاصة ألم يقل الله ــ وفى الأرض آيات للموقنين ــ والموقنون أرقى من المؤمنين فلئن آمن قوم صالح بناقته وهى آية ــ فكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ــ وقال الله تعالى ــ وجعلنا الليل والنهار آيتين ــ أفليست آية النهار أرقى ألف مرة من آية ناقة صالح أليس شروق الشمس بعد الاظلام وظهورها مشرقة تتلألأ كعروس تزينت بالحلى والحلل وقد نشرت على الأرض حللا ذهبية جميلة مشرقة بهجة بهية منيرة تعطى الحياة لكل حى أكبر ألف ألف ألف مرة من ظهور ناقة فى صخرة يشرب منها قوم فى قرية خاصة بل لانسبة بين الناقة وبين الشمس . على ان الشمس لايقدر على قتلها الناس فانها قد تميت

المحموم وكم أناس تضايقوا منها فلم يقدروا أن يقتلوها وهي باقية الى اليوم والناس يحيون ويموتون وهي باقية والله سبحانه سماها آية وسمى ناقة صالح آية • فأما الأولى فهي آية العقلاء • وأما الثانية فهي آية العقول الجامدة ولذلك جاءت هذه السورة لتوضح الفرق بين الآيات العقلية والآيات الخارقة للعادة كما سيأتي ايضاحه عند الكلام على سحرة فرعون وانهم علماء فكان ايمانهم ثابتا • أما الجهلاء من بنى اسرائيل فان ايمانهم المبنى على خوارق العادات لم يلبث أن تبدل كفرا • فالسورة يراد بها اظهار الحقائق للمسلمين وأن الايمان بمثل هذا ايمان الغافلين • ايمان لاثبات له • أما العلوم الكونية فالايمان التابع لبراهينها هو الايمان وهو اليقين • فقال صاحبي أي كفر كفرناه وأي ضر أصابنا وأي مناسبة بين حالنا وحال قوم صالح • قلت ألست تعلم أن الله أعطانا أرض عاد وثمود التي هي كانت أولا في اليمن ثم رحلوا الى الأرض التي يقال لها مدائن صالح على ما يقال وعندنا أرض الحجاز ومصر وفلسطين وسوريا والعراق كل هذه وغيرها من البلدان المذكورة في القرآن ملك للمسلمين الآن ولاجرم أن هذا الملك أضخم من ناقة صالح • أفلست ترى أن المسلمين لم يقوموا بشكر النعمة فيحفظوا الأمانة التي استودعها الله اياهم فترى المسلمين أقل الأمم علما وعملا وتجارة وصناعة فأي عقر للناقة أعظم من هذا • اننا نحن الآن عقرنا آلافا من النياق عقرا معنويا لأننا لم نقم بزراعة الأرض حق القيام ولا باستخراج مناجمها ولانحفظ ثغورها ولا بتعليم أبنائها ولابأنحادهم • فاذا عقرت ثمود ناقة خرجت من الجبل فنحن منعنا ما أن تخرج ومنعنا ألف ألف ناقة وبقرة وانسان بتخريب الأرض وقلة حفظها • قال صاحبي فحينئذ أنا وأنت كافرون • قلت كلا بل نحن عاصون لأن انتشار الصناعات والعلوم فرض كفاية وكل عنه مسؤل • ألم ترى الله تعالى يقول في أول السورة — وذكرى للمؤمنين — ونحن المؤمنون وهذه هي الذكرى • ألاترى أن أهل أمريكا الأصليين وهم الجنس الأحمر النحاسي انقض عليهم الأوروبيون فأهلكوهم وأخذوا ديارهم لأن الله هو الذي فعل ذلك لأنهم أليق لعمارة الأرض • وأما الحمر المتوحشون فانهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم • وانظر الى اخواننا عرب الأندلس في لزمن القريب كيف أفناهم الأسبان بالاتحاد مع أهل أوروبا وقتلوهم أجمعين أليس ذلك لأنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وأي ناقة أعظم وأضخم من ملك الأندلس • قال إذن تريد أن تخرج عن ظاهر اللفظ الى المعاني التي ذكرتها ولكني أراه بعيدا عن القرآن • قلت بل هو القرآن نفسه • قال وكيف ذلك • قلت لسببين ﴿ السبب الأول ﴾ ماجاء في أول السورة من قصة آدم وابليس ألم تر انه خرج من تلك القصة التي لايجهلها أصغر وأجهل انسان في بنى آدم الى مسألة اللباس وكيف استنتج منها انهم يجب عليهم أن يلبسوا اللباس في الطواف ثم ارتقى الى أن القطن والكتان والحرير التي هي لباس لنا من آيات الله والى أن هناك لباسا أغلى وأشرف وأعلى وهو لباس التقوى ثم طلب من بنى آدم ألا يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم فخلع عنه لباسه فليس ينبغي أن يخلع عنكم لباس التقوى بالمعاصي فلاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن

فانظر كيف جعلت القصة درسا في الطبيعة النباتية • ودرسا في ستر العورة في الصلاة • ودرسا في أن الشياطين يرونكم ولا ترونهم وهكذا • فاذا كان القرآن هو الذي فتح باب الفهم والعلم مع ان الكتب السماوية لاتتجاوز الظواهر اتكالا على العقول فكيف نقف عند الظاهر في قصة ثمود والناقة ﴿ السبب الثاني ﴾ ان الله لايريد لنا هذه الآيات بل يريد لنا الآيات الكونية وهو القائل — ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون * وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ومانرسل بالآيات إلا تخويفا — فانظر كيف أبان أن خوارق العادات ليست منار الهداية للأمم وانما هي زجر وتخويف وانظر كيف خصص ثمود والناقة

فعلى القادة والعلماء أن ينبهوا المسلمين للأخطار الواقعة بهم وليوقظوهم من غفلتهم وليعلموهم مقصود هذه الآيات وان الله انما يريد أن ننظر الحقائق ولذلك لما ألح كفار مكة على النبي ﷺ أن يأتيهم بآية

مثل هذه قال الله — أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم — قال وما السبب فى أن خوارق العادات لا تكفى للإيمان وإن الأمم الاسلامية يجب أن يكونوا مفكرين لا مقلدين . قلت اعلم أن خوارق العادات أشبه بالتنويم المغناطيسى وكلما كانت الأمم غافلة كان الكذب عليها أدخل وكلما كانت أعقل كان العلم اليها أقرب والكذب عنها أبعد وهذا التنويم الآن شائع بين السياسيين والأطباء والدجالين و بعض رؤساء الديانات

﴿ الطب ﴾

اعلم أن أهل الأرض جميعا بالنسبة للأطباء كالمنوّمين ولو أنهم قالوا لهم الحق لم ينتفعوا بالطب لجهالتهم فان أكثر الناس لا يعلمون وأيضا لو قال الأطباء الحق لم يكونوا أغنياء

﴿ حكاية ﴾

قابلت طبيبا كان تلميذى بالمدارس التجهيزية وسألته عما يدرّ اللبن للمرأة التى قلّ لبنها . فقال الكشك والفجل وعدّ أنواعا كثيرة . فقلت وكيف ذلك . فقال تأخذ ماء الفجل مثلا وتعطيه لقليلة اللبن فتشربه وهذا أمر سهل ولكن الأطباء عندهم قاعدة وهى انهم لا يقولون للمرضى ان دواءك فيما هو بين يديك لأنهم لو قالوا ذلك لاحتقروا الطبيب ولم ينتفعوا بدوائه ولم يعطوه نقودا وكلما كان الطبيب أكثر حفظا لمركزه وأكثر اغرابا فى القول والعمل كان ذلك أدعى للاعتقاد فيه ولو أنه تنزل للمريض وقال ان دواءك فى الفجل مثلا أوفى الملح لاحتقره المريض وقال انه جهول بل يكتبون الندكر (الروشته) بلغة لا يفهمها الجمهور حرصا على المنفعة وجلبا للدراهم والناس جاهلون . أليس هذا تنويما للناس وتغشية على عقولهم وهم لا يعلمون

﴿ الدين ﴾

ألست ترى أن كثيرا من مشايخ الطرق يستعملون أمورا غريبة ليصدقهم أتباعهم ويؤمنون بهم أفليس ذلك كمنانة صالح وان هذا الايمان بالشيوخ قد يصدّ التلاميذ عن بعض العلوم ومتى علم نقيصة فى شيخه رجع الى المعاصى وهو غوى شيطان كما قال تعالى — وما نرسل بالآيات إلا تخويفا — وانما الذى يحفظ الأمم انما هو التعقل والتبصر . أفلا ترى أن أكثر العامة فى الاسلام يتبعون الشيوخ لامور تقوم على يديهم إما دجلا وتزويرا واما بامور أخرى كالتى ذكرها ابن خلدون عن قوم يسمون البعاجه متى أشاروا الى قطيع من الغنم انبعجت بطون بعضها فيعطيهم صاحب الغنم بعضها ليتقى بهاسوء الفقر والهلاك فسواء صح هذا أم لم يصح فخوارق العادات سواء أكانت على يد صالح أو ساحر لا يمكن أن ترتقى بها أمة ولذلك ترى أتباع هؤلاء الشيوخ من الصوفيـة لا يرقون المجموع بل ترى معلوماتهم قاصرة على بعض الأحوال ويذرون الكون وما حواه والقرآن ومن تلاه وتقف العقول مقصورة على شيوخهم نائمة حول أضرحتهم وهم غافلون . فعلى المسلمين أن يعلموا جميع الأمة تعليما عاما والا فلا حياة لهم ولا دنيا ولا دين . هذا ما نؤمله ونرجو الله أن يحققه

﴿ السياسة ﴾

وأما تنويم السياسة فاعلم أن الساسة فى أوروبا يقولون للشرقيين قد جئنا بلادكم لنخرجكم من الوحشية الى نعيم المدنيـة فاذا هم أكثر توحشا وأوسع بطونا وهم ظالمون . فهذه الكلمات يتسلى بها الشرقيون وهى كلمات يقولها المنوم للمنوّم بالفتح حتى تقفل عيناه ولا تسمع أذناه ويصبح قليل العقل لاعتياده النوم واتباع منوّمه وذلك ضياع لقواه المادّية والعقلية . هكذا اذا نامت أمة للسياسيين فانهم يخربون بلادهم وهم غافلون . وهكذا أتباع الشيوخ اذا نامت عقولهم تبعا لأشياخهم كان رقيها محدودا . ومن مصائب الانسان أن يقف عقله عند حدود شيخ واحد وربما كان جاهلا . فالعقل الانسانى أوسع مجالا وأوفى علما وأرقى عملا وأبعد أملا . ولست أقول ان جميع أرباب الطرق كذلك فان كثيرا منهم صالحون مصلحون

﴿ التجارة ﴾

وهكذا ترى الأمم الغربية حبست عقول الشرقيين بتجاراتهم الجيـلة المنظر فبهروهم وأخـذوا نقودهم فأصبحت بلادهم خاوية على عروشها من الجهالة العمياء فلا اقتصاد ولا أعمـال ولا علوم وهذا من نوع التنويم والأخذ بالعيون وانامة الأمم واضعافها . ومن ذلك اشاعة الفسق والفجور فى الأمة فيصبح الناس على الفسوق عاكفين وبالكسل راضين . سرح طرفك فى بلاد الشرق التى احتلها الفرنجة تجدهم بهذا متصـفين قال تعالى ـ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ـ . انتهى الكلام على القسم الثالث والرابع

(القِسْمُ الخَامِسُ)

وَلوطًا إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتأْتونَ الْفَاحِشَةَ ما سَبَقَـكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّـكُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَما كانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْـلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(و) أرسلنا (لوطا) ابن هاران بن تارخ وهو ابن أخى ابراهيم وابراهيم عمه (إذ قال لقومه) يعنى أهل سدوم واليهم كان قد أرسل . وذلك أن لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليهما السلام الى الشام فنزل ابراهيم عليه السلام أرض فلسطين ونزل لوط الأردن أرسله الله الى أهل سدوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وقوله تعالى ـ إذ قال ـ أى وقت قوله (أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين) وهذا توبيخ وتقريع على تلك الفعلة أى مافعلها قبلهم أحد قط ثم بين الفاحشة فقال (انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) وهذا مبالغة فى الانكار والتوبيخ والعاقل يأنف أن يجعـل المباشرة لداع غير الولد فان الشهوات أودعت غرائز لمقاصد التناسل وبقاء العمران (بل أنتم) أيها القوم (قوم مسرفون) مجاوزون الحلال الى الحرام (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم انهـم أناس يتطهرون) من الفواحش (فأنجيناه وأهله) أى من آمن به (إلا امرأته) فانها كانت تسر الـكفر (كانت من الغابرين) أى الباقين فى العذاب انها كانت كافرة فهلـكت مع من هلـكوا (وأمطرنا عليهم مطرا) أى نوعا من المطر عجيبا . وبين فى سورة أخرى بقوله ـ وأمطرنا عليهـم حجارة من سجيل ـ وهو الطين المطبوخ (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) * روى أن لوط بن هاران بن تارخ لما هاجر مع عمه ابراهيم عليه السلام الى الشام نزل بالأردن فأرسله الى أهل سدوم ليدعوهم الى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلـكوا * وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم . اهـ التفسير اللفظى للقسم الخامس

(القِسْمُ السَّادِسُ)

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْبًا قالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَـكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْـكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّـكُمْ فَأَوْفُوا الْـكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فى

الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ *

﴿ النفسير اللفظى ﴾

أى (و) أرسلنا (الى) أولاد (مدين) بن ابراهيم خليل الله (أخاهم شعيبا) بن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ثم ان أم ميكيل بنت لوط وكان شعيب أعمى وكان قومه أهل كفر وبخس فى المكيال والميزان (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) يريد المعجزة التى كانت له ولم يبينها القرآن (فأوفوا الكيل) المكيال (والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ولا تنقصوهم حقوقهم (ولا تفسدوا فى الأرض) بالكفر والحيف (بعد اصلاحها) بعد ما أصلح من أمرها بالخصب والهداية باتباع الأنبياء (ذلكم) الذى ذكرت وأمرتكم به من الايمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس (خير لكم) يعنى مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (إن كنتم مؤمنين) يعنى ان كنتم مصدقين (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) وكانوا يقطعون الطريق ولما أرسل شعيب كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبا انه كذاب فلا يفتننك عن دينك ويوعدون من آمن به بالانتقام (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) أى بالله (وتبغونها عوجا) أى وتطلبون لسبيل الله عوجا بالقاء الشبه ووصفها للناس بأنها معوجة (واذكروا إذ كنتم قليلا) عددكم وعددكم (فكثركم) بالبركة فى النسل والمال والعدد (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم قبلكم فلكم فيهم عبرة وقوله (فاصبروا) تربصوا وانتظروا وقوله (حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين (وهو خير الحاكمين) إذ لا معقب لحكمه لأنه حاكم عادل منزه عن الجور (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) الى قوله (فى ملتنا) أى ليكونن أحد الأمرين اما اخراجكم من القرية أو عودكم فى الكفر ومعلوم أن شعيبا لم يكن فى ملتهم وانما خوطب بما يخاطب

به الذين آمنوا تغليبا للجماعة على الفرد (قال) شعيب عليه السلام (أ) نعود الى ملتكم (ولوكنا كارهين) أى أتعيدوننا فى حال كراهتنا (قد افترينا على الله كذبا) أى قد اختلقنا عليه (ان عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) وجواب ان محذوف يدل عليه ماقبله يقول قد تخرصنا عليه من القول باطلا ان نحن رجعنا الى ملتكم وقد علمنا فسادها وأنقذنا الله منها (وما يكون لنا أن نعود فيها) ومايصح لنا ذلك (الا أن يشاء الله ربنا) خذلاننا وارتدادنا وهذا يفيد أن الكفر بمشيئة الله تعالى ومشيئته على حسب ماسبق به القضاء وماسبق به القضاء على مقتضى حال المعلومات والاستعدادات والقوابل ● وكان نبينا ﷺ يقول كثيرا يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك (وسع ربنا كل شئ علما على الله توكلنا) فى أن يثبتنا على الايمان ويخلصنا من الأشرار ويوفقنا لازدياد الايمان (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) احكم بيننا وبينهم والفتاح القاضى والفتاحة الحكومة ● أواظهر أمرنا حتى ينكشف مابيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل (وأنت خير الفاتحين) القاضين أوالكاشفين الامور (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) وتركتم دينكم (انكم اذا لخاسرون) لاستبدالكم ضلالته بهداكم ولأنكم تحرمون مما تنالون من البخس والتطفيف وهذه الجملة سادة مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام (فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فى مدينتهم ميتين ● يقال ان الله حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا ● وقال قتادة بعث الله شعيبا الى أصحاب الأيكة والى أهل مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعا (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) استؤصلوا كأنهم لم يقيموا بها والمغنى المنزل (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) دينا ودنيا لا الذين اتبعوه كما زعموا فانهم هم الزائلون من الوجود وهذا رد على قولهم ـ لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون ـ ثم قال تعالى (فتولى عنهم) بعد نزول العذاب (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى) أحزن (على قوم كافرين) اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم مانزل بهم ● انتهى التفسير اللفظى

﴿ لطيفة ﴾

ترى أن قصة أهل مدين وقصة قوم لوط قد ذكرتا بعد عاد وثمود لتكون العبرة شاملة والذكرى جامعة فكما أن قوم عاد أهلكوا بما اختاروا لأنفسهم من السحابة السوداء فهبت عليهم ريح صرصر عاتية وأصبح القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فكانت العبرة فى ذلك كما تقدم أن الأمم تغتر بوعود الأمم الخلابة فتكون عليها عذابا وهكذا ثمود هلكوا بعقر الناقة وكانت العبرة أن كفر النعم مؤد لخراب الأمم ● هكذا كان فى قوم لوط استبدلوا الرجال بالنساء فكان الهلاك الواقع عليهم مشيرا لما فعلوا فقال فى سورة أخرى ـ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ـ وكذلك قوم شعيب بخسوا الناس أشياءهم فى المكيال والميزان فأرسل عليهم حر شديد فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولاماء فدخلوا فى الأسراب كما قيل ليبردوا فيهافوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد فى المقلى وصاروا رمادا ـ إن بطش ربك لشديد ـ ● هذا مايقال عن قوم شعيب عليه السلام

﴿ تطبيق هذا على حال المسلمين اليوم ﴾

اعلم أن الأمم الشرقية اليوم قد افتتنت بأهل الغرب الذين يحتلون بلادهم فبخسوا الناس أشياءهم ● ومعنى ذلك انهم يحبون متاجر الفاتحين ويغرمون بمصنوعاتهم وهذا بخس لأشياء أهل وطنهم وظلم لقومهم

فقد وفوا للأعداء وبخسوا الأولياء وهكذا فى العلم فتراهم يحقرون دين آبائهم وتاريخهم وينسون مجدهم وهذا بخس لأبناء ملتهم وتحقير لشأنهم . هكذا فى الأزياء والأحوال . تراهم يتزيون بزيهم ويتطبعون بطباعهم ولاينطقون إلا بلغاتهم . وهذا بخس لأهل وطنهم . وهذا أشد وقعا من البخس فى المكيال والميزان واذا وظفوا أجنبيا احترموه ولوكان جاهلا . هذا هو الذى نفهمه من العبرة فى ذلك . هكذا تراهم يقلبون الحقائق وهذا كما قلب الحقائق قوم لوط فقلب الله عالى قريتهم سافلها . هكذا ترى أهل الشرق حينما يفعلون ذلك ويحتمون بالأجانب ويلبسون ملابسهم ويشربون شرابهم ويشاركونهم فى ظهورهم ولعبهم ويفرحون بهم . قد جعلوهم ظلة لهم فاستظلوا بهم.ربوا أولادهم على مشاربهم وأعطوا بعضهم شهادات دراسية كاذبة من بلادهم فيرجعون الى الشرق وهم حاملوها وهم جاهلون فيجلسون على أرائك الحكم فيظلمون ولايزالون على تلك الحال حتى ينقض عليهم أولئك الأعداء فيفتكون بالأمم فتكا مريعا ويسلبون الظالمين والمظلومين . هكذا كان ذلك بالأندلس . وهكذا هو اليوم فى مصر والشام والعراق والهند . ان هؤلاء جميعا تقوم طوائف منهم يستظلون بظلل الأمم الغربية هم ونساؤهم وأولادهم كقوم شعيب حتى اذا اجتمعوا تحت الراية الأجنبية وتم لهم الفوز انقلبوا عليهم فأهلكوهم فصار النسيم سموما والرحمة عذابا والنعيم جحيما

فالعبرة فى القصص الأربع التى مضت راجعة لحفظ البلاد من الأعداء وعمارة الخراب وحفظ النسب والعلوم وألا يبخس الوطنى ويعظم الأجنبى الخ فمن احتمى بالأعداء أضربه الداء ومن نبذوا تاريخهم أولغاتهم أوأديانهم أوالجليل من عاداتهم أولم يقوموا بما وهبهم الله من أرض وعقول فينموها ويرقوها أهلكهم الله وأذلهم كما فعل بالأمم السالفة

﴿ حكاية مصرية ﴾

أخبرنى منذ أيام مفتش من أفاضل المفتشين بوزارة المعارف المصرية قال . لقد ألف (فلان) الافرنجى كتابا فى علم الفلسفة العربية لا أفهم له معنى ولا أعقل فيه لفظا عبارات غامضة وآراء خاملة وعلوم خاطئة ولحن مشين وعلم ركيك قال فوالله لقد طلب منى تقرير هذا الكتاب بوزارة المعارف ثلاثة وزراء على التوالى فما أجبت لهم سؤالا ولا أطعت لهم أمرا واقد تركت الوزارة هاربا ورجعت الى العلم تائبا . انتهى

أقول ان سبب هذا أن الفرنجة لاحتلالهم بلادنا قبل استقلالنا يأمرون الوزراء أن يجعلوا كتب أبناء ملتهم هى التى تكون فى مدارسنا لأنهم يعلمون انها لاتسمن ولاتغنى من جوع والوطنيون يجيبونهم لذلك حفظا لمراكزهم واستبقاء لمرتباتهم وقياما بأوامر المسيطرين عليهم

﴿ حكاية أخرى مصرية ﴾

إنى أول ما ألفت من الكتب كتابا يسمى (جواهر العلوم) فقرره المفتشون فى المعارف فلما علم بذلك وزير المعارف وكان متخرجا من مدارس (الفرير) وهو من نسل تركى أخذ الكتاب وقرأه فرأى أن فيه مزج العلم بالدين فلم يرقه ذلك فعمد الى الأمر بعدم تقرير الكتاب وذلك لأنه على غير المبادئ التى تعلمها وعلى غير النظام الذى تلقاه عن المبشرين من الأوروبيين . انتهى القسم السادس

(القِسْمُ السَّابِعُ)

وَما أَرْسَلْنا فى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لايَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ

وَالْأَرْضِ وَلٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ *

لقد علمت أن هذا القسم انما هو درس على القصص المتقدمة ولقدجاء فى أول السورة ـ وكم من قرية أهلكناها ـ وأبان أن الهلاك ليلا أونهارا . وقد جاء عند الآيات الكونية ـ ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ـ ولما كان أكثر الناس لا يعقلون مايرون فى الأرض والسماء من العجائب التى ذكرت فى القرآن وغيره أبرزها على لسان الأنبياء كما تقدم عن شعيب . فاذا قال الله تعالى ـ ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ـ عند ذكر السموات والأرض أمر شعيبا أن يقولها لأن الجاهلين لا يفقهون إلا بالقصص وكأن الأنبياء صدى صوت الوضع الالهى فى الأرض والسماء فاذا كان الله جعل العالم منظما ومن لم يسر على النظام حرم من ثمرته بطريق العقل . هكذا قال الأنبياء كما ظهر فى وضع الكون ونظامه ـ إن ربك حكيم عليم ـ

هـذا مما ظهر فى أثناء القصص فانظر كيف أتى الله درسا عاما على الأمم تثبيتا لما ألقاه فى أول السورة فأفاد انه سبحانه يأخذ القرى بالخوف والبلاء والأمراض والأوجاع عسى أن يتذللوا لله ثم تغدق عليهم النعم حتى يكثر زرعهم وضرعهم فيقولون اذا رأوا تعاقب الخير والشر وقد أثروا وتنعموا ماذا يضرنا لقد كان آباؤنا يتقلبون فى الأمرين النعيم والبؤس والخير والشر والنعمة والضر فيأتيهم العذاب وهم لا يشعرون

ثم قال ان البركات من السماء والأرض مرتبات على الايمان لأنه يوجب الاتحاد وصفاء الأخلاق وهذان يدعوان الى الخيرات والبركات . ثم أعاد الدرس السابق فى أول السورة فكما قال هناك ـ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون ـ وقد ذكر القرى التى أشار اليها فأهل لوط جاءهم العذاب بياتا وقوم شعيب جاءهم نهارا هكذا قال هنا ها أنتم أولاء قد سمعتم ماحل بالأمم فقوم هلكوا ليلا وقوم هلكوا نهارا كما قلنا أفأمنتم أن ينزل عليكم العذاب ليلا أونهارا كما سمعتم . أقول والله لا نأمن ذلك لأن الحروب فى العصر الحاضر تأتى للأمم الغافلة وهى على غير استعداد وقد جعل الله هذا القرآن ذكرى لنا ولقد رأينا الطيارات تحوم فى الجو فتحرق قرى المسلمين تارة ليلا وتارة نهارا فى العراق وفى الشام وفى بلاد الغرب كما كان فى الأمم السابقة . فاذا قال الله ـ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا الخ ـ نقول والله لا نأمن يا الله فان العذاب الذى ذكرته قد عايناه بأنفسنا ولمسناه بأيدينا وأصبح المسلمون اليوم حيارى سكارى من شدة الجهالة العمياء واتباع الشهوات . ان المسلمين اليوم مساكين لجهل بعض علمائهم وشهوات بعض كبرائهم وهم غافلون تائهون وسيصلح الله أمرهم ويلم شعثهم عما قريب . حقق الله الآمال

ثم يقول هل أمنتم مكر الله أوليس نظامه يقضى أن يهلك الذين لا ينفعون وكيف يضل الناس وهم قد ورثوا أرضا بعد فناء أهلها وهم يطلعون على آثارهم ويدرسون تواريخهم كما يدرس الناس اليوم تاريخ قدماء

المصريين

المصريين والاشوريين والبابليين وأهل سبأ والمعينيين وأهل أمريكا القدماء والاشوريين والبابليين
يقول انكم أيها الناس تقرؤن تاريخهم وتطلعون على آثارهم وأنتم تعلمون انهم ماهلكوا بعدعظمتهم ولاذلوا بعد أنفتهم إلا بعد أن غيروا نظامهم وعصوا علماءهم وطغوا وظلموا فعاقبناهم وجعلناهم مثلا لكم أفلاتخافون أن أطبع على قلوبكم أى أختم عليها فلاتفهم الحقائق لتراكم الضلالات والبدع عليها فلا تعرف الحق وتكون الحياة كلها تقليدا وجهلا
يامحمد أنا قصصت عليك قصص تلك القرى وقد كذبوا الأنبياء وقد طبعنا على قلوبهم هكذا نطبع على قلوب الكافرين لمشابهتهم فى الأعمال فتشابهوا فى النتائج • ان أكثر الأمم لاعهد لها • ان أكثر أهل الأرض فاسقون لأن العالم الأرضى مقدمة لعالم أعلى منه وليس عالما تاما كاملا والناس فيه أطفال جهال وسينتقلون فى عالم أرقى بعدالموت ـ ولكل درجات مما عملوا ـ

﴿ تفسير بعض ألفاظ الآيات ﴾

(البأساء) البؤس والفقر (الضراء) المرض (يتضرعون) يتذللون (بدلنا مكان السيئة الحسنة) أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء نعمة ورخاء (عفوا) كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم • يقولون عفا النبات اذا كثر وقوله (أهل القرى) أى التى أرسل اليها الأنبياء (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بالمطر والنبات أولآتيناهم بالخير من كل وجه وقوله (بما كانوا يكسبون) أى بكفرهم وقوله (أفأمن أهل القرى) عطف على قوله (فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون) ومابينهما اعتراض والمعنى أبعد ذلك أمن أهل القرى وقوله (بياتا) أى تبييتا أو وقت بيات أومبيتين وهو فى الأصل مصدر بمعنى البيتوتة وقوله (وهم نائمون) حال من ضميرهم البارز أوالمستترفى بياتا وقوله (أوأمن أهل القرى) أى اغفلوا وأمنوا وقوله (ضحى) أى ضحوة النهار وهو فى الأصل ضوء الشمس اذا ارتفعت وقوله (وهم يلعبون) يلهون من فرط الغفلة أويشتغلون بما لاينفعهم وقوله (أفأمنوا مكر الله) هذا تقرير لقوله ـ أفأمن أهل القرى ـ ومكر الله استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لايحتسب وقوله (الخاسرون) أى الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار وقوله ـ أولم يهد ـ أى أولم يبين فلذلك عديت باللام وقوله (ان لونشاء) أى ان الشان لونشاء (أصبناهم بذنوبهم) وان وما بعدها فى تأويل مصدر فاعل يهد وقوله (ونطبع) أى نختم (على قلوبهم) معطوف على ما يؤخذ من قوله ـ أولم يهد ـ كأنه قيل أيغفل الناس فلم يبين لمن يرثون أرض من خلا قبلهم أنا قادرون أن نصيبهم بذنوبهم ثم قال ـ ونطبع ـ كأنه يقول يغفلون ونطبع ويصح أن يكون مستأنفا وهوأسهل وقوله (تلك القرى) أى التى ذكرناها وهو مبتدا خبره (نقص عليك الخ) وقوله (بالبينات) أى المعجزات وقوله (وماوجدنا لأكثرهم) أى لأكثر الناس أولأكثر الأمم المذكورين (من عهد) أى وفاء عهد فان أكثرهم نقضوا ماعهد الله اليهم فى الايمان والتقوى بانزال الآيات ونصب الحجج أومايعطون من العهود وهم فى مخافة فيقولون ـ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) وجدنا علمنا وان هذه هى المخففة واللام فارقة • ويقول الكوفيون ان نافية واللام بمعنى إلا كأنه قيل وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين • انتهى القسم السابع

(الْقِسْمُ الثَّامِنُ)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسٰى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسٰى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ

لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل *
قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي
ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال الملأ من قوم فرعون إن هذا
لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه
وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * وجاء السحرة فرعون قالوا إن
لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما
أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس
واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما
يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين *
وألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون
آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها
فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين *
قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ
علينا صبرا وتوفنا مسلمين * وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى
الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون * قال
موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة
للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك
عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون * ولقد أخذنا آل فرعون
بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن
تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا
يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا
عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما

مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ
عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ
هُمْ بَالِغُوهُ إِذَاهُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا
فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ
وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ
هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي
وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا
أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ
وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ
الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا
أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا

أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ
مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَ مَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى
الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي
فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا
فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ
وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا
وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ
وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ * وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا
لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا
إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ
آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا
وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ
عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا

هٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ * وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *

قد أخر الله عزوجل هذه القصة لطول الكلام عليها ولما فيها من العبر والآيات ولقد كان زمانها بعد ما تقدمها وكم فيها من عبرة . وكم فيها من حكمة . ألم تر كيف كان موسى عليه السلام تارة يحاج الفراعنة ويدعو الى الله ثم يحاج قومه ويعظهم أخرى . وكيف أفادت تلك المحاورات الفرعونية ما كان فى مصر من المجالس النيابية والحكومات الشورية مع وصفهم بالظلم وبعدهم عن العدل مع الغرباء . ثم كيف استبان ما للايمان المبنى على العلم من الأثر الشريف والفضل المنيف . وكيف كان السحرة أثبت ايمانا وأعلى بنيانا

من جهلة بنى اسرائيل إذ قالوا ـ ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ـ وكيف رضى السحرة المصريون أن يموتوا وهم موقنون ورضوا بالقتل وهم مسلمون . وكيف عبد بنواسرائيل عجلا مصنوعا من الذهب بعد مارأوا العصا قلبت ثعبانا فهم بذلك أشبه بالصبيان يفرحون بالحلوى حتى اذا سئموها أكلوا غيرها وكالذين يبيعون الرطب من النخل الذى هم زارعوه يأكلون رطبا كثيرا فاذا سئموا منه أكلوا سمكا مملحا وهكذا شأن جميع الناس فى أمورهم الجسمية يستحبون تغيير المناظر والأطعمة والملابس والأزياء والسفر الى البلدان ترويحا للنفس من عناء الأعمال . فالعالم المادّى كثير التلوّن والتغير وعلى ذلك لاثبات له . فأما الثبات فليس يكون إلا لعالم المعنويات والبراهين العقليات والعلوم الرياضيات والحجج المنطقيات فتلك هى العلوم الباقية والآراء الثابتة والأحوال الصادقة . فانظر كيف كان ايمان الجهل أضعف أثرا وأقلّ دواما . وكيف أضلّ السامرى بنى اسرائيل إذ صنع لهم ـ عجلا جسدا له خوار ـ فقال ـ هذا إلهكم واله موسى ـ

وفى هذه الآيات دلالة أن الجهاد من المهد الى اللحد فان موسى عليه السلام بعد أن حاج المصريين ونجى قومه وذهب الى التيه معهم أصبح فى جدال وحوار معهم وهم يكفرون تارة ويؤمنون أخرى فهو محارب لعدوّه وعلى حذر من قومه ولكن العاقبة للمتقين فقد فاز بقبولهم الألواح واهتدوا بهديه وأصبحوا مؤمنين . فهذه القصة تعطى علم الصبر وان النجاح يتبعه وتفيدنا أن الايمان اليقينى لاسبيل اليه إلا بالعلم ولانجاح لأمة إلا بالعلم فأما التقليد فانه شرّ مستطير . فالأول كالسحرة والثانى كبنى اسرائيل وتعلمنا أن الانسان مجاهد مادام حيا فلايركنن الى أحد فانهم جميعا متقلبون وليس الحذر من الصديق بأقل قوّة من مقاومة العدوّ بل الأولياء والأصدقاء هم الذين يراقبون لأن القلوب متقلبة والنفوس الانسانية غير ثابتة كالمادة التى فيها يتقلبون وأيضا هؤلاء ملازمون والأعداء مفارقون والمعاشر اذا ضرب لم يخطئ فى ضربته بل يصيب المرمى . ولذلك قال ﷺ ﴿ رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس ﴾ وذلك لما رجع من احدى الغزوات وترى هذا واضحا فى هذه القصة فان موسى كانت عداوة فرعون له وقتية ونجا منه . أما قومه وأهله فقد تلوّنوا مرات كثيرة . سئموا المنّ والسلوى . وعصوا أن يدخلوا الباب سجدا . وعبدوا العجل وهكذا فلاتظهر عورات الأمم الا فى حال أمنها . أما فى حال الخوف فانهم بالعدوّ مشغولون . وهؤلاء لم تظهر عيوبهم إلا بعد أن خرجوا من مصر فتفرغوا لما استعدّت له نفوسهم من التلوّن والتفرّق والغباوة والشك والاشراك ولذلك ختمت هذه القصة بآية أخذ العهد وسيأتى أن العهد الذى أخذه الله على الناس يرجع الى نظام العالم وجماله وكأنه ناطق بفصيح العبارة أن الله لارب سواه وأردف ذلك بقصة من هو عالم وترك العلم فلم يعمل به وعصى وانسلخ منه وصار شيطانا مريدا . فأهم مافى هذه القصة العلم اليقينى ولايكون إلا بالنظر فى الطبيعة بدليل العهد المأخوذ على الناس فى مناظر الأرض والسموات ويتلو العلم الصبر والأخلاق الفاضلة وتكون النتيجة الفوز والنجاح

وتعجب كيف تكون هذه القصص كلها على نسق واحد وقد كانت تتلى على المسلمين وهم ضعفاء فتقوى عقائدهم ثم كيف أصبحوا أقوياء مشاكلة لقصص الأنبياء . هكذا تكون العلوم . وهكذا تكون المعجزات . وهذه هى الفوائد المستنتجة من الآيات لافائدة إلا بنحو ماذكرناه . ولانفع إلا فى نحو ماحررناه

فأما القراءة اللفظية والتفسيرات الحرفية فانما هى شأن المقرئين وقراء القرآن المجوّدين ولكن حياة الأمم بالاستنباط والاستدلال والرقى بغير ذلك وأمثاله محال . ولنبدأ بالتفسير اللفظى فنقول . قال تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) الضمير للرسل فى قوله ـ ولقد جاءتهم رسلهم ـ (موسى بآياتنا) بالمعجزات الواضحات (الى فرعون وملئه فظلموا بها) فكفروا بآياتنا أجرى مجرى الكفر لأنهما من واد واحد وفرعون لقب لكل من ملك مصر ككسرى لملك فارس (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى انظر يامحمد بعين العقل والبصيرة كيف

فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين) اليك قال فرعون كذبت فقال موسى (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) أى أنا حريص على ألا أقول على الله إلا الحق (قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل) نخلهم يذهبوا معى راجعين الى الأرض المقدسة التى هى وطنهم ﴿وذلك أن يوسف عليه السلام﴾ لما توفى غلب فرعون على نسل الأسباط واستعبدهم لأن المصريين القدماء كأهل الصين لايسمحون للغريب أن يطأ بلادهم ولكن لما دخل العرب العمالقة مصر واستوطنوها نحو خمسمائة سنة أباحوا دخول الأجانب كالعبرانيين . ولما شب يوسف عليه السلام وعظم شأنه وأصبحت فى يده خزائن مصر أرسل الى أبويه واخوته فأتوا مصر و بعد مدة رجع المصريون الى فكرة الخوف من الأجانب فاضطهدوا بنى اسرائيل بحكم تنازع البقاء فجاء موسى وقال لفرعون فأرسل معى بنى اسرائيل ﴿والمدة﴾ بين دخولهم أيام يوسف وخروجهم أيام موسى الذى انقذهم أر بعمائة عام (قال إن كنت جئت بآية) من عند من أرسلك (فأت بها إن كنت من الصادقين) فأتنى بها لتصح دعواك و يثبت صدقك فيها (فألقى موسى عصاه فإذا هى) اذا هذه للفاجأة وهى ظرف زمان بمنزلة ثم وهناك (ثعبان مبين) حية عظيمة وقوله ــ مبين ــ ظاهر ◆ روى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم (٢٥) ألف نسمة الخ . وهذا لم يذكره القرآن فلانعرف إلا ماجاء به أو ماثبت فى أحاديث قام البرهان على صحتها وعلى كل فالمهم فى هذا كله العبرة من هذه القصص فالقصص تذكر بمناسبتها العلوم وماعدا ذلك يكتفى به القاصرون

واعلم أن هذه الحية العظيمة كانت خفيفة الحركات فمن يراها يظن أنها جان أى حية صغيرة كما فى آية أخرى ــ كأنها جان ــ أى فى خفة الحركة فهى كبيرة الجسم خفيفة الحركة (ونزع يده) من جيبه أومن تحت إبطه (فاذا هى بيضاء للناظرين) معناه أن البياض لم يكن من جبلها وطبيعتها لأن سيدنا موسى عليه السلام كان آدم شديد الأدمة فليس فى يده بياض فلما أدخلها فى ابطه وأخرجها اذا هى بيضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس فصار بياضها للناظرين لافى جبلتها ويصح أن يقال بيضاء بياضا خارجا عن العادة تجتمع عليه النظارة (قال الملأ من قوم فرعون انّ هذا لساحر عليم) ◆ ولقد جاء فى سورة الشعراء ــ وقال فرعون للملأ حوله ان هذا لساحر عليم ــ اعلم أن مجلس الأعيان والنواب عن البلاد والملك على رأسهم متى تشاوروا فى أمر وأقرّوه بعد المراجعة والمحاورة أصبح مقولا لهم جميعا واذا كان هذا قولهم هنا وقول فرعون فى سورة القصص فمعناه أن الأمر كان شورى وكان الرأى متى تمّ عملوا به بدليل أن الملأ قالوه هنا وفرعون سيقوله فى الشعراء فان الحكومة لاتعمل بالمشورة إلا بعد تمامها فكان ذلك اشارة الى الحكومة المنظمة إذ ذاك يقول الملأ ثم تقول الحكومة وقول الملأ جعل فى القرآن فى السورة التى تقدمت على السورة التى ذكر فيها قول فرعون وهذا من عجائب العلم والحكمة . تقول الأمة فتخضع الحكومة . ومعنى كونه ساحرا عليما انه يأخذ بأعين الناس حتى يخيل اليهم أن العصا صارت حية ويرى الشئ بخلاف ماهو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وقد كان السحر غالبا فى مصر (يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) تشيرون فى أن نفعل (قالوا أرجه) أى ارجئه أى أخره أى أخر أمره وقرئ ــ ارجئه ــ على الأصل (وأخاه) هارون (وأرسل فى المدائن حاشرين) جامعين (يأتوك بكل ساحر عليم) ماهر بصناعة السحر (وجاء السحرة فرعون) بعد ما أرسل لهم الشرط فى طلبهم (قالوا أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين) وهذا جواب سؤال كأنه قيل ماذا قالوا إذ جاؤا (قال نعم) إن لكم لأجرا (وانكم لمن المقربين) عطف على الجملة التى سدّ مسدها نعم (قالوا ياموسى إما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين) خيروا موسى مراعاة للأدب أواظهارا للجلادة ولكن كانوا هم أنفسهم يرغبون أن يلقوا قبله (قال ألقوا) من باب الكرم والتسامح وحسن الخلق والأدب

اللائق بالأنبياء (فلما ألقوا سحروا أعين الناس) بأن خيلوا الى الأعين ما يخالف الحقيقة (واسترهبوهم) وأرهبوهم ارهابا شديدا كأنهم طلبوا رهبتهم (وجاؤا بسحر عظيم) فى فنه * يقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا أيضا وألقوها على الأرض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى خيل للناس أنها حيات والأرض إذ ذاك قد امتلأت بالحيات وأوجس فى نفسه خيفة موسى لأجل فزع الناس خيفة أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك) فألقاها فصارت حية (فاذا هى تلقف مايأفكون) أى تبتلع مايزورونه من الافك والافك هوصرف الشئ عن وجهه يقال انها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين لتبتلعهم أيضا فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم منهم ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت فقال السحرة لوكان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) فثبت لظهور أمره (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر والمعارضة والافك (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) أى صاروا أذلاء مبهوتين أورجعوا الى المدينة أذلاء مقهورين والضمير لفرعون وقومه (وألقى السحرة ساجدين) لله أى ان الله حملهم على السجود حتى ينكسر فرعون وينهزم بمن أتى بهم عدة ليكسر بهم موسى وانقلب الأمر عليه فان الحقيقة تظهر ويخدمها ماهو فى جانبها وماهو فى صف عدوها على السواء فالحقيقة غالبة ولو بعد حين ومادام الانسان على الحق فانه غالب لامحالة (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون * قال فرعون آمنتم به) بالله أو بموسى (قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه) أى ان هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى (فى المدينة) فى مصر قبل أن تخرجوا للميعاد المضروب (لتخرجوا منها أهلها) أعنى القبط وتخلص لكم ولبنى اسرائيل (فسوف تعلمون) عاقبة مافعلتم وهذا تهديد مجمل ثم فصله فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) من كل شق طرفا (ثم لأصلبنكم أجمعين) تفضيحا لكم وتنكيلا وخزيا لكم وعبرة لغيركم (قالوا إنا الى ربنا منقلبون) بالموت فلانبالى بوعيدك . وقيل فى المعنى

واذا لم يكن من الموت بد * فمن العجز أن تكون جبانا

ثم قال الله تعالى (وماتنقم منا) وما تنكر منا (إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى ماتنكر منا إلا ايماننا ولاجرم أن حرية الفكر هى مبدأ السعادات فاذا لم نكن أحرارا فى آرائنا فالقبر خير لنا ولم يبق لنا إلا الرجوع الى الله (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى هب لنا صبرا واسعا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء افراغا (وتوفنا مسلمين) ثابتين على الاسلام * قيل انه لم يفعل بهم ذلك فلم يقدر على انفاذ وعيده فيهم لما جاء فى آية أخرى ـ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ـ وهنا قد فرغت المحاجة وخذل القوم من جهة السحر وعادة القوى أن يستعمل الحجة فاذا بطلت استعمل القوة وهذه عادة الأقوياء مع الضعفاء وأوروبا مع أهل الشرق ولذلك أعقبه بقوله (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض) أى أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها (ويذرك وآلهتك) معطوف على يفسدوا . ومعلوم أن مصر فيها معابد كثيرة وفيها أبوالهول وغيره وكانوا كالصابئين يعبدون الكواكب ويجعلون لها على الأرض أصناما تبنى لتأخذ بألباب العابدين ولهم جداول وفقيه للكواكب السبعة وفيها حساب دقيق قد ذكرت ملخصه فى أول سورة البقرة وان الله هو الواحد فله عدد (١) وأما المادة التى بها هذه الكائنات فلها عدد (٢) وزحل (٣) والمشترى (٤) والمريخ (٥) والشمس (٦) والزهرة (٧) وعطارد (٨) والقمر (٩) وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها فى صحائف من ذهب فى أوقات خاصة لمنافع يزعمون أنهم ينالونها وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد فى نفسه . فمثلا المشترى له عدد (٤) وشكله (١٦) وتجد الأعداد فى الطول والعرض اذا جمعتها تكون متساوية وهى تبتدئ بواحد وتنتهى بعدد (١٦) وكل صف أفقى أورأسى

أوقطر من القطرين مجموعه (٣٤) فاذا كان الصف الأعلى (٤) و (١٤) و (١٥) و (١) والذى تحته (٩) و (٧) و (٦) و (١٢) فانك تجد كل واحد (٣٤) وهكذا ولعلماء الارتماطيقى فى هذه الأشكال قواعد يمكن وضعها بها فى غاية السهولة • ويظهر أن هذه الأشكال كانت تخلب عقولهم اذا علموا أن حسابها منظم مدهش فتحدث فى النفس الانسانية استهواء فتصير فى حال أشبه بحال التنويم المغناطيسى فبمثل هذا كانوا يعبدون الصور المصنوعة والصور المصنوعة قائمة مقام الكواكب والكواكب من صنع الله الذى هو الواحد وهى من تكرار الواحد فلولا الواحد ما كان الاثنان وهو المادة ولولاهما ما كان الثلاثة وهو زحل وهكذا فكل واحد هو وماقبله سبب فيما بعده كما ان كل عدد هو وماقبله علة لما بعده • هذه هى الاراء التى كانت فاشية عند أكثر الأمم القديمة • ومعلوم أن فراعنة مصر كانوا ينسبون للعوالم العلوية انتسابا خرافيا كملوك الصين وملوك اليابان ولولا بطلان الآراء القديمة ماتقدم نوع الانسان لأنه اذا كانت الكواكب السبعة هى التى وقف عليها علوم البشر وحاموا حولها وجعلوا النظام الالهى الشمسى قاصرا عليها حتى تصل الى القمر الذى من تحته عالمنا الأرضى فما كان يتسنى للناس أن ينظروا السيارات الجديدة مثل (اورانوس ونبتون) كما أوضحناه فى قصة ابراهيم الخليل عليه السلام فى سورة الأنعام فلما قال الملأ من قوم فرعون ذلك (قال) فرعون (سنقتل أبناءهم) صغارا كما كنا نقتلهم قبل ولادة موسى (ونستحيي نساءهم) نتركهن أحياء لنستخدمهن وذلك لنقلل عدد بنى اسرائيل الذين يعتز بهم موسى (وانا فوقهم قاهرون) وهم مقهورون تحت أيدينا (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه وذلك ليسكن قلوبهم (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) هذا وعدهم بالنصر وانهم سينجون من قبضة المصريين والأرض للجنس لا للعهد والا فبنواسرائيل لم يملكوا القطر المصرى (قالوا) أى بنواسرائيل (أوذينا من قبل أن تأتينا) بالرسالة بقتل الأبناء (ومن بعد ماجئتنا) باعادته (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم و يستخلفكم فى الأرض) أى جنس الأرض وهى هنا فلسطين وهذا وعد صريح بعد التلويح زيادة فى التثبيت لزيادة الشكوى وتكرارها (فينظر كيف تعملون) فيرى ماتعملون من شكر وكفر وطاعة وعصيان فيجازيكم على مقتضى أعمالكم وحقيقة قد فعل بهم ذلك لأنهم لما خرجوا الى فلسطين كانت لهم حكومة جمهورية ثم حكومة ملكية ثم طغوا فى الأرض فأذلهم الله على يد بختنصر ففرقهم فى جهات أصبهان ثم رجعوا وعصوا أيام عيسى عليه السلام فأجلاهم الروم الجلاء الكبرى قبل انتهاء القرن الأول المسيحى ولم يرجعوا الى الآن • نعم فى هذه الأيام أرجعهم الانجليز فى الحرب الكبرى ولكن لاندرى ماذا يصنع الله بهم بعد الآن • هذا معنى قوله تعالى ـ فينظر كيف تعملون ـ فليس مجرد النصر كافيا كما انه ليس مجرد الانتساب الى الاسلام كافيا فالمدار على الأعمال

﴿ الايات التى أنزلت على موسى عليه السلام ﴾

اعلم أن قصة موسى فى التوراة ذكرت فى سفر الخروج فذكر فى أوائله أن بنى اسرائيل بعد موت يوسف تغيرت حالهم عند الملوك الذين جاؤا من بعد فقالوا ان بنى اسرائيل قوم أجانب عنا واذا حدثت حرب ينضمون الى اعدائنا ويحاربوننا ويفسدون فى الأرض فسخروهم وأذلوهم وجعلوا عليهم رؤساء من المصريين ليسخروهم فبنوا لهم مدينتين وهما (مخازن فيثوم ورعمسيس) وكانت أهم أعمالهم فى الطين والتراب وعمل الزراعة فهم يصنعون اللبن للبناء ويزرعون الحقول وكان ماكان من قتل الأطفال ونجاة موسى من القتل وهو طفل وكيف كبر موسى ونصر الاسرائيلى على القبطى وقتل المصرى ثم فر وتوجه الى شعيب وتزوج ابنته بمدين وكل هذا سيأتى تفصيله فى سورة القصص والتوراة قد أطالت القول فيه ثم رجع بامرأته فأوحى الله اليه لما رأى النار فى شجرة العليق وأمره بأن يخاطب فرعون فامتثل أمر الله • ولما رجع الى مصر

أظهر آية العصا وآية اليد لبنى اسرائيل فآمنوا • ثم توجه الى فرعون ومعه أخوه هرون بأمر الله فقالا لفرعون. وهذا نص التوراة

﴿ هكذا يقول الرب إله اسرائيل أطلق شعبي ليعبدوني في البرية • فقال من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق اسرائيل لا أعرف الرب واسرائيل لا أطلقه • ثم زاد الكرب والضغط على بنى اسرائيل بحيث كانوا يؤمرون بجمع التبن لأجل ضرب اللبن فضلا عن عدد اللبن المطلوب منهم المفروض على كل منهم ﴾

يقول فى التوراة ان موسى حينما دخل على فرعون كان ابن ثمانين سنة وهرون كان ابن ثلاث وثمانين سنة • وأمر الله أن يلقى العصا أمام فرعون فصارت ثعبانا • ويقول إن السحرة المصريين رموا عصيهم فصارت ثعابين فابتلعت عصا موسى عصيهم والذى رماها هو هرون بأمر موسى • ثم لما لم يمتثل فرعون ولم يرسل بنى اسرائيل أمر الله موسى أن يقول لفرعون (ها أنا ذا أضرب العصا التى فى يدى على الماء الذى فى النهر فتحوّل دما ويموت السمك الذى فى النهر فيعاف المصريون أن يشربوا ماء من النهر الخ)

ولم يمتثل فرعون بعد ذلك ولم يطلق بنى اسرائيل فضرب هرون العصا بأمر موسى على الأنهار والسواقى الخ فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر • وفى كل مرة يستغيث فرعون ويقول ﴿ أرسلهم معك ﴾ ثم بعد زوال المصيبة بدعاء موسى وهرون يغدر عليهما ثم كان ضرب العصا أيضا فعمّ البعوض بلاد مصر ثم الذباب ثم موت المواشى ثم الدمامل ثم نزول البرد من السماء على هيئة مطر فتموت البهائم التى فى الحقول والنار كانت تلتهب فى وسط البرد ثم كان الجراد ثم كان ظلام دامس

فهذه الآيات المذكورة فى التوراة اليد والعصا والدم والضفادع والبعوض والذباب وموت المواشى والدمامل والبرد والجراد والظلام الدامس • وقد جاء فى هذه الآيات العصا واليد وقد تقدّمتا • وقد ذكر غيرها من البقية فقال (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) بالجدب لقلة الماء والسنة غلبت على عام القحط لكثرة مايذكر عنه ويؤرخ به ثم اشتق منها فقيل أسنت القوم اذا قحطوا (ونقص من الثمرات) بكثرة العاهات والآفات (لعلهم يذكرون) لكى يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم فترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا الى الله ويرغبوا فيما عنده (فاذا جاءتهم الحسنة) كالخصب والسعة (قالوا لنا هذه) لأجلنا ونحن مستحقوها (وان تصبهم سيئة) جدب وبلاء (يطيروا بموسى ومن معه) يتشاءموا بهم ويقولوا ماحلّ بنا هذا البلاء إلا بشؤمهم وهذا من قساوة القلب فان المصائب انما تحلّ بالناس لترق القلوب • فأما هؤلاء فان قلوبهم اشتدّت صلابتها فهم كالطين يتماسك ويتصلب بايقاد النار عليه بخلاف الماء وأنواع السوائل فان النار تلطفها • فالناس اذن ﴿ قسمان ﴾ قسم تهذبه المصائب فهو كالمواد المستعدّة للذوبان • وقسم تقسى قلبه فهو كأنواع الأحجار والطين وما أشبه ذلك ومنهم من يحتاج الى نار شديدة فتهذبه كالحديد والنحاس ثم قال تعالى (ألا انما طائرهم) سبب خيرهم وشرّهم (عند الله) فى حكمه ومشيئته والله هو الذى يقدّر مايصيبهم من الحسنة والسيئة ــ قل كلّ من عند الله ــ (ولكنّ أكثرهم لا يعلمون) ذلك (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) يعنى أيما شئ تأتنا به • وبين مهما المفسرة بما ذكر بقوله من آية لتسحرنا بها أعيننا وتشبه علينا ــ فما نحن لك بمؤمنين ــ والضمير فى به وفى بها لمهما ولكنه مذكر أولا باعتبار لفظ مهما ومؤنث ثانيا لما بينت بلفظ آية ومهما فى محل نصب بفعل يفسره تأتنا أوفى محل رفع بالابتداء (فأرسلنا عليهم الطوفان) ماطاف بهم وغشى أماكنهم من مطر وسيل • وقيل الموتان أو الطاعون وهذا القول الأخير قريب مما جاء فى التوراة (والجراد والقمل) قيل هى البراغيث (والضفادع والدم) وقد تقدّم أكثر ذلك نقلا عن التوراة (فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه) الى حدّ من الزمان هم بالغوه لا محالة كما قدّرناه عندنا فى علمنا القديم (اذا هم ينكثون) أى فلما كشفنا عنهم العذاب فاجؤا بنكث العهد ونقض الميثاق

ولقد تقدّم ذلك فى عبارة التوراة فقد كانوا كلما عاهدوا موسى أن يدعو الله برفع العذاب و بعد ذلك يأذنون له بأخذ بنى اسرائيل فيدعو الله و يستجاب الدعاء ينكثون ثم يأمره الله بآية أخرى وهكذا فى كل مرة يعاهدونه ثم ينقضون الميثاق بعد ذهاب العذاب عنهم (فانتقمنا منهم) والانتقام ضدّ الانعام كما ان العقاب ضدّ الثواب (فأغرقناهم فى اليم) هو البحر وهو معظم الماء (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) وهم بنواسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام (مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) أى مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها وهى بيت المقدس ومايليه من الشرق والغرب وهذا هو الذى تمّ فعلا فى التاريخ وأما ذكر مصر فى هذا الموضوع فهى خرافة دخلت فى كتب التفسير وهى كاذبة بأمرين التاريخ وهو معلوم والقرآن فان الأرض التى بارك الله فيها فى القرآن لاتطلق الاعلى الأرض المقدّسة. ألاترى الى قوله تعالى ــ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ــ فافهم (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل) وهى قوله تعالى ــ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ــ فهاهى ذه تمت كلمة الله الحسنى لهم بأن ملكهم أرض بيت المقدس (بما صبروا) بسبب صبرهم على الشدائد (ودمرنا وخربنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من المبانى العظيمة و بعض الاهرامات والعمارات (وما كانوا يعرشون) أى ما كانوا يسقفون من ذلك البنيان أوما كانوا يبنون من البيوت والقصور . وهذا تمام قصة فرعون وقومه . وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

قد علمت أيها الذكى أن هذا القصص جله تذكرة لنا وآيات موسى من الجراد والقمل والعصا واليد مضت فى الأيام الغابرة والعصور الدائرة و بنواسرائيل الأوّلون قد ماتوا ونحن الآن فى عصر لانهتم فيه إلا بما ينفعنا الآن الله يقول ــ وذكرى للمؤمنين ــ فأما الذكرى لنا فاعلم أن النذر والآلام والبلايا اذا صبها الله على قوم فانه لايريد إلا ايقاظهم ورقيهم وهؤلاء القوم اما أن يكونوا كالطين كما قدمنا فيزدادوا صلابة فيستحقوا النار كاللبن المصنوع من الماء والطين والتبن اذا ضربته الشمس صلب فيوضع فى التنور فيزداد صلابة . واما أن يكون كالثلج أوكالزبد فاذا سلطت النار عليهم لانت شكيمتهم وسلبت طبيعتهم وانقادوا خاشعين خاضعين كالماء ينزل الى الأنهار فيجرى وكالسمن من الزبد . ولقد فعل الله ذلك مع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فأنزل عليهم ظلم الأمم التى حولهم مرة بعد أخرى على وفاق مافعل الله فى مصر على يد موسى وهرون عليهما السلام وأقرب أمة (الأندلس) هؤلاء أبناء العرب اخواننا أصابتهم مصائب متكررة من الفرنجة فى قرون عدة فلم يزدادوا إلا حبا للشهوات وقربا من الظلم و بعدا عن العدل واختلاف كلمة و بعد مودّة وعذابا واصبا ماله من دافع فمزقوهم شرّ ممزق وأسكنوهم اللحود خامدين وورثوا أرضهم وديارهم وهم مطرودون . انتهت اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

ان بنى اسرائيل لما صبروا نجاهم الله وأسكنهم فى بيت المقدس . وهكذا تتم كلمة الله الحسنى على كل أمة صبرت وجاهدت . ألاترى أن دولة (بولونيا) قد مزقت بين ثلاث دول من أوروبا أى بين الروسيا وألمانيا والنمسا فبقى أبناؤها حافظين ذكرى بلادهم وهم صابرون حتى اذا جاءت الحرب الكبرى استقلت بلادهم وحفظوا كيانهم . فاذا تمت كلمة الله الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا فهى تتم على كل أمة صبرت ويقال لها ــ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ــ فاذا لم تكن بيت المقدس الذى

لبنى اسرائيل فهى الأرض التى أنبتهم الله منها . وهكذا اليونان والبلغار والسرب والجبل الاسود وأمم كثيرة جاهدت وصبرت فأخذت استقلالها وأصبحت أمة لا سلطان لأحد عليها . وانظر الى دولة الترك ودولة الأفغان ودولة الفرس المسلمين كيف نبذوا الأجانب فى هذه الأيام وأخرجوهم من الديار بما صبروا وهم فائزون وانظر الى الأمم التى حكمتها دولة القياصرة أزمانا وأزمانا وجعلوهم فى حكم دولة واحدة وهى (روسيا) كيف استقلت بما صبرت . هذا هو الوعد الذى وعده الله للأمم وهذا الوعد صادق على جميع الأمم فلم يذكر ذلك فى القرآن لأجل سواد عيون بنى اسرائيل وانما هو لأهل المشارق والمغارب فالصابرون هم الذين ينالون الاستقلال لهذا أنزل القرآن . انتهت اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة قوله تعالى – ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه الخ – ﴾

اعلم أن مدائن بلادنا المصرية كانت كثيرة وقد شاهدت بعينى رأسى المدينة التى هى قريبة من قريتنا وهى قرب الزقازيق وتسمى (تل بسطه) واسمها قديما (بو بسطيس) باسم معبودهم وهو (بست) وهى القطة وقد وجدت محنطة هناك فكنت أرى فى حداثة سنى بنيانها مرتفعا ارتفاعا شاهقا جدا يعلو على كل بناء مشيد قديم العهد أو حديثه وكأنها مدينة بنيت فوق مدينة وهذه الأبنية عبارة عن آكام وقد يكشف الناس عما تحتها فيظهر بعض الجدران باللبن الذى عاش نحو أربعة آلاف سنة وكم وجدوا فيها من كنوز . وهذه المدينة بما حولها ربما بلغت أربعة آلاف فدان . أما الآن فقد انقشعت تلك الآكام ولم يبق إلا أطلال دارسة قليلة جدا تحافظ عليها الحكومة . وكم فى البلاد من مدن مثل هذه أوخلقها الله فوجدناها مخربة لايدرى إلا الله كيف كان خرابها . وقد سألت أستاذى فى علم التاريخ (اسماعيل بك رأفت) فقال خربت بزلزلة كبرى بدليل ماشوهد فى معبد من معابد تلك المدينة أن الأعمدة مائلة والله أعلم بغيبه

وهذا هو قوله تعالى – ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه – ثم بدلت الحال بعد قرون وبدل الدين المصرى القديم بالدين المسيحى والاسلامى . هذا معنى قوله تعالى – ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه الخ – أيضا . انتهت اللطيفة الثالثة

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

اعلم أن تدمير ماصنعه فرعون وقومه لم يكن إلا فى قرون متطاولة وذلك لأسباب عمرانية وأخلاقية ودينية وأهم ما أزال ملك المصريين القدماء خرافاتهم الدينية كما يشير لها القرآن إذ كانوا فى القرون الأولى قوما عارفين بجلال الله وجماله . ومن غرامهم به بنوا فى الأرض معابد عجيبة باقية للآن ونصبوا هياكل قد شاهدنا آثارها فى جهات منف (٢) واهرام الجيزه وغيرها . ثم لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم بحكم السنن الالهية فى الأرض واستدراج الأمم بما جبلوا عليه من التفنن والاغراق فى الدين حتى يصبح الدين الجديد كأنه ليس من الأصل فى شئ . مثلا كانوا يقدسون الطيور لأن العلماء أمروهم بحفظها لتأكل الديدان فعبدوا بعضها بعد التقديس فتقديسها بأمر الدين وعبادتها افراط كذلك البقر مقدس لمنفعته فعبدوه . ولقد شاهدت مدافن العجول التى كانوا يعبدونها فى جهات (سقارة) فوجدت هناك نحو ٢٤ مدفنا قد سرقت منها تلك العجول وتلك المدافن لاتزال باقية وهى أحواض زرق حجرية كبيرة يزورها الناس للتفرج عليها ولم تكشف إلا قريبا وهكذا توسع القوم فى الامور الجسمية وعبادتها حتى عبد قوم جهة اصوان (الغنم) وآخرون (السمك) ولاتزال ترى فى المدافن سمكا صبروه وغنما من الذهب تستخرج للآن ويتنافس فيها المتنافسون من الفرنجة هذه أمة بعد أن كان نظرها الى الكواكب والشمس وانها من نور الله وكانوا صابئين أصبحت أنظارها

(٢) قوله منف واهرام الجيزة قال البيضاوى فى تفسيره منف على ضفة النيل الغربية أعنى محل مدينة (الجيزة) الآن اه مصححه

متجه

متجهة الى العوالم الأرضية ففسدت النفوس وخربت العقول فانظروا ماذا جرى لما حضر الفرس بجيوشهم وعلى رأسهم الملك الفارسى قاتلوا جنود المصريين وقد عرف الفارسيون ضعف عقول المصريين وعقائدهم فأحضروا القطط المعبودة عندهم المقدّسة فى دينهم فأوقفوها بين الصفين فتحرج المصريون من ضربهم خيفة على القطط التى هى آلهة فى الأرض فأوغل الفارسيون فيهم قتلا وأسرا • ومن ذلك الحين سقط مجد مصر وهوت الى أسفل سافلين • فانظر كيف كان الدين سبب الهلاك • بهذا خربت مصر • ولهذا قال الله ـ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ـ • انتهت اللطيفة الرابعة

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾

كما ان المصريين تدلوا فى الدين ونزلوا فى العقل • هكذا كثير من الأمم الاسلامية تفرّقوا شيعا بمثل الطريقة التى تفرّق بها المصريون سواء بسواء وانحطت دولهم بسبب التفرّق الدينى • ألم تر كيف ذلت النفوس وصغرت العقول وأصبح كل فريق من أرباب الطرق يختص بأهل طريقته ولا يعتقد الفضل إلا فيهم ثم يقوم آخرون وآخرون وهم يتغالون فى شيوخهم ولا يزالون يقدّسونهم حتى يخيل لمن يراهم أنهم على دين غير دين الاسلام • وهذا هو التغالى فى الدين • ولقد علمت أن شيخا عالما أزهريا قد اتبعه عشرات الالوف فى مصر وفى مدنها وفى قراها وذلك فى زماننا الحاضر وقد تمسك بامور مثل ان (العذبة) التى تنزل من العمامة فرق بين المسلم والكافر وتمسك بأن بعض البدع تورث الكفر حتى اعتقد أتباعه أن المسلمين جميعا كفار وهم المؤمنون • وهكذا قام آخر منا معاشر المصريين واستباح لنفسه أن يذكر أتباعه اسمه مائة ألف مرة فى اليوم فكما يقولون (الله) يقولون (فلان) وهكذا أمة الاسلام أصبحت اليوم فرقا ذاق بعضها بأس بعض • وكما رأيت أن (قنبيز) الملك الفارسى غلب المصريين بأمر دينى • هكذا ترى أهل أوروبا تحكموا على عقول المسلمين واقتطعوا منهم طوائف لغلوّهم فى أمور دينهم أو تفريطهم

ان المسلمين ظنوا أن الدين هو مافى كتب الفقه وحده ولو أنهم عرفوا أن القرآن أوسع ألف مرة من الفقه ودرسوا مافيه وانتبهوا لأمثال مانذكر الآن لكانوا أقرب الى التعاون • ولكن القرآن من أيام الأئمة الأربعة رضى الله عنهم تركه الناس استغناء عنه بالفقه وأفهمهم العلماء أن خلاصة القرآن الفقه وماعدا ذلك فانما هو بركة يتبرك به الناس لاغير • فبهذا أصبح المسلمون شيعا وظنوا أن فروع الفقه هى الدين والحق انها سياج الدين وحارس الدين لا نفس الدين • أما نفس الدين فهو عجائب هذا القرآن كالتى نذكرها الآن لتقريب فهم مقاصده ومراميه الى الأذهان لتهذيب العقول ورفع منزلة النفوس وتدميث الأخلاق وتوسيع المدارك

وسيقوم بها قوم أعلى مقاما وأرفع نفوسا فى العلم وأطول فى الفهم باعا ـ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ واعلم أنه لاسبيل لرقى المسلمين إلا بأمر واحد وهو تعميم التعليم ونشر العلوم الطبيعية والرياضية والتأمّل فى عجائب السموات والأرض مع التحلى بالدين فانهم بذلك تتفق مشاربهم وتقوم قائمتهم • فالعلوم وتعليمها هى الدواء وماعدا ذلك فهو هراء وهواء • انتهت اللطيفة الخامسة

﴿ اللطيفة السادسة ﴾

ان هذه القصة تخص بلادى وأهلها المصريين فنحن وقومنا سكان وادى النيل وقد ورثنا أرضهم ورأينا آثارهم و بلادنا كانت مراتع الأجانب منذ أيام (قنبيز) للآن ولم نقدر أن نتخلص منهم الى الآن منذ ألفى سنة فأكثر • ولكن فى هذه السنة حين تأليف هذا الكتاب قد نال قومى حكما ذاتيا ولنا مجلس نواب ومجلس شيوخ وعسى الله أن يتمّ أمرنا ونفوز بالاستقلال و يرجع الفلك الى دورته الأولى ـ والله هو الولى الحميد ـ • انتهى الكلام على قصص فرعون وقومه ولطائف ذلك السنة

ثم أخذ سبحانه يبين عقول بنى اسرائيل وماهو مقدار تطورهم وفهمهم بعد أن نجوا من أرض مصر فان شأن الانسان اذا مسته البأساء أن يتضرع حتى اذا نجا من الهلاك طغى • فأما فرعون وقومه فقد تقدم القول فيهم وهذا القول خاص ببنى اسرائيل وفيه ذكر

(١) طلبهم عبادة الأصنام ورد موسى عليهم وكيف سفه احلامهم

(٢) وذكر وعد الله لموسى بالمناجاة واعطاء التوراة وكان ذلك بعد اتمام (٤٠) ليلة

(٣) وذكر استخلاف موسى لهرون وذكر بعض وصايا التوراة

(٤) وذكر اتخاذ قوم موسى عجلا من الحلى كما اتخذ المصريون العجل (ابيس) معبودا

(٥) وذكر رجوع موسى لهرون وقومه واعتذار هرون له

(٦) وذكر اختياره السبعين رجلا من قومه ليتوجهوا معه

(٧) وذكر الاستطراد بمدح الأمة المحمدية التى بشر بها التوراة والانجيل

(٨) ونداء الناس جميعا أن نبينا ﷺ رسولهم

(٩) وقصتهم فى السبت والحكم عليهم بتفريقهم فى الأرض شذر مذر أجمعين • فهذه تسع مباحث واليك بيانها

﴿ المبحث الأول ﴾

قال تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) فصاموا يوم عاشوراء شكرا لله تعالى (فأتوا على قوم يعكفون) يقيمون ويواظبون (على أصنام لهم) تماثيل بقر * يقال انهم كانوا نازلين بالرقة أى ساحل البحر (قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) لأن الله لانراه وهذه نراها فنعبدها لتقربنا الى الله زلفى (قال انكم قوم تجهلون) وكيف تطلبون ذلك بعد ماعرفتم كفر المصريين لعبادتهم الأصنام والتماثيل (ان هؤلاء متبر ماهم فيه) أى مكسر مهدم فالله يهدم دينهم الذى هم عليه فالديانات التابعة للصورة متقلبة كتقلب الصور لاثبات لها (وباطل) مضمحل (ما كانوا يعملون) من عبادتها وان قصدوا التقرب بها الى الله تعالى (قال أغير الله أبغيكم إلها) أطلب لكم معبودا (وهو فضلكم على العالمين) الجملة حالية ومن شأن الانسان ألا يحمد الله إلا على الصفات الخاصة بنفسه والامتياز الذى له على غيره • وهذا شأن أكثر الناس لجهالتهم والا فالله عند التحقيق يشكر على النعم العامة والخاصة بل العامة أولى فهنا ذكر لهم أنه فضلهم على العالمين • ثم أردفه بنجاتهم إذ قال (واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) أى واذكروا صنيعه معكم فى هذا الوقت حال كونهم يسومونكم الخ ثم أبدل منه قوله (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم) أى وفى الانجاء أوالعذاب (بلاء من ربكم عظيم) نعمة أومحنة عظيمة • انتهى المبحث الأول

﴿ المبحث الثانى ﴾

انما ذكر الله هذه المباحث التى تتعلق بجهل بنى اسرائيل ليثبت قلب رسول الله ﷺ على مايصيبه من قومه فليس نصره فى غزوة أحد وبدر وأمثالهما مما تقدم ذكره فى سورة آل عمران بدافع ماسيفعله المنافقون من الكذب والافتراء على دين الاسلام كما فعل بنو اسرائيل وليبين للمسلمين كيف كانت الأمم جاهلة فيحترسون من جهلهم • ولما أبان جهلهم ذكر بعد ذلك ما أنعم الله به على موسى إذ علمه التوراة وناجاه وهذا جزاء المحسنين فانه نفع قومه وأخرجهم من الذل فأخذوا يرتدون والله يجزى المحسنين فيزيدهم من فضله • فاذا جهل قوم موسى فان الله قربه اليه واصطفاه وأنزل عليه التوراة فان جزاء العبد عند ربه لا عند الناس • هذا مايفيده هذا المقام فليصبر الانسان على مايصيبه من الناس فذلك مقو لروحه كما قويت

نفس

نفس موسى حينما آذاه قومه بعد ايذاء فرعون وقومه • ثم قال تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) ذا القعدة (وأتممناها بعشر) من ذي الحجة * ذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى اسرائيل اذا أهلك عدوّهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان مايأتون ومايذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه أن ينزل عليه الكتاب الذى وعد به فأمره أن يصوم ثلاثين يوما ويعمل مايتقرب به الى الله ثم كلمه وأعطاه الألواح فى العشر التى زادها • فلهذا قال ـ وأتممناها بعشر ـ وهو تفصيل ماأجمل فى سورة البقرة فى قوله ـ وواعدنا موسى أربعين ليلة ـ ثم قال تعالى (فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة) بالغا أربعين ليلة • انتهى المبحث الثانى

﴿ المبحث الثالث ﴾

(وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى) كن خليفتى فيهم (وأصلح) مايجب أن يصلح من أمورهم أوكن مصلحا (ولاتتبع سبيل المفسدين) ولاتطع سبيل من دعاك الى الفساد (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص أى اختص مجيئه لميقاتنا بمدين (وكلمه ربه) من غير وسط كما يكلم الملائكة وكلام الله ليس ككلام الناس فليس يأتى من جهة خاصة فلا جهة له خاصة فلما سمع كلامه الذى ليس بحرف ولاصوت اشتاق الى رؤيته وغلب الشوق عليه هنالك (قال رب أرنى أنظر اليك) ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أوتتجلى لى فأنظر اليك وأراك (قال لن ترانى) بعين فانية بل بعين باقية (ولكن انظر الى الجبل فان استقرّ مكانه) بقى على حاله (فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل) ظهر له عظمته وتصدّى له اقتداره وأمره * ويقال أعطى الله له حياة وعلما ورؤية حتى رأى الله فلما رأى الجبل ربه (جعله دكا) مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان * وفى قراءة ـ دكاء ـ أى مستوية بالأرض لا أكمة فيها وناقة دكاء لاسنام لها (وخرّ موسى صعقا) حال أى سقط مغشيا عليه (فلما أفاق قال) تعظيما لما رأى (سبحانك تبت اليك) من الجرأة والاقدام على السؤال من غير اذن (وأنا أوّل المؤمنين) أى أنا أوّل من آمن بأنك لاترى فى الدنيا لأن النفوس البشرية مهما صفت فعلائقها بالدنيا تمنعها من رؤية ذاتك العلية واذا كانت الكهرباء والمغناطيس والجاذبية والقوى الخفية فى المادّة لا نقدر أن نراها فى الدنيا لشدّة لطافتها وغلظ أجسامنا التى سكنت فيها أرواحنا بل ان مادّة الأثير ومافيها من الذرات لم يرها أحد فى الدنيا ولم نعرفها إلا بالبرهان فليس من المعقول أن نراك فى الدنيا بل ان أرواحنا اذا تجردت من المادّة لا قدرة لها أن تراك مادامت أقرب الى أحوال المادّة وعلائقها إذ لامناسبة بينها وبين جمالك • اللهم الا اذا ارتقت أرواحنا وخاصت ولطفت وخلعت جميع العلائق المادّية بعد دهور ودهور فحينئذ يمكن أن نشاهد ذاتك لقرب الأرواح من التجرد عن المادّة وتكون تلك الرؤية بعد معرفة جميع العوالم والوقوف على عجائب صنعك إذ يستحيل التوصل للطيف إلا بعد اختراق الحجب الكثيفة كلها ومعرفة أسرارها حتى يزداد قربا وبازدياد القرب يزداد الشوق الى أن يصل الى الكمال وقد عرف أسرار كل موجود واذن يصل الى المقام الأعلى عند سدرة المنتهى ويرى ربه جلّ وعلا بما لا نعلم من الأحوال المغيبة عن الناس • ثم قال تعالى (قال ياموسى انى اصطفيتك) اخترتك (على الناس) الموجودين فى زمانك وهرون كان تحت أمر موسى (برسالاتى) هى أسفار التوراة (وبكلامى) وبتكليمى اياك (فخذ ماآتيتك) أعطيتك من الرسالة (وكن من الشاكرين) على النعمة ولاشكر على النعمة إلا بصرفها فيما خلقت له بأن تبلغ الرسالة مجدّا فى ذلك (وكتبنا له فى الألواح من كل شئ) مما يحتاجون اليه من أمر الدين (موعظة وتفصيلا لكل شئ) أى وتبيينا لكل شئ من الأمر والنهى والحلال والحرام وقوله ـ موعظة ـ بدل ـ من كل شئ ـ أى كتبنا كل شئ من المواعظ وتفصيل الأحكام (فخذها بقوّة) أى فقلنا لموسى إذ كتبنا له فى الألواح كل شئ خذها بجدّ واجتهاد أوخذها بقوّة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) بأحسن مافيها كالصبر والعفو بالنسبة الى الانتصار

والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل (سأريكم دار الفاسقين) كمنازل عاد وثمود ومن نحا نحوهم من الأمم البائدة كقوم (معين) الذين كشفوا حديثا وكوبار التى قال فيها الشاعر

ومرّ دهر على وبار ＊ فهلكت جهرة وبار

وانما أريكم دارهم لتعتبروا بهم وتتحاموا أعمالهم فلاتقعوا فيما وقعوا فيه من الهلاك والدمار والبوار

﴿ لطيفة فى كلام الله مع سيدنا موسى فوق الجبل ﴾

فى هذا المقام جاء فى التوراة فى سفر الخروج أن بنى اسرائيل ارتحلوا الى برية سيناء ونزلوا مقابل الجبل وأما موسى فصعد الى الله فناداه الرب من الجبل وأخذ يأمره بما ملخص بعضه ما يأتى

﴿ انى نجيتكم من المصريين وجئت بكم الىّ • واذا حفظتم وصاياى وعملتم بها كنتم أمة مقدّسة ﴾ فبلغ موسى هذه الكلمات الى شيوخ الشعب فأجاب جميع الشعب ثم قال له الله ﴿ انى سآتى اليك فى ظلام السحاب ثم أوصاه أن يتهيأ الشعب بالنظافة وغسل الثياب ولايقربوا النساء الى اليوم الثالث وفى ذلك اليوم صارت رعود و بروق وسحاب على الجبل وصوت بوق شديد جدّا فارتعد كل الشعب • وكان جبل (سيناء) كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل ارتجافا شديدا جدّا وموسى يتكلم والله يجيبه • ولم يؤذن لأحد بصعود الجبل إلا لموسى وهرون • وأما بقية الشعب فهم تحت الجبل ﴾ ومن كلام الله له مامعناه وملخصه مايأتى

(١) لاتعبد إلها غيرى ولاتصنع لك تمثالا منحوتا ولاصورة مما فى السماء ومافى الأرض الخ

(٢) لاتنطق باسم الرب إلهك باطلا

(٣) اذكر يوم السبت وقدّسه • اعمل ستة أيام واسترح السابع لاتصنع فيه عملا ما لا أنت ولا ابنك ولا ابنتك ولاعبدك ولا أمتك ولابهيمتك وكل من هو داخل أبوابك

(٤) أكرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض

(٥) لاتقتل (٦) لاتزن (٧) لاتسرق (٨) لاتشهد على قريبك شهادة زور

(٩) لاتشته بيت قريبك

(١٠) لاتشته امرأة قريبك ولاعبده ولا أمته ولاثوره ولاحماره ولاشيأ مما لقريبك

وكان الشعب من بعيد يرتعد من الرعود والبروق وصوت البوق ومارأوا من دخان الجبل فالشعب كان واقفا من بعيد • وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله • وقد ذكر فى هذا المقام أن العبد اذا كان اسرائيليا لايخدم الا ست سنين وفى السنة السابعة يصير حرا • ومن الأحكام مايأتى

(١) من ضرب انسانا فمات يقتل قتلا

(٢) من ضرب أباه أوأمّه يقتل قتلا

(٣) من شم أباه أوأمه يقتل قتلا

(٤) واذا نطح ثور رجلا أوامرأة فمات يرجم الثور ولايؤكل لحمه • فأما صاحب الثور فانه يقتل اذا كان ثوره نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فان لم يكن ذلك فهو برىء • واذا وضعت عليه فدية فليدفع كل مايوضع عليه

(٥) واذا نطح ثور انسان ثور صاحبه فمات يبيعان الثور الحىّ ويقتسمان ثمنه والميت أيضا يقتسمانه الخ

(٦) اذا سرق انسان ثورا أوشاة فذبحه أوباعه يعوّض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم

(٧) ان وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم

(٨) لاتضطهد الغريب ولاتضايقه لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر

(٩) لاتسئ الى أرملة ولا الى يتيم . ان أسأت اليه فانى ان صرخ الىّ أسمع صراخه

(١٠) ان أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلاتكن له كالمرابى لاتضعوا عليه ربا . اهـ المقصود

أقول هاأناذا قد أسمعتك بعض وصايا التوراة وأحكامها مما سمعه موسى عليه السلام وهو على الجبل لتطلع على الأخلاق التى لاتنافى أخلاق ديننا وسائر الديانات وعلى الأحكام الشرعيـة التى تختلف عن أحكامنا الشرعية المحمدية بعض الاختلاف باعتبار اختلاف الزمان والمكان والأمم . ثم ان هـذه الأحكام والوصايا وأمثالها فى التوراة وفى الانجيل وفى القرآن لايعقلها ولايقوم بها إلا القلوب المتواضعة النقية . أما أرباب الكبرياء والعظمة فانهم يأنفون أن يخضعوا للحق . فاذن الكبر حجاب بين المرء وبين الحقائق العلمية . وعلى ذلك يعيش المتكبر ويموت وهو غافل عما بين يديه من العلوم والمعارف ويكتفى بمايعلمه ولايزيد علمه لكبريائه الذى حال بينه وبين مالديه من العجائب الحكمية العلمية والعملية والسماوية والأرضية ولذلك أعقبه بقوله تعالى (سأصرف عن آياتى) المنصوبة فى الآفاق وفى الأنفس (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحقّ) فلايتفكرون فى السموات والأرض ولايسمعون كلام الأنبياء ومواعظهم كالقرآن والتوراة (وان يروا كل آية) منزلة أومعجزة (لايؤمنوا بها) لعنادهم ولذلك لايتبع الأنبياء فى أوّل بعثهم إلا الضعفاء والفقراء (وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا) لاستيلاء الكبرياء عليهم كما تقدّم فى أوّل السورة من كبرياء ابليس الذى جعل أساسا لهذه المعاصى (وأن يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا * ذلك) الصرف (بانهم كذبوا بآياتنا) بسبب تكذيبهم للآيات (وكانوا عنها غافلين) أى وعدم تدبرهم للآيات فلااتعاظ لهم بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى ولقائهم الدار الآخرة أوماوعد الله فى الدار الآخرة (حبطت أعمالهم) لاينتفعون بها (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى الا جزاء أعمالهم . انتهى المبحث الثالث

﴿ المبحث الرابع والخامس ﴾

اعلم أنه جاء فى التوراة أن الرب قال لموسى اصعد الىّ الى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى الى جبل الله . وأما الشيوخ السبعون فقال لهم اجلسوا لنا ههنا حتى نرجع اليكم وهاهوذا هرون وحور معكم فمن كان صاحب دعوى فليتقدّم اليهما فصعد موسى الى الجبل فغطى السحاب الجبل وحلّ مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب . الى أن قال . وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة . وهنا أعطاه أوامر أهمها مايخصّ صنع التابوت المقدّس الذى يجعل من خشب السنط وطوله وعرضه وهناك ذكر البخور وأنواع الزينة كالذهب والفضة وما أشبه ذلك . وكيف تصنع المائدة من السنط . وكيف تغشى بالذهب ويكون عليها اكليل من الذهب . وكيف تصنع المنارة من ذهب نقى . وكيف يصنع المذبح وقد أطال الكلام فى هذا المقام فى التوراة بتفصيل عجيب وبيان أوفى

ثم قال ﴿ ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه . فقال هرون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتونى بها ﴾ ثم أفاد أن هرون عليه السلام هو الذى صنع العجل من ذلك الذهب وبنى هرون مذبحا أمامه وقال غدا عيد للرب

﴿ يقول مؤلف الكتاب ﴾

تبارك الله انه لولا أن القرآن نزل لأيقن الناس أن هرون وهو نبى قد صنع العجل . انى لأعجب من الأمم السابقة كيف كانوا يبيحون لأنفسهم أن يغيروا الحقائق . وكيف يقال ان هرون كفر بالله وصنع عجلا . ان

القرآن قد أتى بالحقائق الناصعة وسيأتى نص الآيات وأن الذى صنع العجل هو السامرى • فتعجب من تلك الأمم ومن تغييرهـم الكتب المقدّسة • فترى النصارى يرضون أن عيسى إله واليهود يقولون انه كذاب • وترى اليهود يعتقدون أن هرون صنع العجل من الذهب والقرآن أتى بالحقائق ونزه الأنبياء عليهـم السلام

وفى ذلك الوقت أخبر الله موسى أن قومه زاغوا عن الحق وأفهمه كل ماحصل فرجع موسى الى قومه فأبصر العجل والرقص فغضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل ثم أحرق العجل وطحنه وذراه على وجه الماء ولام هرون كما فى الآيات الآتية • وأمر جميع بنى لاوى فقتلوا من الشعب ثلاثة آلاف كما تقدّم فى البقرة ثم صعد الى الجبل وطلب المغفرة من الله كما فى الآيات الآتية أيضا لأنه قال ﴿ والآن ان غفرت خطيئتهم والا فامحنى من كتابك الذى كتبت ﴾ فاستجاب الله دعاءه ووعدهم أن يملكوا الأرض التى وعدهم بها ويرسل لهم ملكا ولا يكون هو فى وسطهم لأنهم شعب صلب الرقبة • وهنا ذكر كيف قال الله لاتقدر أن ترى وجهى لأن الانسان لايرانى ويعيش • ثم قال فتنظر ورائى وأما وجهى فلايرى ثم أمره أن ينحت لوحين بدل المكسورين ففعل وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع اسرائيل وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر • وهنا فى سفر الخروج وصايا كثيرة جدا وكذلك فى السفر الذى بعده وهو المعنون (اللاويين) بما يستغرق عشرات الأوراق

واعلم أن هذه أهمّ النصائح فى التوراة • واذ ذكرت لك ملخص مافى التوراة فى هذا المقام مع انحراف بعضه عن الحقائق العلمية وعصمة الأنبياء فاسمع الآية قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده) من بعد ذهابه للميقات (من حليهم عجلا جسدا) من الذهب خاليا من الروح ونصبه على البدل (له خوار) صوت البقر * يقال ان السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حيا * وقيل صاغه بنوع من الحيل فتدخل الريح جوفه وتصوت كما نراه الآن فى السيارات ﴿ الاتومو بيلات ﴾ واعلم أن الناس فى العصور السابقة فى الاسلام قد توصلوا لما هو أبعد من ذلك اضلالا فيأتون بعجل مذبوح مطبوخ ويوضع على المائدة ويحضرون (ضفدعة) ويضعونها فى داخل فم الثور فيكون لها نقيق وهو يشبه صوت البقر • وكم من حيل يعملها الناس ليغشوا الناس بذلك فلامانع أن يفعل السامرى أمثال ذلك ثم قال تعالى (ألم يروا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلا) فكيف يتخذونه إلها والاله يرشد عباده ثم كرره للذم فقال (اتخذوه) إلها (وكانوا ظالمين) واضعين الأشياء فى غير مواضعها (ولما سقط فى أيديهم) أى ولما اشتدّ ندمهم • وأصله أن من اشتدّ ندمه يعضّ على يديه غما فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه وقع فيها وسقط وقوله فى ـ أيديهم ـ مسند اليه (ورأوا) وعلموا (أنهم قد ضلوا) باتخاذ العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا) بانزال التوراة (ويغفر لنا) بالتجاوز عن الخطيئة (لنكوننّ من الخاسرين * ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا) شديد الغضب * وقيل حزينا (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) فعلتم بعدى حيث عبدتم العجل ومانكرة موصوفة تفسر المستكن فى بئس والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعد انطلاقى الى الجبل خلافتكم (أعجلتم أمر ربكم) أى أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقدّرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائها (وألقى الألواح) طرحها من شدّة الغضب وفرط الضجر حمية للدين (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه (يجرّه اليه) توهما بأنه قصر فى كفهم وكان عليه السلام حمولا لينا ولذلك كان أحبّ الى بنى اسرائيل (قال ابن أمّ) ذكر الأم ليرفق عليه وكانا من أب وأم (ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) وقاربوا قتلى (فلاتشمت بى الأعداء) فلاتفعل بى مايشمتون بى لأجله (ولاتجعلنى مع القوم الظالمين) معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة (قال رب اغفر لى) بما

صنعت

صنعت بأخى (ولأخى) أن فرط فى كفهم وانما ضمه الى نفسه فى الاستغفار ليرضيه وليدفع الشماتة عنه قال (وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) فأنت أرحم منا بنا وأرحم من أمهات الطير وسائر الحيوان بأولادها فرحمتها كلها مشتقة من رحمتك ومستمدة منها • ثم قال تعالى (ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم) وقد حصل ذلك بالقتل المذكور فيما تقدم (وذلة فى الحياة الدنيا) وهو خروجهم من ديارهم (وكذلك نجزى المفترين) على الله ولا فرية أعظم من فريتهم وهى قولهم - هذا إلهكم واله موسى - (والذين عملوا السيآت) من الكفر والمعاصى (ثم تابوا من بعدها) من بعد السيآت (وآمنوا) واشتغلوا بالايمان وماهو مقتضى من الأعمال الصالحة (ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور رحيم) وان عظم الذنب ولوكان عبادة العجل أو كثر كذنوب بنى اسرائيل (ولما سكت عن موسى الغضب) باعتذار هرون وبتوبتهم وفى الكلام مبالغة من حيث جعل الغضب كانه كان مغريا له فسكت عن الاغراء (أخذ الألواح) التى ألقاها أوالتى أحضرها بأمر الرب على ماتقدم ان صح مافى التوراة الحاضرة • وأيضا فيها أنهما لوحان فيكون الجمع لما فوق الواحد وان لم يصح مافى النسخة الموجودة فالجمع هنا على حاله (وفى نسختها) وفيما نسخ فيها أى كتب (هدى) بيان للحق (ورحمة) ارشاد الى الصلاح والخير (للذين هم لربهم يرهبون) أى للذين هم يرهبون معاصى الله لربهم

﴿ لطيفة ﴾

جاء فى التوراة ماملخصه فى هذا المقام أنه لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة فى يده لم يعلم أن جلده وجهه صار يلمع فخافوا أن يقتربوا اليه فدعاهم موسى فرجع اليه هرون وجميع الرؤساء فى الجماعة فكلمهم موسى وبعد ذلك اقترب جميع بنى اسرائيل فوصاهم بكل ماتكلم به الرب معه فى جبل سيناء • ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج ثم يخرج ويكلم بنى اسرائيل بما يوصى به فاذا رأى بنو اسرائيل وجه موسى أن جلده يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه • وانما نقلت لك هذا لتعلم نوع أقوال التوراة فى هذا المقام حتى لايفوتك أهم مافيه • انتهى المبحث الرابع والخامس

﴿ المبحث السادس ﴾

قال تعالى (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) أى من قومه والمراد بالميقات الميقات الذى كلمه فيه ربه وقد تقدم هذا المعنى منقولا عن التوراة الحالية وبه قال بعض المفسرين • وقال آخرون ان هؤلاء السبعين حضروا للاعتذار من عبادة العجل (فلما أخذتهم الرجفة) إذ دنوا من الجبل ودخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه ثم انكشف الغمام فأقبلوا اليه - وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة - يعنى الصاعقة (قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل واياى) تمنى هلاكهم وهلاكه قبل أن يرى مايرى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) من العناد والتجاسر على طلب الرؤية أو بعبادتهم العجل وهؤلاء السبعون قد اختيروا للاعتذار كما هو رأى المفسرين فغشيتهم هيبة قلقوا منها ووجفوا (إن هى الا فتنتك) ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا فى الرؤية أو أوجدت فى العجل خوارا فزاغوا به (تضل بها من تشاء) ضلاله بالتجاوز عن حده (وتهدى من تشاء) هداه فيقوى به ايمانه (أنت ولينا) القائم بأمرنا (فاغفر لنا) بمغفرة ماقارفنا (وارحمنا وأنت خير الغافرين) تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة) حسن معيشة وتوفيق طاعة (وفى الآخرة) الجنة (انا هدنا اليك) تبنا اليك وهاد اليه يهود اذا تاب ورجع والهود جمع هائد وهو التائب • هذا هو الدعاء الذى دعا موسى به الله فكأنه يقول يارب كيف تعمم النقمة والعاصون أقل من المغضوب عليهم • وكيف تؤاخذنا بالفتنة وانما هى

من عملك فأنت المضل وأنت الهادى . وأيضا أنت متولى أمورنا . ثم رتب على هذه الثلاثة طلب المغفرة ليخلصوا من الذنب ثم الرحمة ثم أن يجعل عيشهم سعيدا فى الدنيا والآخرة لأنا تبنا اليك . فأجاب الله على هذا السؤال فقال سبحانه وتعالى . إنى وان كانت الفتنة من خلقى والهدى من عندى فلى الحجة البالغة (عذابى أصيب به من أشاء) اصابته وهل أشاء الا ما كان حكمة وعدلا فأسلط عذاب الفقر على من اتكل على عمل غيره وعذاب الهم واضطراب القلب والحزن على من جعل جمع المال كل همه وعذاب المرض على من ترك أعضاءه وجسمه فلم يشغلها بالحركات لتنشط وتقوى . وأسلط عذاب الجوع على من ترك الغذاء حتى يأكل . وأسلط عذاب الشبق ولذع الشهوات على قوى المزاج حتى يقترن بمن تلد له ولدا . وسلطت الندم والألم على من لم يخلص فى عمله بأن قصد بعمله رضا الأزواج أوالولد أوالسلطان أوالجيران أونحو ذلك ولم يكن موجها قصده الى الله تعالى فان العالم السفلى أكثر أهله جاهلون يكذبون الأنبياء ويؤذون العلماء ويسيؤن للمحسنين ويعق الولد أبويه فاذا كانت الوجهة شخصية ندم العلماء والمحسنون على ماعملوا من خير لمن جحد به فلاسعادة لأحد إلا بالأخلاص فى عمله وتكون وجهته الاقتداء بمالك الملك امتثالا لأمره أنه يفعل رحمة واحسانا لا رياء ولاطلبا للمكافأة . واسلط حزن الجهل على من ترك العلم كسلا وخمولا . وبالجملة اسلط العذاب على من لم تكمل جميع قواه الجسمية والعقلية فليكمل جسمه بأنواع الرياضيات ليقوى وعقله بالعلوم ونفسه بالتهذيب وأهله بالاكرام وأمته بالنصيحة وأهل دينه بنشر العلم وهكذا فمن نقص شيأ من ذلك عذبته عذابا أرقى نفسه به . ان العذاب هو الشريعة الصامتة . شريعة عادلة هى سوط أنزلته فى الأرض أسوق به الناس الى السعادة ولو أنى لم أشأ العذاب للناس وهم مفرطون لماتوا فى بعض يوم . فالآلام نعمة جليلة ترقى النفوس ان هذه الشريعة التى حتمتها فى الطبيعة تعاقب على الصغيرة والكبيرة وعلى العمد والخطأ والغفلة لأنها لاتغفل طرفة عين . وليس هذا ظلما لأنها ناطقة بلسان فصيح ﴿ لاتغفلوا أيها الناس ﴾ وتعلموا العلوم وتفطنوا . وعلى ذلك تكون الرحمة ﴿ قسمين ﴾ قسم هو اللذات . وقسم هو الألم كما يؤلم الأب ابنه والاستاذ تلميذه والطبيب مريضه بشرب المر وما أشبه ذلك . وأنا لم أفعل فى خلقى أقل من الطبيب ولا المعلم ولا الاستاذ بل ان عملى أبدع احكاما . وأعظم شانا . فاذن الآلام من أجل النعم . وهذا قوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شئ) لأنه بعد هذا البيان أصبح الألم نعمة فأين العذاب اذن ولاعذاب الا حيث الألم ولاألم الا حيث المنفعة وتهذيب النفس أونحو ذلك . واذا وسعت الرحمة كل شئ فلم يبق من اعتراض بعد . واذا قال موسى ـ ان هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء الخ ـ

يقول الله هنا فتنته ليستيقظ ولاأزال أفتنه وأعذبه حتى يستيقظ . فهذه الفتن كلذعات الجوع ومن ذا يقول ان ألم الجوع نقمة . ومن ذا يقول ان ألم العضو المريض الذى ينادى بلسان فصيح ﴿ كمل مانقص منى ﴾ ومن ذا يقول ان هذا غضب وأين الرضا . ان الألم من الجوع والعطش والمرض والشبق والحقد والحسد تنطق بلسان فصيح أن كل الغذاء واشرب الماء وداو العضو وتزوج من تلد لك ونظف قلبك من الغل لأن نار الحقد ستحرقك وعذاب الحسد سيهلكك وما أشبه ذلك . ان الناس فى عذاب وهم لايشعرون . وفى ألم وهم لايبصرون . فمتى عرفوا ألم النفوس كما عرفوا ألم الأجسام أقلعوا عن تلك الذنوب وتغذوا بالمعارف وتركوا الحقد والبخل والحسد وأمثالها فيصبحون سعداء ويصبحون فى نعيم مقيم ـ لايمنع الناس من فهم ماذكرناه إلا جهلهم وكبرياؤهم ـ ولكن أكثر الناس لايعلمون ـ

ولما كان هذا المقام من الدقة بمكان بحيث لايعقله إلا الحكماء . ولايدركه إلا الكبراء . ولاينال حده إلا أولوا الألباب شرع يذكر الأمم التى تدرسه وتعرفه حق معرفته وهو مايأتى

﴿ المبحث السابع ﴾

قال تعالى (فسأكتبها) فسأثبتها فى الآخرة (للذين يتقون) الكفر والمعاصى (ويؤتون الزكاة) وخصها بالذكر لأنها أشق (والذين هم بآياتنا يؤمنون) فلا يكفرون بشئ منها • ثم أبدل من الذين يتقون قوله (الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمى) الذى لايكتب ولايقرأ فكمل علمه مع عدم القراءة وهذا معجزة من معجزاته ثم وصفه فقال (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات) مما حرم عليهم كالشحوم (ويحرّم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم اصرهم) وهو الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحراك لثقله • والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس فى توبتهم وكبعض الأحكام الشاقة التى تقدّم ذكرها نقلا عن التوراة ثم قال (والأغلال التى كانت عليهم) هى الأحكام الشاقة السالفة الذكر (فالذين آمنوا به) بمحمد ﷺ (وعزّروه) وعظموه أومنعوه من العدوّ حتى لايقوى عليه عدوّ • وأصل العزر المنع ومنه التعزير لأنه منع عن معاودة القبيح (ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى القرآن ومع متعلق باتبعوا أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبى ﷺ والعمل بسنته (أولئك هم المفلحون) يعنى هم الناجون الفائزون بالهداية والنعيم

﴿ لطيفة ﴾

اعلم أن هذه الآية لامجال للشك فيها ان مارمى اليه انما هو فيما يبدو للقارئ أن من اتبع نبينا رسول الله ﷺ وقد جاء وصفه فى التوراة والانجيل فانه ناج ومن كفر به من النصارى واليهود مع ثبوت وصفه فى كتابيهما المقدّسين فانه داخل النار لأنه جحد حقيقة لمجرد الشهوات الدنيوية والعناد والحسد وحب الرياسة أوالتقليد الأعمى • والمتأمل يجد فيها معنى أدق وهو أن محاورة موسى عليه السلام تدور على كل لسان وفى كل جنان ولاتزال جميع الديانات وعلوم الفلسفة تذكر هذا السؤال ﴿ لم يعذبنا الله وأين رحمته • ولم أمرض وأجوع وأدخل جهنم • ولم هذه كلها ﴾ فأجاب الله أن عذابه لحكمة وانما قلنا لحكمة كما تقدّم لأنه قال – ورحمتى وسعت كل شئ – وعلى ذلك يكون المعذب داخلا فى الرحمة وقت تعذيبه لأن التعذيب ثمرته الانذار والتذكير • ومن ظنّ التذكير عذابا فما أجهله • ومن ظنّ الوعظ جحيما فما أضله • ان أكثر الناس غافلون • والنوع الانسانى مادام لايفرق بين النقمة والنعمة فهو طفل • وما دام الناس لايعلمون أن الآلام مذكرات عدّوها شقاء ومتى عدّوها شقاء لم يعتبروا بها ولم يتداركوا مافرط منهم فيكونون أشبه بالأطفال يبكون والطبيب يداويهم ولايعلمون أن هذا لمصلحتهم فهم يكونون دائما فى عذاب

ولما علم الله أن الأمة التى سترتقى فى المعارف والعلوم انما هى الأمة الاسلامية فهؤلاء هم الذين سيعرفون حقائق الأشياء ويدركون سرّ الرحمة ولذلك كتبها لهم • وكيف تكتب الرحمة لمن لايعقلها أوتساق الهدية لمن لايتقبلها فلايزال الناس فى عذاب حتى يدركوا الحقائق ومتى أدركوها زال عنهم النصب والعذاب الواصب ولاسبيل للعلم فى الآخرة إلا بعد التفكر فى الدنيا • ولما كانت أمة الاسلام لم يمض عليها من الزمن غير ألف وثلثمائة سنة وكانت أمة اليهود محصورة العدد لأنهم يكرهون اتساع دينهم لأنه دين قوم مخصوصين وأمة النصارى قد نبذت تعاليم كتابها وفتكت بأهل الأرض • خطر بنفسى أنه سيأتى فى هذه الأمة أناس مفكرون حكماء لم يسمح بهم الدهر وهؤلاء يدركون حقائق العالم الذى نحن فيه فيعلمون الرحمة ونتائج الآلام وما أشبه ذلك فينالون الرحمة تامة فى الآخرة ككثير من سلفنا الكرام الذين أفيضت عليهم المعارف وأدركوا الحقائق • – والله عاقبة الامور –

﴿ لم خلق الانسان وهو فى آلام وذنوب وظلمات وما فائدته من الوجود ﴾

ومما يناسب هذا المقام ما دار من الحديث بينى وبين بعض الفضلاء من مفتشى وزارة المعارف العمومية

المصرية . وهذه صورتها

جلست وطائفة من العلماء والسادة الأدباء ممن لهم قدم فى العلم راسخة . وشهرة فى الفضل ذائعة . من رجالات وزارة المعارف وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث . فقال أوسطهم مقاما وأفصحهم كلاما وأوسعهم جاها حدثنى رعاك الله حديث هذه الدنيا والحياة فيها وماشأنها وكيف ضلّ أهلها وجار أعاظمها ولم نر من هذا الانسان المتمدين بمدمرّ الدهور وكرّ العصور والارتقاء المشهور الا أخلاق الذئاب وحرص الكلاب وتهافت الذباب ولوانك سرت فى أمريكا وأوروبا واطلعت على أسرار الأسرات لرأيت أمرا — إدّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا — من خيانة الى جناية الى سعاية الى سرقة الى عداوة الى عار وشنار وهمّ مستطار فلا الزوج بمخلص لزوجته ولا الزوجة بصادقة لزوجها ولا الأسرة بصالحة لشأنها بل كل لكل حاسد وعليه حاقد فلوفتش مافى القلوب — وحصل مافى الصدور — لم يجالس الأخ أخاه ولا الابن أباه ولا الزوج حماه . فأين الانسانية المنشودة وهذه آثارها المنكودة . فياعجبا لم خلق الانسان ولم علم البيان ولم يقرأ التوراة والانجيل والقرآن . فلما فرغ من فصيح بيانه وعجيب كلامه أصغى الجمع الى ماسألقيه من الجواب . فقلت بالقرآن أجيبك . قال كلا فنحن به عالمون . فقلت اذن بالبرهان . قال نعم . قلت البرهان ﴿ قسمان ﴾ يقينى واقناعى أما اليقينى فأنت تعلمه كدلائل الهندسة والحساب والجبر وهذه ترجع فى أواخر الأمر الى القضايا الأوّلية المستخرجة من المشاهدات الحسية . قال نعم . قلت ولكن عقول أهل الأرض وفلاسفتهم لاطاقة لها ولاتقدر أن تعلم هذه العلوم بالبراهين العقلية المستمدّة من المعلومات الحسية لأن الأمر أعظم وأوسع من هذه الأرض ومن فيها . قال اذن تكون الأدلة اقناعية . قلت نعم . قال فمن أين نستمدّها . قلت من مدارسكم العصرية أفليس فيكم المدرسون والمفتشون . قالوا بلى . قلت ألستم ترون المدارس متفاوتة الدرجات . قالوا بلى . قلت هكذا الانسان يرتقى درجات فى آلاف السنين ومئات الآلاف بل فيما لايتناهى من الزمان — لتركبنّ طبقا عن طبق — وهو فى كل درجة يستمدّ مما قبلها و يستعدّ لما بعدها وكل فكرة يجدها أوسيئة يجترحها أوحسنة يفعلها تكون له أوعليه ولاتزايله كما ترى التلميذ فى المدارس يركب طبقا فيها عن طبق فما للناس لايفقهون . قال أتستدلّ بالقرآن ونحن اليوم فى مقام الاقناع بالبرهان . قلت كلا وانما هو اقتباس واستئناس لابرهان وقياس . فأجاب قائلا أجبتنى على غير السؤال ولعمرى لشتان مابين المدارس العصرية وسؤالنا على الحياة الانسانية فأين الثريا وأين الثرى . قلت ان الناس اليوم على هذه الأرض أشبه بالصبيان فى مدرسة (روضة الأطفال) فاستغرقوا ضاحكين ورفعوا أصواتهم ساخرين وقالوا أتتخذنا هزوا . قلت أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين وهم صاخبون مازحون متغامزون . فقال قائل منهم سلوه عن كنه جوابه ولاتسرعوا بالائمة على مقاله فقال الذى سألنى أوضح ماتقول . فقلت على شريطة ألايقاطعنى فى الحديث أحد حتى أتمّ البرهان . قالوا قبلنا شريطتك فاتمم مقالتك . فقلت أحدثكم حديث النبات وحديث الحيوان وحديث الكواكب ففيها البيان . فقالوا نعم . فقلت (١) النبات يتناوبه الحرّ والبرد والمطر والصقيع والثلج ليكون له نتائج ظاهرة ومنافع باهرة من الكلأ للحيوان والحب للانسان (٢) والحيوان يتناوبه مايتناوب النبات من الحوادث المذكورة ثم يزيد عليه الآلام النفسية والحوادث الجسمية و يعطى الحواس الخمس المعلومة وهى تختلف اختلافا كثيرا فبينما نرى الدود فى لب الثمار وجوف الحيوان لاينال إلا حاسة اللمس اذا الدود الذى يدب على العود يعطى حاستين اللمس والذوق و بعض الحيوان فى قاع البحر يزيد عليهما حاسة الشم ثم الحلمة العمياء تزيد السمع لأنها تعيش فى جوّ حالك الاهاب ثم تكون الحيوانات المعلومة ذوات الحواس الخمس ثم الانسان الذى يستنتج المعلومات الأوّلية ويقرأ العلوم المشهورة والمعارف المفيدة (٣) الكواكب . أما الكواكب فأنت ترى أن

ارضنا

أرضنا التي نحن عليها لاهي في العير ولافي النفير ولوأنا وازناها بأخواتها الصغيرات من السيارات حول الشمس لازدراها المشترى والمريخ ولنبذها ظهريا (أورانوس ونبتون) وفوق ذلك انها بالنسبة للشمس كرة صغيرة ضئيلة والشمس وما حولها اذا نسبن الى كواكب أخرى كانت كذرة في الفضاء بالنسبة لقصر شامخ البناء أو قطرة من ينبوع ماء كما كشفه العلم الحديث وسارت به الركبان وعرفه علماء هذا الزمان . ولو أن الشمس ناظرت الفرقدين أوفاخرت السماكين لقالا لها بفصيح البيان وساطع البرهان ما قاله لبيد

فغضّ الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

* أطرق كرا إن النعامة في القرى *

﴿ رأيك في الكنّ لافي الضحّ ﴾ هذه هي المقدّمات التي أوردتها لايضاح المقام في قوله ان الانسان على هذه الأرض كالتلاميذ في مدرسة (روضة الأطفال) اذن . قال من سألني فماذا يبنى على هذه المقدّمات فقلت ألستم تعلمون أن التلميذ في مدرسة (روضة الأطفال) يدخلها وهو ابن خمس سنين . قالوا بلى . قلت أليست أخلاقه شيطانية . قالوا بلى . قلت وأعماله صبيانية وآراؤه هزلية والأبوان والأساتذة به فرحون فان نطق بالحروف الهجائية مدحوه أو بالأعداد الحسابية كافؤه وهم يرونه طول النهار يقاتل الصبيان و يضارب الاخوان ولم نر أحدا يئس من أعماله المستقبلة ولامن أن هؤلاء الصبيان هم بعدذلك الوزراء والعلماء والملوك والحكام والحكماء . قالوا بلى . قلت فاذا رأيتم هذا الانسان طغى و بغى وتعدّى حدّه ولم يقدّر حقوق الفضل والمنن وخان اخوانه ظلما ومشأمة وعدت الدول القوية على الضعفاء وأمسى كلّ لكل عدوّا مبينا وعم الحسد والكبرياء والخبث وسوء الطوية والحرص والنكد والهمّ والغم - ثم رددناه أسفل سافلين - فلتعلموا أنه اليوم في مدرسة (روضة الأطفال)

﴿ الحيوان والانسان ﴾

فاذا اختلف الحيوان في مقدرته الحسية وتعالت أنواع النمور والقرود وارتقت عن جماهير الدود التي تدب على العود في عدد الحواس واشتدّ اختلاف الناس في معقولاتهم ودرجات فهمهم فكانوا أوسع نطاقا من درجات الحيوان في المحسوس . أفلانقول اذن ان هذا الانسان على هذه الأرض الضئيلة المسكينة التابعة لشمسنا الصغيرة أشبه بالدود على العود الذي يدب على النبات ولم يملك من الحواس إلا اثنتين اللامسة والذائقة وأن هذه الأرض التي هو عليها لايستعدّ سكانها لأكثر مما يعلمون ويكون هم الأطفال والأرض روضتهم ومدرستهم فان صغر علمهم فهذا استعدادهم وان شكست أخلاقهم وقبحت طباعهم فلذلك خلقهم لأنهم أطفال لايزالون في أوّل درجات الآمال وربما كانت آلافا مؤلفة كما نرى درجات الحيوان في الادراك وكذلك الانسان - وما أوتيتم من العلم إلا قليلا - وستنالون كل علم على طول الأزمنة والدهور المستقبلة - أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا - ولئن راعكم ماترون من جهله الظاهر وخلقه البائر ورأيه الفاتر فلنقس عقله بمقياس الكوكب الذي هو عليه ولننظر كيف يسوغ أن يكون الانسان أعلى العالمين وقد رأينا أرضه لانسبة بينها و بين الكواكب الصغرى فضلا عن الكبريات . أفلانقول على سبيل القياس التمثيلي ان العقول تتفاوت في درجاتها تفاوت الكواكب في أقدارها والحيوانات في ادراكها وانه الآن في أوّل سلم الارتقاء فربما ارتقى في عوالم طبقا عن طبق فوق ماعرفناه . ولقدكان الانسان يظنّ أنه سيد العالمين حينما كانت الأرض مركز العوالم . فأما الآن فقد زال البهتان ورأيناها حجرة صغيرة في مدينة واسعة . ومن عجب انك تسمع العلامة (أوليفرلودج) سيد علماء الطبيعة في بلاد الانجليز يقول على ملأ من قومه ﴿ انى أصبحت موقنا أن عقل هذا الانسان بالنسبة للعوالم الروحية به المحيطة أشبه بالنمل بالنسبة لعقل الانسان ﴾

ثم قلت واذا رأينا الانسان يزداد على مدى الزمان شراسة وشكاسة والدين لم يهذبه والعلم لم يؤدبه . قلت هكذا المرض يزداد انتشارا كلما ازداد الطب اختبارا فهل ترون اقفال مدارسه أواغفال نفائسه . قالوا لا ولوفعلنا ذلك لاضمحلت الانسانية ولرجعت الى حال الهمجية . قلت هكذا تلك الديانات والعلوم ولئن قلتم فما بالنا نرى الأمراض تتتابه والفقر يؤذيه والجهل يرديه والعذاب يحيط به لنقولن ان الآلام الحيوانية والحوادث الانسانية ليرتقي بها وجدانه كما أنتجت حوادث الجو فى النبات حبه وثمره فارتقاء الوجدان فى الحيوان والانسان بحوادث الأيام كاستكمال الحب والثمر بحر الهجير و برد الزمهرير . فقال قائل منهم إنى منذ أيام ذبحت زوجا من الحمام وهو ينظر الى الدنيا نظر المريض الى وجوه العود وكنت أدهش من هذا النظام لم ذبحناه وهو صغير فقلت ألم أقل لك اننا فى مدرسة (روضة الأطفال) وهذا انتقال من فرقة دنيا الى فرقة عليا - وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم -

وقصارى الأمر وحاداه أن للانسان خمس درجات حسية وخمسا أخرى نظامية أوطبيعية فى مدرسة (روضة الأطفال) تابعا فى ذلك سنة الارتقاء كالحيوان انه يتقلب جنينا فى صور مختلفة من صور الحيوانات من أدناه الى أعلاه حتى اذا ولد طفلا تبدت له مدرسة اللمس فالذوق فالشم فالسمع فالابصار يتلو بعضها بعضا كفصائل الحيوان ثم تكون تربية منزلية فمدارس أولية فالابتدائية والثانوية والعالية ان دخل المدارس النظامية والا اكتفى بالمدارس الطبيعية من العسر واليسر والغنى والفقر والنفع والضر والصحة والمرض والخير والشر . ولئن قلتم فما بالنا لا نعرف برهان ماتقول وانما أنت تلقيه لنا على سبيل القياس التمثيلى لا البرهان . قلت ياسبحان الله لو أنكم سألتم الدود فى الشجرات والسمك فى البحيرات والحشرات فى الخلوات والطيور فى الهواء عن الانسان وعلومه أوكل فريق عن الآخرين لقالوا جميعا - وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين - ولو أنك أردت أن تفهم صبيان (روضة الأطفال) عن الوزارة وعظمة الامارة لم تجد لذلك إلا أمثلة مما يألفون من الكرة والصولجان والزهر فى البستان والورد فى الأكمام وحلاوة التفاح وطعم ألذ الفواكه والثمرات

ولما كان العقل الانسانى خاق فى الأرض طفلا أعطى من العلم على مقدار طاقته ولو أنك سألت الدودة فى لب النبات عن عالم الحشرات أوالسمك عن عالم الطيور أوالحشرات عن السباع لكان الجواب - وماشهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين - هكذا الانسان لا يشهد العالم الذى بعد هذا وانما يعلم بالقياس ويدرس بالاقتباس الذى دله على عوالم منتظرة . واذا علمه المؤدبون مثلوا له أحواله المستقبلة بما يناسب معارفه فالكلام كالدواء يعطى لمن يفقهونه بمقدار . واعلم أن هذا الارتقاء كله روحى لا جسمى فى عالم البرزخ فافهم انتهى الحديث

﴿ حكمة ﴾

لقد أطلت المقال فى هذا المقام لتفسير - قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ - لأن أعقد العقد فى العالم الانسانى رحمة الله مع انه يعذبنا . وكيف نعتقد انه رحيم ونصدق به وهو يؤلمنا فهذا القول قد أبان هذا المقام على قدر الطاقة وبهذا تفهم كيف كان من أركان المبايعة الاسلامية فى ابان نزول الشريعة الاسلامية عند الحضرة المحمدية أن يقال لمن أراد الاسلام (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله) فكان المسلم ملزما أن يعلم أن الشر الذى نابه من الله وكيف يتفق هذا مع الرحمة فبهذا المقام زال الابهام وعليه تعرف قوله تعالى - فعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم - ولاجرم أن العذاب فى الدنيا وفى البرزخ مكروه لنا فاذن يكون خيرا وهذا القول هو المعقول وهو مقتضى قوله تعالى - يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا - فهذا عذاب من رحمن كما يكون العذاب من الطبيب إذن هو

رحمة ـ والله هو الولىّ الحميد ـ

﴿ غرق الانسان فى الرحمة أعماه عنها ﴾

اعلم أن الناس يعيشون مغمورين بالرحمات غارقين فيها ولكن القليل من يحسّ بهذه الرحمات . ليس من الحكمة ولا العقل أن يكون العدم خيرا من الوجود . ان الحكيم اذا خلق خلقا فهو لامحالة يحوطه بالانعام ويجعل له الحياة محبوبة لامبغضة مكروهة . ناهيك ماترى فى الأمهات والآباء فهؤلاء وان لم يكونوا خالقين وانما كان لهم بعض الأسباب فى وجود الذرّية رأينا حرصهم عليهم وتحننهم وتعطفهم واستماتتهم فى سبيل انعاش الأبناء واسعادهم وانقاذهم من المهلكات

ان العقل والقياس يقضى أن يكون خالق هذا العالم الذى نعيش فيه أكثر رحمة وأشدّ محافظة وعطفا على مخلوقاته والا فان خلقهم يكون مخالفا للحكمة منافيا للصراط المستقيم . ان محدث هذا العالم لايجوز ولايعقل أن يكون كالأبوين رأفة ورحمة بل القياس يقتضى أن يكون أكثر رأفة ورحمة . وهنا يتبادر هذا السؤال . فلماذا اذن نرى البؤس والشقاء والذل فى الانسان

﴿ الجواب ﴾

اعلم أن الناس غارقون فى الرحمة كما قدّمنا ولكنهم عنها محجوبون وهاأنا ذا أحدثك عن نفسى وأنت طبعا مثلى انى من الأمة المصرية ومن نسل عربى فانظر ماذا ترى أليست الحكومة المصرية والأمة المصرية هما اللذان يحافظان على حياة أفراد المصريين وأنا منهم . ان الحكومة نظام واحد وهذا النظام لو اختلّ اختلّ الامن فهو كدولاب واحد لابدّ من صحة سائر أجزائه . النيل يجرى لسقى الأرض والحكومة تهندس وتحافظ وهذه الأمة تتبادل المنافع مع اليابان والصين والهند وأوروبا وهذا معلوم بدليل مصلحة (الجمارك) وصادراتها ووارداتها . فاذن كل الأمم شرقا وغربا تساعدنى سواء أعرفت أنا أم لم أعرف أى انهم يساعدون أمتى المصرية التى لا أكون مطمئنا إلا باطمئنانها . اذن جميع العالم الانسانى يساعدنى علمت أم لم أعلم وهذه الأمم كلها تشرق عليها الشمس والقمر والكواكب . وهذه الأنوار لاسيما ضوء الشمس مؤثرات فى المزارع والحيوان والنبات وهى التى تثير البخار من البحار وتزجى الهواء فيكون رياحا ثم الرياح تحمل السحاب فيكون مطرا ثم ان الضوء يؤثر فى نموّ النبات فلاتكون المادّة الملونة فى النبات إلا به وبها تكون المواد المنمية للنبات كما أوضحناه فى سورة الأنعام . اذن تكون الأمة المصرية والأمم كلها والشمس والقمر والكواكب والهواء والماء والسحاب والرياح كلها خادمات لى . وبهذه كلها كان لى جسم وأعضاء تبلغ (٢٤٨) عضوا وعضلات وأعصاب حسّ وأعصاب حركة وعقل فى الدماغ وحس مشترك وقوّة خيالية وأخرى مفكرة وحافظة وواهمة . وهذه كلها متصلات بالحواس الخمس وبأعصاب الحركة التى تتجه الى ظواهر البشرة فتحرك الأعضاء للطلب تارة والهرب أخرى وفى أعضائى من العجائب مالاحدّ له . خذ مثلا العين والأذن واقرأهما فى سورة آل عمران فهما هناك مرسومتان مصوّرتان مشروحتان شرحا وافيا وفيهما من العجائب مايدهش العاقل ويحير اللبيب ويربو فى الحقائق المدهشة على مايدهش المرء من عجائب ألف ليلة وليلة التى هى وأمثالها خيالات يتسلى بها الشاب قبل أن يلج الحقائق التى نشرحها من العلوم الطبيعية والفلكية . هذا الجسم وحواسه وعقله وقواه مغمور فى الهواء الذى يتنفس فيه وحوله الماء متوافر والغذاء والدواء والفاكهة والمدارس والمعلمون والتلاميذ وقراء الكتب التى يؤلفها والتى يتعلم منها ولبلاده مدارس وحكومة منظمة . كل هذا نعمة علىّ أنا . فاذن العالم كله نعمة أسديت الىّ أنا وأبناء جنسى ودينى

ولكن الانسان ينشأ من صغره غافلا جاهلا ماحوله حكم عليه أن يكون هذا العالم مدرسة له واقتضت الحكمة أن يكون منه غذاؤه ودواؤه وداؤه وحياته وموته كما يكون منه علمه وحكمته فهو علم وهو غذاء

خلق الانسان فى الأرض وقيل له أنت ملزم أن تحافظ على قوتك وملبسك ومسكنك وصحتك وأمتك وتتعاطى الطعام وتجلبه ولست كالنبات يأكل من الأرض ولا كالحيوان يأكل من غير أن يزرع ولا يحرث ولا يطحن كلا

ينكبّ الانسان على مايسدّ جوعه ويزيل مرضه ويأخذ فى أسباب العلم والرقى ويستغرق فى الهموم والأحزان بما ينتابه من الآلام أوالفقر أوالتنافس أوالكسل أوالعداوة أوالكبرياء أوالحسد أوالشره فهناك ينسى تلك النعم نسيانا حقيقيا . فيقول الفقير أنا أريد الغنى . والجائع أريد الخبز . والمظلوم أريد النصر ومن علا عليه أقرانه يريد أن يغلبهم . ومن شمت به أعداؤه يريد الفوز

وأضرب لك مثلا شابا عشق فتاة جميلة وامتنعت عليه فهل يفكر فى نعمة العقل والحواس والصحة والغنى والثروة والهواء والماء والأمة والأم والشمس والقمر . كلا . ثم كلا لايرى لله نعمة ولارحمة إلا أن يحظى بمعشوقته . كفاك هذا المثل وأنت تعرف أمثاله وأمثاله

فالانسان تحيط به الرحمات التى لاعدد لها ولكنه يحجب عنها حجبا حقيقيا بطمع أوكبرياء أوغفلة أوظلم

يكون للانسان آلاف من الجنيهات فيحسد من زاد عليه ألفا واحدا وينسى آلاف الآلاف من النعم ومن النقود ومن الصحة والبنين والأصحاب والخلان ويعترض على خالق هذا العالم الذى جعل له رجلا يشاكله واعتلى عليه . هذا هو مثل الناس فى بدوهم وحضرهم . فأين رحمة الأب أورحمة الأم من أرحم الراحمين ولكن الشهوات وأنواع الغضب وأخلاق السوء وما أشبه ذلك أصبحت حجابا كثيفا بين الناس وبين الاحساس بالنعمة والرحمة

﴿ الحجاب المضروب بين الناس وبين رحمات الله ﴾

رأيت من هذا البيان أن الناس جميعا فى رحمات لاتعدّ بآلاف الآلاف ولاحصر لها وهى مشاهدة ملموسة مسموعة مشمومة مذوقة قد غرق الناس فيها ولكنهم لايحسون بها ـ إن هم الا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا ـ وجعلنا من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لايبصرون ـ وها أناذا أريتك السدّ ببصيرتك فهذا السدّ أنواع كثيرة جدّا كسدّ الحرص والشره والحقد والحسد والجهل والغفلة

يعيش الانسان ويموت وهو لايدرى أن له جسما وأن هذا الجسم نعمة ولايعقل أن ذلك كله فضل من الله ومنة . فمن عجب أن تحيط بنا سدود ولانراها وتلك السدود تحجب عنا جمال هذه المخلوقات فالعيون مفتحة ولكن لاتبصر وذلك لتلك الحجب التى شرحناها . انما مثل الناس فى الدنيا بالنسبة لما حولهم من النعم كمثل العمى والصمّ الذين أمامهم الصور الجميلة وحولهم النغمات الشجية البديعة والأوّلون لايستلذون بالمبصرات والآخرون لايشعرون بالنغمات فلافرق بين حاسة لم تخلق وبين حاسة مخلوقة عليها غشاء حسى أو معنوى . هذه المعانى مقتبسة من أوّل هذه السورة أى من قوله تعالى ـ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون ـ

بين الله هناك أن الناس أعطوا معايش وقليل منهم شاكرون وبين مجمل تلك النعم بالخلق والتصوير ثم أبان موانع الشكر كعدم الاعتراف بالنعمة أوجهلها أوعدم استعمالها فيما خلقت له فذكر عصيان ابليس عن السجود واستكباره بأصله النارى الذى هو القوّة الغضبية السارية فى أكثر الناس فهم أشبهوه من هذه الناحية وحجب عنهم الاحساس بالنعمة وانحصرت قواهم فى الغلبة والحسد والشهوات والتنافس فنسوا سائر النعم إلا ماحبست عقولهم فيه من الترهات . ثم انظر كيف يقول ابليس مشيرا لما قررناه انه أقسم أن يغوى بنى آدم فلا يكون أكثرهم شاكرين . ألاتتعجب معى هذا العجب أن تكون الآية التى نحن بصدد الكلام عليها قد ذكر فى أوّل السورة معناها وبين مغزاها . يقول الله هناك انه مكن بنى آدم فى الأرض

وقليل منهم شاكرون . ثم أعقب ذلك بقصة خلق آدم وتصويره ويتبع ذلك جميع النعم ثم كيف قفى على ذلك بقصة ابليس الذى حلف أن يغوى أبناء آدم حتى لايكون أكثرهم شاكرين فردّ العجز على الصدر الذى هو نوع من أنواع البديع الذى يفرح به أطفال العلم فى الأمم الاسلامية المتأخرة وقد جهلوا الحكمة المخبوءة ومنها ماذكرناه أن الكبر والحسد والحقد والحرص والشره وأمثالها هى الحجب التى أسدلت على عقول الناس باغواء الشيطان الذى حلف أن أكثرهم لا يكون شاكرا وذلك أن الشكر لايكون إلا بالاحساس بالنعمة ولا احساس بها مادام المرء مشغول الفؤاد بما يهوى من مال أوولد أوصيت كاذب أوفتاة حسناء

فكل هؤلاء متى فتنوا بما أحبوا فانهم لامحالة ينسون جميع النعم لأنه حيل بينهم وبينها بسدّ كثيف قوىّ متين فلا يكونون شاكرين

﴿ من هم الشاكرون لله ﴾

اعلم أن الانسان لايشكر النعمة إلا بأحد أمرين ﴿ الأمر الأول ﴾ منع النعمة عنهم كما ترى الفقير والمظلوم والجائع والظمآن وذا الشبق والذليل والمريض . فمتى اغتنى الفقير وجبر كسر المظلوم وأكل الجائع وشرب الظمآن وتزوج ذوالشبق وعزّ الذليل وشفى المريض . أقول متى نال هؤلاء مامنع عنهم شكروا ربهم

قد يعيش المرء عشرات السنين وقد أعطى مالا وولدا ولكنه لايحمد الله على شئ منها لأنها لم تنزع منه حتى يعرفها ويرى الفقير بجانب منزله نال كسرة بعدجوعه فيحمد ربه حمدا كثيرا وذلك يسخر منه ويستهزئ

واعلم أن هذا الشكر ضئيل أشبه بشكر العبد الذليل الذى اعتاد سيده أن يضربه فمتى سكت عنه حمد سيده على هذه النعمة أى نعمة العفو عنه . وانما الشكر الحقيقى فما يأتى من الأمر الثانى وها هوذا

﴿ الأمر الثانى ﴾ دراسة هذه الدنيا ونظامها وقراءة علوم هذا العالم والالمام بمجملها والبحث فيها وذلك هو المسمى (علم ماوراء الطبيعة) ولاتظنن أن هذه الكلمة على حقيقتها بل ما وراء الطبيعة معناه العلم الذى يشمل الرياضيات والطبيعيات أى العلم الذى لايختصّ بأحدهما فالبحث فى نظام الكائنات العام منه وقراءة المقولات وتقسيم العلوم منه . وهذا التفسير أشبه بهذا العلم لأن مباحثه عامة . فليس معنى ماوراء الطبيعة غير ذلك ويدخل فيه علم الأرواح والبحث فى وجود الله والرسل وما أشبه ذلك

قلنا فيما تقدّم ان الانسان يعيش عشرات السنين وهو فى سجن شهواته وغضبه فلايرى جمالا ولانعمة ولارحمة وقد يتمنى الموت كما قالت مريم ـ ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ـ فلما كلمها عيسى وهوطفل وأفهمها أنه رسول الله سرى عنها وعرفت أن هذه المصيبة والفضيحة والخزى لادوام لها وأن الشرّ الدنيوى يعقبه الخير الأخروى والسعادة الأبدية بالمنافع العامة للناس

هكذا خلق الله فى نوع الانسان أناسا اصطفاهم واختارهم فهم يدرسون هذا الوجود ولهم يتجلى الوجود على ماهو عليه على قدر الطاقة البشرية ويدركون جماله . وهم وان انتابتهم المصائب وحلت بهم النوائب كسائر الناس فان فى بواطنهم بواعث السرور والجذل والفرح بالحكمة التى هى جمال لاينضب وذخر لاينفد فيذهب عنهم الحزن فى الدنيا . وكلما أصابهم غم أوهم أشرق عليهم ذلك النور فهم دائما فى حبور وسرور واشراق ونور وجمال وبهاء . ومامثل هذه الطوائف إلا كمثل السمع والبصر فى الانسان كلاهما مدرك لما بعد عنه . أما بقية الناس فانهم أشبه بحاسة اللمس والذوق فهما لايدركان غير الملامس . أما هذه الطائفة فان بصائرها مفتوحة لجمال هذا العالم فأدركت الرحمة فى الهواء وفى الماء وفى النبات وفى السماء . ولايحجبهم تراكم النعم عليهم بل هم يخترقون تلك الحجب ويهجمون على الحقائق ويقتلونها بحثا وتنقيبا حتى تظهر واضحة كالشمس فى رابعة النهار . وكما سرى عن مريم بما سمعت من صوت ولدها أنه رسول وانه برأها كذلك يذهب السوء عن هذه الطائفة الشاكرة بما يلهمون فى قلوبهم من جمال الوجود وبهجته

وأن الذل والشر يعقبان عزا وخيرا ويرون الصبر نعمة عظمى يشير لذلك قوله تعالى ـ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة الخ ـ فهؤلاء المتقون المنفقون أموالهم هم الذين فتحت بصائرهم للنظر فى هذا الوجود وهم هم الشاكرون حقا

وهنا يرد هذا السؤال فيقال لم عذب الناس عند الموت بنزع الروح أليس ذلك شقاء للصالح والطالح على سواء بل الخوف من الموت شقاء ملازم • أقول هذا السؤال لا يرد بعدما بينا أن الناس فى سجن من الجهالات والأخلاق ولو أن الناس قرؤا العلوم لأدركوا أن الموت لا ألم فيه ألبتة بل هذه خرافة مثل قصص العجائز • وانما الألم كما قلنا راجع للحجب المسدولة على العقول وهذه يعوزها التربية والتأديب الالهى • ولقد قال علماؤنا المتقدمون كالامام الغزالى أن الموت لا ألم فيه وانما الألم الوارد فى الأخبار راجع الى التحسر على فراق الدنيا لقلة العلم كما تقدم فى قول ابليس ولا تجد أكثرهم شاكرين • ولأختم هذا المقام بما خبرته بنفسى وقرأته فى الكشف الحديث استئناسا للمقام فأقول

كان بوزارة المعارف أحد المستخدمين وكانت علاقتى به أنه تلميذى فغاب عنى شهورا ثم تصادف أن قابلته معاتبا فقص على قصص ما انتابه إذ سقط على افريز الطريق (الرصيف) المرصوف بالحجر وهو يريد ركوب قطار الترام فزلقت رجله فخر صريعا قال ولم أعلم بنفسى إلا بعد أيام وأخبره الطبيب أنه منذ أيام لم يذق طعاما وأن رأسه مربوط لجرح بسيط فى جلدة الرأس ثم بعد أسابيع شفى تماما فقص عليه الحقيقة فقال انك قد كنت كالميت ورأسك كان مشدوخا ولو أخبرتك لأضر ذلك بك • فقلت له ما الذى أحسست به حين وقعت على رأسك • فقال لم أحس بألم البتة وانما أحسست بأنى قد خف جسمى ثم لم أع بعد ذلك شيأ اهـ

هذا ما عرفته بنفسى • فأما عذاب النفس بعد الموت فذلك ناشئ من نقص العقول والأخلاق فهاك ما نصه الأطباء فى أوروبا أيام طبع هذا التفسير فقد جاء فى بعض جرائدنا المصرية ما يأتى

على عتبة الأبدية

﴿ بماذا يشعر الانسان عند الاحتضار ﴾

نشر أحد الأطباء الانجليز مقالة فى احدى المجلات العلمية أثار بها اهتمام الرأى العام ودعا الأطباء الى القيام بمباحث واسعة النطاق لمعرفة ما يشعر به الانسان فى دقائقه الأخيرة على هذه الأرض وذلك لتجريد الموت من كل ما يلقى الهلع فى النفس ولاثبات أن دخول المرء فى دور الاحتضار لا يصحبه شئ من مسببات الفزع على الاطلاق • ومن رأى الطبيب المذكور أنه متى عرف المرء هذه الحقيقة لم يبق للخوف أثر فى نفسه

ان العلم لا يعرف عن الموت حتى الآن إلا النزر اليسير • والأطباء وان كتبوا المجلدات الضخمة عن الولادة وفن التوليد فان ما كتبوه عن الموت قليل تافه لا يشفى الغليل • ذلك لأن الموت لا يزال سرا مبهما

ترى بماذا يشعر الميت وهو فى حشرجة الموت يحاول أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهل الموت أمر بسيط كالولادة أم هو مصحوب بالهلع بما يتمثل للمرء من ظلمة القبر ووحشة الأبدية • ان معظم الذين يعول على آرائهم يجمعون على أنه متى حضرت المرء الوفاة زال كل أثر للخوف • وفى الواقع أن معظم الناس يموتون بالسهولة التى يستغرقون بها فى سبات عميق ولا يشعرون بشئ من القلق • وبعض الناس ينظرون الى الموت وهم فى ساعة الاحتضار كأنهم على سفر الى عالم جديد • أما الذين يعانون الآلام المبرحة فانهم يرون فى الموت انقاذا لهم من تلك الآلام • والمظنون أن قليلا جدا من الناس ينزعجون أو يصابون بالهلع متى حضرتهم الوفاة

قال الدكتور (فيليب انمان) مدير مستشفى تشارنج كروس بلندن • لقد رأيت المئات من الناس فى ساعة احتضارهم وقلما رأيت على أحدهم شيأ من علامات الهلع ولست أعتقد أن المرء يشعر بالخوف متى دخل

فى دور الاحتضار ولعل أبلغ حادث خبرته بنفسى من هذا القبيل ماوقع لشاب فى السابعة والعشرين من عمره دخل المستشفى وكان على أهبة الزواج قبيل مرضه ببضعة أيام ويظهر انه كان قد عين فى وظيفة خارج انجلترا ولكن مرضه الفجائى حال دون سفره ونظرا الى اشتداد وطأة المرض عليه لم يبق أمل فى شفائه فاضطررت أن أخبر خطيبته التى كانت تحبه ويحبها حبا يقرب من العبادة وليس ذلك فقط بل كان من الواجب على أن أطلعه هو نفسه على حقيقة حاله لكى يكون مستعدا للموت وقد قمت بذلك الواجب المؤلم على ألطف وجه فأخذ يصيح صيحات مؤلمة قائلا كلا . كلا لا أريد أن أموت ويلاه لا أريد أن أموت وكان المشهد مؤثرا للغاية وظل ذلك الشاب فى اضطراب عظيم مدة يومين متواليين ولكن فى اليوم الثالث طرأ عليه تغير عظيم إذ هدأ ثائره وانقطع عن الصراخ ولما قابلته رأيت أعصابه هادئة فقال لى بكل هدوء ورباطة جأش إن أبى توفى لما كان عمرى ثلاث سنوات وتوفيت أمى منذ أربع سنوات وكنت بعد وفاتها أتمنى الموت كثيرا الى أن تعرفت بخطيبتى فزالت عنى كآبتى وعزمت أن أبدأ الحياة من جديد وها أنا ذا الآن على أهبة الرحيل من هذا العالم وقد اعتدت فكرة الموت فلم يبق للخوف أثر فى نفسى . على أننى أجهل ماهو المكان الذى أنا ذاهب اليه وهل يتاح لى أن أرى أمى وأبى هناك . قال الطبيب وقبل وفاته بنحو ساعتين استدعى الممرضة وطلب منها أن تضىء الأنوار الكهربائية لأنه لا يبصر . فقالت له الممرضة ولكن الوقت نهار ونور الشمس يملأ الغرفة فقال لها ان الظلام حالك ولست أبصر شيأ فلم يسع الممرضة إلا أن تجيبه الى طلبه وظلت الأنوار الكهربائية مضيئة فى غرفته الى ماقبل وفاته ببضع دقائق فنادى الممرضة وقال لها الآن يمكنك أن تطفئى الأنوار لأننى أبصر ولأن أمامى منظرا ساطعا جميلا

ومن الامور التى تكاد تكون مؤكدة أنه مهما يكن الموت مفزعا لنا نحن الأحياء فانه يفقد كل مافيه من أثر مفزع فى ساعة الاحتضار . ولقد ثبت أن الكثيرين يقولون فى دقائق احتضارهم انهم يسمعون ايقاع القيانير وأصوات الموسيقى المطربة . ويقول غيرهم انهم يرون مناظر بديعة لم يروا مثلها فى حياتهم . ومنهم من يبسطون أذرعهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة كأنهم يستقبلون أشباحا تبدو لهم

ومن رأى السر (اربوتنت لاين) وهو من مشاهير الجراحين الانجليز أن الخوف من الموت ينتفى بتاتا فى ساعة الاحتضار . وهذا رأى معظم الأطباء فى الوقت الحاضر فالموت لا يخرج عن كونه حادثا طبيعيا ولاشك أن الكثيرين من الشيوخ الذين شبعوا من الحياة وعانوا أحزانها لا يزعجهم الموت مطلقا بل قد يرحبون به من كل قلوبهم

وقال السر لاين المشار اليه . انه فى معظم حوادث الوفاة التى شهدها كان الموت أشبه بالاستغراق فى سبات عميق وهو غير مصحوب بما يلقى الهلع فى النفس واذا كان العلم يسعى لتسهيل عملية الولادة فلماذا لا يسعى لتسهيل عملية الموت وتجريدها من عوامل الهلع والفزع . وفى الواقع أن الموت أسهل بكثير مما تصوره لنا المخيلة . فان الكثيرين ممن كانوا على وشك الموت ونجوا بأعجوبة يشهدون أنهم لم يشعروا بشئ من الهلع وأن حاسة الخوف انتفت منهم عندما شعروا بدنو دقائقهم الأخيرة

يروى عن المستر (باربيليون) من كبار مؤلفى الروايات أنه مرض مرضا لم يكن يرجى له منه الشفاء فلما علم بدنو أجله أظهر شجاعة غريبة إذ قال « إن الموت لا يخيفنى على الاطلاق لأن الحياة قد أصبحت عبأ ثقيلا بل أنا أتمنى الموت بسرعة لأرى ماوراء هذا الأفق ومن هم الذين سأقابلهم فى ذلك العالم . انى أرى الموت كالاستغراق فى سبات هادئ »

وكتب المستر (بريكس) الكاتب الشهير ما كان يشعر به فى دقائقه الأخيرة وهذا بعض ما كتبه « اذا كان الموت حالة من حالات عدم الشعور كما أعتقد فأحسن مايستطيع المرء عمله متى حضرته الوفاة

أن يقنع نفسه بأنه عما قليل سيستغرق فى سبات هادى لاتزعجه فيه الأحلام ولاتقلقه الأشباح • واذا كان ثمة عالم آخر وراء هذا الأفق فما أسعدنا إذ سنلاقى جبابرة الأجيال الماضية مثل (أفلاطون وأرسطو وسقراط وشكسبير وغيرهم) • اه

وقد شهد جميع الذين كانوا يزورون هذا الكاتب فى دقائقه الأخيرة أنه كان بشوشا يشير الى قرب وفاته بشجاعة غريبة حتى لقبه الناس بعد وفاته بالميت الشجاع

ويروى عن (المس كافيل) الممرضة الانجليزية التى حكم الألمان عليها بالاعدام فى زمن الحرب أنها أظهرت شجاعة فائقة كأن الموت حادث اعتيادى • ولما زارها الكاهن قبيل اعدامها بدقائق أكدت له أنها لاتخاف من الموت لأنها رأت الكثيرين من الأبطال يموتون أمام عينيها فى ميادين القتال • وقد دهش جميع الذين حضروا اعدامها من الشجاعة التى أظهرتها حتى آخر نفس من أنفاسها

والخلاصة أن آراء معظم الكتاب والعلماء مجمعة على أنه عند ماتحضر المرء الوفاة يفقد الموت كل مافيه من أثر الرهبة والهلع اه

هنا أقف أيها الذكى معك وقفة وأخاطبك بما وقر فى نفسى • أقول لك ان هذا القول الذى يذيعه أطباء أوروبا والذى قلته أنا كلام اقناعى ليس يقينيا ولكن هو الذى يوافق حكمة الحكيم ورحمته فهو يعطينا صورة من رحمته • وأقول لك ولا أخشى لومة لائم ان هذه الصفة هى التى أعتقدها فى صانع هذا العالم والا فبالله كيف نراه يسير على وتيرة واحدة فى نظامه • نراه ألهم الناس فأعدّوا أطباء للولادة وهناك القابلات لتسهيل خروج الولد من الرحم • هكذا نراه عمم ذلك فى أصغر الحشرات • ألم تر الى ماستقرؤه فى سورة النمل فانك ترى هناك فيما نقلنا عن كتب الفرنجة بطريق الترجمة أنهم شاهدوا النمل قد خصصت طائفة منها لنزع اللفائف عن أولادها الصغار (وذلك) أن النمل تضع بيضها والبيض يكون دودا ثم يصير (قيلجة) أى كرة صغيرة محوطة بخيوط حريرية تنسجها الدودة النملية على نفسها كما يفعل دود القز ثم بعد أيام تنبت لها أعضاء الحركة فتستعدّ للخروج فترى النملات الكبيرات المعدّات لذلك يساعدن الصغار ويجاهدن حتى تفك الربط الحريرية • أليس هذا بعينه هو ماتفعله القابلات عندنا وأطباء الولادة • أنا لا أشك أن الله تعالى جعل هناك عالما روحيا لمقابلة الأرواح عند خروجهم من الحياة جريا على عادته أن قانون الله فى الحياة والموت لايتغير فهو يرحم المولود ويرحم الميت • فسبحانه من إله عظيم • واياك أن يصدّك عن هذا مسالة المعاصى والكفر فان هذا يحتاج الى تطويل ولكن يكفيك الساعة أن أقول لك فائدتين (الفائدة الأولى) اعلم أن الامام الغزالى يقول كما نقلناه عنه فى كتاب (الأرواح) ان العذاب أوّلا يكون بسبب الشهوات ثم بعد أمد يكون على الذنوب ثم بعد أمد يكون على الجهل • ولاشك أن الجهل يدخل فيه الكفر ثم بعد ذلك يكون عذاب النار (الفائدة الثانية) اننا نرى الله يخلق الصبيان وقد سوى بينهم فى أن القابلات مستعدّات للجميع فلاتفرقة بين الأغنياء والفقراء من حيث العموم ثم بعد ذلك يمتاز الأطفال فى حياتهم على حسب درجات آبائهم وأممهم وهكذا • والموتى جميعا يخرجون من الدنيا فيختلفون بعد الموت بحسب أعمالهم وأخلاقهم كما اختلف أبناء الأغنياء والفقراء قال تعالى ـ ولكل درجات مما عملوا ـ

وان كان الجميع قد ساعدتهم القابلات مع العلم بأن ابن الزانية تقابله القابلة وهى مشمئزة • هكذا الفجار يقابلهم العالم الروحى وهو معرض عنهم هذا معنى قوله تعالى ـ ورحمتى وسعت كل شئ ـ والحمد لله رب العالمين

(زيادة ايضاح فى قوله تعالى ـ ورحمتى وسعت كل شئ ـ أيضا)

(حكمة بالغة فى جوهرة ناضرة)

حدّثنى أحد الصلحاء الأذكياء قائلا مايأتى

كثيرا مايختلج فى صدرى قوله تعالى - ورحمتى وسعت كل شئ - بعدقوله - عذابى اصيب به من أشاء - فكيف نعتقد أن الرحمة عامّة اعتقادا صادقا وأنت لوتنشت فى القلوب لوجدتها مطابقة على التألم من هذه الدنيا التى حوت الحرب والمرض والطاعون وأنواع الحمى والجدرى ونقص الأنفس والأموال والثمرات والبرد القارص القاتل . فأين هذه الرحمة وانى أتمنى أن أقف على هذه الرحمة الواسعة حتى أفرح بها . و ياليت شعرى لماذا نزل هذا فى القرآن بل كيف يكلفنا الله بالمستحيل . ألم يرد لنا فى الحديث الصحيح أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن نؤمن بالقدر خيره وشره من الله . فهذا صريح فى أن الله عنده خير وشرّ فأين سعة رحمته إذن . وترانا نقول فى قنوت الصبح كل يوم ﴿ فلك الحمد على ماقضيت ولك الشكر على ماأنعمت به وأوليت ﴾ اذن نحن نحمد الله على القضاء عامة أى على الخير والشرّ وكيف يكون الحمد على الشر ولاحمد إلا على نعمة . أما النقمة فكيف نتصوّر الحمد عليها . يظهر لى اننا نعيش فى جوّ من الجهالة ونلوك ألفاظا لاندرك معناها . وعجبى للديانات كلها انها فى هذا المعنى متشابهات . ومامثل الناس فى ذلك إلا كمثل عبيد العصا يحمدون ساداتهم خوفا من أذاهم لا حبا لهم

﴿ الاجابة ﴾

فقلت له اعلم ان هذا المقام بسطته فى سورة آل عمران عند قوله تعالى - بيدك الخير انك على كل شئ قدير - ففيه هناك ما يكفى ذا اللب . وقد أبنت لك هناك أن ما أذكره فتح باب للبحث وأن اليقين انما يأتى من طريق البحث والتنقيب وقراءة آراء الأمم وعدم التعصب لرأى خاص ورجوع النفس الى الله والذكر والفكر . واعلم أن الله عزّ وجل ماذكر هذا فى كتابه ولا على لسان رسوله ولا فى دعاء الصلاة ولا فى الفاتحة إذ كرر الرحمة فيها أربع مرات إلا ليحفزنا الى درس هذا الوجود ويحثنا على دراسة هذه الكائنات التى نعيش فيها فان هذه الشبهة التى وردت عليك لم تخلق فيك عبثا وانما خلقت لحكمة وهى حثك على الجدّ والمثابرة فى البحث حتى تدرك ببصيرتك سرّ الموت والحياة والمرض والأرزاء ومتى أدركت ذلك اطمأنت نفسك لهذا الوجود وعرفت مايدل على هذه الحكمة . ليس فى الامكان أبدع مما كان

فقال ذلك الصالح الذكى أنا لم أقرأ ما كتبته أنت فى سورة آل عمران ولم أدرس كتب الفلاسفة ولم أنل حظا عظيما من الذكر فهات لى لمحة تفتح لى باب النظر وعجالة يكون فيها المبتدأ والخبر بحيث يفهم العامة والعلماء والخاصة والجهلاء ولا يكون لها سابق ذكر فى هذا الكتاب . فقلت ان جميع مانقاسيه فى هذا الوجود أشبه بما يقاسيه المريض من الطبيب . فكم من مريض بسم له الدهر بالطبيب فسقاه المرّ ومنع عنه زيارة الأصدقاء وحماه من اللذات والشهوات وبتر منه بعض العظام والعضلات . فهل ذلك لنكاية فيه أم لاهتمام به انما الآلام مبدأ الرحمات وباب النجاة . ان طبيعتنا أرضية وأحوالنا حيوانية فالتأديب بالتعليم والحوادث مرهفات لعزائمنا مقوّيات لنفوسنا حتى نرجع الى عالمنا الأعلى ومامثلنا فى ذلك إلا كمثل ماء البحر الملح سلط الله عليه الشمس فجعلته بخارا فصار فى الجوّ سحابا فنزل على الأرض مطرا فجرى فى مجارى مختلفات فاجتمعت تلك المجارى فكوّنت نهرا فجرى النهر الى البحر - كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا - فرجعت القطرات الى أوطانها فرحات بأهلها . هكذا هذه الأرواح جاءت لهذا العالم وذاقت حلوه ومرّه ثم رجعت الى عالمها . وان أردت ضرب أمثال للشرّ يكون هو نفسه خيرا فهاك هذه الحوادث

﴿ الحادثة الأولى ﴾

عملية جراحية أورثت الشفاء فى السمع والنطق . ذلك أنه فى أيامنا هذه كان رجل يسمى (أرنست باباج) مغرما بالملاكمة والمباراة فيها وبينما هو يلاكم مرة أصيب بلكمة فى عنقه فجعلته أصم أبكم وبقى هكذا مدّة عامين ومنذ أسابيع من كتابة هذه المقالة التى أكتبها الآن قبيل فجر ليلة ٤ يناير سنة ١٩٢٧ دخلت شظية

فى أحدى أصابعه فقصد طبيبا جراحا لاخراجها لأن أصبعه التهبت فكانت العملية شديدة الصعوبة قاسية الألم فلما أن أخرج الشظية شفى تمام الشفاء من المرضين معا فقابله أحد رفاقه فأراد أن يأخذه من ذراعه فصرخ قائلا (دعنى وحدى فانى بخير الآن) فهذه العملية أعادت له حاستى السمع والبصر . انتهت

ان ماتذوقه فى الدنيا من الألم لعله أشبه بآلام هذا المريض عند استخراج الشظية من أصبعه وانفتاح البصيرة لمعرفة جمال هذه الدنيا الموصدة أبواب علومها أمامنا أشبه بما حصل له من شفاء سمعه ونطقه

﴿ الحادثة الثانية ﴾

أن رجلا أعمى أخرس من قرية فى مقاطعة (نورثمبتون شير) قصد طبيبا فقرر له عملية فى عينيه وهو لايثق برجوع حاسة البصر له وبينما هو ينتظر الجراح وهو يحضر مشارطه إذ سقط على الأرض وعند النهوض وجد نفسه قادرا على الكلام . انتهت

﴿ الحادثة الثالثة ﴾

أن رجلا أعمى جىء به الى مستشفى فى مدينة (برمنجهام) لاجراء عملية جراحية له فى دمل بالمخ كان يهدد حياته فنجحت العملية نجاحا فوق مايصفه الواصفون إذ شفى من الدمل وعاد اليه بصره

﴿ الحادثة الرابعة ﴾

روت مجلة (اللانسيت الطبية) أن رجلا فى الثلاثين من عمره أجريت له عملية (الكاتاركت) فى عينيه بمستشفى الرمد فى مدينة (جلاسجو) وكان ولد أكمه لم يشهد فى الدنيا شيأ فنجحت العملية وعادت له حاسة البصر التى لم يعرفها قبل ذلك

﴿ الحادثة الخامسة . من عجائب حسنت الخلق ﴾

فى سنة ١٩١٤ كان رجل مجرم اسمه (سيزيكلى) فى سجن الحكومة بولاية (بنسلفانيا) فاصيب باصابة قوية فى رأسه فعطبتها عطبا شديدا والجمجمة كانت اصابتها خطرة فأسرع طبيب السجن وأسعفه بالعلاج فأنقذ حياته وهناك حصل مايدهش الأبصار . ان سيزيكلى كان رجلا متوحشا قاسيا يدخل الرعب على نفوس رفقائه المسجونين فلما انتهت هذه العملية حتى تبدل خلقه وصار ذكيا نشطا رحيما مطيعا فرحا مساعدا للسجانين والمسجونين ولله فى خلقه شؤن . اه

﴿ الحادثة السادسة ﴾

وقع لصبى فى الخامسة عشرة من العمر يسمى (حبيسى بيرد) وله نزعة قوية فى الاجرام فأصيب يوما بجرح فى رأسه فلما أجريت له عملية جراحية تبين أن فى رأسه قطعة عظم ضاغطة على المخ فلما رفعت هذه القطعة صار الصبى ذا خلق جميل وهو فرح مسرور اه

﴿ الحادثة السابعة ﴾

حدث فى بلادنا المصرية منذ ثلاثة أعوام أن قرويا فى بلدة (طلخا) أصيب بفقد بصره ولم ينفعه علاج وباع فدانين من أرضه لنفقات العلاج بلاجدوى . واتفق يوما أن جلس فى بار (قهوة) فى بلده ولما فتح عامل القهوة (الجرسون) زجاجة الغازوزة لأحد الجالسين طار سداد الزجاجة فأصاب أنف الرجل الأعمى المذكور فسقط الدم من أنفه كما يحصل فى الفصد فعاد للرجل بصره فى الحال * قال الشاعر

من يعتصم بالله العرش يحفظه * فهو الحكيم يداوى الداء بالداء

أليست هذه الحوادث تمر على الجهال مر النسيم على الحصباء والصرصر على الفضاء . أخلاق تبدلت وأسماع وأبصار شفيت بأعمال جراحية . لعل حياتنا كلها عملية جراحية تشفى نفوسنا من أمراض فيها لاندريها . فاذا جهلنا نحن كما جهل أطباؤنا جميعا فى الأرض أن مرض العين فى الحادثة السابعة مثلا يشفيه

فصد فى الموضع المعين من الأنف . وأن المجرمين فى الحادثة الخامسة والسادسة يكفى لتحسين خلقهما عملية فى رأسيهما مع ان علم الطب قد تقدّم فى زماننا تقدّما عظيما وقطع دابر الأمراض العامّة وأثر أثرا محسوسا حتى كثر نوع الانسان على الأرض . أقول اذا جهل أطباؤنا ماذكر فى أجسام انسانية حاضرة لدينا فان ذلك يدل دلالة قاطعة أن هذه الأجسام وهذه العوالم مكتظة بالعلوم والرحمات مملوءة حكمة ونورا وأسرارا وأن الله يحدث أمثال هذه النوادر ليقول لنا ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ جدّوا وابحثوا فلن تصلوا الىّ حتى أطلعكم على حقائق رحماتى . وما أنتم اليوم إلا كسمك فى البحر والرحمة أشبه بالعوالم المائية والهوائية فأنتم لاتعرفون من رحماتى إلا كما يعرف عالم السمك عن عالم الأرض والهواء من نبات وحيوان وطير ولن يكون يقين إلا بالجدّ فى التهذيب ودراسة العلوم جميعها شرقية وغربية . فاذا قال المسلم رضيت بالله ربا . واذا قال آمنت بالقدر خيره وشرّه من الله فان ذلك يسوقه الى أن يتبع الايمان بالعلم ان استطاع الى ذلك سبيلا . ومتى درس النظام جاءه اليقين . واليقين هو المقصود من هذا الوجود وهوالذى أعطاه الله لابراهيم الخليل عليه السلام كما تقدّم فى سورة الأنعام إذ أراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين واذ أمر بتشريح الطيور فشرحها وقطعها ثم أحياها الله وذلك اشارة لعلم الكيمياء الذى يدل على حسن النظام والترتيب وقد تقدّم هذا فى سورة البقرة بايضاح أوفى فراجعه ان شئت . فاذا كان الخليل يطلب من الله اطمئنان القلب فطمأنه باليقين بعلم الكيمياء فى البقرة وعلم الفلك فى سورة الأنعام فهذا أمر لى أنا وأنت أن ندرس هذه العلوم اذا قدرنا لأن نبينا ﷺ أمر أن يتبعه إذ قال تعالى ـ فبهداهم اقتده ـ وأمر النبى أمر لأمّته . وما ألطف قوله ﷺ ﴿نحن أحقّ بالشك من ابراهيم﴾ كأنه يدعونا نحن أن نقول ذلك و بذلك نجد فى العلوم فرجعت هذه الآية الى تقوية المدارك العلمية فى البلاد الاسلامية

ان عذاب الدنيا والآخرة مرجعه الجهل بنظام هذا الوجود . ان الله خلقنا للعلم والعمل وكل مانعانيه فى الدنيا مفتاح للعلم حتى ان مصائب المسلمين اليوم مفاتيح لرقيهم ولولاها لصادروا أمثال هذا التفسير الذى صرّح بامور قد كفر بأقل منها المسلمون العلامة ابن رشد والغزالى وابن سينا والفارابى راجع ذلك فى سورة الأنعام تحت عنوان ﴿ برزخ بين بحرين ﴾ بل لولاها لم يكن هذا التفسير . إن مثل ماأصيب به المسلمون اليوم من الضنك واذلال الفرنجة لهم كمثل تلك العمليات الجراحية التى عملت فى ﴿ الحوادث السبعة ﴾ الآنفة الذكر فشفت أبصار المرضى وأبرأت أصمهم من حيث لايعلمون . ان الانسان لايزال معذبا على مقدار جهله وكلما زاد علما بهذا النظام العام أدرك الرحمة ففرح . ان جهنم دار خلقها الله لمن لايعقلون . ألا ترى الى قوله تعالى ـ وقالوا لو كنا نسمع أونعقل ما كنا فى أصحاب السعير ـ وقوله ـ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما وصما مأواهم جهنم الخ ـ ومن تتبع هذا التفسير أرجو أن يكون له فيه سداد من عوز والحمد لله رب العالمين اهـ

فلما سمع ذلك (ذلك الصالح) قال هذا حسن ولكن الاحسن من هذه النوادر أن أسمع منك أمورا فى نفس الطبيعة المشاهدة حتى نرى بأنفسنا أن الرحمة فى المصائب فعلا أما هذا الذى قلته فانما يتجلى بالاستنتاج فقلت سل مابدا لك . فقال ما الفوائد الناجمة من شدّة البرد ومن تغطية الأرض بالثلج فى الأقطار الباردة فاذا عرفنا أن الحرّ فى الأقطار الاستوائية يهيج الأرض بالنبات والروائح العطرية والأزهار البهجة والجمال والغابات والنعم العظيمة فأىّ فائدة فى شدّة البرد وفى كثرة الثلج للأراضى الباردة المسكونة بالانسان والحيوان (فقلت أماشدّة البرد) فانها تقتل الحشرات الفاتكة بالزرع وذلك عام فى بلادنا المصرية والبلاد التى اشتدّ بردها فتى أقبل فصل الشتاء غابت عنك الحشرات التى كنت تراها فى أرضنا مثل أبى دقيق والجراد وغيرها فهذه فاتكات بزرعنا فأهلكها الله ثم يخلق غيرها (وأيضا) البرودة تجعل فى الأرض قابلية لبذر الحب بما تفعله فى الطين

من التفتت . أما الثلج فى البلاد الثلجية فانه يغطى الأرض ليحفظ البذور والنباتات الصغيرة من سطوة البرد كما يحفظ الماء الذى تحته فى الأنهار من أن يصير ثلجا والا لمات السمك . فالثلج يحفظ نبات البر وسمك البحر . قال هذا والله عجب عجاب . فقلت إذن الثلج نعمة على الحيوان والانسان بحفظ البذر والسمك والنبات من البرد . والبرد نعمة فيقتل الحشرات و يصلح الأرض للزرع فسبحان الخلاق العظيم

فهنا إذن (١) حشرات تخلق لتنظيف الجوّ وذلك بأ كلها الرطوبات المضرّة بنا (٢) برد قاتل لتلك الحشرات (٣) ثلج مانع لذلك البرد القاتل أن يفتك ببذرنا وزرعنا الصغير (٤) ثم ضوء الشمس المزيل للثلج فيخرج نباتنا وينمو زرعنا ونعيش آمنين

جهل الناس هذا الجمال ففزعوا الى الروايات وأبرزوها بهيئة مسارح تسرّ الناظرين . ولوأنهم رأوا هذا الجمال لبهرهم . هذه هى الحكمة . حشرة نافعة فى امتصاص الرطوبة فمتى أتمت واجبها ضربها البرد فمتى أتمّ واجبه منعه الثلج أن يضرّ الزرع الصغير فمتى أتمّ واجبه برزت للشمس . هذا هو الجمال وهذا هو العلم

ومن هذا يفهم الناس معنى قوله تعالى ــ ورحمتى وسعت كل شئ ــ أنظر كيف وسعت رحمته . أنظر كيف كان ثلجه و برده وحشراته كلها مهلكات ولكنها لحكمة عامّة . فلما سمع صاحبى ذلك . قال هذا هو الذى يشرح الصدر . ولكنى أسألك سؤالا أهمّ من هذا . اذا كان الله هكذا رؤفا رحيما فلماذا يميتنا وهل هذا فعل الرحيم . فقلت هذا هو الذى أحبّ أن أكلمك فيه . اعلم أن الأطباء فى زماننا الحاضر فى أمريكا وأوروبا يجدون أن فى طاقتهم أن يطيلوا الأعمار و يزعمون أن هذا ممكن . وأنا أقول لك انه مستحيل ومستحيل أن تطول الأعمار كما يشتهون . نعم يعمر قوم على سبيل الندور والقلة . أما ان طول العمر يعم فى المسكونة فذلك لاسبيل اليه وذلك لأمرين ﴿الأوّل﴾ ان الناس لوعاشوا ألف سنة أوخمسمائة سنة مثلا وتناسلوا لأصبحت الأرض لاتسعهم أى لاتسع سكناهم وحدها فلايجدون مكانا يجلسون فيه فيبقى الابن وابنه الى الجيل العاشر أوالثانى عشر وهذا هو العذاب الأليم واذن يقتل الناس بعضهم بعضا ان عاشوا ووجدوا قوتا ومن أين يكون قوتهم إذن ﴿الأمر الثانى﴾ ان هذه المادّة التى نعيش فيها لوانها خصصت بنا نحن ولم نلد ولم نولد وعشنا أعمارا طوالا لكان ذلك خطلا وخطأ ﴿وذلك﴾ لحصر المنفعة فى عدد معلوم من المخلوقات . فأما الموت والحياة والحمل والولادة فان معناه تكثير الأحياء فيعطون بمئات الآلاف من الأجيال بدل جيل واحد . وأيضالوكنا جيلا واحدا على الأرض أزلا وأبدا فما الذى نأ كله . أليست الحيوانات والنباتات . ولكنا فرضنا أن الأحياء لاتتجدّد . فما الذى نأ كله بعدانقراض النبات والحيوان اللهم إلا اذا كان هناك ﴿نظامان﴾ نظام لنا بالخلود وعدم الموت ونظام للنبات والحيوان بالتجدّد وهوخطل فى النظام . فسبحان مدبر الكون ومبدعه

هذا معنى قوله تعالى ــ ورحمتى وسعت كل شئ ــ فلما سمع صاحبى ذلك قال كنى لقد أصبحت موقنا بسعة رحمة الله وعرفت أن أهل الأرض فى الشرق والغرب نائمون وأحببت مايحبه الله من حياتى الآن وموتى عند بلوغ الأجل وأيقنت أن أ كثرهذا الانسان غافل ساه ولوأنهم علموا مادار بيننا لم يكره أحدالموت . إن الله حكيم . ان الله رحيم . هذه هى النعمة . وهذه هى الرحمة . ان هذا هو العلم الذى تكون به سعادة النفوس وانشراح الصدور . بل هذا هو السرّ المصون والجوهر المكنون . والحمد لله رب العالمين . انتهى

﴿ شهود المناظر العجيبة فى محاسن الخليقة ﴾

أيها الذكى ها أنت ذا شاهدت معى منظرا ساحرا تخرّ له العقلاء للأذقان سجدا . قد شهدت هنا وفى مواضع كثيرة من هذا التفسير الذى جعله الله روضة من رياضه فيه جنات من نخيل وأعناب وفوا كه مما يشتهون . فها أنت ذا رأيت تلك الصور الساحرة . انها صورتمثيلية أوصورمتحركة (سينما) ان الطبيعة

أمام العقل الجامد جامدة وأمام العقول اللطيفة متحركة ساحرة باهرة جميلة المحيا . فانظر رعاك الله هذه المناظر فهنا طائفتان شاهد ومشهود ﴿ذلك﴾ أن الله عز وجل ألهم الناس أن ينشؤا فى الأرض محال للتمثيل تمثل فيها الروايات بالأشخاص فى المسارح المشهورة ومحال أخرى للصور المتحركة كما ذكرناه والنظار من الناس يشهدون . اذن الناس ﴿قسمان﴾ شاهد ومشهود هكذا هنا فى الحكمة . الناس فريقان مشهود وهم علماء الأمم فى اللغات كالنحو والصرف والمعانى والانشاء وفى العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك . وفى الطبيعيات كعلوم المواليد الثلاثية وكالكيمياء والطبيعة وفروعها

أما الشهداء لهذه المناظر العلمية فهم الحكماء والصديقون أولئك الذين يخلقون فى الأمم جيلا بعد جيل ويجيلون النظر فى تلك العلوم وينظرون اليها نظرة عامة كما ترى فى القرآن . فهؤلاء هم الشهداء أشبه بالنظارة فى المسارح العامة ومشاهد الصور المتحركة . هؤلاء نظرهم عام هم الذين يخلقون فى الأرض ليرشدوا الأمم لتلك العلوم ويهيؤهم للاصلاح وهم هم الأبرار الذين ـ يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ـ وهم ـ فى نعيم على الأرائك ينظرون * تعرف فى وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ـ وسترى تفسير ختام المسك والرحيق هناك فى الجزء الأخير من هذا التفسير . وستعلم أن ذلك يرجع الى الحكمة والعلم واليقين فهؤلاء شهداء على الأمم يجيؤن هنا الى الأرض وفطرهم مولعة بحب الاطلاع والاصلاح وهؤلاء هم الأبرار الذين قال الله فيهم ـ إن الأبرار لفى عليين وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم يشهده المقربون ـ فهؤلاء كتابهم فى عليين لأن علومهم وأنظارهم عامة . فأما أصحاب العلوم الخاصة كالفقهاء والنحاة والفلكيين والرياضيين فانهم مختصون بعمل فى المشهد العام ومسارح التمثيل فى الكون والأبرار هم الشهداء عليهم وهم الذين يعرفون كلا بسيماهم . وكتاب هؤلاء الأبرار يشهده المقربون من الملائكة عند الله تعالى لأن المقربين نظرهم كلى فهم يلاحظون هؤلاء المصلحين ويشهدون أعمالهم ويلهمونهم الخير فى الدنيا . ولن يشهد المقربون أصاغر الأمم الذين ليسوا مشرفين على العلوم العامة والنظام الكلى لأن كتاب أولئك الأصاغر ليس فى عليين فليس كليا . إن الأبرار والصديقين كتابهم فى عليين وهم من جهة أخرى مشهودون يشهدهم المقربون وهؤلاء هم الذين جاء فيهم قوله تعالى ـ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ـ فالناس مختلفون ولكن هذه الطائفة من المفكرين هم الذين رحمهم ربك وانما رحمهم لأن نظرهم عام وبه فهموا الرحمة العامة التى فى هذه الآية ـ ورحمتى وسعت كل شئ ـ وهؤلاء الأبرار هم من الذين يشملهم قوله تعالى ـ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ الى قوله ـ وأولئك هم المفلحون ـ . .

انى أرجو أن يكون هذا التفسير وأمثاله نواة صالحة لانشاء فئة من المفكرين فى الأمم الاسلامية يكون مشربهم على نمطه فيكونون هم الأبرار وهم الصديقون وهم الشهداء على الناس وتشهد كتابهم الملائكة وهم الذين رحمهم ربك لأنهم يتحدون . وباتحادهم تتحد الأمم الاسلامية المسكينة التى اختلف قوادها وأقطابها لجهالتهم الفاشية إلا قليلا منهم . فهؤلاء الذين يقرؤن ما كتبناه سيجدون أنهم على مشرب واحد فى سائر المذاهب الاسلامية فيوحدون الأمم الاسلامية جيلا بعد جيل والحمد لله رب العالمين . انتهى المبحث السابع

﴿ المبحث الثامن ﴾

هذا المبحث هو المقصود من القصص المتقدمة وهو اثبات نبوته ﷺ فلقد ذكر فى القصص المتقدمة معجزات الأنبياء وانها قوبلت بالاعراض . فأما رسولنا ﷺ فانه قال فيه ـ واتبعوا النور الذى أنزل معه ـ

﴿ بدائع سورة الأعراف ﴾

اعلم أن هـذه السورة تفيد أن الايمـان على ﴿قسمين﴾ ايمان دائم يرفع الى أعلى الدرجات وايمـان ناقص لايلبث أن يزول . والقسم الثانى ايمـان العامّة ومن نحا نحوهم من الأمم الجاهـلة فان الله عنـدهم لايعرف إلا بمـا يخالف النواميس الطبيعية والأنبياء والقديسين فى نظرهم لايعرفون إلا بمـا يخالف نواميس الطبيعة ولذلك ترى العالم الانسانى من قديم الزمان والى هذا العصر يخضعون لـكل من أدهشهم بأمر فوق طاقتهم فلانبى إلا حيث يخرق النواميس ولاولىّ مقدّسا إلا حيث تقلب له الأوضاع فجاءت سورة الأعراف فنقضت هذه القضايا وكذبت هذه الدعاوى وأبعدت هـذه الرزايا وأعتقت الجنس البشرى من التعويل على ما كان مخالفا للنواميس فقد ذكر كيف كفرت الأمم بعد الايمـان . وكيف صدق السحرة فى الايمان وكفر بنواسرائيل بعد مارأوا الآيات بالعيان فالمدار على الأنوار النفسية والعلوم العقلية والوقوف على الحقائق الـكونية حتى تعرف الرحمة الالهية و يمتاز الخبيث من الطيب إذ العامّة ومن نحا نحوهم يعيشون و يموتون وهم مخدوعون ايمانهم تقليدى ودينهم لفظى فلايعرفون النواميس الطبيعية ولا العجائب الفلـكية ونفوسهم نائمة فلايذكرون الله الا اذا دهمتهم واقعة وصدعتهم قارعة و بطشت بهم باطشة فلايذكرون الله إلا قليلا

أما القسم الأوّل فهم الذين يرون الله عند كل حركة وسكون ونور وظلام وسهل وجبـل وشمس وقمر وحجر وشجر لأنهـم يعرفون نظام الطبيعة واتقان الخليقة وعجائب هذه الدنيا . وهذا معنى وصف القرآن هنا بأنه النور . فالأنبياء عندهم يهدون الناس بطريق الحقائق والعلماء والمصلحون هم الذين يرشـدون الناس بعقولهم لابانامة أفـكارهم بالمدهشات والغرائب حتى تقف العقول عند ما وصل اليه الشيوخ . وكم من شيخ كان الاعتقاد فيه سببا لوقوف عقل تلاميذه . وكم دين كان الوقوف على ظواهره من أسباب الخلل فى النظام والجهل فى الأحكام ثم تفرق الأمّة بعد ذلك شذر مذر والناس تائهون لايعلمون مايصنعون

واعلم أن هـذا الفريق فى الأمّة المحمدية اليوم كبير قد تركوا عقولهم وأناموا بصائرهم فهم بعد الصـدر الأوّل عالة على الأمم . وسيكون فى المستقبل منهم حكماء وعلماء . دارسون لهذا الوجود . مؤمنون بمـا صنعته يد الله فى كل موجود . موقنون ايقان الحـكماء لاتقليد الجهلاء . هذا ماتتوقعه ونرجو الله أن يحققه هذا هو الذى سيكون فى أمّة الاسـلام فى مستقبل الزمان وسيقل تقليد الشيوخ الجاهلين الذين يقولون الله لايعرف إلا بنظراتهم . وسيعرف المسلم أن الله لن يعرف حق معرفته على قدر الطاقة إلا بمعرفة جمال هذه العوالم العلوية والسفلية ـ ولله الأمر من قبل ومن بعد ـ ولله عاقبة الامور ـ

ولمـا كان هـذا هو شأن القرآن وهو الذى أوضحته فى سورة الأعراف التى يشير اسمها الى معرفة المعانى العالية . والحكم والآراء الثاقبة . والعلوم الغالية . والأنوار المشرقة . والشموس المتألقة . والأضواء البارقة والقوّة الساحقة . أخـذ يأمر نبيه ﷺ أن يعلن هـذه الحقيقة على رؤس الأشهاد و يقول (قل) يامحمد (يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا) فان الدين العام هو ماناسب الفطرة والفطرة تأنس بالنظام . فأما الخوارق النادرة فلانظام فيها ولاثبات وقوله ـ جميعا ـ حال من اليكم (الذى له ملك السموات والأرض) صـفة لله تعالى (لاإله الا هو يحيي ويميت) واذا كان له ملك السموات والأرض وهو المتصرّف فى الوجود وحده والحياة والموت من صنعه فانى رسوله الدال على النظر فى نظامه العام فلا أعوّل إلا على النظام الطبيعى والعجائب الفلـكية والغرائب الحـكمية . فهذا هو الذى أرسلت لأبينه وهو أرحم الراحمين وأنا أرسلت للناس رحمة . ولمـا كانت هذه صـفة الرسول ﷺ قال الله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله النبىّ الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته) ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه (واتبعوه لعلـكم تهتدون) جعل رجاء الهـداية مرتبا على الايمـان المذكور وعلى التقوى فمن آمن به وهو غـير تقى فليس مهتديا . ولمـا فرغ من وصف أمّة

محمد ﷺ على سبيل الاستطراد رجع الى قوم موسى فقال (ومن قوم موسى) يعنى من بنى اسرائيل (أمة يهدون بالحق) يهدون الناس بكلمة الحق (وبه) وبالحق (يعدلون) بين الناس فى الحكم وهم الثابتون على الايمان فكأنه سبحانه يقول انا قد ذكرنا فى هذه السورة مخازى بنى اسرائيل وانهم قوم خشنو العقول والطباع فقد عبدوا العجل ولهم مخاز كثيرة وأن أمة محمد ﷺ هم الذين تجتمع لهم الرحمات وتنزل عليهم البركات فهم أرقى من أمة موسى ولكن هذا لايدل على أن قوم موسى جميعهم فاسقون كلا فان من قوم موسى طائفة قامت بالحق وحكمت بالعدل (وقطعناهم) وصيرناهم قطعا متميزا بعضهم عن بعض (اثنتى عشرة) مفعول ثان لقطع أى صير وقوله (أسباطا) بدل منه (أمما) بدل بعد بدل أى جماعات وقبائل والأسباط هم أولاد يعقوب ويعقوب هو اسرائيل وكانوا اثنى عشر (وأوحينا الى موسى إذ استسقاه قومه) فى التيه (أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست) أى فانفجرت (منه) من الحجر (اثنتا عشرة عينا) يعنى لكل سبط عين (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم وظللنا عليهم الغمام) ليقيهم حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات مارزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) واعلم أن هذا المقام تقدم شرحه فى البقرة وقد وازنت هناك مابين العصا التى ضرب بها موسى و بين عجائب الطبيعة التى أبرزها الله فى الأرض التى بها تتفجر الأنهار والمسلمون غافلون فارجع اليه ان شئت (واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية) أى اذكر والقرية بيت المقدس (وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم وسنزيد المحسنين) وهذا المقام تقدم فى سورة البقرة أيضا فافهمه فيها (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون) كل هذا تقدم فى البقرة ذكر ثلاث حوادث اثنتان خاصتان ببنى اسرائيل والثالثة عامة لنوع الانسان . أما الحادثتان الخاصتان ببنى اسرائيل فأولاهما مسألة القرية التى كانت حاضرة البحر ﴿ وذلك ﴾ أن اليهود الذين كانوا يسكنون أيلة وهى العقبة وهى بلدة قريبة من البحر قد فعلوا أمرا مخالفا للشريعة فانهم فعلوا مع الله فى شريعته مايفعل السارقون والنشالون وكذبوا عليه تعالى بحيل لفقوها وفتاوى شرعية كتبوها ﴿ ذلك ﴾ أن الله حرم عليهم كل عمل يوم السبت فاحتالوا على العمل فى ذلك اليوم بحيلة شيطانية كما يحتال صغار الفقهاء من المسلمين بالحيل الشرعية غرورا وجهالة . ذلك أن السمك فى يوم السبت كان يظهر فوق وجه الماء فتحاموا صيده ولم يمسكوه ولكن اذا رأوه داخل مكان فى جانب البحر جعلوا على مدخله سدا فلايفلت منه السمك حتى اذا كان اليوم الثانى انقضوا عليه فاصطادوه . فظاهر الأمر أنهم اصطادوا فى غير يوم السبت ولكن الحقيقة أن الصيد الحقيقى هو فى يوم السبت فأنزل الله هذه الآيات على رسوله ﷺ ليوبخهم و يقرعهم و يظهر لهم مكنون العلم الذى خبؤه فى التوراة وليفضحهم وليقول لهم يا أيها الناس أنتم قديما وحديثا عاصون مخالفون تاركون لأوامر الله فأنتم أشرار الناس . وهذا قوله تعالى (واسألهم) يامحمد (عن القرية) وهى ايلة وهى قرية بين مدين والطور على شاطئ البحر الأحمر . وهذا معنى قوله (التى كانت حاضرة البحر) الأحمر أى قريبة منه (إذ يعدون فى السبت) يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت واذ ظرف لكانت أى وقت يتجاوزون الحد (إذ تأتيهم حيتانهم) أى وقت تأتيهم حيتانهم (يوم سبتهم شرعا) يوم تعظيمهم أمر السبت ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان (ويوم لايسبتون لاتأتيهم) أى و يوم لايدخلون فى السبت الخ (كذلك) مثل ذلك البلاء الشديد (نبلوهم بما كانوا يفسقون) واختلف أهل القرية إذ ذاك فكانوا فرقا ثلاثة فقوم هم الخاطئون وقوم نهوهم عن ذلك وقوم سكتوا وقالوا للناهين ـ لم تعظون قوما الله مهلكهم أومعذبهم عذابا شديدا الخ ـ وهذا قوله تعالى عطفا على ـ إذ يعدون ـ (واذقالت أمة منهم) من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعدما أكثروا لهم من الوعظ للفرقة التى لاتزال تعظ الفرقة المخطئة (لم تعظون قوما الله مهلكهم أومعذبهم عذابا شديدا) علما

منهم أن الوعظ لاينفع فيهم (قالوا) وعظناهم (معذرة) أى وعظناهم للمعذرة (الى ربكم ولعلهم يتقون) أى ولطمعنا فى أن يتقوا (فلما نسوا) أى أهل القرية (ماذكروا به) ماذكرهم به الصالحون عبر عن ترك العمل بالنسيان للمبالغة فى تعريف ضلالهم (أنجينا الذين ينهون عن السوء) عن أخذ الحيتان يوم السبت (وأخذنا الذين ظلموا) بالاعتداء ومخالفة أمر الله (بعذاب بئيس) شديد من بؤس يبؤس بؤسا اذا اشتدّ (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم * عن الحسن قال نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم الذين أخذوا الحيتان * يقال ان الناهين لما أيسوا من اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتهم فجعلوا بينهم و بينهم جدارا فيه باب مطروق ثم فصل ذلك العذاب البئيس فقال (فلما عتوا عما نهوا عنه) أى فلما أبوا أن يرجعوا عن المعصية وتمرّدوا فى العصيان (قلنا لهم) وهذا كقوله تعالى ـ انما قولنا لشئ اذا أردناه أن تقول له كن فيكون ـ (كونوا قردة خاسئين) أى صاغرين مبعدين من كل خير * قال مجاهد مسخت قلوبهم لا أبدانهم . أقول وسبب ذلك أن الانسان قد امتاز عن الحيوان وعن أعلاه وهو القردة بالفكر والعقل وهؤلاء لما طرحوا أفكارهم ظهريا وأرجعوا أمر التحريم والتحليل للألفاظ التى يتلاعبون بها نامت غرائزهم وصارت عقولهم طائعة التقليد للعلماء الضالين . والتقليد من شأنه أن يميت القوّة العاقلة و ينزل الانسان الى دركات البهائم وأقربها الى الانسان القردة فكأنه تعالى يقول ان الذنوب والمعاصى هى التى سلبتهم عقولهم فرجعوا الى البهائم وصفاتها من عدم التعقل (أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون) وهذا التفسير هو المناسب لعصرنا الحاضر ألا ترى أن المسلمين لما كثر فيهم الجهال من صغار الفقهاء وقالوا لهم اعرفوا العلوم الفقهية وقصروهم عليها كيف أصبح كثير منهم كالقردة واستعبدهم أهل أوروبا . فياعجبا كل العجب مالى أرى هذه القصة منطبقة تمام الانطباق على أمة الاسلام . نحن معاشر المسلمين إلا قليلا منا فعلنا فعل اليهود . ألم يترك كثير من المسلمين العلوم والمعارف وهى مفروضة عليهم . ألم يترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاسيما من حكمهم أهل أوروبا . ألم يكن اقتصارهم فى الطهارة والنجاسة على طهارة الثوب والبدن وترك نجاستهما داعيا الى عدم العناية بالطهارة من الكبرياء والحسد والغلّ والحقد وما أشبه ذلك . ان اقتصارنا على ظواهر العبادات وطرحنا ظهريا طهارة نفوسنا وأخلاقنا دعا الى تفريق كلمتنا وتأخر تجارتنا وسياستنا وزراعاتنا وصناعاتنا

فنحن نظرنا الى الظواهر كما نظر اليهود الى ظاهر لفظ الصيد ولم نعبأ بالباطن كما لم يعبؤا هم بالحقائق وأن المدار على حقيقة الصيد فهذه الآية منطبقة علينا تمام الانطباق

﴿ تذكرة للمؤلف أيام المجاورة بالجامع الأزهر ﴾

لقد كنت أيام المجاورة بالجامع الأزهر الشريف قبل أن أتعلم التفسير أقرأ هذه الآيات فى ظلمات الليالى والنجوم ظاهرة . والأضواء باهرة . وآيات الله فى الجوّ حافلة . والجمال باهر . والشوق للحكمة والعلم سافر فأقول ياليت شعرى ماهى البلدة التى كانت حاضرة البحر وما اسمها وما اسم البحر . وكنت أتعجب من قوله تعالى ـ واسألهم الخ ـ وكانت هذه الآراء تأخذ من قلبى كل مأخذ وأبيت مفكرا فيها بشوق وتوق لامزيد عليهما . هكذا كنت اذا سمعت ذكر الأوّلين ومبانيهم أجد فى النفس شوقا كثيرا الى معرفة مابنوا وماتركوا للخلق وكأن الله ألهم الأمم أن تبنى مصانع ليتعجب الخلق فيشتاقوا للمعرفة ولمجاراتهم فيما يصنعون وأوحى الى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم شذرات من التاريخ للعظة وليكون تشويقا الى احاطة الآخرين بما فعل الأوّلون . فهذا العالم قائم بناؤه على الأشواق والتذكير

﴿ ذكرى المسلمين بهذه القصة و بكاء ابن عباس رضى الله عنهما ﴾

روى عكرمة عن ابن عباس قال أسمع الله يقول ـ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ـ فلا أدرى مافعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكى . قال عكرمة فقلت له جعلنى الله فداءك

أكثرناهم قد أنكروا وكرهوا ماهم عليه وقالوا - لم تعظون قوما الله مهلكهم - وان لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فأعجبه قولى ورضى به وأمر لى ببردين فكسانيهما وقال نجت الساكتة . اهـ

أقول فياليت شعرى لم بكى ابن عباس . ان ابن عباس بكى لما علم أن الله لايغفر لمن سكت عن النهى عن المنكر وغاية الأمر أن الأقوال التى قالوها دلت على أنهم قد عملوا آخر مايقدرون عليه

فياعجبا كل العجب . علم ابن عباس ماسيكون من العقاب لهذه الأمة على سكوتها . سكتت الأمة الاسلامية عن نهى المجرمين منها . أجرم كثير من المسلمين . أجرموا بالجهل . أجرموا بالبهتان والكذب والبغض . أجرموا بترك الصناعات والعلوم والمعارف . أجرموا وأجرموا وأجرموا . فماذا حصل . أغار الفرنجة عليهم ثم استخدموهم كالحيوانات يجزّ صوفها ويشرب لبنها . وهذا مثل ما ذكره الله فى قوله - كونوا قردة - والقردة مطيعة للقائم بتدبير شأنها . فترى الرجل يأخذ القرد فى الأسواق فيرقصه ويضرب له على الطبل وهكذا وهو فى جميع أموره تابع لأمر سيده . هكذا الأمم الاسلامية لما ابتليت بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شاع الجهل وذاع الذل والصغار لأنهم تركوا مواهبهم فأصبحوا للفرنجة مسخرين وللطغاة خاضعين وللظالمين صاغرين . وقد آن أوان مجدهم وبزغت شمس يوم عزهم وسيكون لهذا القول وأمثاله من كتاب الاسلام أثر فى القلوب الواعية . ووقع فى النفوس العالية . وسيقوم فى المسلمين طائفة تخرجهم من هذه الحال القردية الى حال الانسانية . وقد ابتدأ الترك والأفغان والعجم والمصريون وغيرهم أن يوقظوا العقول وينبهوا النفوس - والله هو الولى الحميد -

﴿ مستقبل اليهود بعد ذنوب آبائهم ﴾

قال تعالى (واذ تأذن ربك) أى أعلم (ليبعثن عليهم) اللام للقسم أى كتب الله على نفسه ليسلطن على اليهود (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى من يوليهم أى يعذبهم بأشد العذاب فكانوا يؤدّون الجزية للمجوس فلما جاء الاسلام ضربها عليهم وقد سلط عليهم بختنصر وسنجاريب وملوك الروم وهؤلاء هم الذين نفوهم من ديارهم بعد رفع المسيح بنحو سبعين سنة . والمراد من هذا العذاب العذاب الدنيوى . ومعلوم أمر اليهود اليوم وقد قامت باذلالهم دولة القياصرة فى الروس قبل زوالها . وكذلك قام الألمان اليوم على بعض اليهود فقتلوهم وهم أينما حلوا كانوا شديدى العصبية لأنفسهم . ثم ختم المقال سبحانه بقوله (إن ربك لسريع العقاب) لمن أقام على الكفر (وانه لغفور رحيم) لمن آمن منهم . ولما كان اليهود قد حكم عليهم أن يعذبوا من الدول الى يوم القيامة لشدّة عصبيتهم ذكر الله تفصيل أحوالهم فقال تعالى (وقطعناهم فى الأرض أمما) أى وفرّقناهم بحيث لايكاد يخلو قطر منهم ولايكون لهم شوكة (منهم الصالحون) الذين آمنوا (ومنهم دون ذلك) ناس منحطون وهم الفسقة أى ومنهم ناس منحطون عن الصلاح فمحل دون ذلك الرفع وهو صفة للموصوف المحذوف الذى ذكرناه (وبلوناهم بالحسنات والسيآت) بالنعم والنقم والخصب والجدب (لعلهم يرجعون) ينتهون فيئيبون الى الله (فخلف من بعدهم) من بعد المذكورين (خلف) وهم الذين كانوا فى زمن رسول الله ﷺ (ورثوا الكتاب) التوراة ووقفوا على مافيها من التحريم والتحليل والأمر والنهى ولم يعملوا بها (يأخذون عرض هذا الأدنى) هو حال من الضمير فى ورثوا والعرض المتاع أى حطام هذا الشئ الأدنى يريد الدنيا ومايتمتع به منها وهو من الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب والمراد ماكانوا يأخذونه من الرشا فى الأحكام وعلى تحريف الكلم والتعبير بالأدنى يشعر بالتخسيس والتحقير (ويقولون سيغفر لنا) لايؤاخذنا الله بما أخذنا والفعل مسند الى الأخذ أو الى الجار والمجرور وهو لنا (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أى الميثاق المذكور فى الكتاب (ألا يقولوا على الله إلا الحق) أى أخذ عليهم الميثاق فى

كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق وهو عطف بيان لميثاق الكتاب (ودرسوا مافيه) وقرؤا مافى الكتاب وهو عطف على قوله ـ ألم يؤخذ عليهم ـ لأنه تقرير كأنه قيل أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا مافيه (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس (للذين يتقون) الرشا والمحارم (أفلا يعقلون) أنه كذلك (والذين يمسكون) يعتصمون و يتعلقون (بالكتاب وأقاموا الصلاة) خصها بالذكر لأنها عماد الدين ولأن العبد فيها يناجى ربه فهى صلة بينه و بين ربه والا فالكتاب فيه كل عبادة وأمر ونهى (إنا لانضيع أجر المحسنين) إنا لانضيع أجرهم . انتهى الكلام على احدى الحادثتين الخاصتين باليهود ومافرع عليها من الحكم والمواعظ وتحريم الرشوة وأن التوبة الزائفة الكاذبة المصطنعة التى ينتحلها الكذابون من جهلة المسلمين لاتفيد ولاتنفع وكيف تنفع التوبة اللفظية والنفس طامحة الى ذنوبها . غارقة فى بحار شهواتها . عازمة على اقتحامها مصممة على انتهاك حرماتها . ذلك شأن كثير من قضاة المسلمين وحكامهم وأرباب الجاه فيهم و بعض الفقهاء الغافلين النائمين

﴿ الكلام على الحادثة الثانية الخاصة باليهود ﴾

قال تعالى (واذ نتقنا الجبل فوقهم) أى قلعناه ورفعناه فوقهم . وأصل النتق الجذب (كأنه ظلة) سقيفة وهى كل ماأظلك (وظنوا) وتيقنوا (أنه واقع بهم) ساقط عليهم لأن الجبل لايثبت فى الجو ولأنهم كانوا يوعدون به وذلك انهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم وقيل لهم ان قبلتم مافيها والاليقعن عليكم وقلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) بجد وعزم على تحمل مشاقه وهو حال من الواو (واذكروا مافيه) بالعمل به ولاتتركوه كالمنسى (لعلكم تتقون) قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق . وهذا كله تقدم فى سورة البقرة . انتهت الحادثة الثانية الخاصة ببنى اسرائيل

﴿ ذكر الحادثة الثالثة العامة لجميع نوع الانسان ﴾

ههنا فرغ سبحانه من القصص التى ذكرها فى هذه السورة وقد تبين فيها مايعترى الأمم من الهلاك اذا عصت الناصحين تحقيقا لما جاء فى أولها من هلاك القرى ليلا أونهارا وأهلها يقرون بأنهم ظالمون . فهاهو ذا هلاك القرى المتقدم وأن كل أمة تقر عند الهلاك انها كانت ظالمة . فههنا ذكر سبحانه الحجة العظيمة والآية الكبيرة التى تعم الأمم كلها . ذلك أن الأمم جميعها قد نصبت لها الدلائل وقامت لها الحجج وظهرت لها بوارق الحق فى آفاق السماء ومناكب الأرض وفى الأنفس التى أجملها فى أوائل السورة فى قوله تعالى ـ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الخ ـ فالعجائب الكائنة والبدائع الواضحة فى هذه العوالم العلوية والسفلية هى العهود والمواثيق التى أخذها الله على الناس أن يؤمنوا بالله وأن يعدلوا فى أحكامهم و يصدقوا فى أقوالهم وأنت لوسرت فى شرق الأرض وغربها لوجدت الأمم كلها مغرمة بالبحث فى الحقائق . عاكفا عظماؤها على درس هذا الوجود . لافرق فى ذلك بين أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى وأمريكا . وهذا الاندفاع فى الاستطلاع هو الميثاق الذى أخذه الله عليهم لأنهم ببحثهم يعرفون أن للعالم صانعا . ومصداق ذلك انك ترى الأمة المصرية بين القرن السابع والعشرين قبل الميلاد والقرن الثانى عشر قبل الميلاد أيضا قد بحثت فى جميع الفنون والعلوم والنظام والحكمة وسائر وجوه الأعمال الانسانية . وهكذا الصين فى ذلك الوقت فقد كانت الأخيرة تمارس الزراعة والفنون الصناعية وكانت لها تجارة واسعة وسياسة اجتماعية وقوانين ومدارس عامة ويعرفون الفلك والطب والموسيقى والنحت والنقش . هكذا قال وزير معارف الصين . وترى أنه بعد ذلك فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد الى القرن الثالث قبل الميلاد ظهر هناك حكماء يبحثون شرقا وغربا فى نظام هذا العالم . فكما كان الفيلسوف الافريقى (اميدوقليس) يقول ان العناصر أربعة كان نظيره فى الصين (كى تسو) يقول ان العناصر خمسة وأدخل فيها الخشب والمعدن وأخرج الهواء . وبينما كان العلامة

(سقراط) اليونانى يستعمل المحاورة مع التلاميذ لاستخراج الحقائق كان فى الصين الفيلسوف (لاوتسو) و(شوانج تسو) يعلمان الرياضة والطبيعيات والمنطق والسياسة والآداب وكذلك (كونفوسيوس) الذى كان يعلم قواعد السلوك

ثم انتشرت البوذية فى الشرق الأقصى أى بلاد الصين فى الوقت الذى ظهرت المسيحية فى الشرق الأدنى وفى أوروبا وهو القرن الأوّل للميلاد . ثم انه بينما كانت الأمم الصينية فى القرون الوسطى الى القرن السابع عشر أشبه بأوروبا من حيث ان أتباع كونفوسيوس كانوا ذوى فلسفة أشبه بفلسفة أوروبا . إذ ذاك كانت أمّة الاسلام هى المنبع الأصلى الذى أنقذ أوروبا من الجهالة وانتشرت آراء ابن رشد من الأندلس الى سائر أوروبا فارتقت وذلك فى القرن السابع عشر والثامن عشر وماحولهما . فأما الصين فقد تدنت الى بعض العلوم الظاهرية كاللغات ونحوها إذ ذاك . فأما الآن فالعالم الانسانى كله يريد أن يتجه الى العلا سالكا طريقا معينا فى العلوم والمعارف وهو نتيجة ما كان عند المصريين واليونان والرومان وأهل بيزنطية والعرب

هذا هو التاريخ المجمل للديانات فى الأرض وللفلسفة وجميع هذا دال على أن الانسان خلق مغرما بالبحث والتنقيب والتفكير لافرق بين الشرقى والغربى والناس جميعا يستمدّ بعضهم من بعض . فهمنا يقول الله تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيتهم) أى أخرج من أصلابهم نسلهم فبعد أن كانوا فى أصلاب الآباء خرجوا الى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود (وأشهدهم على أنفسهم) بما ركب فيهم من العقول التى قدّمنا ذكر نتائجها فى مصر وأوروبا والصين والاسلام وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه التى أجملناها فى هذا المقام شرقا وغربا فبهذا الاشهاد صاروا كأنهم قيل لهم (ألست بربكم) وكأنهم (قالوا بلى) وذلك بما أظهر لهم من الدلائل التى تضطرهم الى أن يعلموا أنه خالقهم بما ركب فيهم من العقل والفكر والفهم فقالوا بلى (شهدنا) على أنفسنا انك أنت ربنا وهذا مجاز لاحقيقة ومثل هذا فى كلام العرب مشهور

ثم اعلم أن أكثر المفسرين فسروا الآية بوجه آخر لأنهم رووا أحاديث فى هذا المعنى منها ماروى عنه ﷺ أنه قال ﴿ أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرّية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا وقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ﴾ وفى رواية أخرى ﴿ انه لما خلق آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذرّيته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم ﴾ وهذا القول قد توسع فيه المفسرون وقالوا انه يدل أن هذا الذر خرج من صلب آدم ثم خرج بعضه من بعض على الترتيب الذى رأيناه فى الدنيا . ثم ركب فيه العقل والفهم وخوطب وأجاب ثم رجع الذر من حيث أتى فى صلب آدم وكان ذلك اشارة الى عالم آخر كنا فيه . والأحاديث لم تذكر إلا هذه الرموز التى بين فيها أن من كان هناك شقيا فهو شقى هنا وكذلك السعداء . ولتعلم أن علم الأرواح يفيد أن الناس كانوا قبلا فى عالم غير هذا وهم هنا على ما كانوا عليه هناك . وسيكونون بعد الآن على ماهم عليه الآن . وهذا يشابه تلك الأحاديث من حيث الاجمال ويخالفها من حيث التفصيل ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ قال الله تعالى فعلنا ذلك كراهة (أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) وفى قراءة بالتاء الفوقية (أوتقولوا) عطف على أن تقولوا (انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرّية من بعدهم) فاقتدينا بهم . وكيف يصح التقليد مع قيام البرهان (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) يعنى آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك (وكذلك) أى مثل ذلك التفصيل البليغ (نفصل الآيات) ليتدبرها العباد (ولعلهم يرجعون) أى عن التقليد واتباع الباطل . انتهى القسم الثامن

(القِسمُ التّاسِعُ)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ *
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ
عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * مَنْ
يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا
الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي
مَتِينٌ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ
ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا
فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ

أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

اعلم أن ماسبق فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام ومامضى فى سورة الأعراف التى نحن بصددها الآن مملوء من الحكم والمواعظ لاسيما فى هذه السورة التى جاء فيها ذكر آدم وابليس وما تبع قصتهما من أحكام اللباس والتقوى وأهل الجنة والنار والأمر بالنظر فى السموات والأرض وقصص الأنبياء وأممهم وكيف أهلكوا بتقصيرهم وتكذيبهم لاسيما أقرب الأمم الينا وهم اليهود • فهذه السورة جعلت عظة واعتبارا بذكر خراب الأمم ودمار أهلها واهلاكهم متى كذبوا بآيات الله وانصرفوا عنها فلذلك أعقب ماذكر بقوله (واتل عليهم) اقرأ عليهم يامحمد (نبأ) خبر الحبر وهو من أحبار بنى اسرائيل سيأتى ذكره أوأمية بن أبى الصلت من شعراء الجاهلية الذى آمن قلبه وكفر لسانه كما سيأتى تفصيل قصته أوكل منافق من أهل الكتاب يعرف صفته ﷺ ويجحده أوكل من عرض عليه الهدى فلم يؤمن فوصف الواحد من هؤلاء جميعا بقوله (الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى خرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره (فأتبعه الشيطان) فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينا له (فكان من الغاوين) فصار من الضالين الكافرين (ولوشئنا لرفعناه) الى منازل الأبرار من العلماء (بها) بتلك الآيات (ولكنه أخلد الى الأرض) مال الى الدنيا ورغب فيها فان الدنيا عبارة عما فى الأرض من المدن والضياع والمتاع والمعادن والنبات الخ (واتبع هواه) فى ايثار الدنيا ولذاتها ومقتضى المقابلة أن يقال — ولكنه أخلد الى الأرض — فحططناه ووضعنا منزلته فأتى الله بما هو أبلغ فى الحط فقال (فمثله) أى فصفته التى هى مثل فى الخسة والدناءة (كمثل الكلب) كصفته فى أخس أحواله وهو

(إن تحمل عليه يلهث أوتتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث اذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند التعب والاعياء . يقول الله انه يلهث دائما سواء أحمل عليه بالزجر والطرد أوترك ولم يتعرض له بخلاف سائر الحيوانات فلا يكون اللهث منها الا اذا حركت . أما الكلب فانه يلهث فى الحالين . فهذا مثل ضربه الله لمن آتاه الله حكمة فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثردنياه بأخس الحيوانات وهوالكلب فى أخس أحواله وهو اللهث . فكما أن الكلب يلهث على كل حال سواء أشددنا عليه وهجناه أم تركناه . هكذا من أوتى حكمة وعلما ولكنه كفر أوجعل العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا وابتزاز أموال الناس بالباطل فانه واقع فى الجهالة والمنزلة الوضيعة سواء أوعظناه أم تركناه . فكأن هذه الحال الوضيعة أصبحت طبيعة له لاتفارقه فان أعطيناه العلم أولم نعطه فانه لايترك حاله التى هو بها متلبس . وقد نرى العالم الذى أغناه الله عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة يميل الى طلبها فهو يقرؤها و يقررها و يبالغ فى تقريرها لاطلبا لمرضاة الله تعالى ولا ثوابه ولكن طلبا لزيادة الرزق الذى هومستغن عنه بالكفاف فهو يدلع لسانه فى تقرير العلوم لأجل الرزق فكانت حاله كحال الكلب يلهث فى الحالين . وهذا يتظاهر بالبلاغة ليحصل على ماليس فى حاجة اليه من المال فكأنه يلهث فى الحالين حال البؤس وحال الرخاء فأصبح العلم وسيلة لغرض خسيس وأصبح العالم فى هذه الحال مثله كمثل كلب ألبس ملابس الوزراء وأجلس مع الملك على سرير الملك فلمح عظما منبوذا أوعرقا ملقيا بعتبة الباب فأسرع الى التقاطه ونبذ الوزارة والوزراء والملك والعظماء وأخذ يهشم العظم هشما و يقضمه قضما راجعا الى طبيعته مسرعا الى سليقته . فليس للملك عنده من قيمة ولا يرضى إلا بطبيعة أبناء جنسه

هذا تقرير هذا المثل بطريق الاجمال . قال الله تعالى (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى أن المثل الذى ضربناه للذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها . فوجه التمثيل أنهم جاءتهم الرسل ليهدوهم فلم يهتدوا وان تركوا لم يهتدوا فهم ضالون على كل حال كالكلب يلهث على كل حال سواء أحملنا عليه أم تركناه

﴿ موازنة بين ذكر الكلب فى كلام العرب وذكره فى هذه الآية ﴾

(نقلا من كتابى مذكرات فى أدبيات اللغة العربية)

شبه الانسان الودود بالكلب فى حكاية مروية عن بدوى استدعاه أمير فأكرمه فمدحه بما رآه فى الصحراء من الدلو والتيس والكلب * قال

أنت كالدلو لا عدمناك دلوا * من كثير العطا قليل الذنوب
أنت كالكلب فى حفاظك للود * وكالتيس فى قراع الخطوب

وقال بعض الشعراء

جزانى جزاه الله شر جزائه * جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقال عمرو بن كلثوم

وقد هرت كلاب الحى منا * وشذبنا قتادة من يلينا

يقول كلاب الحى صوتت منا وقطعنا شوك القوم الذين أمامنا فلاقوة لهم على محاربتنا . ويقول الشاعر

لوكل كلب عوى ألقمته حجرا * لأصبح الصخر مثقالا بدينار

هذا نوع مايقوله العرب اذا ذكروا الكلب تمثيلا فوازن بين هذا و بين ما رأيت فى قوله تعالى – واتل عليهم نبأ الخ – وكيف كان التمثيل ناهجا منهج الحكمة والعلم وتعليم العلماء أن يترفعوا عن سفاسف هذه الدنيا وأن يعرفوا قيمة النعمة العلمية . فهل خطر هذا الاعرابى فى شعره . ان العالم قد يحجب عن نعمة العلم الذى هو من رحمة الله الواسعة فيتدلى الى خسائس الكلاب . فبهذه الآية يعرف قدر نفسه وهذه

أسمى درجات البلاغة التى لاتخطر لمتعلم فضلا عن بدوىّ فى الصحراء . اه

ثم قال تعالى (فاقصص القصص) القصة المذكورة على اليهود وغيرهم يامحمد (لعلهم يتفكرون) تفكرا يؤدّى بهم الى الاتعاظ (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ساء هو أى المثل وقوله - مثلا - تمييز وقوله - القوم - أى مثل القوم وقوله (وأنفسهم كانوا يظلمون) معطوف على قوله - كذبوا - فهو داخل فى حيز الصلة أى الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم . ولما كان هذا المثل وصفا لحال الضالين أعقبه بأن الضلال والهدى من عند الله فالمهتدون والضالون بمشيئة الله اهتدوا وبمشيئة الله ضلوا وهذه الصفات القائمة بهم من كفر وإيمان وهدى وضلال وصلاح وطلاح خلقت لهم على حسب استعدادهم ومقتضى أحوالهم والحكيم العدل من يضع الامور فى مواضعها ويجعلها فى مواطنها ولايحيد عن الحقائق وهذا مقتضى التربية والنظام وهذا قوله (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) والناس على هذه الأرض مختلفو الطبائع والغرائز ولكل صفات تخصه وتميزه عمن سواه . فمن غلب عليهم الجحود والعصيان فهم كنبات الشوك والحنظل وكل مايؤذى الناس و يألمون منه وأولئك هم أصحاب النار . ومن غلب عليه حبّ الطاعات والمعارف والعلوم فهم كالأشجار النافعة كالنخل والموز وأولئك هم أهل الجنة

﴿ الكلام على الأوّلين ﴾

والى الأوّلين أشار سبحانه بقوله (ولقد ذرأنا) خلقنا (لجهنم كثيرا من الجنّ والانس) وهم المعرضون عن تدبر آيات الله فكفروا أوعصوا أمر الله (لهم قلوب لايفقهون بها) الحق ولايتفكرون فيه (ولهم أعين لايبصرون بها) الرشد (ولهم آذان لايسمعون بها) الوعظ (أولئك كالأنعام) فى عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر (بل هم أضلّ) من الأنعام لأن الأنعام لم يخلق فيها العقل فلاتكليف عليها والانسان عاقل مكلف فاذا ترك النظر والتفكر تنزل الى درجة البهائم وانحط عن درجته فهو اذن أضلّ من الأنعام التى تطلب منافعها وتهرب من مضارها وتقوم بالأعمال التى تطلبها غرائزها وهو لم يقم بما يطلبه عقله (أولئك هم الغافلون) الكاملون فى الغفلة . وكيف لايكونون تامى الغفلة وقد شاركوا البهائم فى القلوب والأبصار والأسماع ولم يمتازوا عنها بالبحث والتنقيب حتى يستنتجوا أن لها صانعا حكيما متصفا بصفات الجلال والجمال التى تدل عليها الأسماء الحسنى ولذلك أعقبه بقوله (ولله الأسماء الحسنى) الصفات العليا العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها أو الأسماء التى هى أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة والحسنى تأنيث الأحسن وحسنها انما يكون بمعانيها ولامعنى للحسن فى حقّ الله تعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال . وترجع الى معنيين عدم افتقاره لغيره وافتقار غيره اليه . فمن تلك المعانى ماهى حسنة بحقائقها كالقدم والبقاء والقدرة والعلم والوحدة ومنها ماهى حسنة بآثارها كالغفران والرحمة والشكر والحلم وقوله (فادعوه بها) أى سموه بتلك الأسماء أوادعوه لقضاء حوائجكم . وللدعاء شروط كأن يستحضر الداعى عظمة المدعو مع الاخلاص والتعظيم و يعزم المسألة راجيا الاجابة فذلك له تأثير عظيم ثم قال تعالى (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) أى يميلون عن الاستقامة كما كان المشركون يقولون اللات والعزى ومناة لأصنامهم اشتقاقا من الاله والعزيز والمنان . وفى هذا دليل أن أسماء الله توقيفية فلانقول ياسخى أوياعاقل أو ياطبيب مع انا نقول ياجواد و ياعالم و ياحكيم * وفى الحديث روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة والله وتر يحبّ الوتر ﴾ وفى رواية أخرى من أحصاها . وخير مافى تفسير هذا ماقاله بعضهم من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على مايقتضيه واجبها وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة . فالحفظ يراد به لازمه وهو المعنى ثم التخلق لأن حفظها شئ يسير والاسلام دين جعل الجنة فى مقابلة الأخلاق والعلوم والآداب والأعمال . فالتخلق بأسماء الله من القدس والرأفة والعلم الخ يجعل

العبد قريبا من ربه كما فى الحديث ﴿ تخلقوا بأخلاق الله ﴾ * وقال الحكماء القصد من الفلسفة هو التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية * وقد ورد فى رواية الترمذى عدّ هذه الأسماء وهى الله الذى لا إله إلا هو الخ وهى معروفة . وقال الشيخ النووى الحديث لايدل على حصر أسماء الله فى ذلك العدد . وقد قال الحافظ أبو بكر بن العربى المالكى عن بعضهم أن لله ألف اسم قال ابن العربى وهذا قليل وبالاجمال لايجوز تسمية الله بما لم ينزل به سلطان ولذلك قال فيمن يلحدون فى أسمائه (سيجزون ما كانوا يعملون) فى الآخرة تهديد لمن ألحد . وهذا نهاية الكلام فى الأولين وهم الذين ذكرنا أنهم كنبات الشوك والحنظل وهم أصحاب النار

﴿ الكلام على الآخرين ﴾

وأشار الى الآخرين وهم الفريق الذى هو كشجر النخل والموز ونحوهما وهم أهل الجنة بقوله (وممن خلقنا أمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون) فهؤلاء فى مقابلة الملحدين . واستدل العلماء بهذه الآية على صحة الاجماع لأن المراد منه أن فى كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله ﷺ ﴿ لاتزال من أمّتى طائفة على الحقّ الى أن يأتى أمر الله ﴾ وروى أنه ﷺ كان اذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون * وفى البخارىّ ومسلم عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ لاتزال أمّتى قائمة بأمر الله لايضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ﴾

فانظر كيف جاء فى الوحى مايشهد به العقل . ألاترى أن الله لما خلق الخلق أعطى كل شئ خلقه ثم هدى فاذا أوحى الى النحل والى النمل والى العنكبوت وألهمها أعمالها وسياساتها ونظامها لافرق بين ما كان فى زمن الطوفان ومابين حيوان مستقبل الزمان . هكذا جاء فى هذه الآية والأحاديث أن فى أمّة اليهود السابقين على الاسلام هداة للمصلحة العامّة . وهكذا أمّتنا الاسلامية لابدّ أن يظهر فيها هداة ينبغون جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن لأن الله هو القائم بتدبير خلقه . ومن أجل الهداية التى ألهمها لعلماء هذه الأمّة فى هذا الزمان ومستقبل الزمان النظر فى عجائب السموات والأرض واستيعاب جميع العلوم كما هو مقصود كتابنا المقدّس . ثم أخذ سبحانه يبين كيف يعامل الفريق الأوّل وهم المكذبون فقال (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم) سنستدنيهم الى الهلاك قليلا قليلا . وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة (من حيث لايعلمون) ما نريد بهم ﴿وذلك﴾ أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله بهم فيزدادوا بطرا وانهماكا فى الغىّ حتى تحقّ عليهم كلمة العذاب (وأملى لهم) وامهلهم عطف على ـ سنستدرجهم ـ (إن كيدى متين) ان أخذى شديد وسماه كيدا لأن ظاهره احسان وباطنه خذلان كالذى يحصل لمن يأكل من الطعام مالذ وطاب ويكثر الألوان فان عاقبته المرض والضعف . وكمن أعطى أموالا كثيرة فاستغرقت جميع أوقاته فى الفكر والهم واللذات فهذان يظنان أن الله قد قرّبهما منه وهما يشاهدان الأنعام تستلذ بالمراعى فوق لذتهما وقد كثرت أقواتها فى الأرض وهذان لايسعدان إلا بما يحفظ الصحة ويزكى النفس ويرفعها عن السفاسف

ولما نسبوا النبىّ ﷺ الى الجنون نزل (أولم يتفكروا مابصاحبهم) محمد ﷺ (من جنة) من جنون * روى أنه ﷺ صعد على الصفا فدعاهم فخذا فخذا يحذرهم بأس الله فقال قائلهم ان صاحبكم لمجنون بات يصوّت الى الصباح . يقول الله أولم يتفكروا فما بينهم فى أمر محمد ﷺ ثم نفى عنه الجنون بقوله ـ مابصاحبكم من جنة ـ ويصح أن يقال أولم يتفكروا فيعلموا مابصاحبهم من جنة (إن هو إلا نذير مبين) موضح انذاره بحيث لايخفى على ناظر . ان الناس عادة يصفون من خالفهم وعرف مالم يعرفوا وأسمعهم مالم يكونوا يسمعون بأوصاف منكرة على مقدار مخالفتهم فى صفاتهم وأحوالهم . فلذلك وصف العرب النبىّ ﷺ بالجنون فقيل لهم كلا مابه من جنون فتفكروا فى أمره وتدبروا فى أحواله وانظروا فى أقواله فما هو

إلا نذير لكم يبين عاقبة أموركم ويوقفكم على مستقبل أنفسكم وان شككتم فى أمره ولم تؤمنوا بقوله فانظروا بأنفسكم وتفكروا بعقولكم وتأملوا فيما ذرأ الله فى ملكوت السموات والأرض والأشياء التى خلقها والأجناس التى نوّعها . والعجائب التى أبرزها . وكيف لاتتفكرون ولاتتدبرون والموت يناديكم . والآجال تناجيكم . والدنيا تزجيكم . أرسلنا رسولا منكم فكذبتم . وقلنا أنظروا فى ملكنا فأبيتم وتربصتم وتم وقلنا ألاتخافون الفوات ولحوق الممات وضياع البلاد بالهلاك والآفات فلم تعوا مايقال ولم تزيدوا إلا ضلالا وطغيانا . فبأىّ حديث بعد هذا البيان تؤمنون . أم بأى وعظ تنتفعون . أم أى قول تعقلون . إن أنتم إلا قوم ضالون ـ ومن يضلل الله فلاهادى له ـ لأن استعداده فى الضلال أبقاه وهو فى الطغيان مغمور وفى عمه البصيرة الذى هو أشدّ من عمى البصر مقبور . ـ فانها لاتعمى الأبصار ولكنها تعمى القلوب التى فى الصدور ـ . وكيف يفلح من أحاطت به النذر من كل صوب فتعامى . جاءه نبىّ فلم يع مايقول . وأعطى السمع والبصر والعقل فلم يتصرّف بها فى معقول ولامنقول . وقد غشته النذر من بين يديه ومن خلفه وهو مشغول ثم لايدرى أقريب أجله أم بعيد . واذا كان أمر الآجال مجهولا وأمر الساعة والقيامة العامّة مما لامعاوما فكيف يستقرّ له قرار أويكون له اصطبار . إن أمر الساعة مجهول وليس يظهر أمرها فى وقتها إلا الله وانها لعظيمة على أهل السموات والأرض ولاتأتى الا بغتة فقد أخفاها الله كما أخفى الآجال فلم يعلمها الأنبياء والمرسلون . ومن ذا يملك لنفسه منهم نفعا أوضرا . أم من ذا الذى يعلم الغيب من الأنبياء وهم يصابون كما يصاب الناس بالآلام والفجائع . ولو أنهم علموا الغيب لاحترسوا لأنفسهم ولتوقوا الشرّ الذى يقعون فيه ولم يمسسهم سوء يرتبكون فيه . فالأنبياء وسائر الناس سواء فى أنهم يجهلون الغيب وهم جميعا مبتلون بالخير والشرّ . لجهل الساعة وجهل الآجال ليتمّ الامتحان . فكيف اذن يذر الناس التفكير فى هذه العوالم المشاهدة وفى ملكوت السمولت والأرض . ان الناس لهذا التفكير خلقوا بل كل ماجاء فى هذه السورة مقدمة لهذه الآيات أى قوله تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض الخ)

هذا ملخص قوله تعالى ـ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ـ الى قوله (ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقوله ـ أولم ينظروا ـ أى نظر استدلال فى الملكوت أى الملك العظيم وقوله (وان عسى) أن مصدرية والتقدير أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض العظيم وفى اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا الى طلب الحق والتوجه الى ماينجيهم قبل الموت ونزول العذاب وقوله (فبأىّ حديث بعده يؤمنون) كأنه قيل لعلّ أجلهم قد اقترب فما بالهم لايبادرون للإيمان والأعمال الصالحة . وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ وأىّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا به وقوله (فى طغيانهم) أى كفرهم (يعمهون) يتردّدون (الساعة) هى من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أولسرعة حسابها أولأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق (أيان) متى مشتق من أى على وزن فعلان منه لأن معناه اىّ وقت (مرساها) ارساؤها كالمدخل بمعنى الادخال أووقت ارسائها أى اثباتها والمعنى متى يرسيها الله (لايجليها لوقتها الا هو) لايظهر أمرها فى وقتها الا هو (ثقلت فى السموات والأرض) أى ان أهل السموات والأرض أهم كل واحد منهم شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها ويثقل عليه أوثقلت فى السموات والأرض لأن أهلها يخافون شدائدها وأهوالها (بغتة) فجأة (يسألونك كأنك حفىّ عنها) عالم بها فعيل من حفى عن الشئ اذا سأل عنه فان من بالغ فى السؤال عن الشئ استحكم علمه به (نفعا ولاضرا) جلب نفع ولادفع ضرّ لنفى ادّعاء علم الغيب (إلا ماشاء الله) من ذلك فيلهمنى اياه ويوفقنى له (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء) أى ولو كنت أعلمه لخالفت حالى ماهى عليه وذلك باستكثار المنافع واجتناب المضار حتى لايمسنى سوء (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) ما أنا الا عبد مرسل

﴿ جوهرة فى تفسير قوله تعالى ـ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأىّ حديث بعده يؤمنون ـ ﴾

اعلم أن النظر فى ملكوت السموات والأرض إما واجب وجوبا عينيا . وذلك على كل قادر على النظر وليس ذلك الواجب عينيا لأجل معرفة الله للايمان فقط . كلا . بل هو واجب لأمرين ﴿ الأول ﴾ ازدياد المعرفة كما قال تعالى ـ وقل ربّ زدنى علما ـ ﴿ الأمر الثانى ﴾ الشكر لله تعالى . ومعلوم أن الشكر علم وعمل والعلم يرجع للنظر فى هذا العالم فالشكر واجب باجماع علماء الاصول وهو فى آيات كثيرة فى القرآن فهو واجب بالنص فى القرآن و بالاجماع . والنظر فى النبات والحيوان وغيرها والفلك والنجم . كل هذا واجب كما قرّرناه فى أكثر مواضيع هذا التفسير . واما واجب وجوبا كفائيا وذلك هو النظر لازدياد السعادة الدنيوية للأمم الاسلامية . ان الله عزّ وجل قال ـ ورحمتى وسعت كل شئ ـ وقال ـ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ . ان هذا الكون الذى نسكنه قد ملأه الله بالنعم وأباح لنا التزوّد منها وأوجب على الأمّة كلها أن تخصص منها جماعة لاستخراج منافعها . وذلك هو المسمى ﴿ فرض الكفاية ﴾ باجماع العلماء أيضا . فكما أجمعوا على الشكر أجمعوا على فرض الكفاية كما شرحته فى سورة المائدة عند ذكر الغراب وفى البقرة عند قوله تعالى ـ لايكلف الله نفسا الا وسعها ـ و بينت هناك اجماع العلماء وتوبيخ الامام الغزالى وتقريعه لعلماء الاسلام لجهالتهم ونومهم وانامتهم المسلمين فى زمانه

فاذا كانت رحمة الله وسعت كل شئ . واذا كان المسلمون كتبت لهم هذه الرحمة . واذا كانت الصناعات كلها فرض كفاية والصناعات التى بها ارتقاء الثروة من أهمها . فكيف ينام المسلمون عن رقى صناعاتهم . يقول الله ـ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ـ أنظر كيف كتب الرحمة لأمّة محمد ﷺ الذين يؤتون الزكاة وهم المأمورون بالنظر ـ فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ـ . الله أكبر . المسلم يؤتى الزكاة والمسلم ينظر فى ملكوت السموات والأرض لئلا يفجأه الموت وهو غافل والمسلم هو الذى ينظر ليزداد علما و يزداد شكرا لربه . والمسلمون فرض على جماعة منهم أن يرقوا المسلمين فى الصناعات والعلوم . الله أكبر هل قام المسلمون بهذا . هل قبل المسلمون رحمة الله الواسعة . هل أعدّوا العدّة للارتقاء كالأمم حولهم ان لم يفوقوهم . كلا والله لا هذا ولاذاك أصبحت كل الأمم علماء الا المسلمين . كل الأمم تعلم جميع أفرادها رجالا ونساء الا المسلمين . وانما تعلموا جميعا ليستخرجوا كنوز ربهم من أرضه ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ يطلبون رحمته من أرضه . أما المسلم فيقول أنا أعطى الزكاة من المال الموجود ولا أبحث عن غيره وأترك رحمة الله تتسرب لغير المسلم . كتب الله الرحمة لنا فى الدنيا والآخرة فلم نتعرّض لها فى الدنيا واكتفينا بالآخرة التى لم نعمل لها . سيقول جاهل أنا يجب علىّ أن أخرج الزكاة من المال الذى عندى ولكن لايجب علىّ أن أسعى لجمع المال ولا لشيوع الصناعات فى الاسلام . وهذا القول الذى هو كامن فى قلوب صغار العلماء فى الاسلام مردود مكذوب بأن ذلك فرض كفاية . وكيف نترك تلك العلوم وتلك الصناعات حتى أصبحنا أذل أمّة فى هذه الأرض التى نسكنها . أصبحنا غرباء فى ديارنا لجهلنا والفرنجة لعلمهم برحمة ربهم يستخرجونها من أرضنا وذلك لجهلنا وكفرنا بنعمة ربنا وان كنا مؤمنين به . ومما يحزن المسلم أن يقف مكتوف اليدين عند اعلان هذا الخبر فى الجرائد المصرية يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ الموافق ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ وهاهو

﴿ التفنن فى اصطناع السكر ﴾

وفق أحد علماء الكيمياء فى المدّة الأخيرة الى اصطناع السكر من (حثالة الخشب) اتماما لنبوأة أحد

العلماء الألمانيين الذى قال منذ بضع سنين مايأتى ﴿ سيأتى يوم يأكل فيه قراء الجرائد جرائدهم بعدقراءتها وتحويل أجزائها الى طعام ﴾ وقد تحققت نبوأة هذا العالم الآن إذ ورد اشعار على المجمع الكيماوى البريطانى من الدكتور (أورماندس) يقول فيه انه ابتكر طريقة جديدة لأجل تحويل حثالة الخشب (النشارة) الى سكر وذلك بعد معالجتها بالحامض الكلوريك . ويقال ان ذلك السكر يفيد جداً كسائر أصناف السكر للطعام وقد جاء هذا الابتكار مخففا لثورة التهديد التى كنا نتلقاها بأن معين الأطعمة لابدّ أن ينضب فى القريب العاجل وقدابتدع الكيميون المختصون بوزارة الزراعة الأميريكية وسيلة أخرى لاستخراج السكرمن الذرة الصفراء اهـ

هذا هوالذى نشر فى الجرائد اليوم . المسلم مأمور بالزكاة فى المال ان وجدالمال ولكنه من جهة أخرى مأمور بالعلوم والصناعات هذا باجماع العلماء . وقد قال امام الحرمين وكثير من العلماء ان فرض الكفاية أفضل من فرض العين لأن الانسان بقيامه به قد خلص المسلمين من ذنوب تعمهم فمن قام بعمل مثل هذا بأن عمم صناعة أوعلما فقد أعطى المسلمين آلاف آلاف أضعاف مايعطى الرجل من الزكاة . الزكاة محدودة والصناعات والعلوم لاحدّ لهما كما ترى فى الاختراع المذكورفى هذا المقام * وعن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ على كل مسلم صدقة قيل أرأيت ان لم يجد قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدّق قال أرأيت ان لم يستطع قال يعين ذا الحاجة الملهوف قال أرأيت ان لم يستطع قال يأمر بالمعروف أوالخير قال أرأيت ان لم يفعل قال يمسك عن الشرّ فانها صدقة ﴾ أخرجه الشيخان ولهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ كل (١) سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع عليه الشمس قال تعدل بين الاثنين صدقة وتمين الرجل فى دابته فتحمله عليها أوترفع له عليها متاعه صدقة قال والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة ﴾ انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الاصول

هذا كلام رسول الله ﷺ الذى جعل على المسلم صدقة كل يوم على أصغر أعضائه فأكبرها أولى وأشار الى أن الأعمال جميعها صدقات سواء أكانت رفعا للأذى أم جلبا للمنفعة العامّة . فقوله ﷺ يعمل ويتصدّق اشارة الى أن المسلم يغترف من رحمة الله ولا يقتصر على ماهوموجود . ان أوروبا قطعت خطوات واسعة والمسلمون واقفون بل ناكصون على أعقابهم ونبينا ﷺ ذكرهم بالعمل والعلماء نصوا على ذلك والله يقول ـ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ـ وهاأنا ذا قد نبهت وبينت وأفصحت وحسبنا الله ونعم الوكيل وعلى كل عالم أن يبين للناس مانزل اليهم ومابيناه فى كلام الله وماعرفه من عقله أومن كلام العلماء فهذا زمان يجب فيه الجهر بالحقيقة فان المسلمين فى غفلة وستنقشع الغشاوة عن أعينهم قريبا ان شاء الله تعالى

ثم قال تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) هوآدم (وجعل منها) أى من جنسها لقوله تعالى ـ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ـ (زوجها) حوّاء (ليسكن اليها) ليستأنس بها ويطمئن اليها اطمئنان الشئ الى جزئه (فلما تغشاها) جامعها (حملت حملا خفيفا) خف عليها ولم تلق منه ماتلقى منه الحوامل غالبا من الأذى (فمرت به) فاستمرت به وقامت وقعدت (فلما أثقلت) صارت ذات ثقل إذ كبر الولد فى بطنها (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا) ولدا سويا قد صلح بدنه (لنكونن من الشاكرين) لك على هذه النعمة المجدّدة (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) أى جعل أولادهما لله شركاء فيما آتى أولادهما فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد شمس (فتعالى الله عما يشركون * أيشركون مالايخلق شيأ وهم يخلقون) وقد دخل فى ذلك أبناء قصى من قريش وهم أربعة عبد مناف وعبد شمس وعبد قصى وعبد الدار فهؤلاء قد جعلت أسماؤهم دالة على الشرك وقوله ـ وهم يخلقون ـ أى الأصنام (ولايستطيعون لهم نصرا) أى

(١) السلامى كحبارى عظام صغار طول أصبع أوأقل فى اليد والرجل جمع سلاميات اهـ قاموس فى مادة السلم

لعبدتهم (ولا أنفسهم ينصرون) فيدفعون عنها مايعتريها (وان تدعوهم) أى الأصنام (الى الهدى) أى الى أن يهدوكم (لايتبعوكم) أى لايجيبوكم الى مرادكم كما يجيبكم الله (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) عن دعائكم فى أنه لافلاح معهم ولايجيبونكم (إن الذين تدعون من دون الله) تعبدونهم وتسمونهم آلهة (عباد أمثالكم) أى مخلوقون مملوكون أمثالكم (فادعوهم) لجلب نفع أودفع ضر (فليستجيبوا لكم) فليجيبوا (إن كنتم صادقين) انهم آلهة . ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالهم فقال (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها) البطش الأخذ الشديد فى كل شئ (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) فلم تعبدون ماهو دونكم (قل ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم فى عداوتى (ثم كيدون) أى بالغوا فيما تقدرون عليه من مكر أنتم وشركاؤكم (فلاتنظرون) فلاتمهلون فانى لا أبالى بكم لوثوق بولاية الله وحفظه (إن وليي الله) أى الذى يتولى حفظى وينصرنى عليكم هو الله (الذى نزل الكتاب) القرآن والمعنى كما أيدنى بانزال القرآن على كذلك يتولى حفظى وينصرنى (وهو يتولى الصالحين) يتولاهم بنصره وحفظه فلانضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أوكادهم بشر . فاذا كانت هذه عادته فى الصالحين من عباده فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والذين تدعون من دون الله لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم (وان تدعوهم الى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون) يشبهون الناظرين اليك لأنهم صوروا بصورة من ينظر الى من يواجهه وهم لايبصرون المرئى (خذ العفو) أى خذ ماعفا لك من أفعال الناس وتسهل ولاتطلب مايشق عليهم والعفو ضد الجهد وكل ماجاء بلا كلفة أى اقبل الميسور من أخلاق الناس ولاتستقص عليهم فيستقصوا عليك فتتولد من ذلك العداوة والبغضاء (وأمر بالعرف) المعروف والجيل من الأفعال وكل خصلة يرتضيها العقل (وأعرض عن الجاهلين) ولاتكافئ السفهاء بمثل سفههم ولاتمارهم واحلم عليهم . وفسرها جبريل عليه السلام بقوله ﴿أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك﴾ * قال جعفر الصادق رضى الله عنه ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية * وعن عائشة رضى الله عنها قالت لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولامتفحشا ولاصخابا فى الأسواق ولايجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح * وعنه ﷺ أنه قال ﴿إن الله بعثنى لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال﴾

قال زيد بن ثابت لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ فكيف بالغضب يارب فأنزل الله عزوجل (واما ينزغنك) ينخسنك (من الشيطان نزغ) نخس ووسوسة وريب . والنخس الغرز شبه وسوسته للناس اغراء لهم على المعاصى وازعاجا بنخس السائق مايسوقه من أنواع الدواب (فاستعذ بالله) فامتنع بالله من وسوسته واستجر به والجأ اليه فى دفعه عنك (انه سميع) يعنى لدعائك يسمع استعاذتك (عليم) يعلم مافيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها مغنيا اياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان) لمة منه وهو اسم فاعل من طاف كأن اللمة والنخسة طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان وان عادة المتقين اذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان والمام بوسوسته (تذكروا) ما أمر الله به ونهى عنه (فاذا هم مبصرون) فأبصروا السداد والصواب ودفعوا وسوسته بسبب تذكرهم مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيحترزون عنها ولايتبعونه فيها . هذه حال الذين اتقوا . ثم أعقبه بحال الذين لايتقون وهم المشركون والفساق وأتباع الهوى فقال (واخوانهم) أى وأما اخوان الشياطين من الذين لم يتقوا فان الشياطين (يمدونهم فى الغى) أى يطيلون لهم فى الاغواء حتى يستمروا عليه أو يزيدونهم فى الضلالة (ثم لايقصرون) لايمسكون عن اغوائهم ولايكفون عن الضلالة ولايتركونها * قال الكلبى لكل كافر أخ من الشياطين * وروى الامام مسلم

ان

أن رسول الله ﷺ قال ﴿ مامنكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله قال وإياى إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ﴾ بالرفع أى فأسلم أنا من شره والخطاب فى الآية لعموم نوع الانسان أى وإما ينزغنك أيها الانسان الخ

اعلم أيها الذكى أن هذا الحديث وهذه الآية من الأمور السمعية التى لم يعرفها الناس بالعقل ولم ترد لهم الا من السمع ، فالشيطان لايعلمه الناس الا من سبيل الدين ، هذا هو المعروف فى سائر الديانات وفى دين الاسلام ، ولكن قد كشف العلم اليوم هذه المعانى وامتلأت به المحافل فى أوروبا وألفت فى مثل هذا الموضوع آلاف آلاف المجلدات فى عالم الأرواح الموسوسة والأرواح الملهمة ، والغرب بهذا قرير العين ، أما المسلمون فهم لايعلمون عن هذه الحركة الاقليلا وقد أصبحوا يخاطبون الأرواح فى آلاف المجالس وقد أخبرتهم أن الأرواح الشريرة توسوس للأحياء بما كانت تفعله فى الدنيا لأنها فى برزخها تفرح بكل ماتشاهد مما يماثل أفعالها فتوسوس لمن على شاكلتها أن يفعل فعلها وهو شر لأن هذا هو الذى يسرها وقد تفعل ذلك انتقاما من ذلك الشخص معاقبة له على مارتكب معها من الاثم فى حياتها الدنيا والأرواح لاسلطان لها على النفوس الراقية والقلوب المخلصة والعقول الكبيرة المفكرة ، هذا كلام الأرواح وقد ألفت كتابا فى هذا الصدد سميته ﴿ كتاب الأرواح ﴾ وقد أشرت اليه فى هذا التفسير من قبل وهذا من أعظم معجزات القرآن ، وكيف يوافق الكشف والعلم الحديث ماجاء فى القرآن الكريم ويكشف الغامض من عجائب هذه العوالم الغائبة عنا وكيف تنطق الأرواح اليوم بنفس ماشرحه نبينا ﷺ وما جاء فى القرآن فلتتعجب أيها العاقل ، ثم أخذ سبحانه يذكر بعض ماينزغ به الشيطان فأفاد أن الكفار كانوا يقترحون على النبى ﷺ آيات أى معجزات باهرة كأن يزيل جبال مكة و ينزل عليهم كسفا من السماء فاذا أبطأ ماطلبوه قالوا هلا طلبتها من الله فأمر أن يقول لهم ـ انما أتبع مايوحى الى من ربى ـ هذا القرآن بصائر للقلوب بها تبصر الحق أبلج وهذا قوله تعالى (واذا لم تأتهم بآية) مما اقترحوه (قالوا لولا اجتبيتها) هلا طلبتها من الله (قل انما أتبع مايوحى الى من ربى) لست بمقترح للآيات ان الآيات لاتنزل الا تخويفا وأنا انما أرسلت للتعليم والتبصير فكيف أقترح مالم يفد الأمم السابقة كما اتفق لبنى اسرائيل الذين عبدوا العجل لأن ايمانهم مبنى على مشاهدة المحسوسات والغرائب المحيرة للعقول كقلب عصا موسى حية ولو أنهم كانوا مستبصرين متعقلين ما كفروا بعد ايمانهم (هذا) القرآن (بصائر) تبصركم وجوه الحق (من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) به فكيف تعدلون عنه الى تلك الخوارق التى لاتقوم بها قائمة الأمم فانما أرسلت لأخرج الناس من عالم الخيال الى الحقائق والمعارف الحقة ، فالقرآن سبب لبصائر العقول فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب

ولما كان القرآن بصائر للناس أخذ يأمرهم بالالتفات اليه فقال (واذا قرئ) عليكم أيها المؤمنون (القرآن فاستمعوا له) اصغوا له بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وحكمه (وأنصتوا) عند قراءته والانصات السكوت للاستماع يقال نصت وأنصت وانتصت وهذا واجب على ما يأتى من محامل الآيات والأحاديث الشريفة

(١) اما على العموم فى أى وقت وفى أى موضع فى الصلاة أو فى الخطبة أو غيرهما فيجب على كل مسلم فى ذلك كله الاستماع والانصات للقرآن وهذا قول الحسن وأهل الظاهر

(٢) واما فى الصلاة وحدها * وجاء فى الحديث أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن * وأيضا كان بعضهم يسلم على بعض فى الصلاة فمنعوا بهذه الآية ، وأولهما مروى عن أبى هريرة والثانى عن عبد الله بن مسعود

(٣) واما لترك الجهر بالقراءة خلف الامام فقد كانوا يقرؤن مع قراءته * وأيضا يرفعون أصواتهم عند ذكر الجنة والنار ، وهذا عن أبى هريرة للأول وعن الكلبى للثانى

(٤) واما فى الخطبة يوم الجمعة . وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء

(٥) واما فى قراءة القرآن وعند الخطبة عند بعضهم

واعلم أن هذه السورة مكية ولم تشرع الخطبة إلا فى المدينة فما جاء فى القول الرابع والخامس من حمل الآية على الخطبة ضعيف. وقد اتفقوا على وجوب الانصات عند سماع الخطبة للحديث الذى رواه الشيخان فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (اذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت)

﴿ هل تجب القراءة خلف الامام ﴾

(١) تجب القراءة على المأموم سواء أجهر الامام بالقراءة أم أسرّ عند عمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ والأوزاعى والشافعى

(٢) لا يقرأ المأموم سواء أسرّ الامام أم جهر عند جابر وأصحاب الظاهر

(٣) يقرأ فيما أسرّ الامام فيه القراءة ولا يقرأ فيما يجهر الامام فيه عند ابن عمر وعروة والقاسم والزهرى ومالك وابن المبارك وأحمد واسحق

(٤) لا يقرأ فى الحالين وهو لجابر وأصحاب الرأى

هذا ملخص ما جاء فى تفسير قوله تعالى ـ فاستمعوا له وأنصتوا ـ وأما قوله تعالى (لعلكم ترحمون) فمعناه لكى يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به . ولما كانت قراءة القرآن نتيجتها تهذيب الأخلاق والعلم ومعرفة الأحكام . وهذه كلها مقدّمات لما هو أرقى منها وهو ارتقاء النفس وعروجها الى عالمها وتخلصها من هذا العالم المظلم أردفه بما هو أعلى فقال (واذكر ربك فى نفسك) أى استحضر فى قلبك عظمة الله جلّ جلاله فى الصلاة وفى قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك من سائر الأذكار والخطاب للنبىّ ﷺ ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين وقوله (تضرّعا وخيفة) أى متضرّعا وخائفا والضراعة الخضوع والاستكانة والذل للغير وقوله (ودون الجهر من القول) يعنى ومتكلما كلاما دون الجهر لأن الاخفاء أدخل فى الاخلاص وأقرب الى حسن التفكر وقوله (بالغدوّ والآصال) أى بأوقات الغدوّ والعشيات لفضل هذين الوقتين والغدوّ جمع غدوة والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو مابين صلاة العصر والمغرب . واعلم أن هذين الوقتين تتجلى فيهما عظمة الله وحكمته وآياته الكبرى وعجائبه المدهشة من اشراق الشمس وبهجة ضيائها ونورها وجمالها وجلابيبها السبعة وهى الألوان المشتبكة المتداخلة المشرقة على المخلوقات الأرضية فى الغدوات وهى الحال الأولى . ومن اقبال الظلام واشراق الكواكب التى لا اعداد لها على آفاق المسكونة وأضوائها المشتبكة فى الجوّ . وذلك يوجب للمتأمل عظة وانشراح صدر ومعرفة بعظمة الخالق . واعلم أن ماذكرته لك لا يفطن له أكثر الناس فترى الشمس مشرقة غاربة ذات بهجة فى الحالين وهما المشرقان والمغربان بل ان كثيرا من المصلين وقت الصبح والعصر لا يفكرون فى جمال الشمس فى اشراقها ولا فى غروبها ولا يوجهون أنظارهم الى مايحيط بهم من جمال الله الذى كسا به هذه القبة الزرقاء وغطى به وجه الغبراء وبدل حاليهما كل يوم وكل ليلة فلذلك أعقبه بقوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله فتغشى العادة عليك لتكرار الشروق والغروب وأنت ساه لاه قد أفسد اعتيادهما واطرادهما عليك تفكيرك ولتكن مفكرا ذاكرا متذكرا بتقلب الظلام والضياء عليك خالق الكائنات ومدبر الحركات التى اطردت فى سائر الأزمان بتدبير الملأ الأعلى من الملائكة الذاكرين لربهم عسى أن تلحق بذلك العالم بعد موتك فى جوار ربك (ان الذين عند ربك) مكانة ومنزلة وهم الملائكة (لا يستكبرون عن عبادته) لا يتعظمون عنها (ويسبحونه) وينزهونه عما لا يليق به (وله يسجدون) ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره * روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد

لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة

﴿ لطائف القسم التاسع ﴾

(اللطيفة الأولى)

اعلم أن هذه السورة اشتملت على التحلية وعلى التخلية كما أوضحناه سابقا فالتخلية غلبت فى قصص الأمم الضالة التى أماتها وأزالها من الوجود ماتخلقت به من الظلم والفتك وتطفيف المكيال والميزان وما أشبه ذلك • فأما التحلية فقد تجلت فى مواطن شتى منها وأهمها موطنان ﴿ الأول ﴾ ماجاء فى أوائلها من ذكر أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش وقد فسرت هناك فارجع اليها ان شئت

﴿والموطن الثانى﴾ ماجاء فى القسم التاسع فانه بعدأن ذكر أنه ذرأ لجهنم كثيرا من الجن والانس لا أحلام لهم ولا فكر وجعلهم كالأنعام أخذ يذكر أن له أسماء حسنى • ولاجرم أن الأسماء ذوات مدلولات ومدلولها صفاته سبحانه وتعالى من العلم والقدرة وغيرهما وهذه الصفات لها آثار وآثارها مانشاهد من العالم الجيل الذى نعيش فيه فلذلك أتبعها بعد آيات بقوله — أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم — ثم قال — فبأى حديث بعده يؤمنون — فكأن الأسماء لايراد إلا معناها وآثارها وهذا الانسان جاء فى هذه الأرض لدراسة الآثار حتى يعرف الصفات • وهذه الآثار هى الكون بسائر مظاهره العجيبة وآياته الغريبة • ولذلك ذكر اقتراب الآجال فى هذا المقام وأتى بالاستفهام على سبيل التعجب فقال — فبأى حديث بعده يؤمنون — وبأى سبيل يهتدون اذا لم تكن هذه السبيل رائدهم • واذا لم يمارسوا العلم والحكمة والتغذى بالعلوم فما هى حياتهم ومافضل وجودهم فى الدنيا وماقدر بقائهم فيها • ان الآجال قاطعة فليحذر الناس الفوات وليدرسوا هذه الدنيا ونظمها وعجائبها وغرائبها فان هذه هى الوسيلة لارتقائهم والطريق لسعادتهم وهى أجنحتهم التى بها يطيرون وقوائمهم التى بها يسيرون ومعارجهم التى عليها يعرجون

وان فى ذكر الآجال واقترابها كما قدمنا لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين • وكيف لايكون كذلك وأنت تعلم من هذا التفسير وماتقدم فيه أن العلوم كما تكون معارج الأفراد للارتقاء فى الدنيا والآخرة تكون معارج الأمم أيضا وأيهما حرمها حرم سعادة الحياة • والبرهان على ذلك مانرى من انقطاع حيل المسلمين وضعفهم واستكانتهم للجهالة العمياء بهذه العوالم المحيطة بنا كأنهم ماخلقوا فى الوجود وكأن أعينهم فى غطاء وأسماعهم فى غشاء • ومن المحزن أن يدعى وعاظهم وصغار العلماء فيهم أن الدين لاينظر لهذه العلوم إلا شذرا وذلك من مصائب الزمان والحرمان العام

ومن قرأ العلوم من شبانهم فى أوروبا رجع كليل الطرف وهو حسير ودعا بالويل والثبور على الأديان ومروجيها والعبادات ومتبعيها إلا أفاضل منهم وأهل جد وعقل راجح • فأولئك لهم قدم صدق وهم كثير والحمد لله فى الاسلام •

ولما أشرقت شمس العلوم فى أوروبا وأضاء فى أنحاء الشرق شعاع منها وأتت الى مصر أنوارها أيام المغفور له محمد على باشا وخلفائه حسد الأوروبيون المصريين أهل بلادى على نعمة العلوم وخافوا أن يرجع مجد العرب لسابق عهده ويستردوا مجده الخالد وفخره التالد كما كان فى عصر النبوة • انقضوا على مصر فاحتلوها وانتزعوا العلم منها انتزاعا وأضاعوها • هكذا شأن الفرنجة فى بلاد الاسلام قاطبة اليوم • وجعلوا التعليم فى مدارسها صورة مجوفة أوقبرا مبيضا أو بعرا مفضضا • وقد درست أنا فى مدارس البلاد نحو (٣٠) سنة وأنا أرى التلاميذ يجهلون كثيرا من هذا الوجود بعد أن كان آباؤهم أيام محمد على باشا يدرسون كما تدرس أوروبا • ولما أذاعوا فى العالم أنهم ردوا الى بلادنا استقلالها وكان أغلب المتعلمين قد درسوا دراسة سطحية انجليزية

كتبت مقالا لمجلسى النواب والشيوخ ولدولة وزير المعارف وقد نشرته جريدة المقطم يوم الخميس ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٤ الموافق ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٤٢ تحت عنوان ﴿ مذكرة التعليم الثانوى بالمملكة المصرية ﴾ وستراه ان شاء الله فى المجلد الخامس من هذا التفسير . انتهت اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى — أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ — ﴾

لقد نظرنا نظرات فى هذا التفسير فيما خلق الله من شئ فلننظر نظرة الآن فيما خلق الله فى هـذا العالم ومن أين جاءت الحياة الى الأرض غير ماذكرناه فيما تقدم

اعلم أيها الذكى أن العلماء فى هذا العصر اضطربت آراؤهم فى أصل الكائنات الحية . ومتى خلقت . وهل يخلق الحى من غير حى . وقد قدّروا انها كانت قديمة العهد جـدّا قبل الآن بمائة مليون سنة تقريبا . وأنت تعـلم أيها القارئ مما تقدّم كيف كانت الأرض دائرة حول الشمس ولها أخوات يسرن معها حولها و بينهنّ مسافات معلومة مرسومة فيما تقدّم أيضا . والشمس جاذبة لهذه السيارات . وهذه الأرض والسيارات مركبة من معادن وصخور وموادّ ملتهبة كالتى تتركب منها الشمس . والشمس تزن سبعمائة مرة مجموع الكواكب التى تدور حولها وهى مقدار وزن الأرض ٣٢٤ ألف مرة . وهناك فى السماء عوالم تسمى (السدم) جمع سديم أشبه بسحاب غير ظاهر التكوين وله مركز أشدّ وضوحا مما حوله . فهذه السدم تملأ فراغا وتصنع فيه حركات دورية وهى لم تزل فى حال التكوين . فهذا يفيد أن الشمس وما حولها قد كانت على هذه الحال قديما . وقد وجدوا من هذه السدم ٦٠ ألفا . وقد وجدوا حركات ذلك السديم وتكوّنه شيأ فشيأ وهو دائر حول المركز أشبه بحال سائل فى الاناء كزيت مثلا أدرناه فانه ينقسم الى دوائر وحلقات تدور حول المركز كما تدور السيارات حول الشمس . ثم اننا اذا نزلنا جوف الأرض ارتفعت الحرارة درجة بميزان (سنتجراد) كلما نزلنا نحو ٣٠ مترا وفى عمق مائة كيلومتر تبلغ الحرارة ثلاثة آلاف درجة وهى تحوّل أغلب المواد الى نار ملتهبة . ونصف قطر الأرض يبلغ ستة آلاف كيلومتر . وعليه يكون الملتهب فى باطنها عظيما جدّا كما تقدّم . وهنا يبتدأ الكلام على أصل الحياة

(١) الحىّ يتكوّن من غير الحىّ كما تتولد الفيران وثعابين السمك من الطين ودود الجبن منه . وهذا قول العامّة و بعض القدماء

(٢) الحىّ لايتولد من الجماد ودود الجبن انما هو مخلوق فى الدور الأوّل ليكون ذبابا فهو من نوع الحشرات فقد باض الذباب بيضه ثم صار دودا ثم يصـير ذبابا . وقد بين العلامة (ريدى) و (سومردام) والراهب الايطالى (سبلانزانى) فى القرن السابع عشر فساد تكوّن الفيران والسمك من الطين والدود من الجبن خلافا لقول القدماء

(٣) ان بعض الحيوانات ذات الخلية الواحدة تتولد فى السوائل مثل منقوع الأوراق

(٤) نفى هذا القول وأنكره العلامة (شلس) و (شفان) و (ملن ادوارس)

(٥) المكروبات وهى الحيوانات الدقيقة جدّا التى لاترى تتكوّن من المواد غير الحية

(٦) ونفى هذا القول العلامة (باستور) و (كوخ) بتجاريب لامحل لذكرها

وبهذا ثبت أن الحىّ لايتولد إلا من حى . فمن أين جاءت الحياة

(١) كانت الحياة قبل الآن والأرض ملتهبة وعدم امكان التولد الذاتى الآن لايمنع وجوده قديما . وهذا رأى العلامة (ارنست هيكل)

(٢) أفسد هذا الرأى أن العلماء الباحثين حاولوا بكل الطرق التجريبية أن يحدثوا حياة فلم يفلحوا فهل حال البحار الأولى إلا حالة من الحالات التى نوّعها العلماء بالتجارب

(٣) الحياة لم تأت الآن ولم تأت قديما على هـذه الأرض بل أتت على شكل حيوانات دنيئة وصلت الى الأرض محمولة على قطع صغيرة أوكبيرة من كواكب أخرى فى وقت أن كان الوسط مناسبا وهوقول (رشتر)

(٤) قال (هلمهتز) و (تمسن) و (ارينوس) وأيا قريبا مماتقدم أن الأنواع الدنيئة كبذور الحيوانات الدنيا تنفصل باستمرار من الكواكب وأن ضوء تلك الكواكب وضوء الشمس هوالذى يطرد تلك الجراثيم ويبعدها فى الفضاء وهى محرومة من الماء ومن الهواء وواقعة تحت برد قارس (٢٢٠) درجة تحت الصفر وهذه المقذوفات تصل فى كل لحظة الى الأرض وغيرها ونحن لانراها . هذه الآراء فى أصل الحياة وفيما خلق الله من شئ تريك صورة ماوصل اليه علم العلماء وحكمة الحكماء وفهم العقلاء فى هذا الكون . ولعلك تقول ومافائدة هذه المباحث وما أغراضها . أقول ان هذه المباحث هى التى أمر الله بها لنقف على حقائق الأشياء فان هذه المباحث قد أنارت لنا السبل فعلمنا أن الحى لايتولد إلامن الحى ورأينا كيف خضعت العقول وقهرت النفوس ووقفت الآراء وعجزت عن أصل الكائنات وسر المخلوقات . وهذا يفيدنا أن هناك حياة أرقى ومقاما أجلى وعلما أعلى وبه نفهم قوله تعالى فى سورة أخرى ـ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم ـ وكلما ازددنافكرا زدنا هدى وبصيرة وعلما فنعلم أن الحياة من عالم أرقى من عالمنا ـ وان من شئ إلاعندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم ـ

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله ـ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلاهو ـ ﴾

لقد ذكرنا فى هذا التفسير فيما تقدم مقالات كثيرة فى الحياة بعد الموت فلأذكر لك الآن عجائب من العلم الحديث لتقف على علم العلماء وحكمة الحكماء فاعلم أيدك الله

(١) أن عالما يسمى (لوفنهوك) شاهد سنة ١٧٠١ أن حيوانا يبلغ طوله مليمترا وهو يعيش على الطحلب وعلى السقوف وفى مجارى الأمطار المنزلية لما جففه وأصبح ترابا بقى خمسة أشهر لا أثر للحياة فيه ثم لما غمره بالماء رجع الى الحياة مرة أخرى وأخذ يسعى ويتغذى

(٢) وفى سنة ١٧٤٣ شاهد العلامة (بندهام) وغيره نفس هذا الأمر ﴿ ذلك ﴾ أن الناس يشاهدون بعض حب القمح مصابا بمرض فيكون ضعيفا متغير اللون فلما بحث العلماء هذا الحب وجدوا فيه عجبا عجابا مثل العلامة (بندهام) المذكور وتفصيل ذلك أن هناك حيوانات صغيرة جدا تعيش فى سنابل القمح وتبيض فيها وتفقس ويخرج من بيضها علقات تسبح حتى تدخل تلك الحبات ويكون فى كل حبة من تلك الحبات من عشرة آلاف الى عشرين ألف حيوان فاذا حصد القمح وجف الحب جف هـذا الحيوان فيه فاذا أصابه الماء حييت تلك الحيوانات ثانيا وبعثت من مرقدها وطلبت لها نباتا من القمح تعيش فيـه ولاتزال هكذا حتى اذا ظهر السنبل سمنت تلك الحيوانات وفعلت مافعله آباؤها من قبل

(٣) ولقد اختلف العلماء لما رأوا هـذه العجائب وقالوا أدائمة هـذه الحياة أم هى منقطعة وأعقبها بعث تحيروا وشكوا ورجعوا الى التجارب

(٤) ففى سـنة ١٧٧٦ جرب العالم الراهب الايطالى (سبلترانى) فى حيوانات تعيش فى الماء تجارب كثيرة فانه جففها فانعـدمت معالم الحياة فيها انعداما تاما وجعلها على هيئة تراب مدة ثلاث سنوات وعرضها للبرد الشديد والأشعة المحرقة وبعد ذلك نداها بالماء فرجعت لها الحياة

(٥) وأيضا جرب العالم المذكور حبـة القمح التى تحتوى على أكثر من عشرة آلاف حيوان كما قدمنا جففها كما تقدم ١٦ مرة وبعد كل تجفيف نداها بالماء فرجعت لها الحياة

(٦) وقام العلامة (دوبير) من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٤٢ فوضع بعض تلك الحيوانات المتقدمة فى وعاء فرغ من الهواء تفريغا تاما مدة أيام ثم عرضها الى درجة ١٠٠ أوالى درجة ١١٠ سنتجراد مدة دقيقتين

ولما نداها بالماء رجعت الى الحياة

(٧) ومثله العلامة جفرى سنة ١٨٥٩

(٨) وهذا حذوه العلامة (دافين) جفف دود القمح فصار على شكل تراب أبيض اللون مكوّن من خيوط بيضاء دقيقة جدًا خالية من كل مرونة و بعد أشهر نداها بالماء فحييت وسبحت مع ان الدودة وهى حية لاتتحمل بعض هذا بل تموت . وجفف بعض الحيوانات وحفظها عشر سنوات ولما نداها حييت مع ان حياتها العادية لاتزيد عن بعض أسابيع

(٩) وعلقات القمح المتقدّمة لاتعيش إلا عشرة أشهر فلما جففت عاشت أربع سنوات ثم حييت لما نزل عليها الماء بل جففها (دافين) عشر مرات ثم رجعت للحياة كل مرة

(١٠) والعلامة (بيكر) ندّى علق القمح بالماء بعد ماجف ٢٨ سنة وهذا من المدهشات

من هنا جزم (دافين) و (دويير) بعدهذه الأبحاث التى استمرت الى سنة ١٨٦٠ أن الحياة انقطعت فى هذه الحيوانات انقطاعا تاما . ولكن العلامة (بوستى) قال الحياة مستمرة . هناك عينت الجمعية الحيوية الباريسية لجنة مكوّنة من خمسة علماء تحت رآسة (بروكا) المشرح الشهير فوضعت هذه اللجنة بعض الدواب العجلية مجففة فى الفراغ الجاف أعنى الذى لابخار ماء فيه مدّة ٨٢ يوما متتابعة . ثم بعد ذلك عرّضت تلك الحيوانات الى حرارة مائة درجة مدّة نصف ساعة و بعد ذلك كله رجعت تلك الدويبات الى الحياة بعد التندية

فتعجب أيها الذكى كيف أظهر العلم الحديث أن البعث للا حياء حاصل فعلا وأن حبة القمح فيها آلاف من المخلوقات وأن تلك المخلوقات تموت ثم تحيى متى نزل عليها الماء وكأن حبة القمح التى نراها ضعيفة منحرفة أرضنا التى نعيش عليها وكأن الحيوانات التى فيها هى أنفسنا وأن جفافها ورميها فى الفراغ وتعرّضها للحرارة تارة والبرودة أخرى وجعلها دقيقا أشبه بما يحصل لأرضنا من التفريق والأحوال المختلفة أوان حياة تلك العلقات الكامنة فيها بعد هذه الأحوال العظيمة أشبه بحياتنا بعد موتنا وتعرّض أجسامنا الى أحوال مضنية

فياليت شعرى كيف وصل العلم الحديث الى أن البعث يحصل فى هذه الدنيا وكيف تكذب الجمعية الحيوية فى باريس من ينكر حياة تلك الحيوانات بعد موتها الذى شاهدوه . وكيف يوافق هذا مثات الآيات القرآنية ألم تر كيف يقول الله تعالى ـ وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ـ فانظر كيف جعل خروجنا بعد الموت كحياة الأرض بالنبات بنزول الماء . ولاجرم أن حبة القمح المذكورة اذا نزل عليها الماء بعث الحيوان منها بعد موته . فتعجب كيف كان ظاهر القرآن يفيد أن حياتنا بعد الموت مشبهة بالنبات فكشف العلم الحديث ان فى باطن هذا حياة لحيوان فى القمح بعد موته . ان هذا لشئ عجاب

فليعجب المسلمون كيف أصبح العلم الحديث يفسر القرآن تفسيرا لفظيا بعد أن كان ذلك أمرا تقريبيا بالتشابه . ومن هذا فليفهم العقلاء والحكماء معنى قوله تعالى فى سورة أخرى ـ ويسألونك عن الروح ـ روح الحيوان وروح الانسان وروح كل حىّ على وجه الأرض ـ قل ـ يامحمد لهم ـ الروح ـ ليس من الامور التى يمكنكم معرفتها لأنها ليست من المادّة التى أمامكم فليست تخلق من الطين ولا الهواء ولا الماء ولاهى التى تحصل فى حال خاصة من أحوال المادّة عند تنوّعها كما فعل الكيماويون الذين عجزوا عن توليدها فى المادّة فانقطع علم الخلائق عنها حتى أرجعتموها أيها الناس الى عالم غير عالمكم الأرضى وقلتم لعلها تأتى من كواكب أخرى وكأنكم قلتم انها ـ من أمر ربى ـ لانقطاع علمها عنكم فها أنتم أولاء عجزتم عن علمها وحرتم فى أمرها وهاهى ذه عقولكم عجزت عن معرفتها وحوّلتها الى عالم الضياء ـ وما أوتيتم من العلم ـ بأمر الروح

ـ إلا قليلا ـ من ظواهر كالحياة والحس والحركة والاختيار والارادة والحواس الخمس . أما ماعدا ذلك من أصل منشئها وخلقها ومن أين أقبلت فقد أقررتم بالعجز عنها . وهذه من المعجزات الكبرى لخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ إذ استبان انقطاع العلماء فى هذا العالم عن استقصاء خبرها ومعرفة حقيقتها والوقوف على أسرارها بمثل هذه المعارف المبنية على المشاهدة والتجربة فليرتق المسلمون و بمثلها فليتعلم المجتهدون

و بهذا فليفهم قوله تعالى أيضا ـ فاذا سوّيته ونفخت فيه من روحى ـ وقوله ـ ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه ـ فانظر كيف نسب الروح الى نفسه ايذانا بأنها ليست من العالم الأرضى وانما هى من عوالم فوق المادّة والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

جوهرة مضيئة

﴿ فى ملخص هذه السورة ﴾

ان هذه السورة مكملة لسورة الأنعام مفصلة لما جاء فى آخرها من أن الايمان الذى لايثمر ثمرة ما كالكفر عند الهلاك بغتة فلا ينفع الناس توبتهم عند غرغرتهم وعند النوازل المفاجئة كما تقدّم شرحه . هذا مما فى آخر الأنعام فسورة الأعراف ابتدئ فيها أوّلا بالحروف (ا ل م ص) وقد قدّمنا أن هذه الحروف الأربعة مذكرة بملخص السورة . مذكرة بالتوبيخ فى قوله تعالى ـ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ـ أى التوبيخ على اتباع الهوى الذى اتبعه الانسان وعلى عدم اتباع نصح الناصحين الأمناء وسماع نصح الناصحين الغاشين الأغبياء وقد أشار لذلك هود عليه السلام بقوله ـ ناصح أمين ـ أى بخلاف ابليس فهو غير أمين . ثم أتبع ذلك بالأمر بترك الحرج لما فى السورة من النوازل على الأمم وأممنا مذكرة بذلك معرضة له وأتبعه بزواجر أعقبها بأنه جعل لنا معايش فى الأرض وأن شكرنا قليل وأتبع ذلك قصة آدم وابليس وختمها بقول ابليس ـ ولا تجد أكثرهم شاكرين ـ فهى تبيان للآية قبلها . فاذا كان الناس لايشكرون النعم فسببه أنهم لايسمعون نصح الناصحين و يتبعون خطوات نصح الغاشين المعنون عنهم بأكبرهم ابليس الذى تكبر فلم يسجد فنزل عن مرتبته وأراد أن يجرّ آدم اليها فأغواه فسقط فى الذنب . فابليس ضلّ بالكبرياء وهى القوّة الغضبية وعصى آدم بالقوّة الشهوية . ثم توالت القصص بعدها فقوم عاد بطشوا جبارين وهذه هى القوّة الغضبية كابليس . وقوم صالح عقروا الناقة لأجل الشهوة البهيمية لأنها كانت تقاسمهم بعض رزقهم وهى شهوة البطن . وقوم لوط شهوة الفرج . وقوم شعيب فى المكيال والميزان وهى شهوة البطن وهذه شهوة آدم وحوّاء . وقصة موسى أعمّ مما قبلها . ثم انتهى بقصة الذى آتيناه آياتنا وهى تلخص مامضى كله فان محصلها أن الانسان يعطى علما فيغترّ به فيجره العلم والقربى لله الى استعمالهما فى معصيته فينزل عن مرتبته وهذا بعينه ماحصل لابليس تنزل عن مرتبته الشريفة الى منزلة وضيعة فصار معلما للشرّ . فهذا الذى يسمى (بلعام بن باعوراء) صار ملقنا للشرّ وأصبح كبعض الدول الأوروبية الآن تستعمل علمها فى دسّ الدسائس والحيل السياسية * إذ أرسل النساء (المومسات) الى جيش موسى حتى يضلّ القوم فينهزموا فى الحرب

فهذا بعينه مايفعله أهل الغرب فى الشرق إذ منهم طوائف ينتشرون فى أقطار الاسلام يفسدون نساء الأكابر والفضلاء ويذيعون الفحش ويغرون الشبان بالفسوق . كل ذلك ليوقعوهم فى الفاحشة حتى لا يفتحوا أعينهم لأعمالهم . هكذا شان الفرنجة فى بلاد الاسلام كافة . وهذه عينها مسألة ابليس الذى لما سقط أخذ يغوى الناس ويغرّهم ليكونوا مثله عصاة . فانظر كيف رأيت قصة الذى انسلخ من الايمان رجعت الى أوّل السورة من اغواء ابليس الذى غوى بعد أن كان فاضلا وجر غيره الى الجهالة وأن الذى يعطى الخير والنعمة اذا لم يحترس ولم يفهم بعقله يقال له ـ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة الخ ـ فتشابه ابليس و بلعام

ابن باعوراء فى الكرامة أوّلا والضلال آخرا وانهما ينصبان الاشراك لاغواء الناس • وهذا فيه بيان أن الذى يعطى علما أونعمة فانه أيضا على خطر اذا لم يحترس وهذا يفيدك أن سورة الأنفال والتوبة بعد هذه السورة فيهما الغنائم والغزوات وفتوح البلدان وأن هذا الفتوح خير كما كان علم بلعام خيرا • وكما كان علم ابليس خيرا أيضا ويخاف أن يكون خير المسلمين فى فتوح البلدان يعقبه شرّ بالتخاذل وحب الرآسة فيذلوا بعد عزهم كما ذل بلعام وذل ابليس • ولقد تمّ ذلك كله فان المسلمين بعد أن فتحوا البلدان ووصلوا الى قرب باريس لم يبق بينهم و بينها إلا مسيرة ثلاثة أيام وقفوا ثم تخاذلوا وهكذا رجعوا القهقرى فى أخلاقهم واتبعوا شهواتهم وقام النزاع فى الشرق أيضا بين الأمويين والعباسيين انتهى بفشل الأمّة الاسلامية ووقعنا نحن اليوم فى أسوا الأحوال • ألست ترى أن ابليس الذى تكبر بدرجته الرفيعة و بلعام الذى نال حظوة عند ربه باسم الله الأعظم قد انحطا عن سماء عظمتهما بكبر الأوّل وشهوة الثانى فصار كل منهما يغوى الناس • وهكذا دولنا الاسلامية فتحوا البلدان لنصر الدين كما كان أوّلا ابليس و بلعام صالحين ثم تخاذلت الأمم الاسلامية واتبعوا الشهوات فنلوا للأمم الغربية كما سقط ابليس و بلعام • أليس هذا هو قوله ﷺ فى حديث البخارى ﴿ إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها ﴾ أومافى معناه • إذ قال له رجل يارسول الله أو يأتى الشرّ من الخير فسكت ﷺ حتى تصبب عرقا وهو يوحى اليه ثم أجابه بما يفيد أن خيرات الدنيا أشبه بالمطر والناس يتلقون هذا الخير كما تنتفع الحيوانات بالعشب والكلأ فمنها ما يأكل النافع ومنها مايأكل الضار فتمرض وتموت فاقرأه فى البخارى فان فحواه ماذكرته لك • فعلى هذا يكون فتح البلدان وترادف الخيرات على المسلمين أعقبه السقوط فى مهاوى الشره والعصيان واتباع القوى الغضبية والشهوية فصار الناس فى آخر الزمان تلاميذ ابليس وتلاميذ بلعام بن باعوراء وغير خاف عليك أن ذكر سورة الأنفال والتوبة بعد هذه السورة قد ظهر سرّه فافهم • وملخص هذا كله أنه يقصد نصحنا نحن فأما ابليس وغيره فتلك أمثال لنا ــ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ــ فهنا تجلت القوّة الشهوية والقوّة الغضبية فى الأمم الاسلامية وانحطت عن الأمم كما أنذر الله بهذه السورة واتصفت بما اتصف به عاد من البطش وما اتصف به قوم شعيب من تطفيف المكيال ومن اتباع الشهوات البهيمية كما جاء فى قوم لوط • فهذه السورة انذار للمسلمين الذين قد وقعوا فى جميع ما ذكر فيها • وانى مؤمّل أن هذا التفسير سيكون من المذكرات والمنبهات لهذه الأمم والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم • وختمها بقوله ــ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته الخ ــ أى بخلاف ابليس الذى تكبر فلم يطع الله فالملائكة لايستكبرون عن عبادة الله ولايفعلون مافعل ابليس من الكبرياء والامتناع عن السجود لآدم الذى هو عدم امتثال لأمر الله فالملائكة لايستكبرون وله يسجدون بخلاف ابليس وتلاميذه من جميع الأمم التى ضلت بالبطش فى الأرض أو بالقوّة الشهوية وكان حقّ هذه الأمم كلها أن يطيعوا ربهم كالملائكة ولايعصون كابليس ومن على شاكلته وذلك بعد أن أمر ﷺ بالاستعاذة بالله من الشيطان المذكور فى أوّل السورة و بيان أن الذين اتقوا يتذكرون متى مسهم طائف من الشيطان لئلا يغرّهم نصحه كما غرّ آدم وحوّاء فى أوّل السورة وكما غرّ بلعام وأمثاله من جميع الأمم السابقة وبعد أن أمره أيضا أن يذكر ربه بالغداة والعشىّ ولايكون غافلا فرجع آخر السورة الى أوّلها وردّ عجزها على صدرها وبان كمالها وجمالها والحمد لله رب العالمين

﴿ عقد منظم من جواهر هذه السورة ﴾

(فى الكلام على أن العذاب باتباع الشهوات وترك القوّة العقلية أكثره بالهلاك فى الدنيا قبل عذاب الآخرة)

لقد اطلعت أيها الذكى على ملخص هذه السورة وانها تمثل القوى العقلية كلها • فالشهوات البهيمية والقوى الغضبية يكبحهما ويضبطهما العقل والحكمة التى تنبع بهذا القرآن

وها أناذا فى هذا العقد أبين لك أمرا عجبا ﴿ ذلك ﴾ أن عقاب الأمم يبتدئ بالعذاب فى الدنيا ألا تنظر الى قوم شعيب كيف أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . ولماذا أخذتهم . أخذتهم لأنهم طففوا المكيال والميزان . وحينئذ يقال وماذا ضرر تطفيف المكيال والميزان فنقول . نعم ان القوم اذا فعلوا ذلك أصبحوا مغرمين بأعمال الشر وتمادوا فيه ويستبيح زيد مال عمرو ويأخذ القوى مال الضعيف فتضعف الأمة فتموت واذن يكون هلاك الأمة حتما لازما . ولما وصلت الى هذا المقام جاءنى أحد العلماء واطلع على هذا المقال فقال أوضح هذا المقام وأى مناسبة بين المكيال والميزان وبين خراب الأمم . فقلت له قد بينت وأوضحت . فقال لو أن زيدا اشترى من عمرو قنطارا تمرا أو عنبا أو تينا أو أردبا قمحا وعند الوزن أو الكيل زاد فى وزنه وكيله رطلا أو قدحا . فماذا حصل . حصل أن مال عمرو انتقل منه جزء يسير الى مال زيد خلسة بدون مقابل . فهل هذا يوجب أن تبتلعهم الأرض . فقلت له ان الأمة اذا رسخت فيها هذه الأخلاق أصبحت فيها ملكة فيأخذ الناس المال بالحيلة تارة وبالغصب تارة أخرى وبالسرقة والاكراه ثالثة وهكذا . ولاجرم أن هذا الخلق يقبض الأيدى عن الكسب فتموت الأمة وتذل ويلحقها الدمار والبوار وهذا عذابه يعجل فى الدنيا أولا فالآخرة ـ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ـ . قال ومامغزاه لهذه الأمة الاسلامية اليوم . قلت ان الأمة الاسلامية اليوم قد فعلت أكثر ألف مرة مما فعلت تلك الأمم ولذلك استحقت من الله أن يرسل لها المدافع فتأخذها الرجفة كما جاء فى أول السورة ـ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون ـ فهاهى ذه الأمم الاسلامية اليوم نائمة جاهلة مسترسلة منتظرة فى كل حين أن يأتى لها العذاب من الأمم القوية النابهة المفكرة ليلا أو نهارا كما فى أول السورة . قال ماذا فعلت الأمم الاسلامية . قلت لم تعمل بما جاء فى هذه السورة . يقول الله ـ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون ـ والشكر مستحيل إلا بمعرفة النعمة والمسلمون لم يقرؤا نعم الله التى على هذه الارض فكيف يشكرونها . فقال هذا كلام غامض فأوضحه . فقلت

﴿ مثل أمة الاسلام اليوم مع الله تعالى ﴾

انما مثل أمة الاسلام اليوم مع ربها كمثل عبيد لملك أقطعهم حدائق وجنات فيها نخيل وأعناب ورمان وتين وفاكهة مما يتخيرون وطير مما يشتهون . قال ثم ماذا . قلت وأرسل لهم رسولا من عنده ومعه منشور فيه ﴿ هذه حدائق لكم وهى ملككم ومن أخذ من حديقة جاره قطف عنب أو عذقا من تمر أو قبضة من تين فانى آخذ منه حديقته وأعطيها لغيره وربما أهلكته ﴾ فلما قرؤا هذا المنشور اتبعوه مدة ثم بعد ذلك أخذوا يلعبون ويرتعون ويتركون حدائقهم ولاينزلون اليها الماء ولايسقونها ويكتفون بماء المطر فقيل لهم لماذا تفعلون ذلك فيقولون ان الله حرم علينا أن نأخذ مال غيرنا ولم يحرم علينا أن نترك زرعنا ولا أن نمنع عنه الماء . فقيل لهم لقد أخطأتم ان من يأخذ من مال غيره معاقب مع وفرة المال عنده وعند غيره فيكون من باب أولى اذا تركا معا تنمية المال . فاذا كان الله يعاقب قوما عندهم مال على أن يأخذ أحدهم من الآخر رطلا بطريق التطفيف فأولى ثم أولى اذا كان كل منهما لامال عنده إلا قليلا وقد تركا حديقتهما فلم ينزلا لها الماء فان الخسران هنا أعم وأتم والعذاب يكون أعظم وأعظم لأنهم ضيعوا قناطير وقناطير . فقال وهل فعل المسلمون ذلك . قلت نعم . قال ولم ذلك . قلت لأنهم ملكوا أرض الله فى فلسطين وسوريا ومصر والعراق والهند والصين والسودان وبقية شمال أفريقية . وفى تلك البقاع أنواع المعادن والغابات والأرض الخصبة والمياه الجارية والكهرباء المخزونة والمغناطيس الكامن فى المعادن بالاستعداد والفحم المخزون للناس والبترول . وهناك من النعم مالايحصى . ترك هذا كله المسلمون وناموا فسألتك بالله أيها الفاضل قل لى . هل خلق الله هذه المخازن لنفسه . قال لا . قلت اذن لمن هى . قال لعباده . قلت هؤلاء

هم المسلمون عباده وقد سلمهم مفاتيح أرضه وقال لهم من ظلم منكم عذبته فى الدنيا والآخرة فرأيناهم جميعا تركوا عقولهم ومواهبهم وأرضهم وناموا . فقل لى بربك أيهما أشد خسارة وضرا . رطل عنب وقدح بر فى التطفيف المذكور فى قصة شعيب أم آلاف آلاف من النعم العظيمة من الفاكهة والحب وغيرها ومن الفحم فى الأرض . قال بل الأمر هنا أعظم لأن رطل العنب أوقدح البر خرج من زيد الى عمرو والناس عندهم مال أما هنا فمعناه أن الآلاف وآلاف الآلاف قد خسرها الناس . قلت حينئذ يكون مغزى هذه السورة أن المسلمين اذا تركوا نعم الله التى فى الأرض تعاقبهم الأمم وتأخذمنهم أرضهم أوتهلكهم وتبيدهم

قال وهل هذا يوافق آراء علماء الاسلام . قلت عجبا . أليس هذا كقوله تعالى ـ ولاتقل لهما أف ـ فالولد نهى أن يقول لوالديه ـ أف ـ فقال العلماء ان الضرب يكون محرما من باب أولى فهنا يقال فاذا كان رطل عنب أخذه رجل من آخر فى الاسلام ظلما يوجب ذلك بتكراره وشيوعه عذاب الأمة فى الدنيا فمن باب أولى اذا قعدوا جميعا عن زرع أرضهم فالخسران هنا أشد . ياسبحان الله كل هذه القصص القرآنية رتب فيها خراب الأمم على تقصيرهم فى حفظ نظامهم . اذن القرآن يأمرنا بنظام الأمة . ومن عجب أن يكون أكثر العذاب المذكور فى القرآن دنيويا ويتبعه الأخروى والوعاظ فى الاسلام لايوضحون هذا بل هم لايعلمون . قال فهل نص العلماء على ما تقول . قلت قد أوضحت فى هذا التفسير فى غير موضع أن فروض الكفايات متى تركها المسلمون أثموا . وفروض الكفايات لنظام الأمة وماتحتاجه فى معاشها فما قلته الآن داخل فى ضمن هذا الموضوع وقدأوضحته فى سورة المائدة عند مسألة الغراب وابن آدم فارجع اليه إن شئت . فقال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسيرسورة الأعراف

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع من كتاب ﴿ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ﴾
ويليه الجزء الخامس وأوله تفسيرسورة الأنفال

الخطأ والصواب

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه وهذا جدول بما عثرنا عليه من ذلك

صحيفة	س	الخطأ	الصواب
١٣	١٧	فليس	أفليس
١٣	٢٥	حاليه	خاليه
١٦	٢٧	لطر	لظر
١٦	٣٢	رقى	الرقى
٢٥	٢١	فيها	فيهما
٢٨	١٥	وأحبيه	وأحببته
٣٣	١٩	مختصين	مخلصين
٣٥	٢	مثال	أمثال
٣٧	١١	جرجتم	جرحتم
٣٧	٣٠	هذه	وهذه
٣٧	٣١	وفما	فما
٤٠	٤	يمتنعوا	ليمتنعوا
٤٦	٢٥	و يؤتيه	و يؤنبه
٦٣	١٧	صدرها	مصدرها
٨٩	١	الغربية	العربية
٩٥	٢٩	الذكوو	الذكور
٧٥	١٨	١٨٤٥	١٨١١
٨٤	٢٤	القصنور	القصفور
٩٥	١٩	الذكوو	الذكور
١٠٤	٣٥	وقدكان	قد كان
١٠٤	٣٥	قال ان	وان
١٠٦	١٥	خليقه	خليفة
١٠٦	٣٤	تكاؤنا	تلكؤنا
١٠٧	٣	وعلماء	و بعض علماء
١١٤	٢٦	الانرج	الاترج
١٢١	١٨	يصدقون	يصدفون
١٢٢	٧	قيعلا	فيعلا
١٢٣	٣٥	خاوصر	وخاصر
١٣٢	٢٤	الباس	لباس
١٣٤	٣٣	واذا كان الحرب	واذا كانت الحرب
		داعيا	داعية
١٣٤	٣٣	فليكن	فلتكن
١٤١	٦	للقراءو	
١٤٨	٣	كاتبين	كائنين
١٥٢	٢	ان كانت	ان
١٥٢	١٤	العثنه	العثه
١٥٣	١٦	السلحم	السلجم
١٥٩	٢٤	أثمرات	الثمرات
١٦٢	٤	فيعان	قيعان
١٦٢	١٣	والوزن	الوزن
١٦٣	٣٢	صغارالعلماء	بعض صغارالعلماء
١٦٣	٣٢	وضعاف شيوخ	و بعض شيوخ
١٦٧	٣	تشكرتا	شكرنا
١٦٨	١٦	الطامبه	(الطلمبة) الآلة
١٧٣	٢	بما يناسب الالهية	مايناسب
١٧٧	٩	وانى	
١٧٨	١٨	من الانسان	من أن الانسان
١٨٠	٢٨	من الأوقات	فى الأوقات
١٨٢	٠٥	المادّيين	الماديين
١٨٦	١٢	ونزلكم	وأنزلكم
١٨٩	١٣	فى الفول	فى القول
١٩٥	٠١	والاشـوريين والبابليين	
٢٠١	١١	تمت	ثمت
٢٠٦	١٥	أوخلقها الله	خلقها الله
٢٠٦	٣١	الفتم	الغنم
٢١٤	٢٧	ومن ذا	من ذا
٢١٧	٣	تسبن	نسبن
٢٢٥	٣	القارص	القارس
٢٢٦	٣	حاستى السمع والبصر	حاسة السمع والنطق
٢٢٩	١٧	مسارع	مسارح
٢٣٢	١١	طائعة	مطيعة
٢٣٥	٦	نو	كانوا

﴿ فهرست الجزء الرابع من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ﴾

صحيفة

واقماره

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿تمت﴾